الفرقان

٢٤ - ٢٥

سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

الجزء الرابع والعشرون والخامس والعشرون

سورة فصلت - سورة الشورى
سورة الزخرف - سورة الدخان - سورة الجاثية

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

سورة فصّلت مكيّة

وآياتها اربع وخمسون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ
وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ
الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)
قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ(٩)

وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (١١) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(١٢)

سورة فصلت : حم السجدة . مكية . وآياتها أربع وخمسون

حم فصلت : السجدة هي ثانية الحواميم السبع المكية ، وهنا ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ وفي المؤمن الغافر قبلها وهي أولاها : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وفي الشورى ثالثة الحواميم ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفي رابعتها الزخرف ﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وفي خامستها الدخان ﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ وفي سادستها الجاثية ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وفي سابعتها الأحقاف : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

فثلاث منها تشرك في ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ قد يشركها في أن آيها تحمل عزة من الله وحكمة ام ولسائر القرآن ككلّ ، وواحدة ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

فهكذا الأمر ، واثنتان ليس فيها صفة من هذه أو تلك أمّاذا ، وهذه السجدة تنفرد في ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ قد تلمحان أن آيها تحمل الوصفين وكما في سائر القرآن ، فهذه مواصفات خمس في هذه الخمس ، تصوغ سورها والقرآن كله بعزة الله وعلمه وحكمته ورحمتيه رحمانية ورحيمية ، وفي ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ نجد جمعية الصفات التي تمتّ بصلة للكمال القمة في هذا الذكر من العزيز العليم الحكيم الرحمن الرحيم! خمس في المحور وسائرها تحور حولها.

وهذه من العزائم الأربع «اقرء باسم .. : النجم. ألم تنزيل : السجدة و «حم : السجدة» [1] حيث تجب السجدة عند استماع او سماع آية السجدة فيها.

وفي هامة حم روايات عدة تقول كلمة واحدة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قرء آيا من أولها إلى ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً﴾ أماذا؟ فأعجبت وحيّرت نفرا من الناكرين لرسالته المستهزئين به ، المتهددين له ، فآمن قوم وكفر آخرون [2].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٣٨ ح ٣ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله (عليه السلام) : ...

(٢) من ذلك ما في الدر المنثور ٥ : ٣٥٩ ـ اخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال قال ابو جهل والملأ من قريش قد انتشر علينا امر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فلو التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر فقال عتبة علمت من ذلك علما وما يخفى علي ان كان كذلك فأتاه فلما أتاه قال له يا محمد أنت خير ام هاشم أنت خير ام عبد المطلب فلم يجبه قال : فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا فان كنت إنما بك الرياسة عقدنا الويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت ، وان كان بك الباءة زوجناك عشرة نسوة تختار من اي بنات قريش وان كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ فقرأ حتى بلغ فان اعرضوا فقل أنذرتكم.

ولقد فصلت في فصلت شطرات من الرحمتين ابتداء بالرحيمية الخاصة ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ ... لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾» ومن ثم الرحمانية ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ..﴾ وبعدها خليطة من هذه وتلك ، دمجا برباط كامل شامل لكتابي التدوين التشريع والتكوين ، وأن كاتبهما واحد هو ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾!

﴿حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٣)

هنالك إنزال للكتاب في إحكام : ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وهنا تنزيل للكتاب في تفصيل تجمعهما ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١١ : ٢).

في مرحلة الإنزال الإحكام لم يكن قرآنا يقرء ، ولا عربيا يعرب ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إذ كان نازلا في محطة الوحي : القلب المحمدي ، ولما يبرز في تفصيل ، فلما فصّل في هذه الآيات المفصلات أصبح قرآنا عربيا : لائحا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وبطبيعة الحال غير عربي لا يلوح في حقائقه «لقوم يجهلون» ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ

. صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فامسك عتبة على فيه وناشده الرحم ان يكف عنه ولم يخرج الى اهله واحتبس عنهم فقال ابو جهل يا معشر قريش ما نرى عتبة الا قد صبا الى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك الا من حاجة اصابته انتقلوا بنا اليه فاتوه فقال ابو جهل والله يا عتبة ما حسبنا الا انك صبوت الى محمد وأعجبك أمره فان كنت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد فغضب واقسم بالله لا يكلم محمدا ابدا وقال لقد علمتم أني اكثر قريش مالا ولكني أتيته فقص عليهم القصة فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة قرء ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم﴾ حتى بلغ أنذرتكم صاعقة فأمسكت بفيه وناشدته الرحم فكيف وقد علمتم ان محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخفت ان ينزل بكم العذاب ، وفيه ان ممن سمعها سعد بن معاذ فرجع وقد هداه الله.

إِلَّا خَساراً﴾ (١٧ : ٨٢) إنه في نفسه بيان للناس ، وعربي لا تعقيد فيه ولا خفاء يعتريه ، فإنه داعية العالمين ﴿هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ﴾ ولكنما الواجهة العالمة هي التي تهدي الناس بالقرآن ، والجاهلة المتجاهلة لا تزيدهم إلّا خسارا.

هنالك لتنزيل الرحمن الرحيم تفاصيل عدة تلو بعض ، تفصيل اوّل عن إحكامه هذا حتى برز آيات مفصلات «قرآنا» وتفصيل ثان «عربيا» واضحا حيث ينطق بعضه ببعض ويفسر بعضه بعضا ، في ترتيب التنزيل لبعد واحد ـ : الآيات المتشابهة ببعض ، تفسر بعضها بعضا ، وفي ترتيب التأليف لبعد ثان ، الآيات التي تحتف بها من قبل ومن بعد ، فإنها تساعد في تفصيل معانيها وتكميل مغازيها ، فهما إذا تفصيلان بعد الأول ، ومن ثم تفصيلها بالسنة حيث يفسرها الرسول والأئمة من آل الرسول صلوات الله عليهم أجمعين.

فهذه تفاصيل أربع للناس ، بعد إحكامه الخاص في قلب الرسول ، وكما يسبقه إحكام في علم الله قبل إنزاله على الرسول ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٨٩ : ٤) احكامان اثنان ثم تفاصيل أربع.

أترى ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بماذا تتعلق؟ علّما بكلّ من «تنزيل ـ فصلت ـ عربيا» فرغم أن الكل مبدئيا كافة لسائر المكلفين ، ولكنما التعرف إلى معارفه وتصديقها وتطبيقها ليس إلّا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ على درجاتهم ، فالذي يتجاهل حق القرآن وحقيقته ليس هو له عربيا لائحا فلم يفصّل له ، ولم ينزّل ، إنما ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾.

والذي يؤمن به ولكنه لا يتخطى مداخل تفهمه ومخارجه وهو يهوى

تفسيره بغير هدى أو أثارة من علم ، ليس له عربيا ولا فصلت له آياته ، وقد يصبح القرآن لهؤلاء وهؤلاء ضلالا ولا يزيد إلّا خسارا وملالا.

والذي يعرف مفاتح تفسيره ولكنه لا يطبّقه ليس له عربيا كما يحق ، حيث العمل بالقرآن مما يساعد على تفهمه ، فلكل من مراتب العلم حظ من درجات القرآن ، وللجاهل المتجاهل المتعنت دركات.

ثم وفي «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» استجاشة لكافة القدرات العلمية واستنهاض للعلماء ان يكرسوا طاقاتهم للحصول على الأكثر فالأكثر من معاني آي الذكر الحكيم ، مستنبطين متشابهه بمحكمه ، ومجملة بمبيّنه ، فحاصلين على العبارة ثم الإشارة ثم الطائف ومن ثم الحقائق ، دونما نظرة بيان في هذه السبيل سوى بيانه ، فإنه النور المبين وما بال النور يستنير بنور سواه ام بنور سواه ، اللهم إلّا استيضاحا من السنة القاطعة متطرقة طريق الدلالة صريحة وظاهرة.

فلا تعني عربية القرآن إلّا جزالة بيانه ووضوح تبيانه وبرهانه ، وإن كانت تزيد في عربيته تفهما عربيته لغويا.

«بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ»(٤).

«تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» «.. بَشِيراً وَنَذِيراً» «كتاب» :

«بَشِيراً وَنَذِيراً» «فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» : «بَشِيراً وَنَذِيراً» للعالمين : من يعلمون ومن لا يعلمون «فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ» وهم الذين لا يعلمون «فهم» بإعراضهم عن هذا الذكر العظيم جاهلين أو متجاهلين «لا يسمعون» «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ» «لا يسمعون» بآذانهم مخافة الانتباه ، لحد «خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ» فإذا سمعوه بآذانهم لا يسمعون بعقولهم وقلوبهم ، فإنه قول محطّته الأنفس : «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً» (٤ : ٦٣).

﴿وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ﴾(٥).

أعذار ثلاثة زعم أنها تعذرهم عن سماعه ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ إمعانا في العناد وتيئيسا للرسول ليذرهم كما هم فيذروه كما هو :

﴿قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾ . ﴿وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ﴾ (٢ : ٨٨). ترى وهم صادقون في أكنة قلوبهم؟ أجل! ولكنها امتناع باختيارهم إذ كفروا وأصروا واستكبروا ﴿وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً﴾ (٦ : ٢٥).

﴿وَفِي آذانِنا وَقْرٌ﴾ ثقل عن الاستماع والسماع ، وإذا اعترض أسماعهم فلا يصل إلى قلوبهم لأنها في أكنتها.

﴿وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ﴾ نحن لا نفهمك وأنت لا تفهمنا لاختلاف المبادئ فيما بيننا وبينك ، وسدّ المداخل إلى قلوبنا ، والأكنة جمع كنان وهو الستر والغطاء كعنان وأعنّة وسنان وأسنّة ، وقولتهم هذه خارجة مخرج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه او يستمعون من قوارع القرآن ، وبوارع البيان ، فكأنهم من قوة الزهادة فيه وشدة الكراهية له ، قد وقرت أسماعهم عن سمعه وأكنّت قلوبهم دون علمه ، وقد أكنها الله وأوقرها جزاء الاكتنان والتوقر.

إن الأسماع هي مداخل القلوب تعي ما سمعت وتسمع ما وعت ، فإذا كانت القلوب في أكنّة ، لا تدخلها الذكرى وإن كانت الآذان تسمع ولكن ﴿فِي آذانِنا وَقْرٌ﴾ إذا ـ فقلوبنا بعد في بعدي الكنان ، ثم ﴿وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ﴾ يعم كنان القلوب ووقر الآذان إلى عمى الأبصار وتعطل الحواس أمّاذا من مداخل الأعضاء إلى القلوب ، وقد تعني «من» أن الحجاب مبتدء منا ومبتدء منك ، فهو إذا حجابان ذاتيان ، لا حجاب واحد

في هذا البين ، منفصلا عنا ، فاصلا بيننا ، فالمسافة المفاصلة بيننا وبينك مستوعبة بحجاب ، دون إبقاء على جزء هو خلو من حجاب.

إذا ففي ثالوث المفاصلات بيننا وبينك لا تفيدك الدعوة ولا إيانا «فاعمل» كما تشاء ما تشاء تجاهنا في شأنك ﴿إِنَّنا عامِلُونَ﴾ تجاهك ما نشاء كما نشاء وفي شؤوننا ، أذان منا إليك لحرب شعواء عشواء ، وبلاء لأواء ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ﴾!

«فاعمل» في حجابك عنا ﴿إِنَّنا عامِلُونَ﴾ في حجابنا عنك ، فكل يعمل على شاكلته ، ثم «فاعمل» في إبطال أمرنا ﴿إِنَّا عامِلُونَ﴾ في إبطال أمرك ، «فاعمل» كما تستطيع في دعوتك سلبا وإيجابا ﴿إِنَّنا عامِلُونَ﴾ كما نستطيع ، فقد وقعت المفاصلة التامة ثم لا يرجى تأثير أية دعوة.

أتراهم صادقين فلا يمكنهم الاهتداء بما كفروا وختم الله؟ لقد صدق البعض وهم الذين ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ ..﴾ وكذب الآخرون ، فنجى الكاذبون [1] وهلك الصادقون!.

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦ ـ اخرج ابو سهل السري ابن سهل الجنديسابوري في حديثه من طريق عبد القدوس عن نافع بن الأزرق عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب في قوله ﴿وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ ..﴾ قال : أقبلت قريش الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال لهم ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب فقالوا يا محمد ما نفقه ما تقول ولا نسمعه وان على قلوبنا لغلفا وأخذ ابو جهل ثوبا فمد فيما بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا محمد! ﴿قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ ..﴾ فقال لهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أدعوكم الى خصلتين ان تشهدوا ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واني رسول الله فلما سمعوا شهادة ان لا اله الا الله ولّوا على ادبارهم نفورا وقالوا اجعل الآلهة إلها واحدا ان هذا لشيء عجاب وقال بعضهم لبعض امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق أأنزل.

وهذا نموذج مما كان يواجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته على طول الخط ، ولكنه ليس ليكفّ عن الدعوة او ييأس من تيئيسهم ، وليس ليجيب عن قولتهم الهباء الخواء إلّا بيانا لكيانه بالوحي :

﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾(٦).

آية لا ثانية لها في سائر القرآن إلّا التي في الكهف إلّا في ذيلها ﴿.. فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (١١٠) [1].

إنني لا أحمل من بشريتكم إلّا ظاهر القالب ، وأما باطن القلب فإنه ﴿يُوحى إِلَيَّ﴾ دون قلوبكم المقلوبة الخاوية ، غير المهدية بهدى الوحي ، فأنا وحي في الفطرة والعقل والصدر والقلب والفؤاد واللب أماذا من جنبات الروح ، وأنا اكمّل بالوحي ما قصرتم او قصّرتم!

﴿أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أماثلكم في القلب ومداخله ومخارجه ، ولا أفاصلكم

. عليه الذكر من بيننا ، وهبط جبرئيل فقال يا محمد ان الله يقرؤك السلام ويقول أليس يزعم هؤلاء ان على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقر فليس يسمعون قولك ، كيف وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفورا لو كان كما زعموا لم ينفروا ولكنهم كاذبون يسمعون ولا ينتفعون بذلك كراهية له ، فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلا الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا يا محمد! اعرض علينا الإسلام فلما عرض عليهم الإسلام اسلموا عن آخرهم فتبسم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الحمد لله ألستم بالأمس تزعمون ان على قلوبكم غلفا وقلوبكم في اكنة مما ندعوكم اليه وفي آذانكم وقرا وأصبحتم اليوم مسلمين ، فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كذبنا والله بالأمس لو كان كذلك ما اهتدينا ابدا ولكن الله الصادق والعباد الكاذبون عليه وهو الغني ونحن الفقراء اليه.

(١) راجع تفسير الآية الى الكهف تجد تفصيلها فيها فلا نعيدها هنا.

تلك المفاصلة التي تجعل من بيني وبينكم حجابا ، وفي قلوبكم أكنة وفي آذانكم وقرا ، فلا أفهمكم ولا تفهموني ، لا أتحملكم ولا تتحملوني!

لا! أنا بشر كما أنتم ، أسمع وأبصر وأحس كما أنتم ، وأعي بقلبي ذاتيا ومن مداخله كما أنتم ، إلّا أن قلبي أوعى من قلوبكم إذ ﴿يُوحى إِلَيَّ﴾ دونكم ، وليست هذه المفاصلة بفاصلي عنكم ، وإنما هي مواصلة أخرى فيما لا تنالون بكامله ، وإن كنتم تنالونه دون كامله ﴿أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ فلا حجاب بيني وبينكم إلّا منكم ، ولا كنان عما أذكّركم إلّا على قلوبكم منكم ، ولا وقر لما أسمعكم إلّا في أسماعكم منكم ، ثم من الله جزاء وفاقا : ﴿وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً﴾ (٦ : ٢٥) ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ﴾ (٢ : ٨٨)! ﴿ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ فأنا بشر كما هم وأنتم ، ولا بدعا فيما ادعو ف ﴿إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ كما الرسل كلهم ، وهو قضية الفطرة والعقل وكافة البراهين حسية وعقلية ، فلما ذا الحجاب بكنانه ووقره أماذا؟ ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ استقامة على قضية العقل والفطرة ، والعدل في القوامة والفضيلة ، دونما اعوجاج عنها ولا ارتتاج ، ثم الاستقامة «إليه» لا «له» فليس هو المستفيد من تلك الاستقامة ، وإنما هو المفيد المستقيمين إليه ، القاصدين سبيله «إليه» لا زمانا ولا مكانا ، وإنما مكانة وإمكانية في بعدي التكامل شرعة وتطبيقا «واستغفروه» عما يبعدكم عنه ويضلكم عن سبيله ـ : ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ..﴾.

﴿الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(٨).

المشرك بالله ـ بطبيعة الحال ـ لا يدين بدين الله فلا يؤتي الزكاة زيادة مالية على أية حال ، فإنها مطلق الزيادة ولا سيما قبل نزول آيات الزكوة

الخاصة ، والآية من أقدم المكيات ، ولما تفرض هذه الزكوة ، ولا يؤتي الزكوة حاليا أن يزكى نفسه كما تقول شريعة الله ، فلا له أموال زاكية ولا أحوال زاكية ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾ فهم لمثلث الزمان هم خاسرون ، وأما حاله الدنيا فلا يزكيها لا مالا بتعطفه على عباد الله ، ولا حالا في انعطافه بنفسه تقربا إلى الله ، وأما مستقبله فهو كافر بالآخرة ، فهو ناكر للمبدء والمعاد وبينهما يعيش نكران الشرعة الحاكمة بين المبدء والمعاد ف «ويل لهم» بدء وعودا ، ويل لهم في أولاهم وويل لهم في أخراهم!

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله واليوم الآخر وبشرعة الله حيث تزكى أحوالهم وأموالهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ التي تتجاوب وإيمانهم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ولا مقطوع عطاء غير مجذوذ ، لأنه قضية فضل الله ، فليست له نهاية مهما كان الويل للمشركين ممنونا مقطوعا حين تخمد النار ومن في النار لأنه قضية عدل الله فله نهاية.

﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (١١) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(١٢).

آيات أربع من «فصّلت» هي منقطعة النظير في سائر القرآن بما فصّلت من أيام الخلق بين السماوات والأرض بعد إذ أجملت في آياتها

السبع [١] ولكنها تركت إجمالات بعد تفصيلاتها مما حيّرت ألباب الباحثين عنها فأصبحت معترك الآراء المتضاربة ، وقد توضحها هي بنفسها عند التأمل اللائق بها فيها ، والآيات التي تناظرها فتناصرها في إيضاح ما أجمل منها ما أجملها ، دون أن نمشي في تفسيرها مكبين على وجوهنا ، لاجئين في دراسة القرآن إلى نظريات العلماء القابلة للتبديل أو التعديل ، فلا نحمل على القرآن ما لا يتحمله من توجيهات ، أو هو ساكت عنها ، وإنما نستنبط من نصوصه وظواهره مشيا على صراط مستقيم ، حيث القرآن هو الإمام

---

(١) السبع هي التالية :

١ . ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ (٧ : ٥٤).

٢ . ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٥٧ : ٤).

٣ . ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ...﴾ (١١ : ٧).

٤ . ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٠ : ٣).

٥ . ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ (٢٥ : ٥٩).

٦ . ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٢٥ : ٣٩).

٧ . ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٣٢ : ٤).

الذي لا بديل عنه. ولا دليل أوضح وأتقن منه ، فهو ـ فقط ـ المحور وسائر الأنظار حائرة حوله ، نصدق منها ما صادقه نصه دون تمحّل ، ونرجّح ما يصادق ظاهرا منه ثابتا متظاهرا بتفسير منه ، ونضرب عرض الحائط ما يخالفه نصا أو ظاهرا جليا أم لا يوافقه!

هنالك تساؤلات حول أيام الخلق ماهية؟ وما هما اليومان تارة لخلق الأرض ، وأخرى لتسبيع السماء ، وما هي الأربعة بينهما ولماذا هيه والجمع ثمانية؟ أو قد يزيد عليها يوم لأقل تقدير نصيبا مفروضا لخلق الدخان. فأين الثمانية او التسعة أما هيه؟ واين الستة الثابتة بآياتها السبع؟ ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾؟.

ثم ومن ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ نتلمح كصراحة أن خلق الأرض كان قبل السماوات بمرحلة ، فهو قبل خلق الأنجم في السماء الدنيا بمرحلتين ، فهي ـ إذا ـ قبل الشمس المخلوقة مع الأنجم ، وقد تنازع ذلك السبق آيات النازعات : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها. رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها. وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها. أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها. وَالْجِبالَ أَرْساها. مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ﴾ (٢٧ ـ ٣٣).

وعلى ضوءها النظريات العلمية القائلة أن الأرض هي من مواليد الشمس المنفصلة عنها ، المستضيئة منها! ومن ثم فما ذا تعني ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ﴾ من الإستواء ومن الدخان؟ وما هي المقاولة بين رب العالمين والأرض ودخان السماء؟ وما هو إتيانهما طوعا أو كرها وقولهما : ﴿أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ وإلى م يرجع ضمير الجمع في «فسواهن» ولا يسبقه جمع؟ وما هو الوحي في كل سماء ، دون إلى كل سماء أم لكل سماء؟

ما هو اليوم؟.

اليوم في مطلق ما يعنيه هو واحد الزمان حقيقيا أو نسبيا ، فالواحد الحقيقي هو واحد الحركة في المادة الاولية ولا يعلمها إلّا الله أو من علّمها إياه ك ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٥٥ : ٢٩).

والنسبي ـ فيما نعرف ـ يعم اليوم الإلكتروني وهو مقطع من الزمان للدور الإلكتروني حول شمسها البروتوني ، وسنته ١ / ٠٠٠ ، ٥٠ ثانية أرضيه .. ثم اليوم الأرضي نهارا أم بليله كما في آيات قد لا تعدو عشرين [1] بين الآي التي تحمل اليوم وهي تذرف أربعمائة وتسعة وأربعين.

ثم أيام عمر الإنسان طفولة وكهولة وشيخوخة ، إلى ايام السلطة لآل فلان وفلان ، إلى يومي الدهر ف «الدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر» وإلى أيام عمر الكون منذ البداية حتى الآن ، وإلى يوم القيامة ، وإلى ايام السنة الأربع وهي فصولها التي يتقدر فيها الأرزاق كلها ، وإلى الأيام النجومية ، ثم الأيام الكونية التي خلقت فيها السماوات والأرض ، وقد تعد يوما واحدا بحساب المجموعة : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ..﴾ (٩ : ٣٦) حيث اعتبرت الستة يوما واحدا ، والأيام التكاملية للأرض والسماوات بعد خلقهما ، أمّاذا من أيام ابتداء من ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وانتهاء إلى يوم الكون كله منذ خلق حتى النهاية ، وبينهما متوسطات من هذه وسواها [2].

إن الأيام المذكورة في آيات التقسيم ليست هي الوليدة عن دوران

---

(١) وهي الآيات ٢ : ٢٠٣ و ٣ : ٤١ وأضرابهما.

(٢) راجع ج ٢٩ : ١١٦ ستجد تفاصيل لليوم على ضوء آية المعارج.

سورة فصّلت مكيّة ٢١

فجعل الاربعة تتمتها بعد اليومين. على مشاكله العدة. لا يغني عن المناقضة بين الستة والزائدة، فإن يوم الدخان يجعلها سبعة! أم يزيد يوما لتزيين السماء الدنيا بمصابيح فرجعت ثمانية!

أم إن الأربعة لا تمتّ بصلة لأيام الخلقة، إذا فهي الفصول الأربعة لدور السنة حيث تقدر فيها أقواتها كل سنة [1]؟ وفي ذلك التوجيه العضال إهمال أمرين من الثلاثة المتقدمة على الأربعة: ﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها﴾ بإشغال الثالث فقط.: ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾ أنها متعلّق الظرف ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ دونهما، فلا هما ضمن «يومين» كما الثالث إذ ليسا من أصل الخلق ولم يذكرا قبل يومين، ولا ضمن الأربعة إذا اختصت بالثالثة، ولماذا ذلك الإختصاص؟ وذكر أيام بعد أفعال متتالية يقتضي الشمول بطبيعة الحال!

ثم اللفظ الصحيح الصريح لهذا الإختصاص ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَجَعَلَ فِيها.. وَبارَكَ﴾ بعدا عن أي التباس، وكما نراه في تسبيع السماء: ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً..﴾ حيث خرج الوحي والتزيين عن يومي تسبيع السماء!.

---

(١) نور الثقلين ٤: ٥٣٨ تفسير علي بن ابراهيم أخبرنا احمد بن إدريس عن احمد بن محمد عن ابن محبوب عن أبي جميلة عن ابان بن تغلب قال قال لي ابو عبد الله (عليه السلام) يا ابان. الى ان قال.: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني في اربعة اوقات وهي التي يخرج الله عز وجل فيما أقوات العالم من البهائم والطير وحشرات الأرض وما في البر والبحر في الخلق من الثمار والنبات والشجر، وما يكون فيه معاش الحيوان كله وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء...

أقول: انها رواية يتيمة في تفسير الأربعة بالفصول الأربعة، فقد تطرح او تؤول بأنها ضمن المعني من الأربعة.

أم إن الأربعة هي الأدوار التكاملية الأرضية بعد خلقها ، ذكرت هنا لأفعال ثلاثة ، وأجملت في تكملة السماء عن فعليها ، فلا هما ضمن اليومين لتسبيع السماء ، ولا ذكر لهما يوم؟

إن ذلك لحق تنطق به الآية نفسها ، ففيها خلق للأرض ، وفيها دون ذلك مما في الأرض ، والكل قبل تسبيع السماء : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢ : ٢٩) والأيام الستة في آياتها السبع تخص أصل الخلق دون ما فيه!.

وقد تعم ﴿قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ الفصول الأربعة دلالة ضمنية تتحملها الآية وتؤيدها الرواية ، ف ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ تتعلق أصالة بالثلاثة تكملة للأرض ، وبالأخيرة ، الفصول الأربعة بعد التكملة.

إذا فالمذكورة من الأيام الستة لخلقهما ليست هنا إلّا الأربعة ، واليومان الآخران علهما لخلق الدخان ، أم يقتسمان بينه وبين خلق الأنجم في السماء الدنيا ، أمّاذا من محتملات علّنا نستعرضها.

فالنتيجة الحاسمة المجتثة لجذور المحتملات الدخيلات أن خلق الأرض كان قبل تسبيع السماء ، فهو ـ إذا ـ قبل الشمس بمرحلتين إذ خلقت مع سائر الأنجم في السماء الدنيا بعد تسبيعها.

ترى هذه هي الأرض خلقت في أصلها قبل الشمس دون انفصال عنها ، فما ترى في تكملتها الثلاث في أربعة أيام ، هل هي كما الأرض مدبرة لها بعد يوميها وقبل يومي السماء؟ وآيات النازعات تؤخر ماءها ومرعاها عن بناء السماء! هنا محكمات في تقديم ما في الأرض كما الأرض ، وأخر متشابهات

ترجع إلى هذه المحكمات : . فآية البقرة تجمعهما في تقدّمهما على السبع السماوات : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ ..﴾(٢٩) [١].

وآية فصّلت فصّلت ما في الأرض أن ﴿جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ .. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ ..﴾.

وآيات النازعات هنا متشابهات في جهات محكمات في أخرى ، فإنها تصرح أن دحو الأرض فإخراج ماءها ومرعاها وإرساء جبالها ، هي كلها بعد بناء السماء ، دونما تصريحة ولا إشارة أن خلق الأرض بعد بناء السماء ، ثم تبقى الأفعال الثلاثة الأخرى المتشابهات بين فصلت والنازعات [٢].

فهل إنها كما الأرض قبل تسبيع السماء ، أم هي ـ فقط ـ بعده وخلقها نفسها قبله.

وهنا تشابه في بناء السماء هل هو تسبيعها؟ فالثلاثة إذا بعده ، أم بناء لها من دخانها قبل سبعها؟ و ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ .. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ قد لا تفسح مجالا لبناء ثان ، فإن القضاء سبعا مبدءه ـ فقط ـ الدخان ، لا شيء ثان! أم إنه بناء الدخان أولا ثم بناء ثان هو ، ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾؟ والدخان ليس فيه ماء ينزل على الأرض ، مع العلم أن مياه الأرض كلها من السماء!

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٢٩٢ ح ١٢ تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين ان الله جل ذكره وتقدست أسماؤه خلق الأرض قبل السماء ثم استوى على العرش لتدبير الأمور.

(٢) في فصلت «وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ ... وفي النازعات «أَخْرَجَ مِنْها ماءَها» مهما اختلف الترتيب بين الثلاثة هنا وهناك.

أم إن الثلاثة في النازعات متأخرة عن ثلاثة فصلت ، تأخر البارز عن الكامن ، فقد ﴿جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها﴾ قبل بناء السماء ﴿وَالْجِبالَ أَرْساها﴾ بعدها ، ثم ﴿وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾ بنزول تراكيب الماء من دخان السماء ولما تصبح بالفعل بركات وأقوات ، إذ كانت مخبيّات ، ثم ﴿أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها﴾ بعد بطونها وكمونها ، إذا فالثلاثة هي قبل بناء السماء دخانا أم سبع سماوات ، كامنة في الأرض ، وهي بعد ذلك ظاهرة ، وكما ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ وهي الحركة المعتدلة التي هيأتها لفعلية الحياة ، وقد كانت شموسا في حراكات غير معتدلة.

ولأن ﴿قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾ قد تعني ـ فيما عنت ـ أقوات الفصول الأربعة ، لذلك فمن هذه الثلاث ما هو متأخر عن تسبيع السماء ، كما منها المتقدم عليه ، ونحتمل أخيرا ـ بناء على وحدة الثلاثة في فصلت والنازعات ظهورا وكمونا ـ أن للسماء بنائين اثنين بعد دخانها ، بناء اوّل انتج ﴿رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها. وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها﴾ وهي تعديل لها وتحريك عن حرّ الى قرّ لحدّ إنزال الماء ، وبناء ثانيا هو تسبيعها ، فآيات النازعات تعني البناء الأول إذ لم يذكر ضمن أفعالها الثلاثة تسبيعها؟ وآية فصلت تعني البنائين مع بعض ، ودحو الأرض وإخراج ماءها ومرعاها وإرساء جبالها كان بين البنائين!.

إذا فلا تنازع بين آيات فصلت والنازعات إلا تشابهات ترجع إلى محكمات والله اعلم بما أنزل من محكمات ومتشابهات.

وأمّا نظرات العلماء في انفصال الأرض عن الشمس ، فإنها على كونها فرضيات لم تصل لحد القانون العلمي القاطع ، ليست لتعارض صراح الآيات أنها خلقت قبل الشمس بمرحلتين ، وقد أثبت العلم أخيرا استحالة

الواقعية لهذه الفرضية لاختلاف جرمي الأرض والشمس شاسعا يحيل تولد إحداهما عن الأخرى [١].

(١) الفرضيات حول تشكيل المنظومة الشمسية كالتالية :

١ ـ فرضية التصادم ل : بوفون الفرنسي ١٧٤٩ م.

انه يذكر في كتاب له بين (٤٤) كتابا ألفها في التاريخ الطبيعي ويقول حول تشكل المنظومة الشمسية : «الأم الكبرى للعائلة الشمسية كانت تحمل أولادها لزمن مجهول ، ثم أخذت في ولادتها ، وكلّف كوكب من ذوات الأذناب لإيلادها فضربت بنفسها الشمس في سرعتها الهائلة فتقاطرت منها قطرات ، وهذه المواليد الحائرة أصبحت تدور حول أنفسها على أثر هذه الضربة الهائلة فأصبحت عائلة لأمها الشمس.

٢ ـ الفرضية الحلقوية او السحابية ل «كانت» الآلماني ٢٠ ـ ٣٠ بعد بوفون : أبطل كانت باستدلالات واستبعادات فرضية التصادم ومنها أن كوكبة صغيرة لا تقدر في صدامها مع الشمس أن تفصل عنها جذوات تصبح كرات ، فهذه الفرضية بعيدة في عالم الفرض ... وسائر الأدلة المذكورة في محالها. ثم يشرح فرضية الحلقوية بان الشمس كانت في البداية كتلة وسيعة من الغازات المعتدلة الشاغلة للمنظومة الحالية ، وكانت تحول حول نفسها بهدوء فانتقلت مقادير من حرارتها على أثر التشعشعات إلى الأجواء المحيطة بها فانتقصت بذلك حرارتها فانقبضت وتراكمت لحد كثير فزادت حركتها الدورانية فخلقت هذه السرعة زيادة في فرارها عن مركزها وعلى اثرها تسطّح قطبها وانقطعت منها حلقات سقطت على الصفحة الاستوائية ثم تكسرت هذه الحلقات وتراكمت وتحولت عن الحلقات الغازية الى كرات المنظومة الحالية.

٣ ـ فرضية «لا بلاس» الفرنسي ١٧٩٦ م :

لا بلاس يأخذ الفرضية الحلقوية بعين الإعتبار (في كتابه عرض الجهاز العالمي) وعرضها مرة ثانية بشرح أوسع ووجه أبدع ولكنه لم يكن لوقت ما يستدل له بادلة رياضية ـ : ثم ـ كلارك ماكس ول ـ بعد ستين سنة من هذه الفرضية ـ أخذ يجدد النظرية فيها بدقة ووصل الى النتيجة التالية :

أن تقبل هذه الفرضية يستلزم قبول تناقضات عدة ...

ولحد الآن أصبح الفرضيتان الحلقوية والتصادم مقبورين تلو بعض ، ومن ثم أخذ. جمبرلن ـ مولتون الامريكي ، وسرجس جنس الانجليزي يجددون حياة فرضية التصادم مرة أخرى ، ولأنها لم ـ

هذا ـ وإلى رجعة تفصيلية بحثا دقيقا عن آية التقسيم :

كيف خلقت السماوات والأرض؟ ومم خلقتا؟ ومتى خلقتا؟ أسئلة تطرح نفسها وإليكم إجاباتها :

ـ تكن مثل الحلقوية تشتمل على تناقضات ، وفي هذه الرجعة وهي ترث الفرضية السحابية طرد عنها بعض الاستبعادات التي كانت عليها ، فالسيارة ذات الذنب هنا أصبحت ثابتة وجرمها كالشمس لكي تستطيع بصدامها مع الشمس على فصل قطرات منها.

ولكنها رغم هذه الرجعة لم تعد قابلة للقبول ، حيث الأصل المفروض فيها وفي زميلتها مظنة المشابهة بين عناصر الشمس وسيارات المنظومة ، فما ذا بعد إذا اختلفت العناصر هنا وهناك اختلافا شاسعا.

هنا «ويززيكر» الالماني في كتابه (سر الخلقة) يتبنى تشكل المنظومة على مبنى العناصر التي تشكل الشمس وسائر المنظومة قائلا : إن الفيزيا النجومية كشفت عن اختلاف العناصر بين الشمس وسائر المنظومة.

ثم «شترومكرن» بعد تأمل زائد حول كيفية هذه العناصر حصل على نتيجة : أن ٣٥٪ من جرم الشمس يتشكل من خالص الأوكسيجين ، ومن ثم تبين انه ٥٠٪ وقسم كبير منها هليوم.

ثم «شوارتس شيلد» استمر في تكامل هذا المبنى ، وعلى اثر التجزئة الدقيقة الطيفية من سطح الشمس أنتج أن الشمس تشتمل ـ فقط ـ على ١٪ من العنصر الارضي و ٩٩٪ منها مركب من نيدروجين بكثرة وهليوم بقلة.

هذا آخر ما انتجته التحقيقات حول عناصر الشمس وسائر المنظومة ، مما يحيل حسب العادة انفصال الأرض وسائر المنظومة من الشمس.

ومن لباب العجاب ان «ويز زيكر» وهو أول كاشف لاختلاف العناصر يرتجع إلى فرضيتي كانت ولا بلاس موجها ذلك الاستبعاد ان الحلقات المنفصلة عن الشمس علّها من ١٪ من جرمها المشابه لأجرامها ، حيث الشمس كانت مائة أضعاف حجمها الفعلي وعلى أثر الحركة الدورانية انفصلت عنها ـ فقط ـ العناصر ال ١٪ التي تشكل الأرض وسائر المنظومة.

هنا نعرف مدى بطلان هذه الفرضيات ، وصحة البيان القرآني الناصع ، أن لا صلة بين الأرض والشمس إلا في المادة الأم «الماء» وان الأرض متقدمة على الشمس في اصل تكونها ، وان كانت تستضيىء منها حال اعتدالها الحيوي الحالي.

المادة الاولية لخلق الكون «ماء»؟!

آية يتيمة وحيدة في القرآن تتكفل بيانا مجملا لأم الكون اجمع : المادة الأولى التي خلقت منها السماوات والأرض وما بينهما : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (١١ : ٧) وبيانها الفصل راجع إلى موضعه في «الفرقان».

«كان» هنا تضرب إلى أعماق الماضي البعيد لكينونة «الماء» قبل خلق الأرض والسماء ، فليس ـ إذا ـ هو الماء المتولد عنهما وفيهما حيث خلقهما «و» الحال أن ﴿كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ﴾.

والعرش فيما يعنيه من معانيه هو السلطة والبناء ، وقد كانت سلطته التدبيرية قبل خلق الأرض والسماء على الماء إذ لم يكن دونه كائن ، وكان بنائه سائر الخلق على الماء إذ لم يخلقهما دون مادة سابقة.

وقد وردت في بعد هذا الماضي لكينونة الماء رواية ما أرواها واروعها عن الإمام امير المؤمنين (ع) تضرب إلى مليارات من سنينا والله اعلم [1]

---

(١) في تفسير البرهان ٢ : ٢٠٨ عن تفسير العياشي سئل امير المؤمنين (عليه السلام) عن مدة ما كان عرشه على الماء قبل ان يخلق الأرض والسماء فقال : تحسن ان تحسب؟ فقال ـ السائل ـ نعم فقال (عليه السلام) لو أن الأرض من المشرق الى المغرب ومن الأرض إلى السماء حب خردل ثم كلفت على ضعفك ان تحمله حبة حبة من المشرق الى المغرب حتى أفنيته لكان ربع عشر جزء من سبعين جزء من بقاء عرش ربنا على الماء قبل ان يخلق الأرض والسماء ثم قال : انما مثلث لك مثالا.

أقول هذا الزمن الهائل هو من زمن بقاء العرش مع الماء ، ومع النظر الى بطؤ الحركة العادية ، والسعة الهائلة بين المشرق والمغرب وعدد حبات الخردل ملأ الأرض والسماوات ، والزمن الذي يتطلب نقل كل من المشرق الى المغرب ، يفوق عمر المادة الاولية بليارات البليارات من السنين الضوئية ، ويا لعلم الامام حيث يحيط بهذا الزمن دون ان يلفظ بحدة إذ لا يحده القلم!

وعن سائر العترة الطاهرة كلمة واحدة في متظافر الرواية «كان كل شيء ماء وكان عرشه على الماء فأمر الله الماء فاضطرم نارا ثم أمر النار فخمدت فارتفع من خمودها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان وخلق الأرض من الرماد» [١] مما تتأيد بالقرآن ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ ..﴾.

«الماء» هو الخلق الأول إذ لا خلق غيره ، المادة الأولى إذ لا مادة سواها «ولو كان أول ما خلق من خلقه ، الشيء من الشيء ، إذا لم يكن له انقطاع أبدا ، ولم يزل الله إذا ومعه شيء ليس هو يتقدمه ، ولكنه كان إذ لا شيء وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه ، فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسبا يضاف إلى شيء» [٢].

إذا فليس هو ـ قطعا ـ مائنا (H_2O) منسوبا الى أبوين ، ولا أي عنصر أو جزئي أو ذرة حتى الئيدروجين حيث النسب يشملها كلها فهي ـ إذا ـ المادة الأولى المعبّر عنها هنا بالماء لمناسبات شتى قدمناها في موضعها.

ذلك أن الماء على أثر تفجّره فوق الذرية اقتسمت إلى زبد الأرض ودخان السماء ، وهذه أولى الفتقات بعد رتقات للأرضين والسماوات : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ. وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ﴾ (٢١ : ٣٢).

---

(١) رواه الكليني في الكافي بسند عن محمد بن مسلم ، قال قال لي ابو جعفر (ع) ...

(٢) الكلين في روضة الكافي باسناده عن محمد بن عطية قال جاء رجل الى أبي جعفر (ع) من اهل الشام من علمائهم ـ الى ان قال ـ : وكان الخالق قبل المخلوق ولو كان ..

فقد كان هنالك رتق أوّل إذ كانتا ماء ﴿فَفَتَقْناهُما﴾ في تلك التفجرة عن مادتها الأولى ، وفتق ثان اقتسام كل إلى طبقات سبع ، وثالث فتق السماء بالأمطار وفتق الأرض بالإنبات ، ورابع فتق السماء بالوحي وفتق أراضي القلوب بتقبل الوحي ، أماذا من فتق بعد رتق فصلناها في موضعها.

آية الدخان هنا تشير إلى ما خلّفه الفتق الاوّل ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ﴾ ثم الثاني ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ورابع ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ وبينما الثالث يشار إليه في تكملة الأرض : ﴿وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾ إمطارا من السماء فإنباتا من الأرض.

وترى هذه السماوات نرى مادتها المرتوقة «دخان» وفتقها إلى سبعها هنا ، فأين المادة الأرضية وأين فتقها إلى سبعها؟ واين سبعها؟.

﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ تشير إلى أصلها مادة كثيفة تناسبها كما السماء في دخانها ، ثم ومن ﴿الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (٦٥ : ١٢) تشير إلى انقسامها إلى سبعها ، ومن ثم ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً .. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ تشير إلى موازاة انقسامها إلى سبعها مع تسبيع السماء «في يومين» متداخلين لهما لذلك التقسيم الجسيم! فسبع الأرض ومادتها في مراحلها الثلاث غامضة مرموزة دون سبع السماء بمادتها ، ونحن نسكت عما سكت الله عنه ، ونستلهم ما ألهمه رمزا كما هنا.

فلو لا تسبيع الأرض مع تسبيع السماء في يوميها فلما ذا خطاب التكوين لهما «ائتيا ..» ولماذا الجواب تقبّلا لتكوين ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾؟

ولأن الأرضين السبع هي في السماوات ، وعلّ كل واحدة منها في كل واحدة منها ، لذلك ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ و «هن» جمعا باعتبار الأول الى سبع وسبع ، فهنّ إذا اربع عشر طبقات.

هذان يومان من أصل الخلق يختصان بخلق السماء والأرض طباقا ، وقبلهما يومان لخلق الأرض الامّ إمّا ذا من أرض : ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وهل للسماء الأم ﴿وَهِيَ دُخانٌ﴾ من نصيب في الباقيين من الستة ، وهل ل ﴿وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ﴾ من نصيب فيهما؟ نعم بطبيعة الحال ، فإنهما ضمن خلق السماوات من طباقها وكراتها وقبلهما دخانها ، كما الأرض الأم وطباقها ، أمور خمسة حصلت في ستة أيام!.

فهل ـ بعد ـ يبقى نصيب لخلق المادة الأم «الماء»؟ كلّا ، لأنه ليس من خلق السماوات والأرض في شيء إذ لم تكن حينها لا سماء ولا أرضا ، ولا يعني خلقهما إلّا الزبد والدخان الحصيلين من التفجرة فوق الذرية في المادة الأم ، فلخلق الأرض يومان ، ولتسبيع الأرض والسماء يومان ، ثم الآخران يقتسمان بين دخان السماء وزينة السماء الدنيا.

أم وكما تداخل السبعان في يومي السماوات ، كذلك التداخل للأرض والدخان في يومي الأرض ، فيبقى أخيران لزينة السماء الدنيا!

ثم اليومان لخلق الأرض قد يتخللهما اليومان لتسبيع السماء والأرض ، فتتأخر الأفعال الثلاثة للأرض في أيامها الأربعة عن استقلال هذه الأرض ، مهما شملت هذه الثلاث سائر الأرضيين السبع!

وعلى أية حال هنا محكمات في ذلك التقسيم العضال ، يومان لخلق الأرض ، ويومان لتسبيع السماء ، ثم لا ندري كيف التقسيم في الآخرين.

ومـن ثم تـداخل السـبعين ليـومي تسـبيع السـماء ، ولا نـدري هـل تـداخل الأرض والدخان في يومي الأرض أم لكلّ نصيبه متفاصلا؟

ولأن خلـق الأرض كمـا السـماء يشـمل مـرحلتي الوحـدة الأم والكثـرة السـبع ، ف ﴿خَلَـقَ الْأَرْضَ فِي يَـوْمَيْنِ﴾ قـد يعـني يومـا لخلـق الأرض الأم ويومـا لتسـبيعها مـع السـماء ، فتصبح الأربعة ـ إذا ـ ثلاثة ، فثلاثة باقية لسائر الخلق!.

هنالك نصوص وظواهر هي بدرجاتها محكمات ، وهنا مبهمات مجملات متشابهات ، نؤمن بما تشابه منها ونعلن ما أحكم فيها نصا بنص وظاهرا بظاهر والله أعلم بما قال!

ثم لا بـد لنـا مـن تحقيـق معمّـق أنيـق حـول ذلـك التقسـيم في رجعـة ثالثـة إلى آيات التقسيم :

﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾؟

ترى أنها أرضنا هذه التي نسكنها؟ حيث الأرض في كافة إطلاقاتها في ساير القرآن تعنيها لا سواها.

لكنما الأرض كما السماء تعني جنسها الشامل للسبع إلّا لقرينة تخصها ، والخطابات القرآنيـة تعـم كافـة المكلفـين فـلا تخـص أهـل هـذه الأرض ، ولـو أنهـا هـذه لا سـواها فكيـف اقتسمت مع السماء إلى سبع؟ أو ليس لسائر السبع نصيب من يومي الخلق وأربعة التكملة ، وقد شملتها الأيام الستة في خلق السماوات والأرض!.

أم إنها السبع حيث الإطلاق يشملها ، وآيات خلق السماوات والأرض تؤيدها؟ إلّا أن «قضاهن» الشامل لقضاء الأرض سبعا ، تعارض سبعها قبل تسبيعها!

أم انها الأرض الأم خلقت في يومين ، ثم في «قضاهن» اقتسمت سبعا؟ وكيف تقتسم بعد كمالها الثلاثة في أربعة ايام؟ والظاهر من ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ كل خلق جوهري لها فيشمل تسبيعها!

علّ الثلاث أوسطها أولاها ، أن خلقت سبعا «في يومين» واستكملت في أربعة ، ثم تمكنت في «قضاهن» اقتساما في السماوات السبع ، فالقضاء لدخان السماء تسبيعها ، وللأرضين السبع تمكينها عن جمعها إلى مكانات اخرى ، ولذلك ترى النص يخص ﴿سَبْعَ سَماواتٍ﴾ بذلك القضاء ، وتهمل عن سبع أرضين ، مع العلم أنها داخلة في القضاء ، والفارق أن قضاء السماء تقسيم لها إلى سبع ، وقضاء الأرضين تحويل لها إلى سماواتها.

وقد يساعد هذه الوسطى أدب اللفظ حيث يقدم الأفعال الثلاثة على تسبيع السماء ، وواقع المعنى ، إذ من البعيد جدا اقتسام الأرض سبعا بعد تكملتها ، وتساعدها الروايات المستعرضة لها (١).

---

(١) ومنها رواية الكافي عن الصادق (عليه السلام) «وفي يوم الأحد والاثنين خلق الأرضين» تفسير البرهان ٢ : ١٧٧ وفيه ٢ : ٢٠٧ عن تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عنه (عليه السلام) مثله. ومنها ما في شرح النهج للخوئي ١ : ٣٩٣ عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فخلق من زبده الأرضين السبع ..» ومنها ما في دعاء عرفة عن الإمام الحسين (عليه السلام) تسبح لك السماوات السبع والأرضون ومن فيهن» وفي القرآن «الأرض» مكان «الأرضون» مما يدل على انها معنية من «الأرض» وقد يدل عليه أو يؤيده ما في الدر المنثور ٥ : ٢٦١ عن عكرمة ان اليهود قالوا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، يوم الأحد قال : خلق الله فيه الأرض» وجاء الرواية المتظافرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن عترته (عليهم السلام) انها خلقت يوم الأحد والاثنين ، كما في نفس المصدر اخرج ابن جرير عن أبي بكر قال جاء اليهود الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين .. إذا فاليوم الثاني لتسبيع الأرض بعد خلقها.

وهنا اليومان قد يقتسمان إلى خلق الأرض الأم ، واقتسامها إلى سبع ومن ثم الأربعة التكاملية للثلاثة ، ولو أنّ تقسّم الأرض إلى سبع كان في غير يوميها ، موازيا لسبع السماء أمّاذا؟ فالمحتملان التاليان في موردها :

١ ـ يوم للأرض الأمّ الحصيلة عن تفجرة الأم الاولى : «الماء» ويوم لتجميدها بعد ذوبانها وقد تؤيده ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً ..﴾ (٦٧ : ١٥) حيث ذلت بعد شماس ، واعتدلت بعد ارتكاس ، فلشماسها يوم ولذلّها يوم.

٢ ـ أم إن يوما لحالتي شماسها وذلّها والآخر لدحوها ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ وعلى أثر دحوها وحراكها ، تصلّبت رواسيها شيئا فشيئا في أعماقها ف ﴿أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها .. وَالْجِبالَ أَرْساها ..﴾ كبداية للأعمال الثلاثة في الأربعة التكاملية .. أماذا؟

ولكنما الأوفق للمحات الآيات وتصريحات الروايات وقضية الترتيب الطبيعي علّه ما قبلهما ، أن الثاني لتسبيع الأرض ، ثم الأربعة لتكامل السبع ، ومن تمكينها في مكاناتها بين السماوات السبع ، ثم إخراج ماءها الكامن فيها ومرعاها الباطن لها ، وإرساء جبالها في أعماقها بعد ما جعلت من فوقها ، وخالقها أعلم بما قال.

﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها ... فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ..﴾

هنا افعال ثلاثة في أربعة أيام ، فكيف التقسيم لثلاثة بين أربعة؟.

تعرّفنا من آية الذّلول حالتي الأرض في شماس وذلّ ، فقد كانت في اوّل أمرها شماسا : متحرقة مذابة وفي حراكات مضطربة كما الدابة الشّموس ، فحركتها الدورانية من ناحية ، ومساس سطحها الخارجي مع الهواء من أخرى ﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها﴾ كبداية لخلق الجبال ولما ترسو الجبال في أعماقها ، وإنّما أمواج على سطح الأرض ، وكما يسأل

الإمام امير المؤمنين (عليه السلام) ممّ خلقت الجبال؟ قال : من الأمواج» [١] وعلّه اليوم الأول من الأربعة لبداية خلق الجبال.

ثم وتّدها في أعماق الأرض لما أخذت الأرض تجمد من ظاهرها إلى أعماقها ﴿وَالْجِبالَ أَرْساها﴾ تعني التي جعلت فيها من فوقها وأرساها في متنها وعمقها ، فللجبال حالة أولى هي نصبها ﴿وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾.

﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها﴾.

وحالة أخرى بعدها هي إرساءها ﴿وَالْجِبالَ أَرْساها﴾ وتوتيدها ﴿وَالْجِبالَ أَوْتاداً﴾ (٧٨ : ٧) أن تميد بكم ﴿وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (١٦ : ١٥) «وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الصم من صياخيدها فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها» «ووتد بالصخور ميدان أرضه» وهذا من دحوها الذي خلّف إخراج ماءها ومرعاها بعد ما ﴿وَالْجِبالَ أَرْساها﴾!

هذان يومان كما يقول القرآن لنصب الجبال وإرسائها ، وقد يصادقه نظرات المعرفة الأرضية أن اليوم الأول لبداية ظهور الجبال والثاني لإرساء الجبال في قطع أديمها والاول ٣٦٠ مليون سنة والثاني ١٣٥ مليون سنة.

فالملاحظ في الدور الأول ظهور «كالدونين وهرسى نين» وفي الثاني أغلب الجبال الفعلية ، والأصل هو المستفاد من القرآن ليومي جعل الجبال وإرسائها.

﴿وَبارَكَ فِيها﴾.

مباركة الأرض هي تحصّل المياه فيها وتهيؤها لتبريك الأرض ببركاتها

---

(١) تفسير البرهان : ١٠ : ٣٢٧.

وبذلّها بعد شماسها وقرّها بعد حرّها ، واعتدال حركاتها بعد اضطرابها ، وتقول النظرية معرفة الأرضية : إن هذا الدور لم يعد طائلا إلّا ٥٤ مليون سنة والأكثرية الساحقة من الماء والكلاء التي نعيشها الآن هي من ذلك الدور ، وهي أهم الأدوار الجغرافية العمارية لأرضنا ، لها أهميتها بين أدوارها.

﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾.

علّها أخذ في تنظيم الفصول الأربعة ، ولأن الأقوات ليست إلّا لذويها فهو دور ظهور الحياة الحيوانية والإنسانية على وجه الأرض ، وتقول النظرية إن هذا اليوم الرابع يقدر ب ٣٠٠ ، ٠٠٠ سنة التي ظهر فيها الإنسان [١].

﴿سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾.

يعني المحتاجين لأن كل محتاج سائل ، وفي العالم من خلق الله من لا يسأل ولا يقدر عليه من الحيوان كثير «فهم سائلون وإن لم يسألوا» [٢] فمن سائل يسأل بلسان القال ، ومنه من ليس له قال أم لا يسأل بقال فسؤاله ـ إذا ـ بلسان الحال ، ومن سائل يسأل قبل كونه سؤال الحاجة الذاتية للاستكمال ، فهنالك مثلث السؤال «فهم سائلون» بسائر السؤال «وان لم يسألوا» بلسان القال!

﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ (٥٥ : ٢٩ ـ ٣٠) ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا

---

(١) وهذا على فرض صحته لا ينافي عمر هذا النسل المقدر بزهاء عشرة آلاف ، فان قبله انسال إنسانية كما فصلنا في آية الخلافة في البقرة.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٣٨ تفسير القمي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث طويل حول تفسير آية التقسيم.

نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها ..﴾ (١٤ : ٣٤).

وترى البركات والأقوات السواء للسائلين هل هي قدر السؤال وحسبها؟ إنها قدر الحاجيات والمصلحيات دون إفراط فيها ولا تفريط ، فالنبات يأخذ من الماء والهواء ومن القرّ والحرّ قدر الحاجة ، والحيوان آخذ منها كما يحتاجه ، وعلى الإنسان أن يعدل فيما يأخذ دون أثرة ولا كبرياء ، اقتطاعا لأكثر مما يحتاجه مهما كان من سعيه ، فوا ويلاه إذا كان من مساعي الآخرين!.

﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ ..﴾.

ذلك استواءه الاستيلاء لخلق الدخان سبعا كما خلق الأرض في يومين ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢ : ٢٩).

هنا وهناك «استوى إلى» وبعد خلق السماوات الأرض «استوى على» والفارق بينهما أن الأولى استواء لخلقهما ، والثانية استواء لتدبير أمرهما : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ (٧ : ٥٤).

استوى إلى السماء لخلق لها ثان وهي دخان ، حالة ثانية للمادة الأم ، فنصيب السماء دخان ثائر ، ونصيب الأرض زبد مائر ، وليدان اثنان إثر التفجرة فوق الذرية للوالدة الكبرى «الماء».

ترى ما هي «الدخان» ولم يأت ذكرها إلّا هنا وفي «الدخان» : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ. رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (١٠ ـ ١٢).

ليس الدخان ـ فقط ـ الصاعد عن محترق الحطب وأضرابه ، بل هو

المستصحب للهيب أيّاً كان : من لهيب الأحطاب والفحوم الحجرية ، إلى لهيب الفلزات المذابة على درجاتها الحرارية المختلفة ، وإلى لهيب الغازات الصاعدة عن التفجرات الذرية على درجاتها الحرارية ، إلى الئيدروجين وقد شكلت الكرة الشمسية منها في قسم كبير من جرمها ، ففي مركزها ٧٠ مليون درجة من الطاقة الحرارية ، وإلى ٣٨٠ مليون درجة كالتي في مركز الشعري وهي تبعد عنا ٥٠٠٠٠ ضعف الشمس ، وهنالك درجات فوقها لم يصل العلم إليها حتى الآن ، والتي وصلها ليست إلّا من وليدات الدخان الأم.

وهل هنالك بناء للسماء بين دخانها وطباقها كما بنيت الأرض أرضا ما ، ثم انقسمت إلى سبعها؟ علّه نعم ، فالتسوية سبعا تتحمل للسماء بناء أولا هو لها وحدها بتحويلها عن دخانها إلى حالة أخرى ، فيه ﴿رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها. وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها﴾ وثانيا هو تسبيعها ، فخلق الأرض وما فيها هو قبل تسبيع السماء كما تقول آية البقرة وفصّلت ، ودحو الأرض وإخراج ماءها ومرعاها هو بين بناء السماء وتسبيعها.

ف ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ﴾ لبناءها سماء وتسويتها سبعا وكما :

﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ ..﴾.

وتراه قولا قوليا؟ وليست الأرض والسماء من أهل المقال ، ولا خيرة الأفعال «طوعا» وإذ لا تختار ف «كرها»! فهو ـ إذا ـ قوله الفعل تكوينيا كما في سائر تكوينه ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٦ : ٨٢) وتعبيره عن فعله بقوله إشارة إلى نفاذ أمره دونما نظرة للفاعل ولا من القابل ، وهي فيهما لكل فاعل غير الله ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ (٣ : ٨٣) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ

﴿وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ (١٣ : ١٥) فهذه السجدة وذلك التسليم تعطفان إلى طواعية شاملة للكون أمام أمر التكوين في بداية الخلق ونهايته ، فقد «خلق السماوات موطدات بلا عمد قائمات بلا سند ، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات غير متلكئات ولا مبطيات» [١] «ذلل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها» [٢] فقد كان التحامها . وعلّه بناءها سماء قبل سبعها . كان ذلك بدعائها والأرض «ائتيا» ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ فكان في إتيانهما بناء لهما ثان بعد دخان السماء وزبد الأرض أماذا؟

وفي ﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ إشارة إلى حتمية إرادته ، أن لو كانت لهما خيرة لامتنعتا ، فإتيانهما . إذا . واقع كرها ، «قالتا» بلسان الكينونة والحال وواقع المحكي المقال : ﴿أَتَيْنا طائِعِينَ﴾! فعل العاقل اللبيب والسامع المجيب جريا على المراد ووقوفا عند الحدود والأقدار ، من غير معاناة طويلة ولا مشقة شديدة ، فكانت في ذلك جارية مجرى الطائع المميز إذا انقاد إلى ما أمر به ووقف عند ما وقف عنده!

«فقضاهن» هل السماء فحسب؟ والإتيان بعد الأمر لهما دونها فحسب! أم لهما؟ وهذه جمع وهما اثنان! .. إنه قضاءهما سبعا ، سبعا في سبع ، علّ كل أرض استكنت في سماء أماذا؟ وما ألطفه تعبيرا أن الأرض ما كن السماء كسائر الأنجم حيث يحول حولها الفضاء ، ليست على قرني الثور أو ظهر الحوت أماذا من أماكن اختلقتها أيدي الجهل والجعل! ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ دورين من الأدوار الستة لخلق السماوات والأرض ، وذلك قضاء تكوين ثان للأرض والسماء ، أيا

(١ ، ٢). نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

كان فإنه «قضاهن» لا «لهن» أو «إليهن» أو «عليهن» أم سائر القضاء التي تحمل سائر معاني القضاء!

أترى أحدها لتسبيع السماء والآخر لتزيين السماء الدنيا بمصابيح كما يروى [١] ولو كان لذلك التزيين نصيب منهما فصحيح التعبير إذا «فقضاهن .. وزينا. في يومين»! فنصيبه . إذا . من اليومين الباقين.

أم إنهما . فقط . لتسبيع السماء كما في رواية أخرى [٢] وهو الصحيح الفصيح من آيتهما فتصدّق روايته ويعرض عن الأخرى.

﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾

وذلك الوحي . أيا كان . يشمل الوحي في كل أرض كما في كل سماء كما ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ..﴾ وهو الأمر الموحى في كلّ من السماوات السبع والأرضين السبع : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ..﴾ (٣٢ : ٥) .. و ﴿كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ تلمح باختصاص كلّ بوحي خاص ، اللهم إلّا وحي الشرعة الشاملة لكل عام وخاص!

أترى أن الأمر الموحى في كل أرض وسماء هو التكويني فقط؟ ولا يناسبه الوحي ، وإنما القضاء أماذا من صيغ التكوين! أم هو التشريعي؟ فلما ذا

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٠ في رواية ابن عباس الماضية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) «وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ... أقول وقد سبق صدرها انها تصرح ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ تعني في تتمتها وهي ايضا خلاف ظاهر الآية فالرواية بمجموعها مطروحة لمخالفة الكتاب.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٣٩ ح ٧ في روضة الكافي عن الصادق (عليه السلام) في حديث تقسيم ايام الخلق : «وخلق السماوات يوم الأربعاء ويوم الخميس ..» وروى مثله القمي عن الرضا (عليه السلام).

﴿فِي كُلِّ سَماءٍ﴾ دون «الى»! أم إنه يعنيهما ، والوحي «في» جامع للوحيين «ل» كما للأرض ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها﴾ رمز في التكوين بعد ما كونت أماذا من خلق يعبّر عنه ب «أوحى» ثم الثاني : الوحي «الي» كما إلى الأنبياء والملائكة أمّن ذا من مؤمن بارع ، وإلى حيوان صانع كما ﴿أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾! فلكلّ سماء ولكلّ ارض أمر من الأمور : أشياء وأفعالا ، وامر من الأوامر شرعة ففعالا [١] ، وهما من الأمر المدبّر من السماء إلى الأرض والعارج إليه.

والأمر أيا كان يقابل الخلق ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فهو التدبير للخلق ماديا : وحيا لخلق ، أو معنويا : وحيا إلى خلق ، يجمعهما ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾!

﴿وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(١٢).

والسماء الدنيا هي أدنى السماوات السبع إلينا ، فهي الأولى بالنسبة لنا ، أم هي الدنيا بالنسبة للأرضيين السبع كلها في احتمال أنها كلها في السماء الاولى ، وعلّ الاولى اولى كما قد تقتضيها : ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ و «مصابيح» هنا هي «الكواكب» في الصافات ، تشمل كافة الكرات الصابحة ، السابحة في خضم البحر الملتطم ، مرئية بعيون مجردة ومسلحة أماهيه؟ وهي تشمل شمسنا ، فهي متأخرة عن أرضنا وعن الأرضين كلها ، فليست هي والدة لها ، بل هي وليدة غازات في السماء الدنيا كما والأرض حيث ، انتهيا إلى الجدة الأولى «الماء»!

---

(١) حيث الأمر بين هذه المعاني الثلاث : الشيء ـ الفعل ـ مقابل النهي.

وهذه الكرات مصابيح لمن يستصبحها ، وحفظا من كل شيطان مارد ، أماذا من حكم أجمل عنها ﴿ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

قد لا يريبنا شك أن لتزيين السماء الدنيا نصيبا من اليومين الباقيين ، كما ولد خان السماء نصيب منهما ، فهل هنا نصيب ثالث ل ﴿أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾؟ بطبيعة الحال نعم ، ولكنه أنى؟ وقد قضيت الستة ، ولكنه لا ، حيث الوحي «في» ليس من الخلق ، وإنما هو تدبير شرعة وتكوينا للخلق ، وهو بعد أصل الخلق ، فإنما الشركاء في الأيام الستة ، الأرض بتسبيعها والدخان بتسبيعها وتزيين السماء الدنيا.

فذلكة حول أيام الخلق

: أسماء أيام الأسبوع التي تتكرر في أحاديثنا لا تعني أنها بقدرها هي أيام الخلق ، بل هي صيغ فرعية عن الأيام العالمية أو الأرضية المختلفة مع بعض بالآفات المضاعفات ، خلافا للخرافات التي أقحمت في التوراة أنها أيامنا هذه بلياليها!.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ

يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ
(٢٠) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ
وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ
(٢٤) وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ
خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾(٢٥)

... إنها جولة في مصارع الغابرين عبرة للحاضرين بعد تلك الجولة العابرة في خلق السماوات والأرضيين ، مما تهز القلوب المقلوبة وتعز الصافية النقية ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ بعد ذلك العرض العريض للرحمة الكونية والشرعية الشاملة ، وتلكم البراهين الكاملة على التوحيد «أعرضوا» عن رب العالمين ، فلا دواء لدائهم العضال إلّا أشد الإنذار ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً﴾ تصعقكم ﴿مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ أفهذا هو بنفسه الإنذار؟ وصيغة الماضي تضربه إلى ماض! فأين كان ذلك الإنذار ـ إذا ـ ومتى؟ لا نجد في سائر القرآن إنذارا لهم سابقا كصاعقة عاد وثمود أم أية صاعقة ، فذلك ، ـ إذا ـ هو هو بنفسه ، تعبيرا بماض تأكيدا لمستقبل قاض! أم إنه إنذار ماض فيما استعرضت صاعقة عاد من آيات ، فإن قصص القرآن عما مضى بشارات وإنذارات لمن يستقبل ، ولا يعنى من قصّها على اللاحقين إلّا عبرة ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ (١٢ : ١١١) ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى﴾ (٧٩ : ٢٦).

ولأن الإنذار ليس إلّا بواقع يستقبل المنذرين أم في حال ، فلتكن لهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأين هي وأنى؟

لعاد وثمود والمصعقين من قبل ومن بعد ، قد تكون صاعقة في الأولى وأخرى في الأخرى : ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ (١٦) أم هي ـ فقط ـ في الأخرى كما هنا!

فلأن صاعقة الأخرى هي أخزى فقد أنذروا بمثل صاعقتهم وأخزى ، فإن عذاب الأخرى أشد وأنكى ، إذ تضم لهم إلى صاعقتهم ما استحقوها في الأولى ، فاولى لهم ثم اولى!

والصاعقة هي التي تصعق غشية أو إماتة من صواعق الرعد والبرق :

﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ﴾ (١٣ : ١٣) أم صاعقة ريح صرر قرّ صرّ : ﴿رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ﴾(١٦) وهي عاتية : ﴿وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ﴾ (٦٩ : ٧) ، أم صيحة خاصة كما في ثمود : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ .. أَلا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ (١١ : ٦٨) وقد جمعتهما «صاعقة» ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ﴾ (١٧) .. أم صيحة تحشرهم جميعا إماتة وإحياء : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٣٩ : ٦٨) أم صاعقة الجحيم ، فقد تشملهم صواعق العذاب إلّا التي في الدنيا لمن أنذرهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (٨ : ٣٣).

﴿إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ (١٤).

«هم» هنا عاد وثمود ، رجعا لجمعهم مهما كانوا اثنين ، فمن هم الرسل التي جاءتهم ولم يكن إلّا صالح وهود؟ وماذا تعني ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؟ ولا تجيء الرسل إلّا بين أيدي المرسل إليهم حضورا ، لا غيّبا في ماض او مستقبل! إنها آية عديمة النظير في مجيء الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ، إلّا التي لعاد في الأحقاف ﴿وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢١) [(١)] الرسل من بين أيديهم

(١) راجع الفرقان ٢٦ : ٥٣.

هم المعاصرون لهم ، صالح وهود في أصل الدعوة ، ومن معهم من الرسل حيث وصلتهم دعوتهم المناصرة لتلك الدعوة ، وليست الرسل المستقبلية إذ لا صلة لهم بعاد وثمود حضورا ولا وصولا إذا هم غيّب! و «من خلفهم» هم الرسل الذين خلوا من قبل ، فقد جاءتهم دعوتهم في بعدي إنذار آبائهم فهم إذا منذرون ، ثم وصول دعوتهم من طرق اخرى ، فلا يعنى من مجيء الرسل إلّا مجيء الرسالة ، كما جاءت الرسالة الاسلامية ملأ العالمين من الجنة والناس أجمعين وإلى يوم الدين ، ولم يبق الرسل إلّا شذرا من السنين.

أم وفي وجه أوسع ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ تعم الحاضرين ومن يستقبل ، كما ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ تعم كافة الماضين ، تدليلا على أن الرسالة القائلة بتوحيد الله واحدة مهما كان الرسل عدّة ، فليس فاصل الزمان والعدّة بالتي تفصل بين الرسالات ، فرسول واحد ـ بهذا الصدد ـ هو الرسل كلهم يحمل الرسالات كلها ، فتصديق واحد منهم تصديق لهم أجمع ولها كلها ، كما وتكذيب واحد تكذيب الآخرين ، لذلك نرى ﴿كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٦ : ١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾(١٤١) و ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾(١٦١).

ووجه ثالث مجيء الرسل من كافة الجهات والجنبات ، حيث استغرقت الحجج كلها : حسية وفطرية وعقلية وكونية أماذا ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ﴾ تبلغ البالغين ، من ألقى منهم السمع وهو شهيد ، وقد تعني ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ مثلث الجهات والوجهات!

﴿جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ..﴾ ولكنهم اعرضوا كما أعرضتم «وقالوا» كما قلتم ﴿لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ ف «لو» إحالة منهم اولى لإرسال الرسل ، و ﴿لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ إحالة ثانية أن يكون بشرا لو أنزل ، و «ربنا» دون

«الله» أو ﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ إحالة ثالثة ، فإنه ـ وهو ربنا ـ لم يرسلنا ونحن بشر كالمرسلين البشر ، فهم ـ وهم ناكرون للرسالات الإلهية ـ يعتذرون في نكرانهم بثالوثهم ، وحجتهم داحضة عند ربهم لو كانوا يعقلون.

﴿فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾(١٥).

وهل هناك استكبار بحق حتى يوصف هنا ﴿بِغَيْرِ الْحَقّ﴾؟ علّه كقتلهم النبيين بغير حق تأكيدا لبطلانه! أم ولأن استكبار المستضعف أمام المستكبر الظالم هو استكبار بحق ، أخذا لحق او دفاعا عن حق ، وقد يروى أن التكبر مع المتكبّر عبادة! ولكنه ليس استكبارا فإنه طلب الكبر لمن ليس بنفسه كبيرا أو لا يحق له الكبر ، ولا تجد في سائر القرآن استكبارا بحق فكلّه دونما استثناء بغير حق ، وقد تعنيهما ﴿بِغَيْرِ الْحَقّ﴾ حيث الاستكبار الحق هنا ضمن المعني المتحرز عنه ﴿بِغَيْرِ الْحَقّ﴾.

وفي تاريخ الاستكبارات الباطلة قوّات بعضها فوق بعض ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً ... أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ ..﴾ (٩ : ٧٠) فمنهم أولاء وهم كانوا أشد منكم قوة ، وثالث هم أشد من أولاء ﴿وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ كأن لم يروا أشد منهم قوة ، فإذا لم يروا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[١] او ليس الله بقادر على أن ينتقم منهم؟ ﴿وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾ ـ :

﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ

---

(١) فالواو هنا عطف على محذوف هو «ا لم يروا» والا لم يكن لها موقع أدبي ومثله كثير في القرآن.

﴿فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾(١٦).

﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ﴾ هؤلاء الحماقى الطغاة السرسريين ﴿رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ﴾[1] وكما السرسر هي بالغة الشر، كذلك الصرصر هي بالغة الصر والقرّ، والأيام النحسات هي سبع ليال وثمانية أيام حسوما مجتثة جذورهم ﴿فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾ (٦٩ : ٨) .. أترى أن هناك أياما بين الأيام هي بنفسها نحسات وهي من قالة المنجمين؟ كلا! حيث النحوسة والسعادة في زمان او في مكان هما الناتجتان عما يحصل فيهما، دون ذاتية لايّ منهما في نحوسة أم سعادة، وهما ترجعان إلى عملية الإنسان ونويّته النحسة او السعيدة، دونما قضاء فيهما وقدر لهما لا تمتّ بصلة لما يعمله الإنسان.

ذلك ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾، وصرصرهم في الآخرة أخزى وأنكى ﴿وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ خزيا زائدا على الأولى في بعدية، فإذا هم يظنون نصرة في الأولى ف ﴿الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ بل ويخذلون ويرذلون! ألا «واتعظوا فيها بالذين قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا فلا يدعون ضيفانا، وجعل لهم من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران» [2].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١٧).

---

(١) راجع الفرقان ٣٩ : ٨٦، و ٣٧ : ٤٨٩ تجد تفصيلا زائدا لعذاب الصرصر في آيتي الحاقة والقمر وقد ذكرت عاد في القرآن. وهم عاد الاولى. ٣٤ مرة وثمود ٢٦ مرة ولم يذكر قوم طغاة كما ذكرا فإنهم اظلم واطغى.

(٢) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

هذه الهداية هي العامة بارائة طريق الهدى عن الردى ، فإذا استحبوا العمى على الهدى فهم إذا في ضلال قاصد بعناد زائد ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ﴾ وعلّه في بعدي القلب والقالب ، ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ (٦٩ : ٦) وهي الصيحة : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ (١١ : ٦٨) وبالرجفة الطاغية : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ (٧ : ٧٧) وثالوث الصيحة الرجفة الصاعقة هي من عذاب الهون ﴿بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وقد تعني «فهديناهم» واقع الهدى بعد آية الناقة ، ثم ردّتهم بعد ردح قليل منها ، وترى إذا يستحب الإنسان عماه على هداه فهل هو مايز هداه عن عماه؟ أو على علم يستحب المكروه على المحبوب؟ وليس هكذا اي حيوان ، بل أية حشرة فضلا عن إنسان ، اللهم إلّا ذو جنّه فاقد عقله وتمييزه ، إذا فلما ذا صاعقة العذاب الهون ، للمجنون!

ولكن إذا كانت الفطرة الإنسانية وعقليتها مقياس الاستحباب فلا يستحب الإنسان إلّا هداه ، فالذي «﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (١٨ : ٢٨) هذا يستحب هواه على هداه ، أم ليست هداه إلّا هواه ﴿وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها﴾ ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ إذا ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى﴾ وهم يعرفون» [1] ولأن العمى هنا

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٤٢ ح ٢٢ في كتاب التوحيد باسناده الى حمزة بن الطيار عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : عرّفناهم فاستحبوا ..

وفي اعتقادات الامامية للصدوق وقال الصادق (عليه السلام) في الآية : قال وجوب الطاعة وتحريم المعاصي وهم يعرفون.

تقابل الهدى فهي ظلام البصيرة ، والمتاه في الغواية ، والهدى بصيرة مختارة ، يتركون هذه إلى تلك باختيار دون جنّة ولا إجبار ، فان ذلك أخف على الإنسان ، وأشد ملائمة للطباع من تحمل مشاق النظر والتلجيج في غمار الفكر ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾(١٨).

إيمان بقلب ثم اتقاء من جرّاءه بالقالب ، حيث الإيمان المجرد لا ينجي إلّا أن يظهر في الإنسان ككل من ظاهره وخافيه ، وعنده النجاة عن صاعقة العذاب الهون.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢٠).

هنا شهادة الأعضاء عدلا وحقا إلى جنب ما هناك وهنالك من شهادة الأرض بفضائها ، وشهادة النبيين والكرام الكاتبين ، وليكون عدو الله غارقا في يمّ الشهادات عينية وذهنية أماهيه من شهادات قاطعة قاصعة لا محيد عنها ولا محيص! وليراجع للتعرف الى كلّ لموضعه من الفرقان بطيات آياته المفسرات [(١)].

الحشر إلى النار هو الجمع إليها ، والإيزاع هو الإكفاف والإحباس ، أن

---

(١) فصلنا البحث حول شهادة الذات والأعضاء في سورة الإسراء والنور ، وفي شهادة الأرض والفضاء في الزلزال وفي الشهادة ككل في الجاثية ولقد استوفينا البحث حول الشهادة عند آياتها وبمناسباتها ، ويأتي حديث الامام الصادق (عليه السلام) حول أن هذه الشهادة بعد شهادة الملائكة وعرض أعمالهم وتكذيبهم للكل فيختم على أفواههم عند الآية : «وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا».

يكفّوا عن التفرق ، ويحبس أوّلهم على آخرهم حتى لا يتفلتوا ، فقد يكون احتراما ك ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ..﴾ (٢٧ : ١٩) أو اختراما كما هنا وفي ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٢٧ : ٨٣) فلا يفيد الحشر الجمع لحساب فعقاب أم شكر فثواب إلّا إيزاعا لجمع كيلا يتفرقوا ويهملوا على كثرتهم.

﴿.. حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢٠).

علّها شهادة أخيرة في موقف أخير ﴿إِذا ما جاؤُها﴾ وقد سبقتها شهادات منها وسواها ، أم هي تجمع شهادات الأعضاء كلها ، وعلى أية حال لماذا الانحصار في ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ والانحسار عن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم؟ وهذه أقوى من تلك وأجلى والاستشهاد بها أشجى وأحجى!

هنا «جلودهم» كإجمال بعد تفصيل مّا. تشمل هذه الثلاثة وسواها ، وعلّ اختصاص ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ﴾ لأهميتهما من جهات أخرى أبرزها أنهما رقيبان على الجوارح وعلى أنفسهما ، كما الفؤاد على الجوانح وعلى نفسه : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ (١٧ : ٣٦) مسئولا لذواتها فيما افتعلت ، ومسئولا عنه لسائر الجوارح والجوانح فيما افتعلت وليست كذلك سائر الجوارح والجوانح.

فقد تسمع آيات او تبصر يستهزأ بهما فلا تمنع بجارح أم تغضب بجانح ، أم تسمعها وتبصرها فلا تعتبر بها ، فهنا السمع والبصر كل مسئول عنه ماذا فعلت وهما بريئان عما افتعلت من حرام او تركت من واجب! ..

أو تسمع ام تبصر محرما فلا تمنع أو تمتنع ، فشهادة مزدوجة منهما

عليهما وعلى لسانك أمّاذا كان عليك أن تمنع بها! أم تسمع وتبصر ما لا محيد عن حرمته بمنع وسواه ، فشهادة منهما ـ فقط ـ عليها ، فيما اقترفا من حرام!

ولكنما الجوارح الأخرى من ألسنة وأيد وأرجل أمّاذا فلا رقابة لها على غيرها ، بل هي شاهدة ـ فقط ـ على أنفسها شهادة ذاتية ولا سواها ، فإنما هي كآلات مباشرة لما عصت ، لا تعدوها إلى سواها فيما افتعلت.

فللسمع والبصر والفؤاد اختصاصها من هذه الجهة ، وللألسنة والأيدي والأرجل أهميتها من أخرى ، وقد يجمعها كلها «جلودهم» فإنها جلود الأرواح : الأبدان ، فتشمل الجوارح كلها كما ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ﴾ فلا تعني ـ فقط ـ القشور حيث النضج والشهادة تعم الأعضاء.

إذا ف ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ﴾ تعني مثلث الشهادة ومزدوجها ، ثم «وجلودهم» تعني شهادة واحدة. ولأن الشهادة على شيء تتطلب تحمّل الشهادة من قبل وإلّا فلا شهادة ، فلتكن الأعضاء متحملة لأصوات الأقوال وصور الأعمال حتى تلقي ما تحملت وتؤدّي ما حمّلت ، إذا فهي مسجّلات الأقوال وشاشات تحمل صور الأفعال ، وهكذا تشهد عليهم ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أن يظهر على كلّ ما يناسبه من شهادة عينية هي الحجة القاطعة والبينة القاصعة القارعة على المكلفين ، حيث «صارت الأجساد شحبة بعد بضتها والعظام نخرة بعد قوتها ، والأرواح مرتهنة بثقل أعبائها ، موقنة بغيب أنباءها ، لا تستزاد من صالح عملها ، ولا تستعتب من شيء زللها» [١].

---

(١) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

وقيلة من قال إن «جلودهم» هي عوراتهم مردودة إلى قائلها ، والرواية [١] القائلة بها مأولة إلى بيان مصداق هو عار بين مصاديقها ، فتشهد العورة كسائر الجلود بما افتعلت أم وفعل غيرها.

﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢١).

مفاجئة هائلة من مشهد الشهادة في معرض القيامة بموقفه العصيب وهم بحاجة ماسة إلى مناصرة من سواهم فإذا هم محجوجون بشهادة الجوارح ، وإنها بحق جوارح تجرح قلوبهم وتفتّت أكبادهم ولات حين مناص ، ولا منفذ لخلاص! يا ويلاه! فكل شهادة كانت بحسبان إلّا شهادة الإنسان على نفسه ، بجارحه وجانحه ، ويا للفجأة المحيرة بسلطان الله الخفي يغلبهم على أبعاضهم فتلبّي وتستجيب.

وكيف يقاولون جلودهم وليست بقائلة إلّا ألسنتهم ، وهي السائلة القائلة : ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا﴾؟ لأنهم شاهدوها تشهد ، ولم تسبق لهم منها سابقة الشهادة ، وهذه خارقة للعادة ، فليسألوها ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا﴾ مما يدل على أن شهادتها لم تكن باختيار منهم أو علم ، ولا يصدر من الأعضاء فعل إلّا عن إختيار منهم وعلم! [٢].

﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٤٤ ـ القمي بسنده عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث فرض الايمان على الجوارح : يعني بالجلود الفروج والأفخاذ.

ورواه مثله في الفقيه عن امير المؤمنين (عليه السلام) : يعني بالجلود الفروج. أقول ومما يدل على انه تفسير بمصداق ما في الدر المنثور ٥ : ٣٦٢ ـ اخرج عبد الرزاق واحمد والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث وان اوّل ما يعرب عن.

جواب مثلث عن ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا﴾ فيه بيان الحكمة والسبب والمبرر لتلك الشهادة العجيبة :

١ ـ ﴿أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وماذا تعني «كلّ شيء» ولا نسمع شيئا ينطق إلا أنفسنا كعادة ، وإلا أعضاءنا هنا كخارقة العادة ونحن نتساءلها ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا﴾؟.

أترى «كل شيء» هنا هم سائر الشهداء من الأرض بفضائها والملائكة والأنبياء ، وقد شهدوا من قبل شهادتها ولما تشهد الأعضاء ، إذا ف «كل شيء» تعرّفوا إلى شهادتها قبل هذا الموقف ، وهي مخصوصة بالأشياء الشاهدة لا كل شيء ، الأشياء التي عشناها في حياة التكليف ، وما كنا نظنّ أن أعضاءنا سوف تشهد علينا ، ولكن الله الذي أنطق هؤلاء الشهداء خلاف العادة ، هو الذي أنطقنا ونحن أقرب الشهداء فأحق بالشهادة وأحرى.

وشهادات الأعضاء كما سائر الشهداء هي شهادات عينية وحتى اللسان إذ تبرز منه الكلمات التي تكلمها [١] فالأعضاء ـ إذا ـ هي مسجّلات

ـ أحدكم فخذه وكفه وتلا (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ ، أقول لا تناسب الآية مستندا ل «فخذه وكفه» الا ان يعمها «جلودكم» والفخذ كناية عن العورة.

(١) تفسير البرهان ٤ : ١٠٨ ح ٢ علي بن ابراهيم انها نزلت في قوم تعرض عليهم اعمالهم فينكرونها فيقولون ما علمنا شيئا منها فتشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم قال الصادق (عليه السلام) فيقولون لله يا رب هؤلاء ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون بالله ما فعلوا من ذلك شيئا وهو قول الله ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ هم .. فعند ذلك يختم الله على ألسنتهم وينطق جوارحهم فيشهد السمع بما سمع مما حرم الله ويشهد البصر بما نظر إلى ما حرم الله وتشهد اليدان بما أخذتا وتشهد الرجلان بما سعتا فيما حرم الله ويشهد الفرج بما ارتكب مما حرم الله ثم أنطق.

الأصوات والصور ، شاشات من صنع الله تبرز كل ما حصل منها في حياة التكليف : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ..﴾. فليست الأعضاء لتنطق كلها قولا ، وإنما كما يناسبها من عينية الشهادات ، تلقي ما تلقّت دونما زيادة أو نقيصة ، اللهم إلّا قولها : ﴿أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ..﴾ فإنه خارقة أخرى تنطق بالأولى ولكي يعرف المجرمون ما جهلوه من خافية الأعضاء والأشياء ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها﴾ ف «أنطقنا» تلقّ ثان إجابة عن «لم شهدتم» إفصاحا عن تلقّ أوّل ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها﴾!

وإذا كانت شهاداتهم كلها نطقا لفظيا فما هي بشهادات ، وإنما كلمات خلقت فيها ، ليست حجة على أصحابها فقد ينكرونها ، ولكنما الشهادات العينية ليست لترد على شاهديها فلا تكذب ردا عليها كما نرى ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا﴾ دون : ان شهادتكم كاذبة علينا.

إنهم يلمسون واقع الشهادة وصدقها ، ويحتارون كيف الأعضاء تشهد على أصحابها.

إذا ف «أنطقنا» تنظير لشهادتها بشهادة كل شيء خارقة تلو خارقة ، ولا تملك الجلود أن تتمنّع عن هذه الشهادة ، فإن الله هو الذي أنطقها وأنطق كلّ شيء.

٢ ـ ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذه ثاني مرة ، خلقكم بهذه الأعضاء المسجّلة للأصوات ، الشاشة للصور وأنتم جاهلون . :

٣ ـ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولا بد للمخلوق اوّل مرة الراجع إلى خالقه ثاني مرة ، أن تبرز شهداءه يوم الحساب الرجعة ، شهداء من نفسه بعد سائر

. الله ألسنتهم فيقولون ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا .. وَلا جُلُودُكُمْ﴾ الجلود الفروج.

الشهداء ، ولكي لا يخلد بخلده نكران ما افتعل ، ويذكر ما فعل بعد نسيان ، فواقع ﴿أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يبرز تنطّق الأعضاء ، و ﴿خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يفرضه كحكمة عالية ، إذا فالجواب هو مشهد الواقع وشهادة الحكمة ولات حين مناص!

﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢٢).

هنالك تمّت الشهادات وتم الجواب ، وهنا الله يعقّب تكملة الجواب ﴿وَما كُنْتُمْ ..﴾.

وكما الاستتار عن التسجيل حين الأقوال والأعمال غير ما كن ولا ممكن حيث المسجّل المستنسخ لها هو الله : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٥ : ٢٩) وأنتم لا تعلمون ، كذلك بأحرى ﴿ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ هنا ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ ما تلقتها من أعمال ، إذ ﴿أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾!

وقد كان ما كان من ظنهم هذا أنهم يخفون عن الله كثيرا من خافية أقوالهم وأعمالهم ونياتهم ، فنزلت الآية تنديدا بظنّتهم ، علاجا لعلتهم ، تنبيها نبيها عن غفوتهم ولما يموتوا ويحشروا على وجوههم إلى جهنم [1] :

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٢ ـ اخرج سعيد بن منصور واحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود قال : كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وثقفيان او ثقفي وقرشيان كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم أترون ان الله يسمع كلامنا هذا فقال الآخر إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمع فقال الآخر ان سمع منه شيئا سمعه كله قال فذكرت ذلك للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأنزل الله ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ ..﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا ..﴾ (٤٠ : ١٤) ﴿بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ..﴾ (٦ : ٢٨) ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٣ : ٥٤) ﴿وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾ (٧ : ٢٥) ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ (١٠ : ٦١).

وقد يشير «المضي» في «ما كنتم» إلى أن الاستتار المنفي يشمل حين تلقي الشهادة يوم الدنيا ، كما يشمل حين إلقاءها يوم الأخرى ، وكما يلمح به نزول الآية عند ظنّتهم هذه مهما كانت الشهادة الأولى شهود نفس العمل ، والثانية شهادة عليه ، فموقف «على» هنا يسجل نفي الاستتار هناك (١).

بل الأصل في «ما كنتم» هو الاستتار في الأولى ، أن لو تحقق كان استتارا في الأخرى ، ولكن ﴿ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ هناك ، فكيف تستترون هنا وهي شهادات ملتقاة ولا بد أن تلقى!

ما كان يخطر ببالكم أنها سوف تكون وبالكم ﴿وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فخدعكم ذلك الظن القاحل الأثيم وقادكم في مآلكم إلى الجحيم :

﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ (٢٣).

الرديء هو الهلاك ، فالإرداء : الإهلاك ، وقد أرادهم هالكين ذلك الظن

---

(١) ففي الاول يقال شهده وفي الثاني شهد عليه ولا يصح الجمع ب «شهده» الا «شهد عليه» حتى يشمل الشهادة عليه.

الرديء ، فالذي يظن أن الله لا يعلم كثيرا مما يعمل ، والقليل الباقي يخفّف أو يعفى عنه ، ذلك الأحمق الشّرس ليس ليتقي بأس الله يوم بأسه ، فيردّى في جحيم العصيان فيصبح يوم القيامة من الخاسرين.

إن سوء الظن بالله يردي الظانّ حسب دركات السوء ، كما حسن الظن ينجي حسب درجاته ، ولكنه ليس فوضى جزاف أن كل ظان بالله يكون عند ظنه ، فلو ظن كافر بالله حسنا من غفران ورضوان فهو من أهل الغفران! او ظن مؤمن بالله سوء من عدم الغفران يصبح من أصحاب النيران! كلّا.

وإنما حسن الظن فيما يحسن به الظن ، وسوء الظن فيما يسوء في ميزان الله لا سواه ف ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ﴾ (٤٨ : ٦) ونائرة الظن السوء ﴿وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ ..﴾ (٣ : ١٥٤).

وأما أن يظن بالله أنه يعاقب المسيئين عدلا ، فهو ظن الخير العدل ، وخلافه ظن السوء ، كما ظن الذين كفروا أن الله لا يعلم كثيرا مما يعملون ، فأرداهم فأصبحوا من الخاسرين.

أو أن يظن بالله أنه لا يعفو عن المؤمنين ، فهو ظن السوء مهما كان من المؤمنين ، وما يروى «أن الله عند ظن عبده إن خيرا فخير وإن شرا فشر» (١) و «ليس عبد يظن بالله عز وجل خيرا إلا كان عند ظنه به» (٢) ليس بذلك

---

(١) المجمع عن الصادق (عليه السلام) ينبغي للمؤمن ان يخاف الله خوفا كأنه يشرف على النار ويرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة ان الله تعالى يقول ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ ..﴾ ثم قال : إن الله ...

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٤٤ ح ٢٩ ـ القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الرحمن.

الفوضى التي يزعمها الفوضويون ، حتى أن لو ظن كافر خير الجنة دخلها ، أو ظن مؤمن شر النار وردها ، فإنما المعني من هذه وتلك وجوب حسن الظن بالله في ميزان الله ، دون ما أهمتهم أنفسهم فيظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية! ف «لا يموتن أحدكم إلّا وهو يحسن الظن بالله فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله عز وجل قال الله عز وجل : ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾[1].

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾(٢٤).

ووي‍لاه ، ويا للسخرية المرهفة ، حيث الصبر الآن صبر على النار

. بن الحجاج قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) حديث يرويه الناس فيمن يؤمر به آخر الناس الى النار فقال لي : اما انه ليس كما يقولون قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان آخر عبد يؤمر به الى النار ، فإذا امر به التفت فيقول الجبار جل جلاله ردوه فيردونه فيقول له : لم التفت اليّ؟ فيقول يا رب لم يكن ظني بك هذا فيقول وما كان ظنك بي فيقول كان ظني بك ان تغفر لي خطيئتي وتسكنني جنتك قال فيقول الجبار يا ملائكتي لا وعزتي وجلالي وآلائي وعلوي وارتفاع مكاني ، ما ظن بي عبدي هذا ساعة من خير قط ولو ظن بي ساعة من خير ما ودعته بالنار أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنة ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس من عبد يظن بالله عز وجل خيرا الا كان عند ظنه به وذلك قوله عز وجل ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ أقول : هذا الحديث مطروح من جهات عدة أو مؤول فان مجرد حسن الظن ولو في غير محله فضلا عن كونه كذبا وفي الآخرة ، هذا لو أوجب دخول الجنة لم يبق احد للنار فان مجال الكذب واسع لكل اصحاب النار!.

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٢ ـ اخرج احمد والطبراني وعبد بن حميد ومسلم وابو داود وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

﴿فما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ وليس الصبر الذي يعقبه الفرج حتى يبدّل مرّه حلوا لآجل الفرج ، وإنما هو النار المثوى القرار ولات حين فرار! ليس لهم إلّا الصبر على النار فإنه مثواهم المأوى ومستقرهم في الأخرى بما قدموها ، وان يستعتبوا ـ طلب العتبى والرضا ـ فما هم بمرضيين ، والإعتاب هو استصلاح الجلد بإعادته في الدّباغ ، وهؤلاء لم يبق لهم مجال الاستصلاح حيث تردّوا بكاملهم إلى الفساد فلا مثوى لهم إلّا النار ﴿اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ﴾ (٥٢ : ١٦).

ومعنى ثان للعتبى هو العتاب الشديد ، فإن طلبوا عتباهم فلا يعتبون ، كناية عن غاية تردّهم لحد لا يخاطبون حتى خطاب العتاب ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٣٠ : ٥٧) وقد جرت العادة أن الذي يطلب العتاب يطلبه كذريعة لما يرجوه من الصفح والرضا تغاضيا عن الأسباب ، فاليوم يغلق باب العتاب متابا وعتابا.

فالاعتباء يعني كلا السلب والإيجاب ، العتبى وإزالة العتاب ، كما الإطاقة هي سلب الطاقة ، فان يستعتبوا طلب سلب العتاب بعتبى الاستصلاح فما هم بمعتبين ، وإن يستعتبوا إيجاب العتاب التنديد فما هم بمعتبين! ﴿سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾ جزع الصراخ أم طلب الإصلاح ، أم طلب العتاب ، فقد سدل الستار وأغلقت الأبواب وتمت كلمة ربك بتمام العذاب!

﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾(٢٥).

ولأنهم عشوا عن ذكر الرحمن فعاشوا عشو الشيطان ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ

ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٤٣ : ٣٦) لذلك ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ ..﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (١٩ : ٨٣).

فالتقييض هو الإرسال ، فكما الله يرسل للمؤمنين مؤيدين لاكتمال الإيمان ثوابا وفاقا ، كذلك يرسل للكافرين مؤيدين عقابا وفاقا ، أم ليس التقييض ـ فقط ـ الإرسال وإلّا جيء بصيغته الشهيرة «أرسلنا» كما في آيته الأخرى ، بل هو الإرسال التبديل ، أن بدلناهم عن الهداة التّقاة بغاة طغاة ، إذ بدلوا نعمة الله كفرا و ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فلما بدّلوا دعوة الهدى إلى الردى ﴿قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ﴾ ليواصلوا في الردى ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ﴾ ثانيا بزيادة ، ما تزين لهم أنفسهم بما ظلموا وتعاموا وعشوا ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من شهواتهم الحاضرة ودنياهم المستقبلة ويوم القيامة ﴿وَما خَلْفَهُمْ﴾ ما خلفوها وجعلوها سنة أم فعلة عابرة غابرة ، ومن سنن الغابرين أمثالهم ، فعند ذلك تمادوا في العصيان وتعاموا في الطغيان.

ومن تزيين دنياهم بين أيديهم وخلفهم أنهم يصورونها بمكائد وأكاذيب صورة المطلوب والغاية القصوى من الحياة : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا ..﴾ ومن تزيين عقباهم الأولى تشجيعهم على جبران ما فات منها ، عرضا للمستقبل أعرض مما مضى ، ومن تزيين عقباهم الأخرى ، تزيين نكرانها ، أم وعلى قبولها لمن ليس لينكرها ، تزيين حسابها هينا لا يعتد به ، أم غفرانا للمجرمين قضية الرحمة الواسعة الفوضى جزاف ، أم و ﴿أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أماذا من تحريف للآخرة وحسابها ، وتجديف فيها وتحريف لها يخرجها عما يحمل على التقوى ويذر على الطغوى فهذه هي المهلكة العظمى والمصيبة الكبرى والمنحدر الذي ينتهي الى كل بوار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ وهم من «الأخسرين ﴿أَعْمالاً الَّذِينَ

﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ و ﴿أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

لذلك ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ كلمة العذاب ﴿قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٨ : ٨٥).

﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فإن أصحاب الجنة يتواردون ردف بعض تلوا ، لا دفعة واحدة ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قضية اشتراك التكليف فاشتراكا في عقاب أو ثواب ﴿إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾.

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ

تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي
الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي
الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)
وَما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ
نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا
تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ
اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ

يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) **وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾(٣٩)

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(٢٦).

علّها من قيلة القرناء المقيّض لهم ، يزينون لهم كفرهم بمزيد هو اللغو في القرآن ، بعد أن كانوا به كافرين ، ولكي يغلبوا على دعوة القرآن ودعايته الجذابة الجلابة ، كيلا يقعوا ـ هم ـ او من سواهم ـ على حد زعمهم : في فخ القرآن ، ولا يصطادوا بصيده.

فالذين يكفرون بالقرآن يقتسمون إلى ثالوث النكران! ١ ـ نكرانا في أوّل مرة وقد يؤول إلى إيمان على ضوء سماع له أو استماعه وتسمّعه ، ٢ ـ ونكرانا عريقا بما سوّلت لهم أنفسهم وسول لهم الشيطان ثم يبعدون عنه فلا له ولا عليه ، ٣ ـ ومن ثم نكرانا يعني غلبهم على القرآن بمحاولات كلغو فيه أماذا من دوائر السوء ، يتربصونها بدعوة القرآن وليس إلّا عليهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فلا «تغلبون» ولا عوان بين ذلك ، بل «تغلبون»! ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لقرنائهم الكافرين ولما يصلوا ما وصلوا من عمقهم في كفرهم وحمقهم ، قالوا كلمتين اثنتين لهما تأثيرهما ردف بعض :! ﴿لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ﴾ فإنه يسحركم فيحملكم دونما اختيار إلى الإيمان ، علما منهم أنه يأخذ بازمة القلوب فيحركها إلى المطلوب.

ولماذا ﴿لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ﴾ والسمع متعد بنفسه ، والقرآن كتاب واحد لا يحتاج في شخصه وتشخيصه إلى اشارة التعريف؟

القرآن ـ في وجه عام ـ يشمل كل مقروّ وحيا وسواه ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (٣٤ : ٣١) فالذي بين يديه قرآن غير هذا وحيا ﴿قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ ..﴾. (١٠ : ١٥) «غير هذا» وحيا يختلف عنه «أو بدله» من عند نفسك تحويرا عن وحيه ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ

أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١٥).

فهذا القرآن بين قرائين الوحي وسواها هو الذي لا تسمعوا له.

وأما «لهذا» دون الى هذا؟ فلأن سماع القرآن قد يعني الهزء به واللغو فيه والرد عليه ، وأما السماع له فهو سماع خاص لصالح الهدف الذي يرام ، تدبرا فيه وتفكرا يحويه ، فالسماع له ممنوع ، وسماعه بين ممنوح وممنوع ، ومن الممنوح المفروض ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ كلمة ثانية للذين كفروا.

فهنالك غلب بحجة تدحض حجة القرآن ولسنا عليها بقادرين ، فتحوّلا إلى لغو فيه كيلا يسمعه السامعون ، فكما أنتم لا تسمعون له ، اختلقوا جو اللّاستماع له ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ حجته بعدم بلوغها للناس ، ثم افتراءات عليه أنه سحر أو شعر أماذا من مبعّد عنه وهنالك الغلبة التامة.

وإنها كلمة مضللة وقالة قاحلة جاهلة من الكبراء القرناء المقيّض لهم ، يغرون بها الجماهير بعد ما عجزوا عن مغالبته بحجة «لا تسمعوا .. والغوا» سلب ثم إيجاب يتضمنان اجتثاث حجة القرآن ، مفاصلة بينهما وبين الإنس والجان وسائر المكلفين.

وإنها مهاترة ومكابرة عجزا عن المواجهة بالحجة ، والمقارعة ، عند الطغاة المستكبرين على الإيمان ، توسلا بكل الوسائل ، وتربصا بكل الدوائر ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾!

«هيهات هيهات لما يوعدون»! واللغو هو ما لا يعتد به من فعال او مقال ، ومن قيله صوت العصافير في مقياسنا إذ لا نفهمه ، ولكنه ليس لغوا بينها فانه محادثة وذكر لا نفهمها ، فاللاغي منا ـ على فهمه ـ هو ألغى من العصافير على حيونتها.

ولغو الفعل والكلام قد يكون لإجماله كأن كان مفردا دون جملة ، كمفردات الكلام ، ولذلك سميت لغة ، وقد يكون في جملته إجمالا لأنه لغة خلاف ما نعرفها من لغة كلغو العصافير أماذا من لغات حيوانية أم انسانية لا نعرفها ، وثالثة هو لغو بقول مطلق ، لا يعني أيّ معنى صالح في أية لغة ، ثم هو يلحد في لغة صالحة كاللغو في القرآن.

فمن اللغو في القرآن تحريفه بزيادة او نقصان ، فتجريفه الى منجرفات الكتب التي بين يديه ، الى شفا جرف هار منهار ، ولكنهم عن بكرة أبيهم حاولوا ولم يفعلوا ولن ... حيث القرآن في ضمان دائب من الرحمان الرحيم.

ومنه نقضة بنقصة لغويا أو معنويا ام أي خلاف للحق او اختلاف ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ (٤ : ٨٢).

ومن اللغو فيه إلهاء الناس عن السماع له بقصص خرافية أماهيه ، ملهية عن سماع القرآن لما يقرء ، واللغو بالهرج والصياح والنياح ، وبالرجزات والسجعات ، وقد فعلوا كل ذلك وافتعلوا ولكنها ذهبت كالتي قبلها إدراج الرياح ، وغلب القرآن وغلب هنالك المبطلون! ... ثم لا جواب عن تهددهم هذا إلّا بما يلقون ـ جزاء ما يلغون ـ يوم القيامة ، حيث الجواب هنا تبابهم عما كانوا يهوون :

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢٧) قد يعني ذوق العذاب أولا وجاه وقبل الجزاء ، أسوء الذي كانوا يعملون ، ذوقه في الدنيا قليلا ، ثم في البرزخ وسطا ، ومن ثم الجزاء الأوفى يوم الجزاء ، وسرعان ما شهدنا حنقهم يوم الدنيا أن رجعوا عن

لغوهم في هذا القرآن خاسرين مهانين ، ومن ثم البرزخ والقيامة الكبرى فإن فيها نفس الجزاء بعد ذوقه.

و ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تعم الكبراء الأتباع ، و ﴿أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هو اللغو في القرآن وأضرابه من بالغ الكفر والتكذيب بآيات الله ، والجزاء هنا هو الأسوء نفسه ، إذ ليس جزاء بأسوء ، مما يتهدّدهم أن لغوهم في القرآن يبرز يوم القيامة بملكوته جزاء ف ﴿إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهي من الآيات القائلة أن الجزاء هو العمل والعمل هو الجزاء ، فليس هنالك انتقام وانتصار ، بل هو ظهور ما كان خفيا ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

﴿ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾(٢٨).

«ذلك» البعيد المدى ﴿جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ﴾ وهو «النار» ﴿لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ﴾ قدر ما أخلدوا إلى عداء الله «جزاء» وفاقا بما كانوا يكسبون.

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾(٢٩).

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا هم التابعون و ﴿الَّذَيْنِ أَضَلَّانا﴾ هم القرناء المتبوعون ، يطلب الأولون ربهم أن يريهم الآخرين ليذلوهم ويسفلوهم.

وهل ﴿الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ هما شخصان اثنان ، إبليس الجن وقابيل الإنس [1]؟ وليس قابيل مضلا لكلّ الكافرين مهما كان بادئ

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٣ ـ اخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد.

الإضلال من الإنس ، فهنالك في تاريخ الإنسان من هو أشر منه وأطغى! وليس المضل من الجن هو شخص إبليس مهما كان يرأس المضلين! إذا فهما النموذجان الأولان للإضلال ومن ثم الآخرون في كل زمان ومكان ، و «اللذان» تثنية الجمع لا المفرد.

وإنه تطلّب بخنق عنيف تحرّقا على الانتقام ، أترى إنهم المجابون في طلبتهم هذه؟ علّه نعم لأن المضلّل هو أسفل من المضلّل وقد ظلمه فليكن تحت قدمه ، وقد يجاوبه اللّاجواب! .. وعلّه لا إذ لا إجابة لدعاء الكافر وهو في النار ﴿وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ (١٣ : ١٤)! وليس كل مضلّل أسفل من مضلّله ولا أظلم منه وأطغى! : ﴿قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (٧ : ٣٨) وعلّهم حيث أضلوا غيرهم كما ضلوا بغيرهم فهم ومضللوهم في الضعف سواء!

وقد يكون الانظلام أظلم من الظلم! ثم الله هو الذي يجعل الأسفل من الأسفلين والسافل من السافلين عدلا وجزاء وفاقا ، أفيطلب بعدله يوم عدله؟! وفي جعلهما تحت أقدامهم حظوة ونعيم للتابعين وليست النار دار النعيم!

﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ

. وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه سئل عن قوله ﴿رَبَّنا أَرِنَا ..﴾ قال : هو ابن آدم الذي قتل أخاه وإبليس.

الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (٣١) **نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ**﴾(٣٢) [(١)].

آية الاستقامة في فصّلت فصّلت ثانيتها المجملة في الأحقاف ، ثم ليست سواهما في سائر القرآن إلّا ﴿**لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**﴾ (٨١ : ٦) ﴿**فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ**﴾ (٤٢ : ١٥) ﴿**فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ**﴾ (٤١ : ٦).

في الأحقاف تبشر بسلب الخوف والحزن وإثبات الجنة ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (١٣) وهنا يحمل الملائكة تنزلا عليهم هذه البشارة بولاية لهم دائبة في الدنيا والآخرة ، وما ألذّها بشارة وحيا من الله ثم إلهاما يحمله ملائكة الله!

وترى ما هي الحاجة إلى بشارة الملائكة وولايتهم بعد الله في الدنيا والآخرة؟ علّها لتكملة المقابلة بينهم وبين الكافرين ، فأولاء لهم قرناء من الشياطين وهم أولياؤهم بعد الشيطان الأول ، وهؤلاء لهم قرناء من الملائكة يبشرونهم وهم أولياء لهم بعد الله وبأمره في الدنيا والآخرة ، تشريفا لهم وليس بحساب الحاجة.

«.. وقد قلتم ربنا الله فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته ، ثم لا تمرقوا منها ، ولا تبتدعوا فيها ، ولا تخالفوا عنها ، فإن أهل المروق منقطع بهم يوم القيامة» [(٢)] و «قد قالها

---

(١) فصلنا بحث الاستقامة في الفرقان ٢٦ : ٢٥ ـ ٢٧ فراجع ولا نعيده هنا.

(٢) في نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) واني متكلم بعدة الله وحجته قال الله تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ...**﴾ وقد قلتم ..

ناس من الناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها» [١] ومادة الاستقامة تختصر بل وتحتصر في «فرائض الله» [٢] أصلية كولاية الله والرسول وخلفائه (عليهم السلام) [٣] وحقيقة المعاد ، وفرعية كسائر الفروع المفروضة على العباد.

فالاستقامة في قول ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ هي استقامة في العمق بكافة متطلباتها ، واستقامة في طول الحياة وعرضها في معارضها كلها ، استقامة على الطريقة الصالحة إليه علما وإيمانا وعملا صالحا ، والاستقامة عليها شعورا في الضمير وسلوكا في الحياة وصبرا على تكاليفها ، والأشلاء والدماء في سبيلها ، والحرمانات وترك الشهوات والنفسيات في جادتها بصورة قاطعة جادّة.

أترى المستقيمين . كلهم . تتنزل عليهم الملائكة ببشراهم؟ فمن رأى منهم الملائكة وسمعهم؟! اللهم إلّا من حذى حذو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم ونحى نحوه ، وهم الأئمة الاثنى عشر (عليهم

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٦٣ . اخرج الترمذي والنسائي والبزاز وابو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردوية قال قرأ علينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ قال : قد قالها ..

(٢) الدر المنثور ٥ : ٢٦٣ . اخرج ابن مردوية من طريق الثوري عن بعض أصحابه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ قال : على فرائض الله.

(٣) نور الثقلين ٤ : ٥٤٧ ح ٤٣ في تفسير اهل البيت (عليهم السلام) عن أبي بصير قال قلت لابي جعفر (عليه السلام) قول الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ قال : هي والله ما أنتم عليه.

السلام) إذ كانوا يرونهم ويسمعونهم [١] ، ولكنما الآية تعم المستقيمين كلهم ، أو أن بشرى الملائكة بوجه عام هي عند موتهم ، مهما بشروا الخصوص منهم قبل موتهم؟ [٢] والظاهر من «تتنزل ..» هو تنزلهم عليهم منذ استقاموا

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٤٥ ح ٣٦ في بصائر الدرجات بسند قال دخل حمران بن أعين على أبي جعفر (عليه السلام) فقال له جعلت فداك يبلغنا ان الملائكة تنزل عليكم؟ قال : اي والله لتنزل علينا فتطأ فرشنا اما تقرأ كتاب الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ..﴾؟ وفي ح ٤٤ عن الخرائج والجرائح باسناده الى أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية فقال : اما والله لربما وسدناهم الوسائد في منزلنا ، قيل له : الملائكة تظهر لكم؟ فقال : هم الطف بصبياننا منا بهم وضرب بيده الى سور في البيت فقال : والله لطالما اتكئت عليها الملائكة وربما التقطنا من زغبها.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٤٧ ح ٤٥ القمي في الآية ﴿ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ قال : على ولاية امير المؤمنين (عليه السلام) ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ قال : عند الموت ﴿أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ قال : كنا نحرسكم من الشياطين ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ اي : عند الموت .. وفي تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) عند قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ من البقرة قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يزال المؤمن خائفا من سوء العاقبة ولا يتيقن الوصول الى رضوان الله حتى يكون وقت نزع روحه وظهور ملك الموت له وذلك ان ملك الموت يرد على المؤمن وهو في شدة علته وعظيم ضيق صدره بما يخلفه من أمواله وبما هو عليه من اضطراب أحواله من معامليه وعياله قد بقيت في نفسه حسراتها واقتطع دون أمانيه فلم ينلها فيقول له ملك الموت مالك تجرع غصصك؟ قال : لاضطراب احوالي واقتطاعك لي دون آمالي ، فيقول له ملك الموت وهل يحزن عاقل من فقد درهم زائف واعتياض الف الف ضعف الدنيا؟ فيقول : لا. فيقول ملك الموت فانظر فوقك فينظر فيرى درجات الجنان وقصورها التي يقصر دونها الاماني فيقول ملك الموت : تلك منازلك ونعمك وأموالك وأهلك وعيالك ومن كان من أهلك هاهنا وذريتك صالحا فهم هنالك معك أفترضى بهم بدلا مما هاهنا فيقول بلى والله ثم يقول انظر فينظر فيرى محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) وعليا (عليه السلام) والطيبين من آلهما في أعلى عليين فيقول او تراهم هؤلاء.

ليطمئنوهم على استقامتهم فيزدادوا قوامة على قوامة ، ثم ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لا تفيدهم بشارة إلّا أن تكون قولة في الحياة الدنيا كما ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ لتكون زادهم في مسيرهم الشاق الطويل ، فلا يخافوا مستقبلهم الأخرى ، ولا يحزنوا على ما فاتهم في الأولى! أم إن بشارة الملائكة درجات بمختلف التنزلات كما استقامة المؤمنين درجات ، فقد يرونهم ويسمعونهم كالرعيل الأعلى وهم الأئمة الهداة ، أو يسمعونهم ولا يرونهم كمن حذى حذوهم من المخلصين ، أو يلهمون دون سماع ورؤية كالمؤمنين المتوسطين ، فمهما كان تنزلهم عند موتهم برؤية وسماع ، فلكلّ في حياته منزل من الملائكة حسب قابلياته ، فليس مثل ابن عباس ـ على مكانته ـ ممن يتنزل عليهم الملائكة نزولهم على العترة الطاهرة [1] مهما شملته البشارة الملائكية بين من استقاموا ، وما أظنه تشمله وقد تنحى عن نصرة الإمام المعصوم سيد الشهداء عليه آلاف التحية والثناء.

ـ ساداتك وأئمتك هم هناك جلاسك وأناسك أفما ترضى بهم بدلا من تفارق هنا؟ فيقول. بلى وربي فذلك ما قال الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ فما إمامكم من الأحوال فقد كفيتموها ولا تحزنوا على ما تخلفونه من الذراري والعيال فهذا الذي شاهدتموه في الجنان بدل منهم وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون وهذه منازلكم وهؤلاء ساداتكم اناسكم وجلاسكم».

(١) المصدر ٥٤٦ ح ٣٨ اصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال : بينا أبي جالس وعنده نفر إذ استضحك حتى اغرورقت عيناه دموعا ثم قال : هل تدرون ما اضحكني؟ قال : فقالوا : لا ـ قال : زعم ابن عباس انه من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فقلت له : هل رأيت الملائكة يا بن عباس تخبرك بولايتها لك في الدنيا والآخرة من الأمن من الخوف والحزن؟ قال فقال : ان الله تبارك وتعالى يقول ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقد دخل في هذا جميع الامة فاستضحكت ثم قلت : صدقت يا بن عباس ... أقول : لعل تصديقه (عليه السلام) قول ابن عباس تصديق لاصل دخوله في الآية دون رؤية الملائكة وسماعهم التي هي الدرجة العليا من تنزلهم.

ومهما كان أجلى المصاديق لمتنزل الملائكة مكانا هم الأئمة وزمانا هو الموت ، ولكنه لا يمنع شموله كل المستقيمين منذ استقاموا حتى الموت ويوم النشور ، أياما ثلاثة يعيشونها بهذه البشارة المشرفة ، وفي الحق ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ إذا قيل بحق يحمل كلما يتوجب على العبد تجاه الله ، إذ تشمل التربيات الإلهية كلها دونما استثناء ، ولا يمكن الاستقامة في ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ اللائقة لهذه البشارة إلّا أن تعني «قالوا» قولا نابعا عن علم ، نابغا بإيمان ، فالقولة الخالية عنها خاوية لا تحمل الاستقامة فيها إلّا خواء على خواء!

ثم الاستقامة تحمل بعد قوامة العلم والإيمان استدامة العمل الصالح الذي يتبعهما ، فالقول ﴿رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ يتبنى مثلث العلم والإيمان والعمل الصالح بمراتبها.

وهذه البشارة تحمل كلا السلب والإيجاب جزاء من ربك عطاء حسابا عن ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ فإنها ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾ سلبا بسلب وإيجابا بإيجاب.

فسلبها ﴿أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ خوفا عما يأتي وحزنا على ما أتى ، وإيجابها ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ..﴾! ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هي زادهم من بدئهم إلى معادهم ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢ : ٣٨) ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢ : ١١٢) ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣ : ١٧)!

﴿نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ..﴾.

الولاية هنا المحبة والنصرة المساندة عل ضوء ولاية الله ، فللملائكة تأثيرات جلية وخفية في الأرواح البشرية المستقيمة على ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ بإلهامات ومكاشفات في مختلف المقامات والمكانات حسب القابليات والدرجات ،

وكما للشياطين القرناء للكافرين إلهامات لأوليائهم حسب الدركات ظلمات بعضها فوق بعض.

هذه الولاية الملائكية وتلك الشيطانية في الحياة الدنيا سوف تبقى في الآخرة أظهر وأقوى ، حيث التعلقات الحائلة هناك زائلة ، فالولاية في بروزها وتأثيرها تظل دون غطاء ووطاء نائلة.

﴿.. فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ﴾(٣١).

لكم فيها ما تشتهون ولكم ما تطلبون ، جمعا بين ما تسرون من طلباتكم وما تعلنون.

﴿نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾(٣٢) فكما قدمتم لله في حياتكم الدنيا مرضات الرب كلها ، كذلك الغفور الرحيم يجيب إلى طلباتكم كما تشتهون وتدعون في الحياة الأخرى.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣٣).

علّ الواو قبل «عمل وقال» للحال فتعني حال أنه عمل صالحا وقال إنني من المسلمين ، فمن أحسن قولا منه؟ ف ﴿الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ هم القائلون ﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ولما «استقاموا» فهم ممن ﴿عَمِلَ صالِحاً﴾ فلما استكملوا في تبنّي حق الإسلام لأنفسهم ، من ثمّ لهم وعليهم أن يكونوا ﴿مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ﴾ فهو الأحسن قولا ممن سواه ، ولا أحسن منه قولا فيمن سواه.

ووجه آخر أن الواوين للعطف ، ف ﴿عَمِلَ صالِحاً﴾ في سبيل الدعوة إلى الله وكما أصلح به نفسه ﴿وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الحقيقيين جهارا دون

تقية ولا ستار ، فإسلامه جاهر قولا وعملا فدعوة إلى الله ، وهذه هي الدعوة الحقة التي ما لها من فواق.

والمعنيان علّهما معنيّان ويقتضيهما أدب اللفظ وعلو المعنى ، فهناك عمل صالح وإنني من المسلمين قبل الدعوة وهما من شروط الدعوة ، ثم عمل صالح وقول في طريق الدعوة وهما زاد الدعوة في سبيلها الشاق الطويل ، وقد زوّد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل من غيره من الدعاة إلى الله وأحسن ، بقول وعمل صالح قبل الدعوة ومنذ ترعرع ، ومع الدعوة حتى لاقى ربه ، فمن أحسن قولا منه.

إن كلمة الحق حينئذ أحسن كلمة تقال ، لكنها مع العمل الصالح الذي يصدقها ويصعدها ، ومع الاستسلام الذي تتوارى معه الذات والذاتيات والإنيات وجب الظهور وكل شيء ، فتصبح الدعوة خالصة لله ، ليس فيها للداعية شأن إلّا الدعوة.

والنهوض بتلك الدعوة البارعة في مواجهات التواءات النفوس البشرية واستكباراتها ، إنه أمر عظيم ، وأعظم منه الداعية الذي لا يهدف في دعوته إلّا الله ، تناسيا لنفسه ورغباته وكل شيء إلّا الله.

إنه يعارض السيآت ليزيلها ، ولا تستوي الحسنات ولا السيآت ، فقد يقتضي صالح الدعوة أن يدفع بالتي هي أحسن السيئة دون مجابهة بمثل كما يفعلها غير الصالحين :

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ﴾ (٢٣ : ٩٦).

ترى ما هو موقع «ولا» بين الحسنة والسيئة؟ فهل إنها مزيدة لتأكيد

النفي حيث الإستواء لا يكتفي بمفرد ، ولها نظائر ﴿وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٣٥ : ١٩) ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٣٥ : ٢٢).

أم انها للنفي ، نفيا لاستواء جنس الحسنة بأفرادها وجنس السيئة بأفرادها؟ فهو بأحرى نفيا للاستواء بين قبيل الحسنة والسيئة! ولو أن تأكيد النفي يبرر الزيادة في «لا» فلما ذا لم تزد فيما هو أولى : ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ﴾ (٥٩ : ٣٠) ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾(٥ : ١٠٠) ولا سيما أن ﴿وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ﴾ كمثال واقعة بين الممثل أو مثال أولى ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ وهو أحرى بتأكيد النفي ، وعلّ الإستواء المنفي في ﴿ما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ﴾ ايضا هو بين الأحياء أنفسهم ، وبين الأموات ، ثم النفي بين الأحياء والأموات ، وبين الحسنة والسيئة هو نفي الاستواء بينهما بطريق أولى.

أم إنها لتأكيد النفي بين الحسنة والسيئة وللنفي بين مصاديق الحسنة ومصاديق السيئة؟

قولة الزيادة زيادة من القول ، والنفي ثابت إذ تقتضيه «لا» والجمع أولى فإنه أجمع وأحلى! فإذ لا تستوي الحسنة في أفرادها ، ولا السيئة في أفرادها ، فلا ينحصر دفع السيئة بسيئة أخرى ، فقد تكون سيئة تدفع بحسنة ف ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ وقد تكون سيئته لا تدفع إلّا بسيئة فلا مجال إذا لدفعها بحسنة ، فالمعاند المكذب بآيات الله ، الذي لا يرجى هداه ، ولا تصد هواه ، لا تدفع سيئته بحسنة ، بل ﴿جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٢ : ٤١).

فالعفو في موضع الإصلاح دفع للسيئة بالحسنة ودرء لها ﴿وَيَدْرَؤُنَ

﴿بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ (١٣ : ٢٢ و ٢٨ : ٥٤) والعفو فيما لا يصلح بل ويفسد هو سيئة بدل كونها حسنة ، ف ﴿لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ في مواردها ، وكذلك السيئة التي تدفع بحسنة ، والتي تدرء بأية حسنة «لا تستوي السيئة» كذلك في مواردها ، ف ﴿جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ لا تعم مواردها ، لاختلاف السيآت ، ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ لا تعم لاختلاف الحسنات ، والسيئة التي تدفع بحسنة خير من حسنة لا تدفع سيئة بل وتزيدها ، فلأنه ﴿لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ ف ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ما أمكن الدفع ، وإلّا ف ﴿جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾!

ثم الدفع بالتي هي أحسن ليس إلّا عن موضع القدرة ، فلئن أحس العدو موضع الضعف اخترم ولم يحترم ، ونفس الدفع يلمح إلى شريطة القدرة ، حيث العاجز لا يدفع ، لا بالتي هي أسوء ولا الأحسن ، فإنه ضعيف على أية حال ، ﴿ادْفَعْ ... فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

هنالك دفع للسيئة وهو واقع بالتي هي أحسن وإن بقي العدو على عداءه كامنا ، وليس «انه ولي حميم» إنما ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ يندفع عن ظاهر عداءه وإيذاءه كولي حميم ، وقد يدفعه إلى مرحلة ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فالإصلاح درجات كما الإفساد دركات ، إذا دفعت بالأحسن ، بالفعل ينقلب الهياج والغضب إلى وداعة وسكينة ، والتّبجح إلى حياء ولينة ، وأنت ما دفعت إلّا بكلمة طيبة ، ونبرة هادئة ، وبسمة حانية أمّاهيه من التي هي أحسن حسب ما يقتضيه علاج الواقعة ، طريقة مثلي وحكمة عليا تدفع واقعة السوء بها ، وقليل هؤلاء الأعداء الذين يظلون على عدائهم وجاه تلكم الواجهة الوجيهة والخلق العظيم ، اللهم إلا عداء عريقا عميقا ممن لا يرجى ولايته وحمته على أية حال ، والهدف الرئيسي من التي هي أحسن دفع السيئة ، وإن بقيت العداء في باطنها ، ثم إزالة العداء ، ثم اجتلاب الحمة ، وأما إذا دفعت

سيئة بسيئة أم زاد يزداد عدوك هياجا ، فيخلع حياءه نهائيا إذ يتفلت زمامه فأخذته العزة بالإثم.

إن تلك السماحة مع القدرة على انحصارها في حالات الإصلاح وهي في الأغلبية الساحقة شخصية ، إنها بحاجة إلى تصبرّ ومعرفة وعطوفة ودراية زائدة وتلقية إلهية : . ﴿وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٣٥).

صبر من الله وحظ عظيم من الله هما جناحان لذلك الدفع العظيم : ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (٢٨ : ٨٠) ومن أعظمهم الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٧ : ٦) ولقد لقّاه الله والمحمديين من آله الطاهرين الصبر العظيم والحظ العظيم ، فكانوا يواجهون الأعداء بكل حنان ما أمكن ومن ثم غضب الحليم.

هنا ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ في تنكير التعظيم بعد ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ توحي بعظمة ذات أبعاد : صبر وحظ ذي بعدين من العظمة ، وما أعظمه العظيم في ميزان الله ، وما أكرمه من يلقّاه من عند الله ، وفي الحق هم القلة القليلة من سابقين وأصحاب اليمين : ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً﴾.

ومن أعظم الحظ العظيم الخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقد يتبناه علم عظيم ومعرفة واسعة وسماحة فاسحة وتصبر عظيم.

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٣٦)

﴿وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً﴾ (١٧ : ٥٣) والنزغ هو الدخول في أمر لإفساده ، فإذا قلت التي هي أحسن دفعا للسيئة بالحسنى لم يكن هناك مدخل لشيطان ليجعل السوء سوائى أم يبقي على سوء ، ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ﴾ حين يفلت منك فالت ، وهكذا يكون دور الشيطان أن يدخل في الأمور لإفسادها ، فهنالك ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ من نزغه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ استعاذتك ونداءك ﴿الْعَلِيمُ﴾ حاجتك واستدعاءك.

الغضب قد ينزغ فلا يتصبّر صاحبه على إساءة ، أماذا من نزغات في مختلف الحالات مهما كنت صبورا حليما إلّا من عصمه الله ، فإذا نزغك نزغ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وصيغة الاستعاذة هنا «أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم».

﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣٧).

﴿لا تَسْجُدُوا ..﴾ نهي مؤكد انحصارا للمسجود له في الله وانحسارا عما سواه ، سواء أكان المسجود له هو الشمس والقمر كما هنا ، والخطاب موجه الى الساجدين لهما ، ام سواهما من أصنام وطواغيت أم أولياء وملائكة كرام ، ولأن السجود لغير الله تسوية له بالله وهو ضلال مبين ، و ﴿الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ إشارة إلى سبب المنع وسعة الممنوع بدليل الجمع «خلقهن» الشمس والقمر وسواهما من خليقته.

ثم و ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تعليق على عبادتهن ، فالعابد لله ليس ليعبد خلق الله ، ولا سيما ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ ..﴾ ترمي إلى التوحيد ، والسجود لغير الله ينافي التوحيد.

وكضابطة توحيدية كلّ تسوية لغير الله بالله إشراك بالله ، في معرفة

وعقيدة ، ام فعلة وقولة ، أم أية حالة على أية حال ، مهما اختلفت دركات ذلك الإشراك.

والسجدة هي صورة عبادة ، فان كانت لغير الله بنية العبادة وسيرتها فمن أسفل دركات الإشراك بالله ، وإن كانت صورة دون سيرة وهي أحيانية وإنما احتراما للمسجود له ، فمن أدنى دركاته ، وإن كانت مستمرة فعوان بين ذلك ، وذلك الثالوث على اختلاف دركاته مشترك في الشرك! ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾(٣٨).

ليس الكون قاحلا عمن يسبحون له وله يسجدون ، ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادته وسجوده ، إلى سجود الشمس والقمر وهما آيتان من آياته ، إلحادا فيها بافراط ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عندية القرب مكانة تربوية لا مكانا ، من ملائكة وإنس وجان ، سابقين أو مقربين ، فإنهم عند ربك ، لا «الله» فليس عند ذاته أحد ، ولا ﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ حيث الربوبية العامة ليست بذلك الزلفى ، بل ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ بتلك الربوبية القمة التي أنت فيها بأعلى قمة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ لا سواه ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ في كل وقت لحدّ أصبحت ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم وخطراتهم تسبيحا لله ﴿وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ : لا يملّون من هذه الكثرة الكثيرة ، وإنما يسأمون لو يغفلون.

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣٩).

﴿وَمِنْ آياتِهِ﴾ قدرته على إحياء الموتى مسرح الأرض الخاشعة الخامدة القاحلة حيث تحيى بإنزال الماء فتربو وتهتز ، فمن ذا الذي يربيها ويهزّها بعد خشوعها إلّا الله ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى﴾ وبأحرى ﴿إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فإذا كان إحياء الأرض لانتفاع الأحياء فضلا من ربك عطاء حسابا ، فإن في إحياء إنسان الأرض لانتفاعه بما قدم ، وجزاءه بما ظلم أم ظلم ، إن في ذلك لعدلا بعد فضل ، فواقع الحياة المكرورة المتتابعة للأرض الخاشعة يوقّع بأحرى واقع الواقعة ، ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ ، خافِضَةٌ رافِعَةٌ﴾!

وكما الله ينزّل على خاشعة الأرض نازلة من ماء السماء إحياء لها للأحياء ، كذلك الله ينزل على خاشعة الأبدان نازلة الأرواح من سماء الرأفة والعدالة وهو أحق وأحرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا

لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي
آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ
فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ
عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما
تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي
قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ
مَحِيصٍ (٤٨) لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ
رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ

لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(٥٤)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٤٠).

اللّحد حفرة مائلة عن الوسط ، فالإلحاد هو الإمالة عن الوسط الحق إلى حفرة إفراط أو تفريط ، و «آياتنا» تعم التكوينية كسائر الآيات الدالات على الله بما فيها آيات النبوات وحملتها ، والتدوينية كسائر كتابات الوحي بما فيها القرآن ، فالإلحاد في تكوينية الآيات السائرة هو إمالتها عن كونها آيات كأنها لا تدل على الله تفريطا فيها ، ام إشراكها بالله كأنها له أنداد إفراطا في شأنها ، وفي التكوينية الخاصة كما الإفراط في أسماء الله تحويرا لها وتحريفا عن معانيها المعنية ، أم اختلاقا لأسماء لم يسم بها نفسه ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧ : ١٨) والتفريط في ﴿لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦ : ١٠٣) والإفراط فيه أنه منه دون الله! وفي كيان الرسل وآياتهم المعجزات إفراطا كما في عيسى وعزير من بعضهم وتفريطا كما في سائر المرسلين من آخرين ، وقد يكون إفراط الإلحاد في آيات الله من حصائل التفريط فيها وكثير ما هو ، فمن أبصر إلى آيات الله مستقلات دون اعتبار بها تفريطا فيها ، فقد أفرط فيها أن يجعلها أندادا لله تعالى ، ومن أبصر بها بصرته لمعرفة هي أسمى فلا تفريط إذا ولا إفراط ، فإنهما من حصائل الإبصار إليها دون الإبصار بها وكما يروى عن الإمام علي (عليهم السلام) في شأن الدنيا ، «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته».

ثم الإلحاد في كتابات الوحي منه لفظي كالتحريف بزيادة هي الإفراط أم نقيصة هي التفريط ، وقد فعلوهما في التوراة والإنجيل ، ولم يستثن عن الإلحاد فيه هكذا إلّا القرآن كما تستثنيه الآية التالية ، ومنه معنوي يعمه حيث التحريفات المعنوية في القرآن سائرة في كل زمان ومكان.

هنا ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا﴾ تهديد لهم أوّل أنه عليهم رقيب عتيد ، بجزاءهم ﴿يُلْقى فِي النَّارِ﴾ ثم تهديد ثان نهيا شديدا بصيغة الأمر ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فقد بدء التهديد ملفوفا ـ يخيف ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا﴾ فهم مكشوفون لعلم الله ، مأخوذون بما يلحدون في الله مهما غالطوا والتووا وحسبوا أنهم مفلتون من يد الله كما قد يتفلتون من حساب الناس!

وثم صراح التهديد ﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ ..﴾ وفي النهاية لفتة أخرى علها أقوى منها ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ ..﴾! أتراهم يغلبون آيات الله في هذه الإلحادات ولكيلا تبقى حجة بالغة على الناس؟ كلّا! مهما فعلوا ما افتعلوا ، فإن الله يحافظ على آيته الأخيرة الخالدة «القرآن» تداوما لحجة الله البالغة على الناس وتدليلا على ما فعلوه في الزبر :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٤٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ الأخير ، كل الذكر وهو القرآن العظيم ، كفرا في مختلف دركات الإلحاد في آياته ﴿لَمَّا جاءَهُمْ﴾ وقد خيل إليهم أنه كسائر الذكر ، فبإمكانهم كل تحريف فيه وتجديف ، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل إلحاد فيه أيا كان ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ﴾ من أي مبطل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لأنه ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾!

أترى ما هو الخبر عن هذا المبتدء؟ علّه محذوف مستفاد من ﴿يُلْقى فِي النَّارِ﴾ للذين يلحدون في آياتنا حيث الإلحاد في القرآن هو من أبرز مصاديقه وأحقها إلقاء في النار ، ف ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ إلحادا فيه ﴿يُلْقى فِي النَّارِ﴾ فإنهم كفروا به حال ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ..﴾.

ذكر عزيز ، هو تنزيل من حكيم حميد ، كيف يغلب بمن يريد فيه إلحادا ، فلو تطرّق إليه التحريف بزيادة أو نقصان لقضي على الذكر في تاريخ الرسالات ، ولكان ذكر الله مغلوبا لا ينتصر له ، ولم يكن الله حكيما في تنزيله ولا حميدا ، فإن في الحفاظ على الذكر الأخير حفاظا على سائر الذكر ، وفي تحريفه ـ وقد حرف قبله سائر الذكر ـ تحريف لشرعة الله ككلّ ، وقضاء على حجة الله البالغة بأسرها.

إن في صيانة القرآن عن التحريف صيانة لسائر كتب السماء ، وحجة بالغة دامغة على المتمسكين بها على تحرّفها عن جهات أشراعها ، ودافع لهم إلى التفتيش عن شرعة غير محرفة يلجئون إليها [١].

انه «الذكر» الذي يحمل معه كل ذكر في كتابات السماء ، فبحفظه تحفظ وبضياعه تضاع ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ (١٥ : ٩) تأكيدات تسع لا مثيل لها في سائر الذكر ولا ايّ من حقايق الدين الحق بأصوله وفروعه ، ولأنه ضمان له بأصوله وفروعه.

﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ﴾ تاكيدان لعزة الكتاب كما الله منزّله عزيز ، عزيز من عزيز يغلب ولا يغلب! إنه عزيز في لفظه ومعناه ، عزيز في حكمه ومغزاه ، عزيز في مبتدءه ومنتهاه ، لا يذل ولا يغلب مهما تربصوا له الدوائر ، عزة في مثلث الزمان بطوله وعرض المكان ، ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ﴾ مهما هاجمه المبطلون ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ وهي كل كتابات الوحي فضلا عن سواها ، وكل رجالات الوحي فضلا عن سواهم ، بل هي مصدقة له كما هم ، وهو مصدق لما بين يديه ، وهذا تعبير دائب في سائر القرآن عما نزل

---

(١) راجع كتابنا «المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية».

قبله من كتاب بما بين يديه [١] وعلّه لأنه ينظر إليها نظرة تصديق ، إذ ليس بدعا من الكتب ، كما أن رسوله ما كان بدعا من الرسل! ﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ (٥ : ٤٨) إذا فالأصل في ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ما نزل قبله.

ومما بين يديه ما كان حال نزوله من كتب وأشخاص ، فهو يشمل الماضي والحال ، ف «من خلفه» إذا يخص الاستقبال ، فهو في صيانة إلهية في مثلث الزمان عن أية دائرة سوء من الإنس والجان.

أترى لماذا ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ﴾ دون «المبطل» والآتي إياه إبطالا له وإعطالا مبطل له وليس فقط الباطل؟

لأن المبطل ، المحاول لإبطاله ، قد أتاه ويأتيه على أية حال ، ولكنه لم يسطع ولن أن يبطل ، ف ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ﴾ مهما أتاه المبطل او يأتيه ، إبطالا لمعجزته بما يفوقه أو يوازيه ، أو فصما لحجته بما يناوئه ويعاديه ، أو تحريفا وتجديفا بنقيصة عنه او زيادة فيه ، أمّاذا من باطل في ألفاظه ومعانيه ، في تأليفه وتركيبه ، فلا تعلق به الشبهة من طريق المشاكلة ، ولا الحقيقة من جهة المناقضة ، فهو الحق الخالص الواجب الذي لا يشوبه شائب ولا يلحقه طالب ، فلا يأتيه الباطل مهما أتاه المبطلون! فالشيطان

---

(١) كما في ٢ : ٩٧ ـ ٣ : ٣ ـ ٥ : ٤٨ ـ ٦ : ٩٢ ـ ١٠ : ٣٧ ـ ١٢ : ١١١ ـ ٣٤ : ٣١ ـ ٣٥ : ٣١ ـ ٤٦ : ٣٠ وفي نور الثقلين ٤ : ٥٥٣ ح ٦٧ ـ القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ..﴾ يعني القرآن : لا يأتيه الباطل من بين يديه قال لا يأتيه الباطل من قبل التوراة والإنجيل والزبور ولا من خلفه اي لا يأتيه من بعده كتاب يبطله ، وفيه عن المجمع روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليه السلام) في معنى الآية ليس في اخباره عما مضى باطل ولا في اخباره عما يكون في المستقبل باطل بل اخباره كلها موافقة لمخبراتها.

والإنسان لا يقدران على أن ينقصا منه حقا أو ينتقضاه ، ولا يزيدا فيه باطلا ويفتعلاه.

فأي كتاب في مثلث الزمان وأي إنس أو جان وأي تقدم في علم في مستقبل الزمان ، ليس ليبطل حجته أو ينقضها او ينقصها ، والكتابان في كل زمان تدوينا وتكوينا يجاوبانه ويؤيدان ، لأنه الإمام وسواه المأموم ، وهو العزيز وسواه تعزيز له أم لا يوازيه ، لأنه الذكر العزيز ﴿.. تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ والمتدبر في القرآن يلمس منه هذه الحقيقة الخالصة ، من نصه وظاهره وإشارته ، يجدها في كل بساطة ويسر حقا ناصعا فطريا يخاطب أعماق الفطرة ويطبعها ويؤثر فيها عجيب التأثير.

أترى هذا ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ﴾ من خلفه»؟ فما هو إتيان الباطل من بين يديه وليس المبطل إلّا في حال او استقبال؟ من إتيانه الباطل مما بين يديه تفوّقه على القرآن في لفظه أو معناه أو مغزاه وليس ، ومنه إخباره بكذبه كما القرآن يكذب كل ما يأتيه معه أو من بعده لأنه خاتمة الوحي ، ولا مبطل له في كتابات السماء فضلا عن سواها ، بل تصدقه [1] كما يصدقها ، تصادقا فائقا كالتصادق فيمن جاء بها.

فالقرآن في صيانة ذاتية وخارج الذات من كافة الجهات والجنبات ، حق ناصع ناصح ، خالص لائح ، فهو المرجع الوحيد في كل شارد ووارد ، لا ينوبه نائب ولا يشوبه شائب ، ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾.

---

(١) راجع كتابنا. «رسول الإسلام في الكتب السماوية» تجد فيه نصوصا من تصديق الكتب السماوية للقرآن ونبيه.

كتاب الله العزيز هو المخرج عند الهرج والمرج لا سواه [١] ومثل القرآن ومثل الناس كمثل الأرض والغيث بينما الأرض ميتة هامدة ثم لا يزال ترسل الأودية حتى تبذر وتنبت ويتم شأنها ويخرج الله ما فيها من زينتها ومعايش الناس ، وكذلك فعل الله بهذا القرآن والناس» [٢] و «إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أحب إليه من شيء خرج منه» [٣] «وإنه المهيمن على الكتب كلها وإنه حق من فاتحته إلى خاتمته ..» [٤].

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٦ . اخرج ابن مردوية عن علي رضي الله عنه قال قيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) او سئل ما المخرج منها فقال كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(٢) الدر المنثور ٥ : ٣٦٦ . اخرج ابن مردويه عن ابن سعد لا احسبه إلا أسنده ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : مثل القرآن ..

(٣) المصدر . اخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عقبة بن عامر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تلا هذه الآية فقال : .. وفيه اخرج البيهقي عن أبي ذر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .. بشيء أفضل .. وفيه اخرج عن عطية بن قيس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ما تكلم العباد بكلام أحب الى الله من كلامه وما أناب العباد الى الله بكلام أحب اليه من كلامه بالذكر قال بالقرآن.

(٤) عيون اخبار الرضا في باب ما كتبه الرضا (عليه السلام) للمأمون في محض الإسلام وشرايع الدين وفيه : والتصديق بكتابه الصادق العزيز الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وانه المهيمن .. نؤمن بمحكمه ومتشابهه وخاصة وعامة ووعده ووعيده وناسخه ومنسوخه وقصصه واخباره لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله.

وفيه بسنده عن محمد بن موسى الرازي قال حدثني أبي قال ذكر الرضا (عليه السلام) يوما القرآن فعظم الحجة فيه والآية المعجزة في نظمه قال : هو حبل الله المتين وعروته الوثقى وطريقته المثلى المؤدي الى الجنة والمنجى من النار لا يخلق على الازمنة ولا يغث على .

﴿ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ﴾(٤٣).

قيلات على الرسالات وحملتها طول التاريخ الرسالي هي كلها ويلات متناسقة مع بعض ومتشابكة ، وشريطات مكرورة تدار من حماقى الطغيان والجهالات على أصحاب الرسالات ، كلما كانت الرسالة أقوى ، ودعايتها أعرض وأنبى ، كانت القيلات عليها أوسع وأشجى ، ولأن هذه الرسالة السامية تجمع الرسالات كلها وزيادة ، فالقيلات عليها تجمع تلكم القيلات كلها ﴿ما يُقالُ لَكَ﴾ يا حامل الرسالة الأخيرة ﴿إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقد قيل عليهم كل قيل ، فلتصبّر نفسك على كل قيل ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ﴾ ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾ مهما كان مرساهم «ولتصنع على عيني» ف «بأعيننا» تجمع جماع الرقابات حفاظا على رسالتك ، لأنها محطة القيلات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يغفر قيلات عليك سترا لها وسدا عليها فلا يأتيها الباطل بما يبطلون ، وكما ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ كذلك ليغفر لك كل باطل يأتيك من بين يديك ومن خلفك ، إذ لا يسطع على إبطال حجتك ، وإغراقك في لجتك.

ثم هو ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لمن تاب معك أو يتوب ﴿وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن يصر في إبطال أمرك.

﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ

. الألسنة لأنه لم يجعل لزمان دون زمان بل جعل دليل البرهان والحجة على كل انسان ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾(٤٤).

﴿**وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ، كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ، لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ**﴾ (٢٦ : ٢٠١).

آيتان في سائر القرآن تفصحان عن النخوة العربية وجاه وحي القرآن أن لو كان أعجميا لزادوا في النكران ، مما يدل على مدى شقوتهم وتصلّبهم في قوميتهم لحد يجعلونها أصلا وحتى لصرح الإيمان ، فأولئك ينادون من مكان بعيد ، لتباعدهم عن طريق الرشد ، وإعراضهم عند دعاء الحق ، كأنهم من شدة التوائهم والذهاب بأسماعهم والانصراف بقلوبهم ينادون من مكان بعيد ، فالنداء غير مسمع لهم ولا واصل إليهم ، ولو سمعوه لضلّ عنهم فهمه للصد المنفرج بينهم وبينه ، إذ فصلت قوميتهم بينهم وبين سماع الحق والخضوع لديه ، وحتى حين نزّل عليهم القرآن عربيا فضلا عن جعله أعجميا إذ قالوا ﴿**لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾! فما هم بصاغين الله لا عربيا ولا أعجميا.

والأعجمي من العجمة خلاف الإبانة ، والإعجام هو الإبهام ، والأعجم من في لسانه عجمة عربيا كان أم سواه ، ومنه قيل للبهيمة عجماء ، ولصلاة النهار عجماء ، إذ لا يجهر فيها بالقراءة ، وسميت الحروف المفردة معجمة لأنها لا تدل على ما تدل عليه الحروف الموصولة.

فالأعجمي بصورة عامة هو اللغة التي لا تفهمها ، من بهيمة فهي أعجمية ، أم فارسية أما ذا من لغات لست تفهمها ، أم وعربية لا تعرفها ، فكل لغة بالنسبة لمن لا يعرفها أعجمية ، فاللغات كلها أعجمية لغير أصحابها ، عربية لأصحابها ، وكما يعبر التوراة عن القرآن العربي بين العبرانيين أنه بلغة لكناء أعجمية كالنص التالي :

إت مي يوره دعاه وإت مي يابين شموعاه غكمولي محالاب عتيمي مشادايم (٩) كي صولا صاو صولا صاو قولا قاو قولا قاو زعير شام زعير شام (١٠) كي بلعجي شافاه وبلاشون أحرت يدبر ال هاعام هذه (١١).

لمن ترى يعلّم العلم ولمن يفقّه في الخطاب أللمفطومين عن اللبن المفصولين عن الثدي (٩) لأنه أمر على أمر أمر على أمر فرض على فرض ثم فرض على فرض هنا قليل وهناك قليل (١٠) لأنه بلهجة لكناء بشفاه أعجمية وبلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب» [١]

والأعجمي على ضربين ، ضرب أوّل ما فيه عجمة نسبية ككل لغة لا تعرفها ، وضرب آخر ما فيه إبهام وإجمال وهو لغتك إما بلكنة في لسان ناطقها ، أم غرابة في نظمها ونسجها كالقائل «ما لكم تكأكأتم كتكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني».

وكأنهم تطلّبوا إليه أن ينزل لهم قرآنا أعجميا [٢] في اي بعد من العجمة ، كسائر تطلباتهم الجاهلة الهراء فجاء الجواب : ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ..﴾

هنا لهم اعتراضان اثنان ﴿لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا﴾ ١ ﴿لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ﴾ حيث أجملت فلا نفهمها كما يجب ، والتفصيل هو الإفصاح عن المعنى كما هو الآن في القرآن ، فخلافه أعجمي أيا كان ولا سيما إذا كان بغير لغة القرآن ، ولكنه ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾!

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد فيه تفصيل هذه البشارة بشأن القرآن ، وهذا النص نقلناه عن كتاب اشعياء النبي حسب الأصل العبراني.

(٢) الدر المنثور ٥ : ٣٦٧ . اخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال قالت قريش لولا انزل هذا القرآن أعجميا وعربيا فانزل الله ﴿لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ﴾ آياته : اعجمي وعربي وانزل الله تعالى بعد هذه الآية بكل لسان حجارة من سجيل.

٢ ﴿ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ والأعجمي هو الكتاب لو جعل أعجميا ، والعربي هم العرب ، يستنكرون ويتناكرون أن يجعل كتاب شرعتهم بغير لغتهم لا لشيء إلّا لأنهم عرب ، يتأنفون غيرهم وغير لغتهم ، ويتأنقون لأنفسهم ولغتهم ، فبالإمكان أن تترجم كل لغة بلغتهم لو كان القرآن بغير لغتهم ، وكما سائر المكلفين المرسل إليهم بشرعة القرآن ، يستعجمون لغة القرآن فإنها غير لغتهم ولكنهم لا يتأنفون ، فهم بين من يتعلم لغة القرآن ، أو يتعلم من عارفها فيتفهم بذلك القرآن ، وكما ترى الرعيل الأعلى من الأدباء العرب هم من غير العرب.

إن كتابا كالقرآن ، الموجه إلى العالمين كافة ، لا بد أن ينزل بلغة من اللغات عربية كانت أم أعجمية ، ولكنما العرب هم الذين يتنكرون لو جعل قرآنا أعجميا.

لذلك ترى الجواب ألّا منعة هنا إلّا اللّاإيمان ، حيث الإيمان يجد سبيله إلى شرعة القرآن بأية لغة كان : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ﴾ أيا كان لغتهم ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وإن كان بلغتهم ﴿فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ كما قالوا ﴿لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾!

﴿أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ نداء يوم الدنيا إذ فصل بينهم وبين هدي القرآن كفرهم البعيد ، فكأنهم ﴿يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ وهم قريبون إلى المنادي وقريبون إلى لغة النداء ، ولكن بعّدهم العداء فهم بعاد عن النداء! ومن ثم ﴿يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ يوم الأخرى ، حيث المنادي الملائكي لا يقربهم ، فيناديهم من بعد ترذيلا لمكانتهم ، والمنادي الإلهي يناديهم من بعيد كمنادى رذيل لا يعبأ به.

وقد تكون حكمة نزول القرآن باللغة العربية أنها أفضل اللغات

وأعربها ، وأنهم مبتدء الدعوة فلتكن بلغتهم ، وأنهم قوم لّد ليسوا يتقبلوا قرآنا بغير لغتهم ولا يقلبوا إليه!

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾(٤٥).

﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ تربية لهم على ضوء تربيتك ، فإنها الميزان لكل العالمين ، أتراها هي ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ (٧ : ٢٧)؟ ونحن نرى عذابات الاستئصال تترى في المكذبين بآيات الله طيلة التاريخ الرسالي ، فلما ذا قضي عليهم دون قوم موسى!

هنا ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ والاستئصال قاض عليهم ، فإنما القضاء بينهم إزالة للاختلاف بخارقة مارقة تجلي لهم الحق عيانا بعد بيان ، وتلجئهم إلى الإيمان بعد شك قاصد مريب ، ولكنما الدار دار ابتلاء وامتحان ، وليست دار فصل وحسبان ، إذا يذرهم واختلافهم في خوضهم يلعبون ، وفي غيهم يترددون.

ثم الشك منه مريب وهو أشره ومنه لا يريب ، فهم يظهرون شكهم بمظهر المريب ، ثم وليس العمل الصالح لصالح الرب ، إلّا لأنفس المربوبين يوم الدنيا ويوم الدين ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أن يسيّر على غير الصالح ثم يحاسب عليه ، ظلما ذا بعدين يجعل من ربك ظلاما للعبيد!

صحيح أن من أساء تعديا على من سواه فقد أساء على من سواه ، ولكن المحور الرئيسي في ردة فعله ليس إلا المسيء نفسه ، وكما العمل الصالح على سواء.

فالإساءة والإصلاح غير المتعديين هما لزام المسيء والمصلح دون سواهما ، والمتعدي منهما فيه ضعف لهما إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فصاحبه هو

الأصيل في فعله وافتعاله ، ثم الله لا نصيب له من خيره أو شره ، ف ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ﴾.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾(٤٧)

علم الساعة مردود إليه ، محفوظ لديه ، لا يعدوه إلى سواه حتى رسل الله ، فإذا سئلوا عنه ردوا علمه إليه ، وليس فقط علم الساعة ، بل ﴿وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ﴾ من أوعيتها الأكمام ، ﴿وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى﴾ نباتية أم حيوانية أم انسانية أماهيه ﴿وَلا تَضَعُ﴾ حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾.

هنا «من ثمرات» و «من أنثى» تستغرق الكل من كل دونما استثناء ، أنها بحيطة علمية إلهية ولا تسامى ، مهما علم العالمون شيئا ضئيلا من هذه وتلك.

وذلك توحيد لربوبية العلم والقدرة ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ﴾ إذ تقطعت الأسباب وحارت دونه الألباب ﴿أَيْنَ شُرَكائِي﴾؟ الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، ﴿قالُوا آذَنَّاكَ﴾ إعلاما وإعلانا ﴿ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ لا هنا فأنت أنت الله الواحد القهار ، ولا يوم الدنيا مهما خبطنا وأخطئنا.

وهنا ﴿مِنَّا مِنْ﴾ ضاربة إلى عمق بعيد من سلبية الاستغراق ، فلا أحد منا يشهد أن لك شركاء! وهنالك :

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾(٤٨).

فهنالك ظهور الحقايق ، فليضل الشركاء المختلقون ، فذواتهم هناك موجودة ، وصفاتهم مفقودة ، وذلك ضلالهم والضلال عنهم ، أم وذواتهم

مخبوة لترذّلها ، اللهم إلّا الأولياء الذين اتّخذوا لله شركاء.

ولماذا هنالك «ظنوا» واحتمال المحيص لهم ساقط بما يرون من عذاب الله؟ علّهم لنكرانهم الشهداء من ناحية ، ولمسة المسرحة الرحيمية لله من أخرى ، قد يخلد بخلدهم أن لهم «من محيص» ف ﴿ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾.

﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾(٤٩).

﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ﴾ ولا يملّ ﴿مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ﴾ أن يدعوه طلبا في حال وفعال وقال ، أو يدعى له ، فدعاء الخير يعم دعاءه الخير بنفسه أم دعاء غيره له بالخير ، وسواء عنده أن يدعو ربه أم سواه ، بل قد يفضل عليه سواه ، ولما ييأس عن سواه يدعوه مخلصا ولكي يحصل على مناه.

فكل ما يراه خيرا يكدح في طلبه كدحا بكل صنوف الدعاء ، ولكنه ﴿إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾ كأن لم يكن هناك خير ، ففي لمسة من شر ينسى كل خير قبله كأن لم يعطه من ذي قبل.

مجرد مس الشر يقنطه عن كل خير مأمول ، وهو رسم دقيق واقع صادق للنفس البشرية لاغترارها الكادح بالسراء ، وجزعها بمس الضراء.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾(٥٠).

وما أحمقه في قولته الخواء «هذا لي» نكرانا أنه لله ومن الله ، دونما استحقاق له من رحمة الله ، فإن كانت لك فلما ذا سلبت عنك فأنت يؤس قنوط ، ثم الدنيا ليست دار جزاء يجزى فيها أهل الحق برحمة ، فحتى لو كنت منهم ف «هذا لي» غلطة ثم ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً﴾ ثانية ﴿وَلَئِنْ

رُجِعْتُ إِلى رَبِّي﴾ ثالثة ، فهل أنت بثالوثك المنحوس تستحق رحمة ربك ، والمؤمنون لا يستحقون؟

وهنا في «ربي» اختصاص لربوبيته تعالى بنفسه كأنه ليس رباً لسواه ، وفي «إن لي للحسنى» تاكيدان اثنان أن له حسنى الحياة ، ولماذا هذه الإشراكة بالله ، ونكرانه يوم لقاء الله ، إذا فالموحدون المؤمنون هنالك يحرمون ، وهؤلاء الغباوى يكرمون؟ ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى﴾!.

﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾(٥١).

وهذه حالته الغفلانة الرديئة إلّا من هداه الله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾(٥٢).

فهلا يكون ذلك احتمالا يستحق الاحتياط ، فما ذا أخذتم لأنفسكم من وسائل الاحتياط ، فإن لم يكن القرآن من عند الله فنحن وإياكم شرع سواء ، لا يضرنا ما صمنا وصلينا ، ولا ينفعكم متعة الحياة الدنيا.

وأما إن كان من عند الله كما تدل عليه دلائله ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ فمن أضل منكم حيث عشتم في شقاق بعيد.

وذلك دليل عند فقدان الدليل ، أم تعنّت خانق أمام الدليل ، لا ينكره حتى المجانين ، فالأخذ بالحائطة طريقة العقلاء ، حيث الاحتياط طريق النجاة ، كلما كان المحتاط له أهم فالاحتياط له أتم وأعظم.

﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(٥٤).

هنالك آيات ترى بعين الفطرة والعقل والحس أمّاذا من جوارح

وجوانح ، فلا حاجة إلى إرائتها ، وآيات أخرى غامضة يريها الله بما يبين في كتاباته وألسنة أنبيائه أم إلهامات غيبية ، وهي حالة حالية وماضية على أية حال ، فما هي الثالثة التي «سنريهم»؟ وتبين الحق في القرآن لزام كل مكلف على أية حال ، وإلّا لم تكن حجته بالغة على كل حال!

ضمير الغاب في «أنه» هو الله العزيز وكتابه العزيز ، و «آياتنا» تعم التدوينية القرآنية والتكوينية الكونية ، ولأن «في أنفسهم» تعم دواخل نفوسهم ، وإياهم فيما بينهم ، ف «في الآفاق» تعم خوارج نفوسهم ، والخارج عما بينهم ، ف «نفوسهم» تخص الدواخل ، «وأنفسهم» تعمها وما بينهم.

صحيح أن بصر العين وبصيرة العقل والفطرة كافية لتبنّي أصل الإيمان بالله وكتابه ، ثم الإرائه الإلهية تزيد إيمانا على إيمان : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ وهدى على هدى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً﴾ إلا أن لكل مستقبل من الزمن إشراقة تبيّن وإرائة فوق إرائة ، هي من عوامل تبيّن الحق في زاوية ثالثة للذين اهتدوا ، ومن الأسباب القاطعة القاصعة لتبيّنه للذين جحدوا بها ، كالأخبار المستقبلة ، فوقوعها كما أخبر عنها إراءة مستقبلة ، وكالتقدمات العقلية والعلمية الناصعة التي ترى عيانا ما لم يكن يرى من ذي قبل إلّا بعين البصيرة ف «إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن».

فالتقدمات العقلية والعلمية هي من الآيات الأنفسية الأولى ، فآفاقيتها هي الكشوف العلمية التي تكشف ـ دوما ـ النقاب عن وجه كتاب التكوين حيث تجاوب كتاب التدوين.

والانتصارات الإسلامية هي من الأنفسية الثانية كفتح مكة وغلب الروم الكتابيين على المشركين : ﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ

بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وقد حصل ، أماذا من غلبات وانتصارات وسواها من ملاحم أخبر عنها القرآن ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[(١)].

والانهزامات لغير المسلمين هي من الآفاقية الثانية لهم ، وقد يجمعها خير جمع وأفضله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٢٤ : ٥٥) حيث يعز أولياءه ويذل أعداءه ، آفاق فائقة للذين آمنوا ، بائقة للذين كفروا.

فالمسلمون وسواهم من الناظرين إلى القرآن يعيشون دوما آيات الله تدوينا وتكوينا في الآفاق وفي أنفسهم ، حيث يريهم الله إياها ، فهما يبيّنان لنا الحق في الله ، والحق في كتاب الله في مثلث التبيين ـ أم لأقل تقدير ـ في زاوية أولى ، ومن ثم ثانية لتبين الحق أمام الطالبين ، وإذ لم يكف ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[(٢)].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٥٥ ح ٧٣ في كتاب الاحتجاج روى عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسن بن علي (عليه السلام) قال : ان يهوديا من يهود الشام وأحبارهم قال لعلي (عليه السلام) فان هذا موسى بن عمران قد أرسله الله الى فرعون وأراه الآية الكبرى قال له علي (عليه السلام) : لقد كان كذلك ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أرسله الله الى فراعنة شتى مثل أبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة وأبي البختري والنضر بن الحرث وأبي بن خلف ومنبه ونبيه ابني الحجاج والى الخمسة المستهزئين الوليد بن المغيرة المخزومي والعامر بن وائل السهمي والأسود بن عبد يغوث الزهري والأسود بن المطلب والحارث ابن الطلاطلة فأراهم الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق.

(٢) الواو هنا عطف على مثل ما ذكر حيث يصلح لان يكفي بربك ارائة لآياته في الآفاق وفي أنفسهم.

إن شهادته على كل شيء كما في آيات عدة كهذه [١] هي حضوره علميا وقيوميا وتلقيا لأعمال وحالات ، وحضوره تربويا ، فربوبيته ناصعة في كل شيء و «على» هنا تشهد أن شهادته تعالى عالية محيطة هي لزام ذوات الأشياء كيفما كانت وأنّى وأين ، منذ خلقت وحتى القيامة والفناء لما يفنى!

و «ربك» حيث تعني التربية الإلهية القمة ف ﴿عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هي في قمة الشهادة المحيطة علوا فيها علميا وقيوميا وتلقيا وتدليلا له عليه ، وهذه الشهادة المربعة دائبة طول الزمان وعرض المكان لكل إنس وجان.

و «العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد من العبودية وجد في الربوبية وما خفي في الربوبية أصيب في العبودية قال الله ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ : أي موجود في غيبتك وحضرتك» [٢].

ومن تبين الحق في الله وفي القرآن وفي كل حق ما يريه من آيته العظمى وحجته الكبرى الحجة القائم المهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) [٣].

---

(١) ﴿وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٥ : ١١٧ ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٢٢ : ١٧ «وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» ٣٤ : ٤٧ ﴿وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٥٨ : ٦ و ٨٥ : ٩ «إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً» ٤ : ٤١ و ٣٣ : ٥٥ . وبالنسبة للأعمال : ﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ﴾ ٣ : ٩٨ ﴿ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ﴾ ١٠ : ٤٦.

(٢) مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام).

(٣) نور الثقلين ٤) : ٥٥٥ ح ٧٤ في روضة الكافي عن الطيار عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : خسف ومسخ وقذف قال قلت «متحاربتين لهم»؟ قال : دع ذا ذاك قيام القائم وفيه عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) .

وهكذا يتجاوبان ويتناظران كتاب التدوين القرآن وكتاب التكوين أيا كان على طول الخط منذ نزل القرآن حتى القيامة الكبرى ، تجاوبا في رؤية وإرائة ﴿آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟

«ألا» حذارهم حذار ﴿إِنَّهُمْ﴾ غارقون ﴿فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ﴾ هنا ويوم يقود الأشهاد «ألا» تنبها وحضورا ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ كما هو على كل شيء شهيد ، إحاطة في مربع الشهادة ، وشهادة في مربع الإحاطة لا مفلت عنه ، ولا مناص عن لقائه!

أترى بعد ذلك كله أن «هم» في سنريهم تخص الحاضرين؟ كلا إنه يعمهم والذين يلحقون بهم من خلفهم وإلى يوم الدين ، يعيشون إرائة الآيات الآفاقية والأنفسية تدوينية وتكوينية! ومن المستقبل المعني في «سنريهم» عند الموت وعند النشور ، لمن عمي عن آيات الله رغم رؤيتها وإرائتها ، فلا أحد إلّا وقد يرى آيات الله في الآفاق والأنفس ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾!.

. قال سألته عن هذه الآية قال : نريهم في أنفسهم المسخ ونريهم في الآفاق انتقاض الآفاق عليهم فيرون قدرة الله عز وجل في أنفسهم وفي الآفاق قلت له ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾؟ قال : خروج القائم هو الحق عند الله عز وجل تراه الخلق لا بد منه.

سورة الشورى مكيّة

وآياتها ثلاث وخمسون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) عسق (٢) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)
لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ
فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
(٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذلِكَ
أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ
وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ

يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾(٨)

هنالك حواميم سبع تترى تلو بعض ، ثالثتها هذه ، وتزيد على الست الأخرى «عسق» وكلها مكية ، تتلو حواميمها ذكر الكتاب إنزالا وتنزيلا بيّنا ومبينا ، إلّا هذه ، حيث تذكر مطلق الوحي او الوحي المطلق إلى هذا الرسول والذين خلوا ، كما ويعقبه دون فصل كتاب التكوين إيحاء بتجاوب الكتابين ، وتلائمهما ، كما هما مع الحواميم.

ترى وما هو السر في تتابع الحواميم السبع المكية واختصاص ثالثتها ب «عسق» ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾! ومهما يكن من شيء فلتعن «عسق» هنا زائدا عما عنت ﴿حم﴾ في الست الأخرى ، وعلّ من الزائد ما يوحيه ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أو «وعلم كل شيء في «عسق» (١) ف

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٥٧ في تفسير علي بن ابراهيم «حم. عسق» هو حروف من اسماء الله الأعظم المقطوع يؤلفه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) فيكون الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب ، حدثنا احمد بن علي واحمد بن إدريس قالا حدثنا محمد بن احمد العلوي عن العمركي عن محمد بن جمهور قال : حدثنا سليمان ابن سماعة عن عبد الله ابن القاسم عن يحيى بن ميسرة الخثعمي عن أبي جعفر (عليها السلام) قال : سمعته يقول : حم عسق عدد سني القائم صلوات الله.

﴿كَذلِكَ يُوحِي﴾ إجمال عن الوحي كله ، أم ماذا؟ ، والحروف المقطعة في كل سورة إذا كانت عدة تجمع ك «المر . كهيعص» وكيف فصلت هنا ﴿حم﴾ عن ﴿عسق﴾ اللهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا!.

أو ترى أن ﴿كَذلِكَ﴾ : الوحي البعيد البعيد في مكانته ومحتده ، إشارة إلى ما بعدها من الشورى أو القرآن كله؟ كما في ﴿ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾؟ ولكن الإشارة إلى ما مضى أحرى منها إلى ما يأتي! وما أوحي إلى الذين من قبله ليس كمثل الشورى أو القرآن كله اللهم إلّا في أصل

. عليه وقاف جبل محيط بالدنيا من زمردة خضراء فخضرة السماء من ذلك الجبل وعلم كل شيء في «عسق» ، وفي تفسير البرهان ٤ : ١١٥ باسناده عن ابن عباس قال : حم اسم من اسماء الله عز وجل وعسق علم على تفسير كل جماعة ونفاق كل فرقة ، وفيه في معاني الاخبار باسناده الى سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : واما حم عسق فمعناه الحكيم المثبت العالم السميع القادر القوي. وفي تفسير البرهان ٤ : ١١٥ باسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : حم : حتم وعين : عذاب ، وسين : سنون كسني يوسف ، وقاف : قذف ومسخ يكون في آخر الزمان منه بالسفياني وأصحابه وناس من كلب ثلاثون ألف يخرجون معه وذلك حين يخرج القائم (عليه السلام) بمكة وهو مهدي هذه الأمة.

أقول : ليس لنا ان نتأكد بشيء من هذه المعاني المروية في روايات آحاد ، كيف ولا نصدق تفسيرا للكتاب المفصل الا ما وافقه او ثبت وروده قطعيا عن اهل بيت القرآن ، فبأن نحتاط في تفسير صفوة القرآن أحرى وأوجب ، ورواياته آحاد ومتضاربة ، فلا نصدق الا ما يصرح أو يلوح به القرآن أو ثبت وروده عن اهله الخصوص المعصومين (عليهم السلام).

وقد نصدق طرفا من «علم كل شيء في ﴿عسق﴾ اعتبارا بالآيات التي تليها ولا سيما ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ان ﴿حم عسق﴾ يرمز الى الوحي كله ، ما نزل من قبل وفي هذا ، اللهم لا علم لنا الا ما علمتنا.

ثم ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ..﴾ لعلها توحي بتفطر ما توحيه ﴿حم عسق﴾ كما في دولة المهدي (عليه السلام).

الوحي دون شاكلته ومراتبه ومادته ، حيث القرآن يفوق سائر الوحي في هذا المثلث.

أو أن «كذلك» تشير إلى ﴿حم. عسق﴾ في وحيها الخاص بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أن النبأ الذي تحمّله أوحي إلى الذين من قبله كما أوحي إليه.

أو أن «كذلك» تعني أمثال هذه الحروف المقطعة التي هي رموز تخص أصحاب الوحي . لا خصوص حم. عسق .؟ ولا نرى في سائر كتابات الوحي هكذا وحي مقطّع! إلّا أن يعني أصله الموحى إليهم دون كتبه في كتاباتهم.

أو أنه إشارة إلى أصل الوحي في بعد يعم سائر الوحي لسائر المرسل إليهم دون خصوص المرسلين ، لا الوحي الثنائي الذي هو وحي في وحي ﴿حم. عسق﴾؟

أو أنه يعم الجميع. ف «كذلك» الذي يوحي إليك ربك في الشورى وسائر القرآن يوحي إلى الذين من قبلك ، وحي كسائر الوحي في السنة الرسالية كأصل مهما اختلفت مراتبه كيفية ومادة أم ماذا؟ : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (٤ : ١٦٣) فالدين الوحي واحد في الكيان مهما اختلفت الشرايع إليه شكليا وفي علو الكيان ، لحد قد يعتبر سائر الوحي الأصيل إلى سائر أولي العزم من الرسل وجاه الوحي القمة المحمدي وصية : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ..﴾ (٤٣ : ١٣) وكثيرة هذه الآيات التي تبرز مشاركة غير مشاكسة بين مدارج الوحي ، اللهم إلّا بميّزة الكمال القمة في خاتمة الوحي.

و «كذلك» مثل ﴿حم. عسق﴾ من الوحي الخاص المنحصر في

أصحاب الوحي : المنحسر عن سواهم ﴿يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مهما لم تثبت هذه الرموز في كتاباتهم وثبتت في القرآن.

فالوحي منه ذو بعد واحد كالمجرد عن الألفاظ مثل ما أوحي من محكم القرآن على قلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة القدر ، أو ذو بعدين ثانيهما بعد الألفاظ المفصلة كالقرآن المفصل ، أو ذو أبعاد ثلاثة ثالثتها الحروف التلغرافية المقطعة ، فإنها مثلث الوحي : أصل المعنى ـ أصل اللفظ ـ ورمز اللفظ ، و «كذلك» ككلّ أو كبعض ﴿يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وكما أن الآية توحي بعامة الوحي إلى عامة أصحاب الوحي بمختلف مدارجه ، فقد تعلّله الأسماء الخمسة الحسنى التي تليها : «وهو ١ ـ ﴿الْعَزِيزُ ٢ ـ الْحَكِيمُ.﴾ ٣ ـ ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ٤ ـ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ ٥ ـ الْعَظِيمُ﴾ فهذه الخماسية المجيدة تعلل موجهة الوحي الرسالي إلى عامة المرسلين.

فبعزته يوحي إذ لا صادّ يصدّه ﴿وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾ (١٢ : ٢١) والوحي من مظاهر العزة الإلهية حيث يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، والعزة الملكية بارزة في عزة وحيه إلى أعزة من خلقه ليعزز حكمه عليهم.

وبحكمته لم يوح إلى عامة المكلفين ، حيث القلوب أوعية وخيرها أوعاها ، فلا وحي إلّا إلى أوعاها ، ثم بحكمته أوحى إلى كل قلب أوعى قدر وعيه وحاجة الموحى لهم ، المرسل إليهم أم ماذا؟

ولأن ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ اختصاص للملكية والمالكية الحقة الحقيقية العامة للكون كله ، فهو هو الموحي لتدبيره كله تشريعا كما هنا وتكوينا كما ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها ..﴾ (٤١ : ١٢)

وكل سماء تشمل فيما تشمل كل أرض من السبع ، والأمر الموحى في الكل يعم التدبير تكوينا وتشريعا.

ولأنه «العلي» في عزته وحكمته وملكيته ومالكيته ، فلا ينال من دونه إلّا ما منحهم ، فهم لا يملكون وحيا إلّا ما أوحي ﴿كَذلِكَ يُوحِي ..﴾.

ولأنه «العظيم» فيها وفي علّوه فليعل وليعظم وحيه ، وليعز وليحكم وحيه ، وليملك ويسيطر وحيه على الموحى إليهم والموحى لهم.

هنالك تتقرر وحدة الوحي في أصله ، ووحدة مصدر الوحي ، فالموحي هو الله العزيز الحكيم الملك العلي العظيم ، ووحدة الموحى إليهم على مدار الزمن ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ ..﴾ الوحي المثلث الوحدوي ، قصة بعيدة المدى ، قريبة الهدى ، ضاربة في أعماق الزمن وأطواءه ، متشابكة الحلقات وليست متشاكسة ، في مناهج ثابتة الأصول مهما اختلفت الفروع.

فالله واحد ، والرسالة واحدة ، والأمة واحدة : ﴿يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٢٣ : ٥٣).

﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥).

إن لتفطر السماوات من فوقهن موقع في القيامة الكبرى بما يفطرها الله : ﴿إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ ..﴾ (٨٢ : ٢) حيث العلي العظيم يقضي بذلك التفطّر ، ومن قبلها ومنذ خلقت موقع للتفطر «تكاد» كما هنا ، وحين خلقها موقع حيث فطرت من المادة الأمّ :

﴿فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٦ : ١٤) ﴿... فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ (٤ : ١٢).

وتفطّر السماوات حيث تكاد هو بين الواقعين : تعميرا وتدميرا ، ثم وهو بين العلوّ والعظمة الإلهية : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وبين الاتخاذ من دونه وليا : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ كما ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً. وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً. لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ (١٩ : ٩٤).

والفطر هو الشق ، شقا إلى الخلق كما شق السماوات والأرض من المادة الأم.

والمادة الأم شقّها لا من شيء إلّا ارادته ، أو شقا إلى الخراب ﴿إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ﴾ فهناك فطر الإيجاد والتعمير ، وهنا فطر الإعدام والتدمير ، ويختص الأخير بالانفطار التفطر [1] كما الاول بالفطر [2] حيث الأولان تقبّل لفعل الفطر التدمير ، والأخير هو هو الفطر للإيجاد أو التعمير.

ثم و ﴿تَكادُ السَّماواتُ﴾ هنا قد تعني اقتراب الساعة فيما تعنيه من الحالة الكائنة بين فطرها وتفطرها ، وإن كانت لا تعني إلّا الثانية في آيتها الثانية ، وكيف لا تكاد تتفطر من فوقهن! والعظمة الإلهية من ناحية ، واتخاذ أولياء من دونه من أخرى ، تقتضي أن تتفطر قبل قيامتها ، لولا أن ﴿الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ و ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ

---

(١) كما «السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ» (٧٣ : ١٨)

(٢) ك «فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ» ١٢ : ١٠١ و ١٤ : ١٠ و ٣٥ : ١ و ٣٩ : ٤٦ و ٤٢ : ١١.

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى.﴾ (١٦ : ٦١) ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ﴾ ..﴿ (٣٥ : ٤٥).

وكما للعظمة الإلهية ـ وأن دعوا للرحمن ولدا ومن دونه اولياء ـ موقعها في ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ كذلك للوحي الإلهي المعلّل بخماسية الأسماء الحسنى وأخراها «العظيم» أن يفطر القلوب ويقلبها غيرها ، ف ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٩ : ٢١) فيا لقلوبنا من قساوة لا تتخشع وتتصدع من خشية الله!.

ولماذا هنا ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ وفي مريم «يتفطرن» دون فوقهن؟ علّه لان تفطرها في مريم ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً﴾ وهنا إضافة إليها ، العظمة الإلهية من فوقهن ، وعظمة الوحي تكوينا وتشريعا من فوقهن ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ (٤١ : ١٢) ، شاملا لسماء الدنيا حين تشمل أرضنا ، حيث الوحي قول ثقيل أيا كان وأيان : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (٧٣ : ٥) فهاتان الفوقيتان مع ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً﴾ تسبّب أن ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ..﴾!

ثم ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ كما تعني فوقية العظمة والوحي الإلهي ، تعني كذلك نفس الفوقية السماوية أنها تتساقط بأجواءها وأجرامها.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾(٦).

إن ولاية التشريع والتكوين المستفادة من هذه الآيات الخمس وأشباهها في سائر القرآن ، هي خاصة بالله كسائر الولايات الإلهية ، ولا تعدوه إلى سواه ، فإنها ولاية ذاتية هي لزام ألوهيته وربوبيته ، ثم ولا يولي رسله

وأولياءه إلّا ولاية بلاغ الشرع ، والأولوية في المرجعية الروحية السياسية ، كما يحددها سبحانه ويتخذهم أولياء لخلقه ، فلا ولاية ذاتية أيا كان لمن سواه ، ولا غيرها إلّا بجعله.

فمن يتخذ من دون الله أولياء : ولاية إلهية من دون الله ، أم جعلية من دون إذن الله ﴿اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء المتخذين فكرتهم وفعلتهم الخاطئة وسوف يحاسبهم عليها ، وعلى الأولياء الزور الطواغيت حيث ادعوها أو قبلوها ، وعلى الأولياء الأوثان وهؤلاء ، فالله حفيظ عليهم بولاية التكوين والتقدير ، فكيف يتخذون من دون الله أولياء؟ ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولاء هؤلاء) ﴿بِوَكِيلٍ﴾ : أن تمنع الطالب والمطلوب من فعلته وحالته وكالة تكوينية ، وإنما لك رسالة بلاغيّة عذرا أو نذرا.

فهنا ﴿اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ إنذار واحتجاج ما أخصرهما وأجملهما ، فالحفاظة الإلهية على من اتخذوا من دونه أولياء حفاظة أنفسية حيث هم في حفظ الله وإن يشاء يذرهم دون حفظ فيتهدرون ، وحفاظة على أعمالهم السيئة حيث تشهد عليهم يوم يقوم الأشهاد. وهذا إنذار لأولاهم وأخراهم ، ثم هو حفيظ على المتخذين من دونه أولياء ، لولا حفظه لهم لم يظلوا في كونهم وكيانهم فكيف يتخذون أولياء ذاتيا من دون الله أندادا ، أم جعليا في سائر الولايات إلّا التكوينية والتشريعية ، فالحفيظ عليهم كما يحفظ كونهم كذلك يحفظ كيانهم ، فولاياتهم غير الإلهية ليست إلّا بإذن الله فكيف يتخذون من دون لله أولياء؟ وإذا كانوا طواغيت جمع عليهم الإنذار والإحتجاج.

﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(٧).

«وكذلك» البين المبين من آيات كما هنا وفي سائر القرآن ﴿أَوْحَيْنا

إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ يعرب بفصيح آياته وبليغها لأعلى القمم عن أعلى القيم التي تقوّم وتقيم المكلفين على صراط مستقيم ، واضحا لا تعقيد فيه ولا ريب يعتريه ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾ :

ترى ما هي أم القرى ومن هم من حولها؟

أم القرى هي مكة المكرمة (١) وهل إن من حولها هي القرى العربية من شبه الجزيرة ، حيث الحول هو القرب الدائر مدار الأصل؟ أم وسائر القرى العربية من الجزيرة وسواها المتصلة بها ، المجاورة لها؟ وعربية القرآن بمعنى اللغة تشمل العرب عامة من حول أم القرى أم البعيدة المنفصلة عنها! أم ان حولها تشمل كل القرى في هذه المعمورة؟ وكيف تشمل غير العربية منها ووحي القرآن عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها لا يحمل إنذار غير العربي ، وإن حمل وشمل فلا اختصاص لإنذاره بقرى هذه المعمورة!

أم لا ذا ولا ذاك ولا .. فعربية القرآن لا تعني خصوص اللغة حتى تختص بأصحابها ، وإنما تعني وضوحها بين اللغات وعلى حدّ تعبير باقر العلوم في تفسير ﴿عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ : يبين الألسن ولا تبينه الألسن ـ حيث يعرب دون تعقيد وقصور عن أعمق المعاني وأعضلها : (علم الله النازل إلى المكلفين أجمعين) بأوضح بيان وأجمله.

هنا لسان عربي مبين ، وهناك لغة ﴿وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦ : ١٠٣) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٢٦ : ١٩٥) ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٢٩ ـ اخرج ابن مردوية قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ام القرى مكة. أقول وتمر عليك أحاديث بهذا المعنى تحت الأرقام ١ ـ ٢ و ٤ ـ في الصفحة الآتية.

لُدًّا﴾ (١٩ : ٩٧) ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٤ : ٥٨) فاللسان هو لغة البيان ، واللغة أعم من البيان واللّابيان : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٤ : ٤) ولسان قومه ، غير لغة قومه ، وإنما ما يعرب عن الحق دون أي خفاء ، لحد يفهمه كل مكلف حيث التعبير عربي مبين واضح لا تعقيد فيه.

ولأن اللغة العربية أعرب اللغات وأوضحها ، لذلك سميت عربية ، ثم الله أنزل هذا القرآن بأفصحها وأبلغها كما يفهمه كل متفهم ليكون الإنذار والتبشير به شاملا لا تبقي حجة ولا تذر.

فكما القرآن حكم عربي لا يختص بالعرب : ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا ..﴾ (١٣ : ٣٧) : حكما واضحا لا تعقيد فيه تفهما تعقلا وتوافقا للعقل والفطرة والحياة ككل ، ثم وتطبيقا على الطول التاريخي والعرض الجغرافي ..

كذلك هو قرآن عربي لعلكم تعقلون وتعلمون : ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٢ : ٢) ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٤١ : ٣) ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٣٩ : ٢٨) حيث لا عوج فيه تعبيرا وإعرابا عن الحق ، ولا معنويا ولا في أية ناحية من نواحي البلاغ.

كما وأن الإعراب إظهار الحالة الأدبية للكلمة ، والأعراب هم أهل البدو الظاهرون المتكشفون حيث لا تظلهم إلا السماء أم ماذا؟ غير البنيان في المدن. ف ﴿الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً﴾ (٩ : ٩٧) لا تعني من يتكلم بهذه اللغة ، وإنما من يعيش في البوادي ، حيث البعد عن مراكز التمدن الإسلامي يجعلهم بعيدين عن الإسلام فهم أشد كفرا ونفاقا وأجدر

ألّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ثم «القرى» هي كافة المجتمعات من سائر المكلفين من الجنة والناس أجمعين أم من ذا؟ في كافة المدن الأرضية [1] والسماوية دون استثناء ، وأمها هي مكة المكرمة زادها الله شرفا.

ان الكعبة المشرفة هي اوّل بيت وضع للناس : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ﴾ (٣ : ٩٦)[2] والله تعالى بك الأرض ومكّها من مكة ، حيث حركها من حيث هي كنقطة أولى

---

(١). في تفسير البرهان ٤ : ١١٥ القمي قال قال : ام القرى مكة لأنها اوّل بقعة خلقها الله من الأرض لقوله : ان أوّل بيت وضع للناس ..

أقول : ان امية الرسول من جهات عدة منها انه من ام القرى ، ومنها انه لم يقرأ ولم يكتب قبل النبوة ، وان كان أقرأ القراء واكتب الكتاب بعدها ﴿ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ والروايات التي تكذب النسبة الاخيرة انما تعني بعد النبوة لا قبلها كما في تفسير البرهان ١ : ٥٤١ باسناده عن علي بن حسان عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : قلت له ان الناس يزعمون ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكتب ولا يقرأ؟ فقال : كذبوا لعنهم الله أنّى يكون ذلك وقد قال الله عز وجل : هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ... فكيف يعلمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن ان يقرأ ويكتب؟ قال : قلت فلم سمي الامي! قال : نسب الى مكة وذلك قوله : لتنذر ام القرى ومن حولها ـ فأم القرى مكة فقيل : امي لذلك.

(٢)

نور الثقلين ٤ : ٥٥٧ عن تفسير علي بن ابراهيم القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله عز وجل ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى﴾ ـ مكة ـ ﴿وَمَنْ حَوْلَها﴾ : سائر الأرض! أقول : وهذا بيان لأوسط المصاديق ل ﴿مَنْ حَوْلَها﴾ كما فسرت باقر بها الطائف في رواية أخرى رواها العياشي عن علي بن أسباط قال : قلت لأبي جعفر (عليهما السلام) لم سمي النبي الأمي؟ قال : نسب الى مكة وذلك من قول الله : ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾ ـ وام القرى مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَها﴾ الطائف (تفسير البرهان ٤ : ٥٤٠) وفي الدر المنثور ٣ : ٢٩ ـ اخرج جماعة عن ابن عباس في تفسير ﴿مَنْ حَوْلَها﴾ قال : يعني ما ـ

لحراكها [١] : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ (٧٩ : ٣١) ﴿وَالْأَرْضِ وَما طَحاها﴾ (٩١: ٦) [٢].

ثم الأرض هي ايضا امّ لسائر الكرات لسبقها في خلقها عليها بمرحلتين : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٤١ : ١٢).

فمكة المكرمة من الناحية التكوينية هي أم القرى ، ثم وكذلك من الناحية التشريعية حيث الشرعة الإسلامية هي أم الشرائع وتلك أطفالها المتطفلة عنها وإن كانت قبلها ، فهي هي المركز الرئيسي للرسالات الإلهية أولا وأخيرا ، وهي الركيزة القويمة المتينة الدائبة للرسالة الإسلامية طول الزمان وعرض المكان ، ومن أمية الرسول أنه من ام القرى [٣] وأن رسالته أمّ الرسالات كلّها ولكل القرى.

. حولها من القرى الى المشرق والمغرب.

(١) في عيون الاخبار والإرشاد للديلمي ان شاميا سأل عليا (عليه السلام) عن مكة المكرمة لم سميت مكة؟ فقال (عليه السلام) : لأن الله مكّ الأرض من تحتها اي دحاها. وفي رواية اخرى عنه (عليه السلام): فلما خلق الله الأرض دحاها من تحت الكعبة ثم بسطها علي الماء.

(٢) القمي عن الباقر (عليه السلام) قال : ام القرى مكة ، سميت ام القرى لأنها اوّل بقعة خلقها الله عز وجل من الأرض لقوله عز وجل : ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا ...

(٣) في تفسير البرهان ٤ : ١١٥ محمد بن الحسن الصفار عن احمد بن محمد عن البرقي عن جعفر بن محمد الصيرفي قال : سألت أبا جعفر محمد بن علي الرضا (عليه السلام) قلت له : لم سمي النبي الأمي. الى ان قال : وانما سمي الامي لأنه من اهل مكة ومكة.

ولان «القرى» جمع محلّى بلام الاستغراق ، فهي تستغرق القرى المكلفة بهذه الشريعة العالمية في كافة أنحاء العالم بأرضه وسماءه ، ﴿وَمَنْ حَوْلَها﴾ لا تعني الحول القريب ، وإنما الحول من حيث التبعية الشرعية ، وهذا يتبع في حده ما تقرره الشريعة من حدود ، ف «القرى» بجمعيتها الاستغراقية من ناحية ، والحول بكونه حول الأمّ من ناحية أخرى تدلان على هذه السعة العالمية في ﴿مَنْ حَوْلَها﴾.

ومن المعروف والطبيعي أن من حول العاصمة في كل منطقة هم أتباع العاصمة وإن بعدوا عنها ، والأولاد هم حول الأم أيا كانوا ، فلا تعني الحول هنا وهناك المكان القريب من الأم والعاصمة ، وإنما التبعية للأصل مهما كان المكان قريبا أو بعيدا ، والرسالات الإلهية في القرى ليست إلّا في أمها : ﴿وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا﴾ (٢٨ : ٥٩)

فأم القرى هي العاصمة الوحيدة للرسالة الإسلامية العالمية ـ : رسالة إلى الناس كافة: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً.﴾ (٣٤ : ٢٨) ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ (٧ : ١٥٨) وليس الناس فحسب بل والجنّة أيضا : حيث تذكر مع الإنس أم وحدها في نطاق الرسالات الإلهية في عشرات من الآيات [1] ثم ولا الجنة والناس فحسب بل والعالمين أجمعين :

ـ من أمهات القرى وذلك قول الله في كتابه : لتنذر ام القرى ومن حولها ، وفيه عن القمي قال قال : أم القرى مكة سميت.

(١). ونماذج من هذه الآيات البينات كالتالية : «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي ..» (٦ : ١٣٠) «وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ..» (٧ : ١٧٩) «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ..» (١٧ : ٨٨) «وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ.

﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ (٢٥ : ١) ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (٢١ : ١٠٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٨١ : ٢٨) فوحي القرآن ضارب إلى الأعماق في طول العالم وعرضه ، من حضر ومن بلغته دعوته أيا كان وأيان : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (٦ : ١٩) وأم القرى هي المركز الرئيسي والعاصمة الوحيدة الوطيدة الخالدة لهذه الرسالة والدعوة الاخيرة ، فالجنة والناس أجمعون ، والعالمون أجمعون أيا كانوا وأيّان تشملهم هذه الدعوة العالمية دونما استثناء ، وهم كلهم من «من حولها».

إذا فآية أم القرى . وهي الآية الأم في التعريف بسعة هذه الرسالة . إنها تعتبر مكة المكرمة المركز الرئيسي للرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث صدرت وانتشرت عنها هذه الدعوة المباركة وعلى طول الزمن ، والقرى هي المجتمعات العالمية والمكلفة في شتى أرجاء الكون ، في هذه المعمورة أم سائر المعمورات في الأنجم ، وهي كلها «من حولها» حيث الحول تعني هنا ما يناسب عمومية القرى المستفادة من مستغرق الجمع فيها ، ولو أن «من حولها» يخص القريب منها دون الجمع ، لكانت القرى هي هذا البعض فقط لا الجمع ، فالمعنى : لتنذر أم بعض القرى! ..

إذا فدعوة الام ورسالتها تشمل القرى كلها وإلا لم تكن من قراها ، والقرى هم العالمون أجمعون حيث الله ربهم أجمعين : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (١ : ٣) إذا فالخارجون عن هذه الدعوة ادعاء وتعنتا هم خارجون عن الناس إلى النسناس ، وهم خارجون عن العالمين الأحياء ،

. مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ» (٤١ : ٢٥) «وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ» (٤٦ : ٢٩) «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ..» (٧٢ : ١).

المتخلفون عن ربوبية الله! وكما أن مكة أم القرى تكوينا وتشريعا ، كذلك الرسول الأقدس وأحرى ، حيث القلوب قرى وأمها ومركزها الأصيل عبر الرسالات وإلى يوم القيامة هو القلب المحمدي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهنا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يبدأ بإنذار نفسه واصطناعه بالقرآن ، ثم سائر القلوب من سائر المكلفين ، خوضا في أغوار البحار المتلاطمة من كافة المكلفين لينجي الغرقى : ﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ .. إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ : فبقيام الليل والترتيل يعد نفسه نهارا للسبح الطويل! ..

ثم وهنالك شهادات كتابية تصدق ما شاهدنا في آية «أم القرى» ففي الأصل الانقلوسي من نبؤت هيّلد «محمد .. كليليا» : محمد هو الكل . في كله :» في رسالته ودعوته ، كما في صفاته أم ماذا من محمدياته؟.

وفي الأصل العبراني من فرع توراتي : حكّي النبي «وهر عستي ات هغويم وبائو حمدت كال هغويم وملؤتي ات هبيت هزه كابود آمر يهواه صبائوت» :

اهيّج كل الأمم ويأتي محمد كلّ الأمم ومرغوبهم واملأ هذا البيت من الجلال هذا امر رب الجنود».

وفي إنجيل برنابا الحواري : (٩٦ : ٨) أجاب يسوع : لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي إني لست مسيّا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض.

وبركة هذا النسل المبارك مصرحة في الأصل العبراني من التورات : تكوين (١٧ : ٢٠) «وليشمعيل شمعتيخا هينه برختي أوتو وهيفرتي أوتو وهيربتي أوتو بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد ونتيو لغوي غادل» :

«ولإسماعيل سمعته : (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيرا وأنميه كثيرا وأثمره

كثيرا وأرفع مقامه كثيرا بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) واثنى عشر إماما يلدهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة .. أبارك العالم بهم» [(١)]

﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَ﴾[(٢)]

﴿تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(٧) عطف الإنذار الثاني إلى الأول يوحي بأنه غيره ، فما هو الإنذار بغير يوم الجمع؟ إن هنا نذارة ليوم الفرق الدنيا وأخرى ليوم الجمع الأخرى وكما البشارة تعمهما ، إذ ليس الدين ـ فقط ـ ينحو نحو الإصلاح للأخرى حتى يختص إنذاره وتبشيره بها ، بل ويبتدء بالأولى وينتهي إلى الأخرى ، حيث الأولى مزرعة الأخرى ، وانتفاع الزارع أو خسرانه يعمهما ، .. وقد يعني الإنذار الأول ـ فيما يعني ـ إنذار المبدء قبل المعاد ، أو أن الإنذار الأول يعمهما كليهما ، فلأن الثاني أهمهما يختص هو بالذكر دون الاوّل ، حيث النكبات الدنيوية تتحمل بطيّات شهواتها الحاضرة ، ولكنما الأخروية صارمة لا تحمل بطياتها شهوات ، فالإنذار لها هي هي الأصل وللأولى الفرع.

ثم الجمع ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يحوي جموعا عدة : جمعا لأجزاء كل إنسان وعظامه : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ﴾ (٧٥ : ٣) وجمعا للخلائق المكلفين : ﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٧٧ : ٣٨) وجمعا بين الرسل الأشهاد والمرسل إليهم المشهود عليهم : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ﴾ (٥ : ١٠٩) ولكي يفتح ويحكم بينهم : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٤ : ٢٦) ثم وجمعا لأصحاب الجحيم في الجحيم : ﴿إِنَّ اللهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ (٤ : ١٤٠) وكما يجمع أصحاب الجنة فيها : ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ (٣٣ :)

---

(١). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد تفاصيل هذه البشارات.

٢٣).

وبالجمع بين العمال وأعمالهم ، بينهم وبين كتبهم وشهودهم ، حتى يحقق الجمع بين كل عمل وجزاءه .. : ﴿لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

ثم الإنذار كتحقيق وإن كان مرحليا من حيث التطبيق منذ العشيرة الأقربين : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٦ : ٢١٤) إلى قوم لدّ وهم الألداء من العرب : ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ (١٩ : ٩٧) وإلى من بلغ : ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (٦ : ١٩) ثم الى العالمين أجمعين : ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ (٢٥ : ١).

ولكنما الإنذار بالقرآن ككل ليس مرحليا ، بل ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ﴾ (٦ : ٥١) ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (٦ : ٩٢). والمؤمن بالآخرة لا يحصر في أم القرى والقريبة منها ، بل ويعم كل من سبيله الإيمان أيا كان وأيان.

ثم في المرحلية أيضا إنما يترحّل الإنذار من عشيرته إلى قومه اللّد أيا كانوا ، لا في القرى المجاورة لأم القرى ، فلا العشيرة الأقربون محصورون فيها ، ولا القوم اللد مخصوص بها ، فالأقرب الأحرى في الإنذار هم الأقربون قرابة لا مكانا ، ثم الألداء الأشداء تعنّتا ومكانة لا مكانا ، ولا تصريحة أو إشارة في القرآن أن الأقرب مكانا أحرى وأقرب في الدعوة.

ثم وللإنذار مرحليا وسواه ـ كما سبق ـ موضع في الأولى وآخر في الأخرى كما في طيات آياته [1] ثم وكذلك التبشير ولكن الإنذار يحتل الموقع

---

(١) والاكثرية الساحقة من آياته تنحو منحى الأخرى لأنها أحرى واكثر تأثيرا ، وقليل منها تخص الأولى وثالثة تعمها.

الأعلى والركيزة الأولى في الدعوات الرسالية ، فإن حمله على التقوى أقوى من التبشير ، فكثير هؤلاء الذين لا يهمهم ما يبشّرون به من نفع ويهمهم ما ينذرون به من ضر ، ودفع الضرر أولى من جلب النفع ، والجمع أحرى!

﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (٨).

ماذا تعني وحدة الأمة المستحيلة بما توحيه «لو»؟ أوحدة تشريعية في شرعة وهي الشرعة الكاملة الأخيرة أن يكلف المكلفين عامة بهذه الشرعة منذ آدم إلى الخاتم؟ ف ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥ : ٤٨).

أم وحدة في ضلالة كما هم قبل البعثة : ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢ : ٢١٣) أم وحدة في هداهم تكوينيا ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ (٦ : ٣٥) جمعا لهم على الهدى والعصمة [1] دون اختيار؟ فهو انتقاص حيث الإختيار في الاهتداء اكتمال وليس كذلك الاضطرار.

أم يجمع من لا يهتدي بسوء الإختيار إلى من يهتدي بحسن الإختيار ، أن يجبر الأولين على الهدى؟ وهذه تسوية بين المتقين والفجار! : ﴿أَمْ نَجْعَلُ

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٥٩ في تفسير علي بن ابراهيم في الآية قال : لو شاء ان يجعلهم كلهم معصومين مثل الملائكة بلا طباع لقدر عليه ولكن يدخل من يشاء في رحمته ..

﴿الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٣٨ : ٢٨) ثم ولا إكراه على الهدى ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠ : ١٠٠) ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١ : ١١٨) ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٦ : ٩).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ﴾ (٤٥ : ٢١). وحدة في الثواب أو العقاب في الأخرى على اختلاف في الهدى والضلال في أولاهم! ام يجبر الكلّ على الضلال حتى من يختار الهدى لولا الإجبار، فهذا إدخال من النور إلى الظلمات لمن يهتدي لولا الإجبار، ثم تسوية ظالمة بين المهتدي والضال، وكذلك أيّة تسوية بين الناس تكوينا أو تشريعا في ضلال أو في هدى في الأولى او الأخرى، كل ذلك بين انتقاص وظلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وقد تعني آيتنا إحالة كافة هذه الوحدات.

ولماذا قوبلت «والظالمون» ب «من يشاء» دون «العادلون»؟ .. لأن «من يشاء» يعم العادلين والقاصرين غير المكلفين أو يسامح عنهم من الأطفال والمجانين والمستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا، ﴿فَأُولئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً﴾ فالعذاب يخص الظالمين، والرحمة تعم العادلين وغير المكلفين والذين يحق العفو عنهم منهم وقد سبقت رحمته غضبه، فالغضب قضية العدل وهو محدد بحدود الظلم ما لم يصح العفو، والرحمة قضية اللطف، فهي واسعة ما لم تناف العدل.

ثم ول «من يشاء» هنا ايحاء آخر هو أن الرحمة الإلهية لأهلها ليست

مستحقة لهم واجبة على الله إلّا أن يشاء الله وقد شاءها ووعد : ﴿كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ..﴾ ولكنما العدل مستحق لأهله واجب على الله بربوبيته ، دون إلزام من فوق إذ ليس عليه فوق ، وإنما بألوهيته وربوبيته.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَما اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا

الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ
مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ
رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ
(١٤) فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ
وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللهُ
يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ
داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾(١٦)

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٩).

تعني الولاية هنا ـ بما توحيه «هو الولي» ـ الولاية الخاصة الإلهية في التكوين والتدبير والتشريع أم ماذا؟ فهذه الآية أخص من الأولى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ..﴾ وقد يكون التكرار هنا توطئة لبيان مصاديق هذه الولايات الخاصة من أن الله هو المرجع في كافة الاختلافات ، وأنه فاطر الأرض والسماوات وليس كمثله شيء في الأفعال والذات والصفات ، وأن له مقاليد الأرض والسماوات يبسط ويقدر ، وأنه الشارع من الدين شرائع ..

﴿وَما اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(١٠).

إن الاختلاف ـ أيا كان ومن ايّ وأيّان ـ لا مرجع فيه إلّا الله ، فالشيء المختلف فيه يعم كل شيء ، فإن «من شيء» توحي باستغراق ، و ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ تحصر الحكم الفصل فيه في الله وتحسره عمن سوى الله : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٢ : ٤٠) اللهم إلّا رسول الله أو وليه الذي يحمل أمره عن الله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (٤ : ٥٩) فالقاعدة في مثلث الطاعة هذه هي طاعة الله ، ثم الرسول وقد فصلت طاعته عن طاعته انفصال الفرع عن الأصل [1] ووحّد هذا الفرع مع فرعه ﴿أُولِي الْأَمْرِ

---

(١) كما في الآيات التالية : «وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا» (٥ : ٩٢) «قل.

مِنْكُمْ﴾ كما وحّد ثانية في الرد إلى الرسول ، ثم جمعت الثلاث في طاعة الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ ..﴾!.

فهنا تعنى من طاعة الله طاعته في كتابه ، ومن طاعة الرسول طاعته في سنته ، ومن طاعة أولى الأمر طاعتهم في حمل السنة كما حمّلوا.

وقد توحّد طاعة الرسول مع الله حين تعني مطلق الطاعة : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ ..﴾ (٣ : ٣٢)(١) ف ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ (٤ : ٨٠) كما قد يوحد الحكمان : ﴿وَإِذا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٤ : ٤٨).

والحكم في آيتنا كأضرابها يعم التكويني والتشريعي في الأولى وفي الأخرى ، فكما الله هو الحام يوم الدنيا ، كذلك هو الحاكم يوم الدين : ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٣٩ : ٤٦) ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢ : ١١٣) ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ (١٣ : ٤١) (٢).

إذا فلا حكم في أي خلاف إلّا لله ، يستفاد متنا من كتاب الله ، وهامشا وشرحا من سنة رسول الله ، ثم لا حكم لسواه ، حيث الرجوع

. أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ» (٤٧ : ٣٣) «وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» (٦٤ : ١٢) «قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ» (٢٤ : ٥٤).

(١) كما في التالية ايضا : «وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (٣ : ١٣٢) «وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا» (٢٠ : ٩٠) «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ» (٢٤ : ٥٢).

(٢) نور الثقلين عن تفسير القمي «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ» من المذاهب واخترتم لأنفسكم من الأديان فحكم ذلك كله الى الله يوم القيامة.

فيما اختلف فيه إلى غير الله لا يزيل الخلاف ، وقد يزيد خلافات على خلاف ، حيث الحيطة العلمية والحكمة العالية والرحمة الواسعة خاصة بالله ، وهي هي التي تزيل الخلافات.

فالرجوع إلى القياسات والاستحسانات أم ماذا مما لم يأمر به الله أو نهى عنه رجوع إلى آجن ماجن ، كما الرجوع إلى من لا يتبنّى من الفقهاء في حكمه كتاب الله وسنة رسول الله رجوع إلى الطاغوت ، فلا حكم إلّا لله!.

إن كتاب الله هو المرجع الرئيسي في أي حكم وفي أية خلافات ، يتبنّى في كل شارد ووارد ، يعرف به الغث عن السمين والخائن عن الأمين ، فما وافق كتاب الله هو وارد وما خالفه فهو مارد.

﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبِّي﴾ ذلك المولى في التكوين وفي التشريع وفي كل شيء «الله» لكل شيء «ربي» حيث رباني ما لم يرب أحدا من العالمين «عليه» لا سواه «توكلت» في أموري كلها «وإليه» لا سواه «أنيب» : رجوعا إليه عما سواه ، وتوكلا عليه دون من سواه ، توكلا وإنابة في التكوين والتشريع سواء.

هذه الآية بما قبلها وما بعدها إلى الآية (١٦) تستعرض جذور الولاية الإلهية في التكوين والتشريع ، وأنه لا ندّ له ولا ضدّ فيهما وفي سائر شؤون الألوهية ، اللهم إلّا الدعوة إلى الله فهنا الولاية الشرعية لمن يصطفيه من عباده.

﴿فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١١).

آية عديمة النظير من محكم القرآن ترجع إليها ما تشابه منه في كيان

الألوهية ، تستأصل كل مماثلة بين الله وسواه ، في ذات او صفات او افعال ، تبين خلقه عنه مباينة كينونة في ذات وصفة ، وأنه باين عن خلقه وخلقه باين عنه ، لا هو في خلقه ولا خلقه فيه.

فالمثل هو الشبيه أيا كان وإن بعيدا شبها واحدا في مليارات او اللّانهايات ، فعالم الخلق أشباه في أشباح مهما اختلفت الصور والماهيات ، حيث المادة لزامها الذاتي التركّب والتغير والحركة والزمان أيا كان وايّان ، والله مجرد عن المادة والماديات فلا يشبهها في ذوات او صفات ام ماذا إلا في مقام تحبير اللغات دون الحقيقة والذات ، ف «سبحان من لا يحد ولا يوصف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

---

(١) نور الثقلين عن اصول الكافي سهل عن ابراهيم بن محمد الهمداني قال : كتبت الى الرجل (عليه السلام) ان من قبلنا من مواليك قد اختلفوا في التوحيد فمنهم من يقول جسم ومنهم من يقول صورة فكتب بخطه : سبحان ...

أقول : هنا العجب العجاب من التفاسير الاثرية بين الفريقين ، من كثرة أحاديث الشيعة الإمامية حول الآية كما نذكر طرفا منها ، وقلة او عدم اثر من الأحاديث حول نفي المماثلة بين الله وخلقه من السنة وهذا مما يحير العقول كيف لم يرووا ولا حديثا واحدا يشابه آية نفي المثل عن الله تعالى ، سبحانه وتعالى عما يصفون!

وعن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال له رجل : اين المعبود؟ فقال (عليه السلام) لا يقال له : اين؟ لأنه أين الأينية ، ولا يقال له : كيف؟ لأنه كيف الكيفية ، ولا يقال له : ما هو؟ لأنه خلق الماهية. سبحانه من عظيم تاهت الفطن في تيار أمواج عظمته وحصرت الألباب عند ذكر أزليته وتحيرت العقول في ا فلاك ملكوته.

وقال (عليه السلام): اتقوا ان تمثلوا بالرب الذي لا مثل له او تشبهوه بخلقه او تلقوا عليه الأوهام او تعملوا فيه الفكر وتضربوا له الأمثال او تنعتوه بنعوت المخلوقين فان لمن فعل ذلك نارا.

وعن الإمام الرضا (عليه السلام) من شبه الله بخلقه فهو مشرك ومن وصفه بالمكان فهو كافر ...

﴿شَيْءٌ﴾ وان كان له مثل ، وكل شيء مثل له من أدنى وأعلى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٦ : ٦) ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٣٠ : ٢٧) فمثله مستحيل ذاتيا وجعليا ، ومثله كافة الكائنات جعليّا على درجاتها وكما يعنيه الحديث القدسي (عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي ..) [(١)] وهذا من المثل الأعلى الذي يحصل بالعبودية ، فمن المثل لله ما هو حاصل بأصل الخلق ، فإنه الآية ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه صانع ، ومنه ما يحصل في تكامل الخلق بما يسعى كالعبودية ، فإنها جوهرة كهنها الربوبية ، أن العبد يصل في مراتب العبودية والمعرفة إلى درجة يرى بفقره غنى الله ، وبجهله علم الله ، وبعجزه قدرة الله ، فالكنه المعرفي للعبودية عرفان الربوبية.

هذه الآية تنفي أية مماثلة بينه وبين خلقه استغراقا لهذا النفي دون إبقاء ، وقد يعني ما تعنيه «خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه» : موجود لا كوجوداتنا ، قادر لا كقدراتنا ، عالم لا كعلومنا ، حي لا كحياتنا ، فالخلق بذاته وأفعاله وصفاته كله صفات سلبية عن ذاته وأفعاله وصفاته تعالى ، فلا توجد ذاته ولا صفاته الثبوتية في خلقه أيا كان ، ف «إذا كان الشيء من مشيته فكان لا يشبه مكونه» [(٢)] وعلى الخلق أن

. وعن علي بن أبي حمزة قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) سمعت هشام بن الحكم يروي عنكم ان الله جل وعز جسم صمدي نوري معرفته ضرورة يمن بها على من يشاء من خلقه ، فقال (عليه السلام) : سبحان من لا يعلم كيف هو الا هو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا يحد ولا يحس ولا يجس ولا يمس ولا يدركه الحواس ولا يحيط به شيء لا جسم ولا صورة ولا تخفيط ولا تحديد.

(١) فمن يقرأه «مثلي» فهو جاهل بمحكم القرآن ، ومن يتردد فيه وفي «مثلي» يتجاهل بمحكم القرآن وإليكم أحاديث حول عدم التشبيه ماضية وآتية

(٢) مصباح الشريعة خطبة مروية عن امير المؤمنين (عليه السلام).

يعرفوا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ كما عليهم عرفان وجوده ووحدته. لعلل شتى يجمعها : فساد الخلق وإبطال الربوبية ، لو لم يعرف بعدم المثل [١] ولا شيء فيه من جوهرية الله شيء» [٢].

وترى أن الله شيء تنفى عنه مماثلة كل شيء؟. أجل إنه شيء لا كالأشياء : ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ..﴾ (٦ : ١٩).

---

(١) نور الثقلين عن عيون اخبار الرضا (عليه السلام) في باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان في آخرها انه سمعها من الرضا (عليه السلام) مرة بعد مرة وشيئا بعد شيء : فان قال : فلم وجب عليهم الإقرار بأنه ليس كمثله شيء؟ قيل : العلل : منها ان يكونوا قاصدين نحوه بالعبادة والطاعة دون غيره غير مشتبه عليهم امر ربهم وصانعهم ورازقهم ، ومنها انهم لو لم يعلموا انه ليس كمثله شيء لم يدروا لعل ربهم وصانعهم هذه الأصنام ورازقهم هذه الأصنام التي نصبها لهم آباؤهم والشمس والقمر والنيران إذا كان جائزا ان يكون عليهم مشتبه ، وكان يكون في ذلك الفساد وترك طاعاته كلها وارتكاب معاصيه كلها على قدر ما يتناهى من اخبار هذه الأرباب وأمرها ونهيها ، ومنها انه لو لم يجب عليهم ان يعرفوا انه ليس كمثله شيء لجاز عندهم ان يجري عليه ما يجري على المخلوقين من العجز والجهل والتغير والزوال والفناء والكذب والاعتداء ومن جازت عليه هذه الأشياء لم يؤمن فناءه ولم يوثق بعدله ولم يحقق قوله وامره ونهيه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه وفي ذلك فساد الخلق وابطال الربوبية.

وفي البحار ٣ : ٢٨٧ عن الأمالي للشيخ الطوسي بسند عن محمد بن سماعة قال : سأل بعض أصحابنا الصادق (عليه السلام) فقال : اخبرني اي الأعمال أفضل؟ قال : توحيدك لربك ، قال : فما أعظم الذنوب؟ قال : تشبيهك لخالقك.

(٢) البحار ٣ : ٣٩٢ عن رجال الكشي بسند عن يونس بن بهمن قال قال لي يونس : اكتب الى أبي الحسن (عليه السلام) فأسأله عن آدم هل فيه من جوهرية الله شيء؟ قال : فكتب اليه فأجاب (عليه السلام) : هذه المسألة مسألة رجل على غير السنة ، فقلت ليونس فقال : لا يسمع ذا أصحابنا فيبرءون منك ، قال : قلت ليونس يتبرءون مني او منك؟!.

إنه شيء بحقيقة الشيئية وخلقه شيء بمجازها اللّاحقيقية ، والشيء الله - هو لا سواه - خالق للشيء المألوه : ﴿قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٣ : ١٤) إذا يجوز أن يقال الله شيء ، أن تخرجه عن الحدين حد التشبيه وحد التعطيل» [١] أو ترى إذا كان الله شيئا لا كالأشياء ، فهل يصح القول (إنه جسم لا كالأجسام) [٢] أقول : كلّا! حيث الشيء منه جسم ومنه مجرد عن الجسم ، فهو شيء لا كالأشياء يعني شيء مجرد

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٦١ ح ٢٩ عن التوحيد باسناده الى الحسين بن سعيد قال : سال ابو جعفر (عليه السلام) يجوز ان يقال لله انه شيء؟ فقال : نعم تخرجه ...

(٢) البحار ٣ : ٢٩٢ عن امالي الصدوق ابن الوليد عن الصفار عن ابن معروف عن علي بن مهزيار قال : كتبت الى أبي جعفر الثاني (عليه السلام) جعلت فداك اصلي خلف من يقول بالجسم .. فكتب : لا تصلوا خلفهم ولا تعطوهم من الزكاة وابرءوا منهم برأ الله منهم.

وفيه ٣٠٢ ح ٣٧ باسناده عن محمد بن حكيم قال وصفت لابي ابراهيم (عليه السلام) قول هشام الجواليقي وحكيت له قول هشام بن الحكم انه جسم فقال : ان الله لا يشبهه شيء ، اي فحش او خناء أعظم من قول من يصف خالق الأشياء بجسم او صورة او بخلقة او بتحديد وأعضاء تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وفيه ٣٠٥ ح ٤٣ عن عبد الملك بن هشام الخياط قال قلت لأبي الحسن الرضا (عليه السلام) اسألك جعلني الله فداك قال (عليه السلام) : سل يا جبلي عماذا تسألني فقلت جعلت فداك زعم هشام بن سالم ان الله عز وجل صورة وان آدم خلق على مثال الرب فيصف هذا ويصف هذا أو أومأت الى جانبي وشعر رأسي وزعم يونس مولى آل يقطين وهشام بن الحكم ان الله شيء لا كالأشياء وان الأشياء بائنة منه وانه بائن من الأشياء وزعما ان اثبات الشيء ان يقال : جسم فهو جسم لا كالأجسام شيء لا كالأشياء ثابت موجود غير مفقود ولا معدوم خارج عن الحدين حد الابطال وحد التشبيه فباي القولين أقول؟ قال : فقال ابو عبد الله (عليه السلام) أراد هذا الإثبات وهذا شبه ربه تعالى بمخلوق تعالى الله الذي ليس له شبه ولا مثل ولا عدل ولا نظير ولا هو بصفة المخلوقين لا تقل بمثل ما قال هشام بن سالم وقل بما قال مولى آل يقطين وصاحبه ...

سرمدي لا كالأشياء المادية الحادثة ، ولكنما الجسم أيا كان يشبه سائر الأجسام في الجسمانية تركبا وتغيرا وحركة وزمانا ، وإن اختلف عنها في العوارض غير الأولية ، ف «جسم لا كالأجسام» لا تنفي عنه المماثلة في أصل الجسمانية وإنما في البعض من ماهياتها.

ثم ترى لماذا «كمثله» لا «مثله»؟ فهل إن الكاف زائدة؟ ولا زائدة على المثل في القرآن البالغ آياته (٧٥) وإن كانت على المثل في (١٣) من (٦٣) حيث المعنيان يختلفان! فهذه قولة زائدة ان الكاف هنا زائدة!.

أم تعني ما تعنيه الوارد على المثل من المشابهة؟ إذا فهي تعني نفي أية مشابهة عن مثله تعالى لا عنه نفسه ، إثباتا لند له مثله ، ونفيا عن مماثلة اي شيء لمثله! وقد يجاب ان هناك حقيقة وافتراضا ، فالحقيقة هي انتفاء المشابهة في هذا البين ، والافتراض أنه لو كان له مثل فلا مثل لمثله ، ولكنه ليس له مثل ، مبالغة في انتفاء المثل ، حال أنه لو كان له مثل واحد لجاز تعدد الأمثال ، والآية في نفيها كمثله تحيل هذا الجائز على افتراض أن يكون له مثل[1].

أو أن الكاف تأكيد من وجه آخر لنفي المثل ، ف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ إنما تنفي واقع المماثلة ، التي قد يظن أنها المماثلة التامة فلا تنفي غيرها ، وموقف الكاف استئصال أية مماثلة بينه وبين كل شيء ، أن لا مثيل له ولا ناقصا كواحد او كسر لغير النهاية في مليارات أو اللّانهايات من كيانه سبحانه.

وعلّ الجمع بين الوجهين أجمل ، مع العلم أن الكاف ليست زائدة على أية حال.

---

(١) كما يقال فلان لا مثيل لظله وان لم يكن له ظلّ نفيا مبالغا لأية مماثلة ، مستأصلا كافة جذورها.

وضمير الغائب في «كمثله» وإن كان راجعا إلى الذات ، ولكنه ذات فاطر الأرض والسماوات بما فطر وجعل وذرء ، فكما ليس كمثله شيء في ذاته كذلك ليس كمثله شيء في صفاته ذاتية وفعلية ، فنفي المماثلة عن ذاته وفعاله ، نفي مضاعف عن صفات ذاته ، فصفات الذات هي عين الذات ، فهي إذا في حكم الذات ، وصفات الفعل صادرة عن صفات الذات ، فنفي المماثلة فيها نفي ـ بأحرى ـ عن صفات الذات.

﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ : سبحانه عما يصفون من صفات لم يصف به نفسه ، وسبحانه من صفات وصف به نفسه وهم يعنون بها مثل ما يعنون في أنفسهم ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ حيث يصفونه بما وصف به نفسه ، قاصدين جهة السلب المعلومة ، وتاركين جهة الإثبات المجهولة ، فهم يسبحونه بحمده دون أن يحمدوه ناظرين إلى جهات الإثبات بالحيطة أو الإشارة العلمية ، فليس للخلق من صفات الله الثبوتية إلّا أنه «خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه». ف «للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب : نفي وتشبيه وإثبات بغير تشبيه ، فمذهب النفي لا يجوز ، ومذهب التشبيه لا يجوز لان الله لا يشبهه شيء ، والسبيل في الطريق الثالثة : إثبات بلا تشبيه» [١] : «خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه».

ف «لا له مثل فيعرف بمثله» [٢] حيث «حد الأشياء كلها عند خلقه إياها إبانة لها من شبهه وإبانة له من شبهها» [٣] ف «لا يخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته لبعده من أن يكون في قوى المحدودين لأنه خلاف خلقه» [٤] انه «غير معقول ولا محدود ، فما وقع

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٦١ ح ٢٨ من كتاب التوحيد باسناده الى محمد بن عيسى بن عبيد الله انه قال قال الرضا (عليه السلام) : ..

(٢ ـ ٣ ـ ٤). المصدر عن كتاب التوحيد خطب ثلاث لعلي (عليه السلام).

وهمك عليه من شيء فهو خلافه لا يشبهه شيء ولا تدركه الأوهام كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يعقل وخلاف ما يتصور في الأوهام إنما يتوهم شيء غير معقول ولا محدود»(١).

فالقول إن لنا وجودا كما الله موجود ، فهذه مماثلة في الذات ، ثم لنا صفات العلم والقدرة والحياة كما لله ، ثم لنا أفعال كما لله أفعال ، مهما اختلف الخلق عن الخالق في الكمال والنقص ، إلّا أن المماثلة كائنة وإن في شيء من ذات او صفات او أفعال؟! إنه هراء جارفة وهرطقة خارفة!.

حيث إن هذه مماثلة في التعبير ، وأما المعبر عنه هنا وهناك ففي غاية المباينة ، فلا يعنى من «الله واحد» إلا أنه أحدي المعنى والإنسان واحد ثنويّ المعنى : جسم وعرض وبدن وروح ، فإنما التشبيه في المعاني لا غير (٢) كما لا يعنى من «الله موجود» وجود كوجود الخلق فإنه تشبيه في الذات ، وإنما يعنى : أنه ليس بمعدوم ، ثم لا نفهم من وجوده شيئا ، وكذلك علمه وحياته وقدرته ، فلا نفهم منها إلّا نفي الجهل والموت والعجز ، لا النفي المطلق ، فلا تعني وجوده وصفاته فيما نفهم إلا أنه «خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه».

.. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ : سميع لا بآلة بصير لا بأداة ، خارج عن تصرف الحالات«سميع لا بأذن ، بصير لا ببصر» (٣).

---

(١) المصدر باسناده الى عبد الرحمن بن أبي نجران قال : سألت أبا جعفر الثاني عن التوحيد فقلت : أتوهم شيئا؟ فقال : نعم غير معقول ..

(٢) البحار ٣٠ : ٣٠٤ في جواب سؤال اليهودي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٣) نور الثقلين ٤ : ٥٦١ ح ٣٠ في عيون الاخبار في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من الاخبار في التوحيد حديث طويل يقول فيه (عليه السلام): وقلنا إنه سميع لا يخفى عليه أصوات خلقه ما بين العرش الى الثرى من الذرة الى اكبر منها في برها .

فالآيات التي تحمل صفات إلهية تشابهها صفات خلقية تتجرد عما للخلق إلى ما يخص الخالق كالسميع ـ البصير ـ على العرش استوى أم ماذا؟

وامّا التي تحمل صفات إلهية خاصة فلا مثيل لها في التعبير من صفات الخلق ، كالسرمدي ـ الأزلي ـ عليم قدير بكل شيء أم ماذا؟

وكذلك التي تحمل صفات خلقية لا تشابه الإلهية ولو في التعبير كالماشي ـ الراكض ـ الآكل ـ الشارب أم ماذا؟

إن الصفات من النوع الثاني والثالث لا تشابه فيها من الخالق للخلق ولا من الخلق للخالق ، وإنما النوع الأول هي المتشابهة من الصفات التي لا بد من تجريدها عما لا يليق بساحة الربوبية : فيا «إلهي تاهت أوهام المتوهمين ، وقصر طرف الطارفين ، وتلاشت أوصاف الواصفين ، واضمحلت أقاويل المبطلين عن الدرك لعجيب شأنك أو الوقوع بالبلوغ إلى علوك ، فأنت الذي لا تتناهى ولم يقع عليك عيون بإشارة ولا عبارة ، هيهات ثم هيهات يا أولي يا وحداني يا فرداني ، شمخت في العلو بعز الكبر ، وارتفعت من وراء كل غورة ونهاية بجبروت الفخر» [١].

﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١٢)

ـ وبحرها ولا يشتبه عليه لغاتها فقلنا عند ذلك : سميع لا بإذن ، وقلنا : انه بصير لا ببصر ، لأنه يرى اثر الذرة السمحاء (السوداء) في الليلة الظلماء على الصخرة السوداء ويرى دبيب النمل في الليلة الدجنة (الظلمة) ويرى مضارها ومنافعها واثر سفادها وفراخها ونسلها فقلنا عند ذلك : انه بصير لا كبصر خلقه.

(١) البحار ٣ : ٢٩٨ ـ التوحيد للصدوق عن الإمام الحسن بن علي بن محمد (عليه السلام) انه قال : الهي ...

آية نفي المثل تتوسط آية المقاليد وآيات الولاية في التكوين والتشريع ، فالمماثلة المنفية لا تختص بالذات وصفات الذات ، بل وصفات الفعل كلها من ولاية وحكم وخلق ورزق أم ماذا ، فالمماثلة منفية عن صفات الفعل كما عن الذات وصفات الذات.

والقلد هو الفتل فالمقلاد آلة الفتل وسببه ، فالمقاليد هي وسائل وآلات الفتل والتطويق ، من علم وقدرة وحكمة محيطة بالسماوات والأرض كأنها قلادة لعنق الكون لا تدعه يتلفت شماسا دون حراس واكتراس.

له هذه المقاليد لا لسواه. ف ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ (٢٩ : ٦٣) .. مقاليدها غيبا وشهادة كمفاتيحها : ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ..﴾ (٦ : ٥٩) ومن فروع هذه الحيطة الربانية ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ليس بسط الرزق وقدره بمحاولة زائدة أو ناقصة منا فحسب ، ولا جزافا دونما حكمة من الله ، فرب محاول كثيرا لا يبسط في رزقه ، ورب محاول قليلا أو معاطل يرزق كثيرا ، وإن كان يرزق كل قدر سعيه ، ولكن الرزق المبسوط هو فوق قدره ، ومن قدر عليه رزقه يؤتاه قدر سعيه ، أو وأقل منه حين تقتضي الحكمة ، فلا تسوية في الرزق مهما كان السعي سواء أو لا سواء : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٤٢ : ٣٧) فالله يقبض لحكمة ويبسط لحكمة : ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢ : ٢٤٥) ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ﴾ (١٣ : ٣٦) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ

وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠ : ٣٧) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤ : ٣٦) و ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ :

فمحاولة التسوية التامة وإزالة الطبقية المالية أم ماذا ، إضافة إلى أنها خلاف العدل حيث الاستعدادات فالمساعي فالاستحقاقات ليست على سواء ، إنها خلاف الإرادة والحكمة الإلهية فلا تكون!.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣).

هذه الآية توحّد الدين الحق وتخمّس الشرائع إليه ، وفي الحق إنها تحقق حقائق عدة عديمة النظير أو قليلته في الذكر الحكيم.

منها أن دين الله واحد والشرائع إليه خمس ، وقد توحيه ﴿.. لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ﴾[1]﴿شِرْعَةً وَمِنْهاجاً. وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥ : ٤٨)[2] وقد يعبر عن الدين بالأمر حيث الدين

---

(١) «منكم» هنا كافة المكلفين طوال تاريخ الرسالات لا الأمة الإسلامية إذ ليست لها إلا شرعة واحدة هي الإسلام.

(٢) ان الدنيا دار بلاء وابتلاء والدين ابتلاء ، واختلاف الشرعة ابتلاء ، وعلى المسلم لله في هذا البين ان يستسلم لشرعة الله دون ان يثّاقل الى ما تعوّد عليه من شرعة عنصرية أو إقليمية أم ماذا! «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ» وهي شرعة الله الجديدة بعد التي مضت ، استبقوا في الحصول عليها تسابقا في تصديقها دون تباطئ ، كما وهي داخل الشرعة ان تتسابقوا في تعلم خيراتها والتأدب بها والتخلق والتطبيق ونشرها ، «إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ

هو الطاعة وهي ائتمار الأمر : ﴿وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٥ : ١٨) كما وفيما يهدد ويندّد بالمشركين يربط أيّة شرعة من الدين بإذن الله : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ..﴾ (٤٢ : ٢١). وفي آية الشرعة تشريف لهؤلاء الخمسة من الرسل الذين دارت عليهم الرحى وكما في آية الميثاق : ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً. لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً﴾ (٣٣ : ٨) وهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل : ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ ٤٦ : ٣٥) [1].

وقد سبقت إلى هذه الوحدة الجذرية الإشارة في مطلع السورة : ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إذ كانت إيحاء إجماليا إلى وحدة المصدر والصادر ووحدة المنهج والناهج والاتجاه في الدين كل الدين ، وهنا يفصل ما أجمله من قبل.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى ..﴾ توحي فيما توحي أن هذه الشرائع الخمس مثل بعض مصدرا ، وكذلك صادرا ، في الجذور وكثير من الفروع ، فالشرعة الإسلامية هي شرعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى مهما اختلفت في ظواهر طقوس أم ماذا؟. حقيقة الأصل الواحد والنشأة

. جَمِيعاً» فالله واحد ودينه واحد والرسالة لهذا الدين الواحد واحدة وأنتم امة واحدة مهما اختلفت الشرائع الى هذا الدين الواحد.

(١) راجع ج ٢٦ من الفرقان ص ٧٣ تفسير آية اولي العزم.

الضاربة في أعماق الزمان وأصوله ، فكلّ من حملة الشرائع الخمس امتداد رسالي لما سلفه ، وكما أن الكل لهم شرائع من دين واحد ، إذا ففيم يتقاتل ويتضارب أتباع كل شرعة مع الأخرى أو ومع شركائها في نفس الشرعة ، ولماذا لا يتضامّ الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي تحملها رسالة واحدة إلى إله واحد ، وأخيرا لماذا لا يجتمع الكل تحت الراية المحمدية التي تشمل الدين كله والشرائع كلها؟ وهي هي الراية التي قدم لها ولرفعها الأربعة الأوّلون؟!.

فهنالك دين وأمر واحد ، وهنا وهناك شرعة وشرعة إلى خمس من الدين الأمر ، فلأن الله واحد فدينه وأمره واحد ورسالته كذلك واحدة والمكلفون كذلك أمة واحدة لهذه الرسالة الواحدة مهما اختلفت قشور وصور من شرعة وجاه شرعة : ﴿يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (٢٣ : ٥٧).

إن الشرعة هي الطريقة الواضحة البينة حيث توصل متشرعها إلى غايته القصوى وهي دين الله وأمره ، أمره والائتمار به ، وكما الدين هو لله ومن الله كذلك المشرع الشرعة إليه هو الله ، وكما اختلاف العبادات أم ماذا صوريا في شرعة واحدة ينحو منحى هذه الشرعة ، كذلك الاختلاف بين شرعة وأخرى لا ينحو إلّا منحى دين واحد هو الأمّ للشرائع كلها ، فمهما اختلفت الصور ضرورة أو ابتلاء فالجذور واحدة هي الطاعة لأمر الله.

وترى من هم المخاطبون في ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ أهم الحاضرون زمن الوحي؟ وهم شرذمة قليلة من المكلفين طوال الزمن! وليست الشرعة منهم

إلى سواهم! فإنما هي للعالمين ، إذا ف «كم» هم أم القرى ومن حولها دون اختصاص بالحاضرين ، وإنما الخطاب صادر من مصدر رب العالمين ، فوارد ـ كقضية حقيقية ـ مورد العالمين أجمعين ، ضاربا إلى اعماق الزمان والمكان أيا كان منذ بزوغه إلى يوم الدين.

ثم ولماذا «شرع» المفرد الغائب ـ لله ـ و «لكم» الحاضر للعالمين؟ علّه لان وحي الشرع غائب عن العالمين ، وأما العالمون فعليهم الحضور علميا وعقائديا وأخلاقيا وتطبيقيا للوحي الشرع ، فهو غائب الصدور وحاضر الورود ، ثم ولأن في خطابهم دون الآخرين تشريفا للأمة المحمدية على الأمم بما أن شرعتهم برسولهم أشرف من سواها وسواه.

وإذ توحي غيبة الفعل «شرع» بغياب الوحي ، فهل توحي (وَصَّى بِهِ نُوحاً) أن وحي الشرعة إلى نوح كان وحيا غائبا عنه؟ فكيف إذا هو نبي!.

إن الغيبة هنا غير الغيبة هناك ، ففي (شَرَعَ لَكُمْ) غيبة الوحي حقيقة إذ لم يوح القرآن إلى العالمين دونما وسيط ، وأما في (ما وَصَّى بِهِ نُوحاً) فوحي حاضر إلى قلب نوح (عليه السلام) ولكنه لبساطته أمام سائر الوحي إلى الاربعة الآخرين ، وعلوّه لهم دونه ، كأنه من غائب الوحي ، كما وأن سائر الوحي وجاه الوحي إلى محمد كأنه ليس وحيا ، وإنما هو وصية حال أن الكل وحي حيث الكل أنبياء عظام عليهم دارت الرحى.

هنا نستوحي من مثلث التعبير : «ما وصى ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصينا» درجات ثلاث لوحي الشرعة إلى اولى العزم الخمسة ، فأوسطها أعلاها وأولاها أدناها [1] وآخرها أوسطها.

---

(١) تمتاز صيغة التعبير عن الوحي الى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على نوح بميزات.

في سائر القرآن حيث يذكر الوحي إلى أصحابه الخصوص إنما يؤتى بصيغة الوحي حيث المقصود أصله دون درجاته بالقياس إلى بعض : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ (٤ : ١٦٣) حيث جمع بين سائر الوحي إلى سائر المرسلين لأن المقام مقام استعراض أصل الوحي إلى أصحابه لا التفاضل فيه.

وأما آية الشرعة حيث تبين الشرائع الخمس إلى أولي العزم الخمسة فهي تستعرض في إشارات مراتب الوحي ، فتعبّر عن وحي القرآن بالوحي ، ثم عن سائر الوحي إلى الأربعة الآخرين بالوصية.

فالوصية هي التقدم إلى الغير بما يعمل مقترنا بوعظ ، وهي لم تستعمل في سائر القرآن في الوحي اللهم إلّا بدائيا كما أوحي إلى المسيح في المهد صبيا : ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾ (١٩ : ٣١) حيث المسيح لم يكن حينذاك نبيا وإنما نبئ بهذا ذودا عن أمه الطاهرة وبشارة

. اربع :

١ . «الذي» بدلا عن «ما» دلالة على ضخامة الوحي على محمد دونه على نوح.

٢ . حضور الوحي في «إليك» وغيابه في «وصي».

٣ . جمعه في «أوحينا» وإفراده في «وصى».

٤ . لفظة الوحي في «أوحينا» والوصية في «وصى».

كما تمتاز صيغة الوحي على الثلاثة الآخرين عن نوح بالجمع والحضور في «أوحينا» وان كان حضور «نا» أوفى من حضور «إليك» فيمتاز إذا وحي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على الثلاثة ب «الذي» «أوحينا» «إليك» حضوران في أوحينا إليك إضافة إلى الوحي والذي.

بنبوته الآتية ، إذا فهذه الوصية كانت وحيا قبل الرسالة ، وعلّها كما أوحي إلى أم موسى أم ماذا؟.

هذا! ثم اللهم إلّا آيتنا هذه حيث قارنت بين الوحي على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وهو في أعلى القمم ـ وبين الوحي إلى سائر أولي العزم من الرسل ، فعبرت عن الأول بالوحي ﴿الَّذِي أَوْحَيْنا﴾ وعن الثاني بالوصية «وصى ـ وصينا» إيحاء بمدى البون بين الوحين ، وكما عبر عن الوحي على أولهم «نوح» (عليه السلام) بالمفرد الغائب وعن الآخرين بالجمع الحاضر إيحاء بالبون بين هذين أيضا كما بينهما وبين الأول.

﴿شَرَعَ لَكُمْ .. أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ إنه ما شرع هذه الخمس حتى تتشجروا متفرقين ، وإنما ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ بكل شرعة في دورها ﴿وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ف ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً .. لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ ..﴾ (٥ : ٤٨) فلكل شرعة دور يجب على المكلفين كافة إتّباع الشرعة الحاضرة ، لا متابعة الغابرة تعّودا عليها أو تعصبا عنصريا أم ماذا؟ فإن إقامة الدين في كل دور هي إقامة طاعة الله في أمره الحاضر ، في شرعته الحاضرة ، فالتصلّب على الغابرة عصيان للأمر وتضييع للدين.

فالتفرق في الدين : إلى هود ونصارى ومسلمين راحة للمشركين ، حيث يروننا أمثالهم في تفرق الدين ، متضادين متفرقين أيادي سبا كما هم ، و ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من وحدة الدين!

وترى المخاطبون في ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ هم المسلمون؟ وهم مسلمون لا يتفرقون! ام هم عامة المكلفين؟ فإقامتهم للدين أن يقيموه في شرعته ، أن يتبع الكل في كل دور شرعته الواحدة ، فالترسب على شرعة سابقة نكرانا للّاحقة تضييع للدين الأمر والطاعة ، فإنهما الآن في الشرعة الحاضرة دون

الغابرة ف ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ وَما اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ (٣ : ١٩) وقضية التسليم لأمر الله وطاعته السليمة هي الاجتماع على شرعة حاضرة للدين دون اختلاف.

فليس إقامة الدين في إقامة أصوله ، والفروع متشجرة ، حيث الدين يعم الأصول والفروع ، فعلى المكلفين عامة أن يقيموا الدين كله في الشرعة الحاضرة : أن يتضامّ الجميع تحت راية واحدة : نوح ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صلوات الله عليهم أجمعين ، ولا يتفرقوا في الدين ، حيث التفرق في الشرائع تفرق في الدين الطاعة الى المعصية.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ يا محمد! من وحدة الدين ودينك الموحد بين صفوف المكلفين ، سواء أكانوا مشركين وثنيين أم كتابيين متحزبين : ﴿.. وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣٠ : ٣٢).

كبر على المشركين الأولين أن ينزل عليك القرآن ولا ينزل على رجل من القريتين عظيم! كبر عليهم ان ينتهي سلطان الشرك المفرّق الى سلطان الإسلام الموحّد! : «أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب» (٨٨ : ٥).

كبر عليهم القول : إن آباءهم ماتوا على ضلالة الجاهلية فأخذتهم العزة بالإثم!

ثم كبر على المشركين الآخرين ، على المتعصبين المتعنتين من أهل الكتاب ، أن ينزل هذا الدين على رجل إسماعيلي ، لا إسرائيلي ، فتضمحل السلطات الإسرائيلية العنصرية ، والسلطات المسيحية القومية أم ماذا.

ولكن رغم أولاء وهؤلاء وأضرابهم ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي

﴿إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ وقد اجتبى محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) واصطفاه لهذه الرسالة السامية ، وليفتح الطريق الأخيرة والشرعة الأبدية الى الدين المتين ، ويهدي به الله من ينيب.

﴿وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾(١٤).

﴿وَما تَفَرَّقُوا﴾ في الدين : ابراهيمين ـ هودا ـ نصارى أم ماذا ـ رغم وحدة الدين : الأمر والطاعة ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بوحي الكتاب أن كل شرعة بعد أخرى هي شرعة من ذلك الدين ، تتفق مع بعض في جذور واحدة ، والشارع لا يرتضي في كل دور من الخمس إلّا شرعة واحدة.

فما تفرق الذين أوتوا شرعة من الدين إلّا بغيا بينهم ، اللهم إلا القاصرين الأتباع منهم: ﴿وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٩٨ : ٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٦ : ١٥٩).

إن التفرق في الدين شرك وتمزّق من سنة المشركين ، والواجب الجماهيري لعامة المكلفين إقامة الوجه للدين فطرة وشرعة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣٠ : ٣٢).

إن دين الفطرة ودين الوحي الشرعة متجاوبان في تلائم تامّ ، فالتحزب في شرعة الدين تخلّف عن دين الفطرة ودين الله : دين

التكوين ودين التدوين المكتوبين بقلم الربوبية الصادقة ، إذا فهو في الحق شرك برب العالمين!.

وإذا كان التفرق في شرائع الدين شركا رغم تفرقها في قسم من طقوسها ، فليكن التفرق في شرعة واحدة ، تشجرا في مذهبيات وتشاجرا فيها رغم وحدة الشرعة ، ليكن هذا التفرق إلحادا إذا كان بغيا : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا. (١٠٣). وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣ : ١٠٥).

فهنالك تفرق عن دين الله شركا أو إلحادا في الله ، ثم تفرق في دين الله تحزبا في شرعة وشرعة هودا أو نصارى أم ماذا ، ثم تفرق في شرعة الله كما تفرقوا في كل شرعة ، فاليهود إلى فرق والنصارى إلى فرق والمسلمون إلى فرق ، وكل هذه التفرقات محكومة في ميزان الله.

إن للدين حملة أولين ومتحملين آخرين ، وفي الأكثرية الساحقة يختلف تفرق الآخرين عن الأولين ، فالحملة الأولون ـ في الأكثر ـ لا يختلفون ويتخلفون إلا بغيا بينهم : ظلما قاصدا بالنسبة لبعض في شرعة ، أو لآخرين في شرعة أخرى ، حسدا بينهم وظلما للحقيقة ولأنفسهم ، حيث تفرقوا أيادي سبا تحت تأثيرات الأهواء والشهوات.

﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ : ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ (٣ : ٣٦)﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بما تفرقوا ، أن يهلكهم بعذاب الاستئصال ، وفيما أهلك قرونا ليس لمجرد الاختلاف ، وإنما للتطرف في الترف والتخلّف عن شرعة الله لحدّ لا يتحمله المجتمع.

هم أولاء حملة أوّلون عليهم ما عليهم ولهم ما لهم ، ولكنما المتحملون الآخرون ﴿الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾!

أولئك اختلفوا على علم ويقين بغيا بينهم ، ثم الذين ورثوا الكتاب اختلفوا على شك مريب ، ولا يصدق هذا الفرق بين الأولين والوارثين إلّا في كتابات الوحي قبل القرآن ، حيث حرفها الأولون على علم ، فتفرق فيها الوارثون على شك مريب ، وهو المسنود إلى ما يعتبر كحجة [1].

فالتفرق الحاصل عن شك مريب أهون ضلالا من التفرق عن شك غير مريب أو عن علم ، وإن اشتركت في ضلال ، ولكن اين ضلال من ضلال! ثم التفرق الحاصل قصورا دون تقصير لا عن علم ولا شك كما يحصل عند المجتهدين إذا كان عن اجتهاد صحيح يتبنى الكتاب أصلا والسنة فرعا ، هذا التفرق ليس محظورا ولا يفرّق حيث الكل يستنبطون أحكام الله من كتاب الله وسنة رسول الله ، (صلى الله عليه وآله وسلم) للمصيب أجران وللمخطئ اجر واحد ، فلا عليهم ولا لهم أن يتباغضوا ، وانما عليهم التشاور لكي ينقصوا من الخلافات ثم يرجع من سواهم إلى الأكثر بعد التشاور ، كمرجعية واحدة هي الأكثرية بين المتشاورين.

وآية التفرق إنما تندّد بالتفرق بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ثم الذين ورثوهم فهم في شك مريب ، وأما العلماء الربانيون المسلمون فهم لا يجتهدون على شك مريب ولا تخلفا عن علم بغيا بينهم ، وإن كان بين من يجتهد مقصّرون حيث لا يستندون كما يجب إلى كتاب الله ، وفيما تعودوا على ترك الكتاب اعتمادا على الأقوال والروايات فأصبحوا قاصرين في الرجوع الى كتاب الله فهم أيضا مقصرون في قصورهم تشملهم على أقل

---

(١). الشك المريب ما يجعل الإنسان في ريب بما فيه من مشكك في ظاهر الحجة كآيات توراتية او انجيلية دخيلة او محرفة يحسبها وارث الكتاب من الوحي ، والشك غير المريب ما لا يستند الى حجة مشككة ، كشك المتجادل العارف بالحق مثل الأولين.

تقدير ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ إذا لم تشملهم. ولا سمح الله. ﴿وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾!

وإن العقيدة هي الصخرة الصمّاء الصلبة التي يقف عليها صاحبها، فلا مأخذ لها إلّا قاطع البرهان دون شك مريب أو غير مريب، ولا يزعزعها أقاويل الأولين أم من ذا من القائلين.

المسلمون الذين يعيشون الوحي الأخير: القرآن العظيم، أولئك هم دوما من الحملة الأولين، إذ لا تحرّف في القرآن ولا في حرف او نقطة او اعراب ام ماذا، فقد جاءهم علم خالص وحجة بينة كافية شافية لا تدع لهم مجالا لشك مريب أم غير مريب، ولا لأي تفرق فيما الحجة من الكتاب قاطعة لا ريب فيها، ولو أنهم تبنّوا القرآن كأصل أصيل لزال الكثير من خلافاتهم ولكن! ...

﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(١٥).

آية يتيمة عديمة النظير تأمر صاحب هذه الرسالة السامية إلى الدعوة والاستقامة كما امر، وإلى عشرة كاملة من مناهي وأوامر هامة تتبناها الرسالة الإسلامية كأصول الدعوة: ١ ـ دعوة ٢ ـ واستقامة ٣ ـ وتركا فيها لأهوائهم ٤ ـ ﴿وَقُلْ آمَنْتُ﴾ ٥ ـ «و ﴿أُمِرْتَ ..﴾ ٦ ـ ﴿اللهُ رَبُّنا ..﴾ ٧ ـ ﴿لَنا أَعْمالُنا ..﴾ ٨ ـ ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنا ..﴾ ٩ ـ ﴿اللهُ يَجْمَعُ ..﴾ ١٠ ـ ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾!

وقد تشبهها آية أخرى في أصل الاستقامة إضافة إلى من تاب معه

وتركا للبعض من هذه العشرة قضية الشركة كما أضيفت أمور أخرى لنفس القضية :

﴿فَاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ وَمَنْ تاب مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ. وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١ : ١١٥).

«فلذلك» : لأجل ذلك التفلك العارم بين الأمم ، والتحزبات المفرقة في شرعة وشرعة ، وكذلك في نفس كلّ شرعة رغم أن الله واحد والدين واحد والشرعة واحدة كما الرسالة ، لذلك «فادع» إلى وحدة الدين والشرعة ، وشرعتك هي الدين كله ، وهي كل شرعة من الدين قبلك ، وإنها شرعة القرآن ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤١ : ٤٢) «فلذلك» يا قائد القيادة الجديدة الحازمة الحاسمة المديدة .. «فادع» إلى هذه الوحدة العريقة الرفيقة الضاربة إلى أعماق الزمن» «واستقم» في هذه الدعوة الوطيدة دون لفتة الى الأهواء المصطرعة حولك وحول دعوتك الموحدة إعلانا بجديد الايمان بقديم الدين المتين الذي شرعه الله للنبيين أجمعين.

ولأنك النبيون أجمع حيث تجمع كافة النبوات ، وأن هذه أمتهم امة واحدة ، فالمكلفون أجمع أمتك أمة واحدة ﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ﴾.

هنالك دعوة تجمع دعوات الرسالات كلها ، فاستقامة في هذه الدعوة تجمع الاستقامات كلها ، كما أن نبوتك تجمع النبوات كلها ، وشرعتك هي الدين كلّه ، وهي الشرائع كلّها!.

﴿فَـادْعُ وَاسْـتَقِمْ كَمـا أُمِـرْتَ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْـواءَهُمْ﴾ إذ هـي تهـري إلى هـوّاة الخلافـات والتحـزبات المذهبيـة ، إلى شـفا جـرف الهلكـات ﴿فَلِـذلِكَ فَـادْعُ﴾ : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٦ : ١٢٥) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٢ : ٦٧) ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨ : ٨٧).

هنا يمنع شرعته عن كيان الشرك أن يقول : أنا على شرعتي وأنتم على شرائعكم إبقاء على التحزبات المذهبية. لا! وإنما هذه الدعوة دعوة إلى توحيد الأمم أن يتضامّوا تحت راية واحدة.

١ ـ ٢ ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾ اطلب القوامة : لزوم المنهاج القائم دون عوج وعرج ، طلبا من ربك أن يقيمك كما أمر ، ومن الأمم أن يستقيموا كما أمر ، دون مواربة ولا مسايرة ولا أنصاف حلول ، ومن استقامتك ﴿أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠ : ١٠٥) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ (٣٠ : ٤٣) ف ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٨١ : ٢٨) حيث الاستقامة في هذه الدعوة والداعية والمدعوة ، إنها كيانها وقوامها ، دون أن يحرفها حارف أو يجرفها جارف ﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٦ : ١٣) ﴿.. تَتَنَـزَّلُ عَلَـيْهِمُ الْمَلائِكَـةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّـةِ الَّـتِي كُنْـتُمْ تُوعَـدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي

الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ. نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ. وَمَنْ [١] **أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (٤١ : ٣٣).

لقد أمرت الأمم قبلئذ ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ فلم يأتمروا إلّا قليلا ، ثم الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يؤمر أخيرا أن يحقق هذا الأمر ﴿**وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ**﴾ ومن ثم ﴿**وَمَنْ تابَ مَعَكَ**﴾ فقد حمّل هو ومن معه تحقيق هذه الرسالة الموحّدة وقد حقق كما حمّل في دعوته الصارمة ، وعلى الذين معه حمل هذه الرسالة حتى يحققوها كما وسوف تتحقق في الدولة المباركة المهدوية عليه آلاف التحية والسلام.

ولقد كانت هذه الرسالة الجمة الهامة حملا عليه ثقيلا لحد «قال : شمّروا فما رؤي ضاحكا» [١] وكما يروى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): «شيبتني هود وأخواتها» والشورى كبيرة أخواتها حيث تخصه آيتها بالاستقامة إذ قيل له (صلى الله عليه وآله وسلم) : لم ذلك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! فقال : لأن فيها ﴿**فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ**﴾[٢] ولم يذكر ومن تاب معك وإنما ﴿**كَما أُمِرْتَ**﴾ فهي في الشورى أعلى منها في هود ، ولن تطيق الأمة الإسلامية تحقيق الاستقامة التي امر بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلّا على حدها ، لأنها الخروج من كافة المعهودات ، والقيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق المطلق لتحقيق كافة الرسالات ولبّها في العالمين.

---

(١) الدر المنثور ٣ : ٣٥١ ـ اخرج ابن أبي حاتم وابو الشيخ عن الحسن (رضي الله عليه) في قوله تعالى ﴿**فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ**﴾ قال. شمّروا .. أقول : فإذا هو شمر بعد نزول هذه الآية المشتركة بينه وبين من معه فما كانت إذا حالته لما نزلت آية الاستقامة الخاصة به (صلى الله عليه وآله وسلم)!.

(٢) تفسير روح البيان للحقي ج ٨ ص ٢٩٩.

الدخول في أمر الله ـ لا سيما إذا كانت الرسالة العليا ـ هو طبعا صعب ، ولكنما الاستقامة فيه أصعب فإنه التمكن في المأمور به لحد يصبح المأمور راسخا فيما امر به غير محتمل الزوال ولا الخمول ، وحتى يصبح هو هو الأمر والاستقامة في الأمر كما أمر ، وقد روي «ما نزلت آية كانت أشق على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذه الآية» [١] حيث تحمل إثباتات ونفيا : ٣ ـ ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾ وإنما هوى واحدة هي هدى الله : ﴿قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٦ : ٥٦) ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (٢ : ١٢٠) ﴿.. إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢ : ١٤٥) ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (٢٣ : ٧١).

٤ ـ ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ﴾ دون فرق في هذا الإيمان وإنما في التطبيق ، حيث الكتاب الأخير يحتل دور التطبيق فلا يبقى بما أنزل قبله إلّا إيمان وتصديق ، ردا لإيمان العالمين كلهم إلى أصل واحد ، وردا على المفرقين بين الله ورسله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً. أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٤ : ١٥٣).

فالرسول يؤمن هكذا إيمان ، ويأمر الأمم أن يؤمنوا هكذا إيمان : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ..﴾ (٢ : ٢٨٥) ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَما

---

(١) تفسير بيان السعادة ج ٢ ص ٣٤٢.

أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ﴾ (٢ : ١٢٨).

٥ . ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ «لأعدل» تعني كلا العدل والعدل ، فقد أمرت لاجعلكم عدل بعض في هذه الدعوة الموحدة ، كأسنان مشط على سواء ، دونما ترجيح لجماعة على آخرين ، وكذلك أن اعدل بينكم بحكم عدل.

ف «بينكم» حيث توحي إلى بينونات في هذه الأمم ، يؤمر الرسول أن يدعو عدلا ويحكم عدلا لكي يزيل هذه البينونات فيجعلهم امة واحدة ، فيا لها من دعوة عادلة عاقلة لا تتبنى عنصرية أو قومية أو طائفية أو إقليمية أم ماذا ، اللهم إلّا ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ﴾ (٢ : ١٣٨).

إنها تسوية بين كتب الله إيمانا ، وتسوية بين عباد الله دعوة إلى هذا الإيمان.

٦ . ﴿اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ﴾ لا أرباب متفرقون لكي نتفرق هنا وهناك وإنما هي إعلام عام بربوبية واحدة فعبودية واحدة ، فنحن كلنا كعبيد سواء في هذه الربوبية الواحدة : ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٣ : ٦٤) .. وبعد إعلان الربوبية الواحدة تعلن فردية التبعة :

٧ . ﴿لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ لا ينفعنا صالح أعمالكم ولا

يضرنا طالح أعمالكم ، وكما لا تنفعكم أو تضركم أعمالنا ، فليست هذه الدعوة الموحدة لنا تجارة أو لكم خسارة ، وإنما ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ : ﴿وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ﴾ (٢٨ : ٥٥).

إنها ليست دعوة استثمارية لصالح هذه الشرعة الأخيرة أو رسولها والمتشرعين لها ، وإنما هي بسط الرحمة الإلهية و ﴿ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ (٣٦ : ١١٣) ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٦ : ٥٢).

٨ ـ ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ﴾ وترى وما هي الحجة المنفية في هذا البين؟ وهذه كلها حجج إلهية على هؤلاء الانعزاليين!

أقول : إنها قد تعني بعد هذه الحجج الموحّدة للدين ، التي سلفت ، حيث أزالت البينونات ، فلم تبق حجة لازمة لإزالة البين إلّا بيّنت ف ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ﴾ .. أم وتعني حجة ـ بعد ذلك ـ تبيّن وتفرق .. فبأية حجة نتفرق أيادي سبا إلى مسلمين وهود ونصارى ، فقد استجيبت الحجة الموحدة لمن استسلم لله وأسلم وجهه لله ، فلم تبق ـ إذا ـ حجة إلّا داحضة : ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ ..﴾ ف ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ﴾ تنفي الحجة الحقة ، سواء المثبتة لهذه الوحدة وقد تمت ، أو المفرقة فليست اللهم إلّا داحضة! أم ولا حجة بيننا وبينكم تثبت رجاحة شرعة على شرعة حيث الكل شرائع الله من دين واحد لله ، أم ولا خصوم بيننا وبينكم ، ولماذا نتخاصم والوحدة لائحة ، اللهم إلّا أن يخاصم داعي الوحدة الدينية دعاة التفرقة.

٩ ـ ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا﴾ وبينكم إله واحد يجمعنا بجمع واحد في صعيد واحد بحساب واحد ، ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ

الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٤ : ٢٦) ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ (٤٥ : ٢٦) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ﴾ (٦٤ : ٩) وكما «الله ـ هناك ـ يجمع بيننا وبينكم» إنه ربنا جميعا ف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾. إنه يجمع بيننا وبينكم ليوم الجمع التغابن كما جمع بيننا وبينكم هنا ليوم الفرق والتعاون ، جمعا في دينه وشرعته ، وسوف يفتح بيننا فيما كنا فيه مختلفين وهو الفتاح العليم.

١٠ ـ ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ إليه وحده لا شريك له ، لا إلى ارباب متفرقين ، ف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ شرعة واحدة ـ سير واحدة ـ إله واحد ومصير واحد ففيم إذا نتباغض ونتعارض؟

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾(١٦).

الحجة هي الدليل القاصد لإثبات أمر أو إبطاله ، والمحاجة هي تبادل الحجة وتضاربها ، فقد تكون حقا بالتي هي أحسن عن علم وحلم ، أو تكون باطلا فيما ليس لهم به علم : ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ (٣ : ٦٦).

والمحاجة في الله قد تكون في كونه أو توحيده وكيانه ، أو وحيه وشرعته : ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (٢ : ١٣٩) ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ (٣ : ٢٠).

هنا توحي ﴿مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أن المحاجة كانت في شرعة الله الأخيرة ، واعتبرت الاستجابة الصادقة له حجة قاطعة لا مرد لها ولا حاجة

معها إلى حجة أخرى ، لا مثبتة حيث ثبتت بالاستجابة ، ولا نافية فإنها عند ربهم داحضة.

وترى أن استجابة جماعة لشرعة هي برهان أنها إلهية؟ فلتكن كل شرعة حقة وإلهية! أم لهذه الاستجابة شروط ومقومات ، فما هي مقوماتها حيث كانت في الشرعة الأخيرة فلا محاجة ـ إذا ـ إلّا وهي داحضة؟!.

ولأن الدحض هو الزلق ، فالحجة الداحضة هي الزالقة ، الضعيفة غير الثابتة ولا متماسكة ، الواطئ الذي تضعف قدمه فيزلق عن مستوى الأرض ولا يستمر على الوطء ، وداحضة بمعنى مدحوضة بنفسها أنها تدحض نفسها بنفسها لضعف سنادها ووهاء عمادها ، فهي هي المبطلة لنفسها من غير مبطل غيرها ، لظهور أعلام الكذب فيها وقيام شواهد التهافت عليها ، وإنما اطلق تعالى اسم الحجة عليها وهي شبهة واهية لاعتقاد المدلي بها أنها حجة ، وتسميته لها بذلك في حال النزاع والمناقلة حيث يوردها موردها مورد الحجة ، ويسلكها طريقها ويقيمها مقامها.

حجج داحضة :

من حجج اليهود والنصارى أن التوراة أو الإنجيل متفق عليه بينهم وبين الذين أسلموا ، والقرآن مختلف فيه ، فليأت المسلمون لوحي القرآن ببرهان دوننا حيث الاستجابة للتوراة والإنجيل تجمعنا دون القرآن.

فيقال لهم : إن هذه الحجة داحضة : باطلة زائلة في ميزان الحق لا تستحق إلفات نظر ، نسألهم أولا ما هي ماهية الاتفاق بيننا وبينكم في الكتابين؟ ألأننا كلنا نؤمن بآله واحد ، فاستجابتكم لكتاب سابق من الله بآيات صدقه وبينات رسوله تحملنا على تصديقه ، فعليكم كذلك تصديق القرآن لاستجابتنا له بآيات كمثلها أو هي أحرى وأهدى سبيلا ، إذا فحجتهم داحضة!

أم لأن القرآن المستجاب لنا ببينات صدقه القاطعة يحملنا على تصديق الكتابين دون حجة أخرى ، حيث الحجة المصدقة لهما ليست فيهما ، فإنها منفصلة عنها وهي معجزات موسى وعيسى حيث تحمل من شاهدها بتصديق كتابيهما ، إذا فاستجابة حجة القرآن هي التي تحملنا على تصديق الكتابين فكيف تنقلب حجة علينا تتطلب حجة أخرى بعد المتفق عليها ولا حجة لنا إلّا هيه ، إذا فحجتهم داحضة.

ثم القرآن لا يحملنا إلّا على تصديق الكتابين المبشرين به وبنبيّه : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً .. فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٧ : ١٥٨) ، ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢ : ١٤٦) ﴿.. الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦ : ١٢)!.

إذا فلا نشارككم في تصديق الكتابين دون شروط ، إنما نصدق الذي بشّر بنبينا وبكتابه ، إذا فحجتهم داحضة [١].

ثم الذي يستندون إليه في استجابتهم لتورات او إنجيل ليس إلّا معجزات من الرسولين شهدها من حضرها دونهم ، وإنما استجابوهم دون حجة حاضرة ، وإنما لحسن الظن بأسلافهم ، والكتابان محرفان لا حجة فيهما وحتى قبل التحرّف إذ لا معجزة فيهما ، فهذه إذا استجابة فاشلة ، ولكنما المسلمون يستجيبون دعوة القرآن لأنه معجزة بنفسه وهو أوضح

---

(١) وفي حوار بين الإمام الرضا (عليه السلام) وجاثليق عظيم النصارى ....».

برهان لرسالة رسوله ، فقد استجابوا وعلى مر الزمن لوحي القرآن بحجة حاضرة غير محرفة ، إذا فحجة اليهود والنصارى داحضة زائلة عند ربهم ، إن في اثبات وحي الكتابين أو في رد وحي القرآن ، فلما استجيبت دعوة القرآن بحجته الحاضرة لم يكن نكرانهم لما استجيب له إلّا كفرا بالله وآياته ، إذا ف ﴿حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾!

﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)
يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ
يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ
(١٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ
فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْ لا كَلِمَةُ
الْفَصْلِ لَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
الْكَبِيرُ (٢٢) ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ
يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ
ما تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾(٢٨)

﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾(١٧).

ترى أليس الكتاب هو الميزان فكيف يردف به الميزان؟ أم هو ميزان ثان؟ [1] لقد ذكر الميزان هنا وفي الحديد عدلا للكتاب ﴿وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ..﴾ (٥٧ : ٢٥) ومن ثم ميزان موضوع في الرحمان مع رفع السماء ﴿وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ﴾ (٥٥ : ٩)[2].

فهنالك ميزان هو القرآن ، أصلا يرجع إليه كل ميزان حتى نبوّة نبي

---

(١) راجع ج ٢٧ الفرقان ص ١٧٠ حول آية الميزان.

(٢) المصدر ص ١٨ ـ ٢٠ حول آية الميزان.

القرآن ، ثم ميزان فيه وفي السنة المحمدية يعرف بهما معارف القرآن ، ومن ثم ميزان متصل به كيانا منفصل عنه كونا للتعرف الى القرآن وتطبيقه وتأسيس دولته : هو نبي القرآن (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلفاءه المعصومون (عليهم السلام) والعلماء الربانيون ، ومن قبل ميزان الفطرة والعقل والعلم يعرف بها وحي القرآن وأهل بيت القرآن [1] ، وميزان العدل والقسط حيث يكرّسهما القرآن ، ويكرّسان لتطبيق القرآن في الاولى ، وللحساب يوم يقوم الحساب قسطا وعدلا وكتاب الأعمال وكتّاب الأعمال وقلب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقلوب المحمديين المعصومين الطاهرين : (عليهم السلام) : ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ (٢١ : ٤٧) موازين متصلة كيانا بالقرآن مهما كانت منفصلة كونا عن القرآن ، حيث القرآن هو الأصل في الميزان ثم الفروع هي سائر الميزان.

وقد يعني الكتاب هنا جنس الكتاب قرآنا وما قبله من كتاب ، فمن الميزان إذا المعجزات التي تثبت وحي الكتاب كما سوى القرآن ، وأما القرآن فهو أمّ المعجزات كما هو أم الكتاب.

و «بالحق» هنا تبيّن موقف الكتاب أنه يصاحب الحق ، وأن نزوله بسبب الحق تبيانا وتطبيقا للحق ، ثم الحق في الكتاب الأخير ثابت لا ينسخ ، فهو حق مطلق مطبق مهما كان الحق في كل كتاب قبله لردح من الزمن غير مطلق.

﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ :

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٦٨ في تفسير القمي في الآية قال : الميزان امير المؤمنين (عليه السلام) والدليل على ذلك قوله عز وجل في سورة الرحمن «وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ قال : يعني الإمام».

﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ (٣٣ : ٦٣) ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ (١٧ : ٥١) إن «لعل وعسى» ترجّ في ظرف الشك ، ظنا دون علم ، ف ﴿إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ في الأحزاب بيان لحالة الشك في أنها متى؟ أقريب أم بعيد؟ ثم «لعل» فيها وفيما هنا و «عسى» في الأسرى ترجّ في قربها يخرجه عن الشك إلى وشك اليقين وأشرافه بأنها قريب ، وما يدريه إلّا من أدراه كل ما دراه من وحي الرسالة أنه قريب ، كما وأدراه أخيرا بقربها : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً. وَنَراهُ قَرِيباً﴾ (٧٠ : ٦) قريبا في واقعها كقربها في ميزان الفطرة والعقل والعلم والعدل لزمن بعيد أم قريب وكل آت قريب. «لعل وعسى» هنا وهناك لا تعني ترجّي الله ، وإنما ترجّي الرسول بما أدراه الله ، ومن ثم العلم حيث أتم ترجيّه ، وعلّ «لعل وعسى» فيما يؤمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هنا أن يقول مماشاة مع خصومه الناكرين ليوم الدين.

ترى ما هو المأخذ هنا في قرب الساعة حيث الوسط هو زمن نبي الساعة؟ [1] هل هو بداية الخلقة؟ والساعة الحساب الجزاء لا تعني ايّ كائن! أم بداية خلقة المكلفين من النسل الأخير جنا أو إنسانا أو أيا كان فإنه موضوع هذا البيان؟ ولا يخصهم يوم الجمع مهما خصهم هذا البيان! أم هم المكلفون أجمع بمن فيهم هذا النسل الأخير؟ وقد يقربنا أن الخطاب موجه إلى هذا الأخير ، ثم لا يجدينا قرب الساعة إذا كان المبدء بداية خلق المكلفين ، إذ لا نعلمها. وإن على وجه التقريب. حتى تفيدنا أن الساعة قريب ، فلتكن الساعة أقرب إلى نبي الساعة منه إلى بداية النسل الأخير

---

(١) تأتي الساعة في ٤٨ موضعا تعني القيامة الا «ساعَةِ الْعُسْرَةِ» و «ساعَةً مِنْ نَهارٍ» و «ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ» و «لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً» ف ٤٤ موضعا تعني القيامة.

من الإنس ، حيث الجن موقفه كمن سلف من أنسال لا يدرى متى خلقوا.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾(١٨).

يستعجلون بها حيث لا تحس قلوبهم هو لها فلا يحومون حولها إلا هزوا لو أنها آتية فمتى؟ ولماذا لا تأخذنا ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ..﴾ (٢٢ : ٤٧).

وامّا الذين آمنوا فهم ﴿مُشْفِقُونَ مِنْها﴾ ولأن الإشفاق هي العناية المختلطة بخوف حيث يحب المشفق المشفق عليه ويخاف ما يلحقه تقصيرا منه لا من المشفق عليه ، إذا فهم لا يستعجلونها بل قد يستأجلونها ليتهيئوا لها حيث ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾!.

ثم العناية قد تربو الخوف كأنه لا خوف : ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ﴾ (٥٢ : ٢٦) أم الخوف يربوها كان لا عناية : ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ﴾ (٤٢ : ٢٢)﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ (١٨ : ٤٩) أو الخوف يربوها وهي موجودة : ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها﴾ (٣٣ : ٧٢) أم هما سيان حيث الخوف والرجاء يتساويان كما هنا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها ..﴾ وفي أضرابها : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٧٠ : ٢٧) ضروب أربعة من الإشفاق تشارك فيها العناية والخوف.

ثم المستعجلون بها يمارون فيها ، ظلمات بعضها فوق بعض في نكرانها : «ألا» فانتبهوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ جدالا في حجج داحضة ، إنهم ﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ : بعيد عن النجاة حيث أوغلوا فيه

معاندين متعنتين ، وبعيد عن الفطرة والعقل والعلم والعدل ، فلا يماري في الساعة إلّا من غرب عقله ، وحجبت فطرته ، وبرزت شقوته.

فالضلال القريب هو الضلال القاصر حيث يرجى بوصول البينة زواله ، والضلال البعيد هو المقصر بعد تمام الحجة فلا يرجى إذا زواله ، حيث المماراة هي الجدال في الحق كأنه باطل فيه مرية ، ولكي يستأصل فلا تبقى له باقية.

﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾(١٩).

اللطيف هو صاحب اللطف الدقيق الذي لا يعزب عن علمه وقدرته وحيطته شيء والله لطيف في ذاته حيث لا تدركه الأبصار ، ولطيف بعباده حيث يدرك الأبصار ، ولان اللطيف بعباده عليم بهم خبير لم يوصف اللطيف فيما وصف إلا بالخبير [(١)] ولأنه ﴿هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢ : ١٠٠).

إنه ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ﴾ لأنه ﴿لَطِيفٌ بِعِبادِهِ﴾ والرازق اللطيف حيث يعلم الحاجة والمصلحة فيلطف قد لا يكون قويا على مرامه عزيزا ، ولكنه ﴿هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ فعلمه بعباده وعطفه وقوته وعزته تجعل رزاقيته تامة لا حول لها دون أن يمنعه مانع منه أو سواه ، فلا بسط الرزق لمن يبسط له لمزيد اللطف والقوة والعزة ، ولا من قدر عليه رزقه لنقصان هنا أو هناك ، وإنما كل لكل حسب الحكمة ، والرزق يعم المعنوي منه كالرسالة وولاية الأمر الإمامة [(٢)] والمادي منه كسائر النعم غير الروحية.

وترى ما هي الرباط بين آية اللطف وما قبلها من آية الساعة وما

---

(١). نور الثقلين ٤ : ٥٦٨ في اصول الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قلت : الله لطيف بعباده يرزق من يشاء؟ قال : ولاية امير المؤمنين؟

بعدها من حرث الدنيا والآخرة؟.

هي أن الساعة الحساب الجزاء هي قضية اللطف القوة العزة ، وكذلك إيتاء حرث الدنيا لمن يريدها ، وزيادة الحرث لمن يريد الأخرى :

﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾(٢٠) [1].

تشبيه عجيب وتمثيل مصيب ، فحرث الآخرة والدنيا هو كدح الكادح لثواب الآجلة وحطام العاجلة ، حيث الحارث المزدرع إنما يتوقع عاقبة حرثه فيجني ثمار غراسه ويفوز بعوائد ازدراعه.

إن الدنيا بما يسعى فيها مزرعة قد تعنى لها نفسها او تعنى للآخرة «فالدنيا مزرعة الآخرة» ولذلك يتقدم هنا ﴿حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ رغم تقدم الدنيا بحرثها في نقدها على الآخرة ، ف ﴿إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩ : ٦٤).

إنما الدنيا زرع ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ فمن كان يريد منه حرث الآخرة يزد الله له في حرثه ولا يحرمه دنياه كما يصلح لآخرته ، ومن كان يريد منه حرث الدنيا يؤت منها ، شيئا مما أرادها لا كلها ، وما له في الآخرة من نصيب.

فانظر إلى طلاب حرث الآخرة والأولى تكشف عن الحماقة الكبرى في إرادة حرث الدنيا ، وهو آت لا محالة لمن أرادها أو لم يردها ، فلكلّ نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدّر له في حكمة الله ثم يبقى حرث الآخرة خالصا لمن أراده وعمل له ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً . وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها

---

(١) للاطلاع على تفصيل البحث راجع آية العاجلة في الأسرى.

سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً. كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (١٧ : ٢٠) ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١ : ١٨).

من طلاب حرث الدنيا نجد أغنياء وفقراء ، ومن طلاب حرث الآخرة نجد فقراء وأغنياء ، وأين فقراء من فقراء وأغنياء من أغنياء ، فكل ذلك محسوب حسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والاستعدادات الخاصة ، وإن كان الأغنياء في طلاب الدنيا أكثر من طلاب الآخرة ، وترى كم عمق هذا الحمق الذي يحصر الهم في إرادة حرث الدنيا ويحسره عن إرادة حرث الآخرة؟

إن الزيادة في حرث الآخرة مزيد رحمة من الله لطلابها في تقواهم والتسوية أو النقيصة في حرث الدنيا كذلك مزيد رحمة على العباد ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ (٤٢ : ٢٧) وترك لتأييد أهل الدنيا في طغواهم.

ثم وإرادة حرث الدنيا قد تكون بعمل الآخرة فهي أردأ وأنكى وأضل سبيلا : ف «من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة» [١] و «ان المال والبنين حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لأقوام فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه واخشوه خشية ليست بتعذير واعملوا

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٦٩ ـ ح ٥٢ عن اصول الكافي بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام).

في غير رياء ولا سمعة» [١] و «من كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل الفقر بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة» [٢] وقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب» [٣] قال تعالى : «ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك» [٤].

ولما يصل امير المؤمنين علي (عليه السلام) إلى هذه الآية يبكي ويقول : «اللهم إني اسألك إخبات المخبتين وإخلاص الموقنين ومرافقة الأبرار واستحقاق حقائق الإيمان والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم ورجوت رحمتك والفوز بالجنة والنجاة من النار [٥].

---

(١) المصدر ح ٥٤ بسند خطب امير المؤمنين (عليه السلام) وقال : اما بعد . الى ان قال . : ...

(٢) مجمع البيان وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٣) الدر المنثور ٦ : ٥ . اخرج احمد والحاكم وصححه وابن مردويه وابن حبان عن أبي بن كعب ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ....

(٤) المصدر . اخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من كان يريد حرث الآخرة ... ثم قال : يقول الله : ابن آدم ...

(٥) اخرج ابن النجار في تاريخه عن رزين بن حصين قال : قرأت القرآن من اوله الى آخره على علي بن أبي طالب (عليه السلام) فلما بلغت الحواميم قال لي قد بلغت عرائس القرآن فلما بلغت اثنتين وعشرين آية من حم عسق بكى ثم قال : اللهم .... .

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾(٢١).

إنما الدين كله لله ، والشارع من الدين كله هو الله ، لا شريك له لا في الدين ولا في شرع الدين ، وإنما المرسلون حملة دين الله وشرائعه ، ومبلغوا شرعة الله ومؤسسوا دولته تطبيقا لها وذودا عن ساحتها وسماحتها.

ترى ما هو موقف «أم» هنا وهي لعطف الإعراض؟ .. قد يكون المعطوف عليه مما يلي : أليسوا هم بحاجة إلى شرعة من دين الله إذ لا يعبدون الله وإنما أوثانهم وطواغيتهم؟ أم هم شرعوا لأنفسهم من الدّين ما أذن الله أو ما لم يأذن به الله؟ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟ وشركائهم هم الذين اتخذوهم شركاء لله فهم إذا شركائهم لا شركاء الله.

ليس من المعقول أن الدين الطاعة لله ، ثم يشرع من دينه من سواه دون إذنه ، تدخلا عارما طاغيا في طاعة الله ، ويكأن الله لا يملك شرعة من دينه فشركائهم شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله!

فالله وحده هو الشارع لعباده من دينه وطاعته ، فإنه مبدئهم ومبدعهم والكون كله ، يدبره بالنواميس التكوينية والتشريعية سواء ، وليست الحياة البشرية الّا ترسا صغيرا في عجلة هذا الكون الشاسع الواسع ، فليتحكمها شرعة تتمشى مع تلكم النواميس وتمشّي الإنسان إلى قمم الكمال المعدة له في هديه ، فكيف يشرع من دين الله من سوى الله ، أولاية على الله؟ وهو الولي الحميد! أم حيطة على النواميس ومتطلبات الحياة؟ ولا يحيطون

. أقول : هذه الآية حسب ما عندنا هي العشرين ولعله (عليه السلام) حسب البسملة آية ثم آية اخرى في هذا البين آيتين فأصبحت هذه الآية الثانية والعشرين.

بأنفسهم علما! أم ماذا.

مع وضوح هذه الحقيقة لحد البداهة فمن الحماقة والبلاهة المحاولات الطائلة لسنّ القوانين لإدارة شؤون الأفراد والجماعات حتى من أعقل العقلاء وأعدل العدول ، وحتى المرسلين ، فما هم بمشرعين من الدين ، إنما هم رسل يحملون شرائع من الدين شرعها الله ، ثم لا تدخّل لهم في أية كبيرة أو صغيرة.

وليس لمن يستنبط إلّا استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجيات الحياة ، على ضوء القرآن والسنة الرسالية والرسولية ، دون سنّ لاي صغيرة أو كبيرة من عند أنفسهم ، وإنما استنباط واجتهاد لأهله على شروطه.

هكذا تدخّل عارم في شرعة الله مما لم يأذن به الله يحق له القضاء الصارم من الله ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ : كلمة التأجيل لأجل إلى الساعة ، دون تعجيل قبل الساعة.

يوم الدنيا ليس يوم الفصل وإنما هو يوم الأخرى : ﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٣٧ : ٢١) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٤ : ٤٠) ﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٧٧ : ٣٨) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً﴾ (٧٨ : ١٧).

كلمة الفصل تحمل ميقات يوم الفصل ، والإمهال والتأجيل ليوم الفصل ، كما تحمله آيات الإمهال والتأجيل إلى يوم الفصل ، حيث يقضي بينهم ويفصل ففريق في الجنة وفريق في السعير ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ وهؤلاء من أظلم الظالمين حيث يتدخلون في ولاية الله بعد إشراكهم بالله : أن شرع لهم شركائهم من الدين ما لم يأذن به الله.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾(٢٢).

ترى الظالمين وجلين ما كسبوا على عناية علّهم ينجون وهو واقع بهم ، لا جزاءه انتقاما ، بل إن ما كسبوا هو واقع بهم وقوع الشاهد القارع ، حيث الأعمال والأقوال تشهد شهادة ذاتية عينية على عامليها ، ومن ثم وقوعا لحقائقها التي تبرز يومها ولا يظلمون نقيرا ، حيث ينقلب عذابا لا مخلص منه ولا محيد.

هؤلاء الظالمون المشفقون مما كسبوا ، ومن ثم مؤمنون مشفقون ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ**﴾ كما قدموها بما كسبوا وعند الله مزيد ﴿**لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ**﴾ (٥٠ : ٣٥) عما يشاءون ، ﴿**وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ**﴾ (٢١ : ١٠٢) ﴿**وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ**﴾ (٤٣ : ٧١) ﴿**وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ**﴾ (٤١ : ٣١).

«ذلك» من روضات الجنات ولهم ما يشاءون عند ربهم ﴿**هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾! فهناك جنات هي لسائر أهل الجنة ، وهنا روضات الجنات وهي البقاع الشريفة المتميزة فيها للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا الذين ﴿**خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً**﴾ (٩ : ١٠٢).

وترى ان ثواب الجنات بروضاتها ليس عن استحقاق فلا يجب على الله حتى يكون فضلا كبيرا؟ أقول : نعم وكلا .. كلّا حيث الإيمان وعمل الصالحات لا يرجعان بفائدة إلى الله إلّا إلى العاملين فلا استحقاق لأجر ، ونعم : حيث ﴿**كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة ، فقد فرض على نفسه الفضل ، حيث لا أصل الفضل واجب عليه ولا كبيره ، فهو فضل على فضل.

﴿ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢٣).

بشارة عظمى بعطية كبرى لعباد الله المؤمنين الصالحين ، أترى أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يسألهم على عنت الدعوة بوعثاءها وأعباءها والبشارة بعقباها في أولاها وعقباها ، أيسألهم عليه أجرا؟ ..

﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾!

وهذه سنة الله الدائبة في رسله ألّا يسألوا المرسل إليهم أجرا ، ولا جزاء ولا شكورا ، لا ماديا ولا معنويا ، فأجرهم مضمون لهم عند الله ، وهم ليس لهم أجورهم ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٥٢ : ٤٠).

وهكذا نسمع الرسل منذ نوح يواجهون الأمم بأمر الله بالقول : ﴿وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٢٦ : ١٠٩) وهود (١٢٧) وصالح (١٤٥) ولوط (١٦٤) وشعيب (١٨٠) ومن قبلهم وبينهم وبعدهم من المرسلين : ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٦ : ٢١) كعامة المرسلين وحتى يوصل وبأحرى إلى خاتم المرسلين : ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ وليست هذه المودة ـ أيا كان ـ أجرا وإن كانت بصيغة الأجر : ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٣٤ : ٤٧) فهو إذا أجر لا يرجع بفائدة إلّا لهم في سبيل الإيمان بربه : ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (٢٥ : ٥٧) بعد قوله : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ لا تاجرا تتعامل ببلاغ الرسالة ، والصيغة

المجردة في سلبية الأجر سارية دون تكلف : ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٣٨ : ٨٨) ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٥٢ : ٤٠)؟ ﴿وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ (١٢ : ١٠٤).

آيات ثلاث تنفي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) سؤال الأجر كاستمرارية للسنة الرسالية ، وثلاث أخرى تعالج موقف المودة في القربى أنها ليست في الحق أجرا وإنما «هو لكم» وسبيل إلى ربكم ، ودخول إلى مدينة علم الرسول من أبوابها المقررة لكم.

إذا فلتكن المودة في القربى لصالحهم كمسلمين ، وسبيلا إلى رب العالمين ، فلتكن مودة في أبواب مدينة علم الرسول ، واستمرارية لرسالة الرسول ، لا مودة في أقرباءه بسبب القرب سببيا أو نسبيا أم ماذا من القرابات التي لا يحسب لها حساب في ميزان الله.

ومن المعلوم دون ريب أن وجهة الخطاب هم المؤمنون المبشر لهم بروضات الجنات حيث آمنوا وعملوا الصالحات ، دون الظالمين المشفقين مما كسبوا ، إذ الناكرون لأصل الرسالة لا يعقل طلب الأجر منهم جزاء لهذه الدعوة وهم ناكروها حتى يقول ﴿لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ ثم يطلب منهم بدل الأجر مودتهم له (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم ألدّ أعداءه حيث يسب آلهتهم.

ثم هل من المعقول سؤال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المؤمنين برسالته أن يودوه في قرابته منهم ، وليسوا هم كلهم من قرابته ، ولم يكونوا يعادونه بعد الإيمان حتى يطلب ودّه نفسه لقرابته! أم ماذا من تأويلات عليلة.

إن القربي هنا كما تقول آياتها ليست إلّا القربى التي تقربهم المودة فيهم

إلى الله زلفى : ﴿إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ فإنما هي لهم لا له : ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ إذا فهم الأقربون إلى بيت الرسالة المحمدية «علي وفاطمة والحسن والحسين» تنزيلا [1] و «التسعة

---

(١)الدر المنثور ٦ : ٧ . اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم؟ قال : علي وفاطمة وولداهما ورواه مثله احمد بن حنبل في مسنده عن ابن عباس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) والثعلبي في تفسيره بسند صحيح عنه وابراهيم الحمويني من اعيان علماء السنة بسنده عنه وابو نعيم صاحب حلية الأبرار بسنده عن الأعمش عن سعيد بن جبير عنه والمالكي في كتاب الفصول المهمة عنه وصاحب المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة بسنده عنه . كل ذلك يرويه ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

وفي احقاق الحق ج ١٤ : ١٠٦ . اخرج مثله جماعة من أعلام القوم منهم العلامة ابن المغازلي في مناقبه ص ١١٢ مخطوط عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ومنهم الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١ : ١٣٠ ط بيروت بعدة طرق اخبرنيه الحاكم الوالد ... واخبرنيه ابو بكر السكري ... وأخبرناه ابو عبد الله الشيرازي .. وحدثنيه ابو حازم الحافظ من اصل سماعه ... وأخبرنا ابو نصر المفسر .. وأخبرنا محمد بن عبد الله الرزجاهي ... وحدثنا الحاكم ابو عبد الله الحافظ .... وأخبرنا ابو سعد ابن علي .. ومنهم العلامة الحضرمي في وسيلة المال ص ٦٦ نسخة الظاهرية بدمشق ، ومنهم العلامة الشيخ عبد القادر الشافعي السنندجي في تقريب المرام في شرح تهذيب الأحكام ص ٣٣٢ مطبعة الأمرية ببولاق ، كل ذلك عن ابن عباس ام غيره عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «هم علي وفاطمة وولداهما»!.

وفي المصدر عن العلامة الحسكاني في شواهد التنزيل ج ٢ : ١٤٢ بإسناد متصل عن علي (عليه السلام) قال : فينافي «آلم حم» آية انه لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن ثم قرأ ﴿لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ ورواه ايضا مصبح بن هلقام عن عبد الغفور .

ـ فأسنده الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)! وروى مثله العلامة باكثير الحضرمي في وسيلة المآل ص ٦٥ نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق من طريق أبي حيان والواحدي عن علي بعين ما تقدم.

واخرج ابو نعيم والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى ـ ان تحفظوني في اهل بيتي وتودوهم بي ، واخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير إلا المودة في القربى قال : قربي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وروى ما يعنيه من ان القربى قربى رسول الله وآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في الجمع بين الصحاح الستة عن ابن عباس وعلى بن الحسين بن محمد الاصبهاني في كتاب مقاتل الطالبين في خطبة للحسن بن علي (عليه السلام) بعد استشهاد أبيه (عليه السلام) انا ابن من فرض الله مودتهم في كتابه حيث قال : ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا والحسنة حبنا اهل البيت ، والمالكي عن السدي عن ابن مالك عن ابن عباس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الحسنة هنا هي مودة آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وابن المغازلي الشافعي في كتاب المناقب بسنده عن الحكم بن طهير عن السدي مثله ، أخرجه كله في علي وفاطمة والحسنين وفي قربى رسول الله وآل محمد واهل البيت السيد هاشم البحراني في كفاية الخصام ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦ ـ الباب ٧٢ ، ثم اخرج من طريق اهل البيت (عليهم السلام) انهم هم والأئمة (عليهم السلام) كلهم اثنين وعشرين حديثا وكما المخرج من طريق إخواننا سبعة عشر حديثا وكما اخرج في البرهان ونور الثقلين أحاديث متواترة في هذا المعنى فراجعها.

واخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين (عليه السلام) أسيرا فأقيم على درج دمشق قام رجل من اهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي بن الحسين (عليه السلام) أقرأت القرآن؟ قال : نعم ـ قال : أقرأت آلم حم؟ قال : لا ـ قال : اما قرأت : قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى؟ قال : ـ

. فانكم لأنتم هم؟ قال : نعم ورواه مثله الثعلبي في تفسيره عن أبي الديلم مثله وبسند آخر عن ام سلمى مثله وفي تفسير البرهان ٤ : ١٢٦ ح ٢٥ الثعالبي بسند متصل عن أبي الديلم مثله.

وينقل الآلوسي في تفسيره روح المعاني ج ٢٥ ص ٣٢ شعرا في حب آل البيت عن الإمام الشافعي قائلا : وانا أقول قول الشافعي الشافي العي :

يا راكبا قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض سحرا إذا فاض الحجيج الى منى فيضا بساكن خيفها والناهض ان كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان اني رافضي وفي مجمع البيان باسناده الى القاسم الحسكاني مرفوعا الى أبي امامة الباهلي قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى وخلقت انا وعلي من شجرة واحدة فانا أصلها وعلي فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها وأشياعنا أوراقها فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا ومن زاغ عنها هوى ولو ان عبدا عبد الله بين الصفا والمروة الف عام ثم الف عام حتى يصير كالشن البالي ثم لم يدرك محبتنا كبه الله على منخريه في النار ثم تلى ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾. وفي الدر المنثور ٦١ : ٧ واخرج الترمذي وحسنه وابن الانباري في المصاحف عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي اهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، وفيه اخرج الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه واحبوني لحب الله وأحبوا اهل بيتي لحبي واخرج البخاري عن أبي بكر الصديق قال : ارقبوا محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) في اهل بيته ، واخرج ابن عدي عن أبي سعيد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم : من أبغضنا اهل البيت فهو منافق.

المعصومون من ولد الحسين» تأويلا ، وكما أخرجه زهاء اثنين وخمسين من فطاحل إخواننا [١] وكثير من أصحابنا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله

. وينقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير عن صاحب الكشاف انه يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : قوله «من مات على حب آل محمد مات شهيدا الا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، الا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا ، الا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان ، الا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، الا ومن مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها ، الا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان الى الجنة ، الا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، الا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، الا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله ، الا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، الا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة.

أقول : ثم يعلق الفخر الرازي على هذا الحديث قوله : «ولا شك ان فاطمة وعليا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب ان يكونوا هم الآل ، وايضا اختلف الناس في الآل قيل هم الأقارب وقيل هم أمته فان حملناه على القرابة فهم الآل وان حملناه على الامة الذين قبلوا دعوته فهم ايضا آل فثبت ان على جميع التقديرات هم الآل واما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه.

(١) منهم احمد بن حنبل في صحيحه والطبري في تفسيره بثلاثة أسانيد والحاكم في المستدرك والزمخشري في الكشاف واخطب خوارزم في مقتل الحسين وابن الأثير في جامع الأصول والرازي في تفسيره وابن بطريق في العمدة وابن طلحة في مطالب السؤول والكنجي في كفاية الطالب بسندين والبيضاوي في تفسيره والطبري في ذخائر العقبى بسندين والنسفي في تفسيره والحمويني وصاحب المناقب الفاخرة والنيسابوري في تفسيره وابو حيان في البحر المحيط وابن كثير في التفسير بسندين والهيثمي في مجمع الزوائد والمهايمي

. الهندي في تفسير تبصير الرحمان وابن حجر العسقلاني في الكافي الشاف بثلاثة أسانيد وابن صباغ المالكي في فصول المهمة والسيوطي في الدر المنثور بثلاثة أسانيد وفي الإكليل بتسعة أسانيد وفي احياء الميت باربعة أسانيد وابن همام في حبيب السير وابن حجر في الصواعق المحرقة بثلاثة أسانيد والخطيب الشربيني في السراج المنير والبركرى في الأربعين والمير محمد صالح الترمذي في مناقب مرتضوي والمحلى في الحدائق الوردية والمولى حسين الكاشفي في روضة الشهداء وفي المواهب والشبراوي في الاتحاف بثلاثة أسانيد والصبان في اسعاف الراغبين من (٣) والشوكاني في فتح الغدير (٦) والآلوسي في روح المعاني (٤) وأرجح المطالب والقندوزي في ينابيع المودة (٨) والبرزندي والطبراني وابن حنبل في المناقب وابن أبي حاتم في التفسير والحاكم في المناقب والنيسابوري في الوسيط وابن جرير في جامع البيان والحقاني والشبلنجي في نور الأبصار والسيد صديق حسن خان في هداية السائل في ادلة المسائل (٢) والحضرمي في رشفة الصادي والتونسي في السيف المسلول والحداد في القول الفصل (١٧) والخوارزمي في المقتل والطبري في ذخائر العقبي هؤلاء الفطاحل رووا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نزول آية ذوي القربى في الخمسة الطاهرة (عليهم السلام).

وفي ملحقات الاحقاق ٩ : ٩٢ يستدرك ما أخرجه في ٣ كما هنا بقوله ومنهم الثعلبي في الكشف والبيان والخواجة محمد پارسا البخاري في فصل الخطاب على ما في الينابيع ٣٦٨ والبدخشي في مفتاح النجا ١٣ والقندوزي في ينابيع المودة ١٠٦ والطبراني في المعجم الكبير ١٣١ وابو نعيم الاصبهاني في نزول القرآن مخطوط والزمخشري في تفسيره ٣ : ٤٠٢٠ والأمر تسرى في أرجح المطالب ٦٢ والحضرمي في القول الفصل ١ : ٤٨٢ وعبد الكافي الحسيني في السيف اليماني المسلول ٦٤ والخوارزمي في مقتل الحسين ٥٧ والطبري في ذخائر العقبى ٢٥ وابن تيمية في منهاج السنة ٣ : ٢٥٠ والتفتازاني في شرح المقاصد ٢ : ٢١٩ والقسطلاني في المواهب اللدنية ٧ : ٣ و ١٢٣ والعسقلاني في الكاف الشاف ١٤٥ ومحمد صديق حسن خان ملك بهوپال في فتح البيان ٨ : ٢٧٠ والسيوطي في .

وسلم) لأنهم أبواب مدينة علمه وهم الثقل الثاني : عترته ، وهم خلفاءه في أمته ، كما تواترت بذلك الروايات من طريق الفريقين ، مهما يهرف الهارفون ويخرف الخارفون في اختلاق روايات تناقضها أو تأويلات ، حيث القرآن هو الميزان لا سواه ، وهنا ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ لا «للقربى» ولا «مودة القربى» حيث القربى جعلوا مكانا للمودة ، أن تتمكن المودة فيهم كسبل إلى الله ، لا مودتهم والمودة لهم لكي يتخذوا أصولا وأهدافا ، لا! وإنما

ـــــــــــــــ

. احياء الميت ١١٠ والميبدي في شرح ديوان امير المؤمنين مخطوط والخضرمي في رشفة الصادي ٢٢ والشبراوي في الإتحاف ٥ و ١٣ والشافعي في المناقب ٧٠ مخطوط والأمر تسرى في أرجح المطالب ٥٧ والبدخشي في مفتاح النجا ١٢ مخطوط والبلخي في ينابيع المودة ٢٦١ والادريسي في رفع اللبس والشبهات ٨ والقاضي بهجت افندي في تاريخ آل محمد ٤٤ والنبهاني في الشرف المؤيد ٧٢ وفي الأنوار المحمدية ٤٣٣ والساعاتي في بلوغ الاماني المطبوع ذيل الفتح الرباني ١٨ : ٢٦٥ وابن حنبل في فضائل الصحابة ٢١٨ مخطوط وفي مسنده على ما في الينابيع والزمخشري في تفسيره ٣ : ٤٠٢ والخوارزمي في مقتل الحسين ١ و ٧٥ والرازي في تفسيره ٢٧ : ١٦٦ وابن بطريق الحلي في العمدة ٢٣ والكنجي في كفاية الطالب والشافعي في مطالب السؤول ٨ والبيضاوي في تفسيره ٤ : ١٢٣ والنسفي في تفسيره ٩٥ والحمويني في فرائد السمطين والنيسابوري في تفسيره ٢٥ : ٣١ وابو حبان في البحر المحيط ٧ : ٥١٦ وابن كثير في تفسيره ٤ : ١١٢ والبيهقي في مجمع الزوائد ٩ : ١٠٣ والكوكني في تفسيره تبصير الرحمن ٣ : ٢٤٧ والصباغ في الفصول المهمة «والسيوطي في تفسيره ٦ : ٧ وفي اكليله ١٩٠ وفي احياء الميت ١١٠ وخواند مير في حبيب السير والترمذي في المناقب المرتضوية ٤٩ والكاشفي في المواهب ٢ : ٢٤٣ والشبراوي في الاتحاف ٥ والطبراني في المعجم الكبير وابن أبي حاتم في تفسيره والحاكم في المناقب والواحدي في الوسيط وابو نعيم في حلية الأولياء والزرندي في نظم درر السمطين وابن حنبل في المناقب والحقاني في فلك النجاة والطبري في جامع البيان وعبد الكافي الحسني في السيف المسلول ٩ والحداد في القول الفصل.

هم السبل إلى الله والأدلاء على مرضات الله ، إذا فليس واجب المودة هنا ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ حيث توصلكم إلى الله!.

إن «القربى» هي مؤنث الأقرب كما وهي مصدر ـ وبطبيعة الحال ـ هي بمعنى الأقربية ، ولا تخلو في سائر القرآن عن كونها فعلى التفضيل او مصدر [١] ولا تجد القربى مجردة عن «ذي ـ ذوي ـ أولي» إلّا هنا ، حيث الأقربية الرسالية هي المعنية دون ذويها وأوليها ، ولذلك قال «في القربى» لا «للقربى» أو «القربى».

فحاصل المعني من المودة في القربى هو المودة في القربى إلى الرسول كمدينة علم الرسالة ، فإلى الله حيث الرسالة تكرّس ككلّ إلى الله : ﴿.. إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ فكانوا هم السبيل إليه والمسلك إلى رضوانه.

فليست القربى إذا ـ فقط ـ أقربية الرسول إلى الله ممن سواه وإن كانت تشملها كأصل ، ولكنما المودة في القربى إنما تكون لهم كسبيل كاملة إلى الله إذا اتخذوا إلى مدينة علمه سبيلا هي أبوابها : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً﴾ (٢٥ : ٢٩).

فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو أفضل السبل إلى الله ، فالسبيل مع الرسول ليس هو الرسول وإنما سبيل مع الرسول إلى الله ، هل لأن الرسول لا يكفي سبيلا إلى الله حتى يثنّى بسبيل معه؟ أم إن السبيل معه هو القرآن؟ والقائل : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، لا ينقصه إلّا

---

(١) كما في ستة عشر موضعا من «ذي القربى» و «ذوي القربى» و «أُولُوا الْقُرْبى» و «ذا قربى» و «اولى قربى».

سبيل مع الرسول ، وأما الرسول والقرآن فهما توأمان ، حيث الإيمان بأحدهما إيمان بالآخر ، والقرآن هو الدليل لرسالته ، فكيف يتخذ الرسول سبيلا دون القرآن ، فالسبيل هنا ليس هو الرسول ولا القرآن ، وإنما هو سبيل إلى رسول القرآن. وقرآن الرسول فإلى الله ، وليس إلّا ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ : الأقربين إلى الرسالة ، فإن مودتهم ـ لأنهم أبواب مدينة علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ تتبع اتخاذهم سبيلا مع الرسول وكما تواتر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

ثم ولا تعني القربى ـ وبأحرى ـ أقربية الرسول إليهم (١) ولا أقربيتهم إليه ، لو تعني قرابة نسبية أم ماذا من غير الرسالية ، فإنها ليست لهم ولصالحهم في اتخاذها سبيلا إلى ربه ، على أن المخاطبين وهم المؤمنون برسالته آمنوا به لرسالته وهي قربى روحية فهي أقرب وأحرى في المودة من القربى غير الروحية الرسالية. (٢)

فالمودة في القربى ـ التي لها صلة بأجر الرسالة وليست به فإنها لهم ، وهي ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ـ إنها ليست هي الرسالة حيث

---

(١) كما في الدر المنثور ٦ : ٦ ـ اخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا اسألكم عليه اجرا الا ان تودوني في نفسي لقرابي منكم وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم ـ أقول وهذا خلاف المستفاد من القربى كما عرفناها من الآية وخلاف النقل المتواتر عن ابن عباس نفسه وخلاف اجماع اهل البيت (عليهم السلام).

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٧٨ ح ٨٥ في روضة الكافي باسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : وقال لأعداء الله اولياء الشيطان.

صدقوها ، وليست أجرا لنفسها ، اللهم إلا تعرّفا سليما إلى الرسالة واستمرارية لها وليس إلّا ب ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ عترته (صلى الله عليه وآله وسلم) الأقربون إليه في معرفة الرسالة وحملها.

هنالك مودة في الرسالة تجعلهم يتعلمون من الرسول ويطيعونه كما يستطيعون حسب ما يودون رسالة الله ويحبون الله : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (٣ : ٣١) وهذه المودة تتطلب مودة السبل إلى الرسالة ومدينة علم الرسول ، وليست إلّا ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ حيث تقربهم إلى الرسول فإلى الله زلفى ، ثم لا نجد قربى إلّا هيه ، اللهم إلّا واهية ، إلّا قربى الله وليست لغير المعصومين اللهم إلا سبلا إلى الله ، وهم السبيل الأعظم والصراط الأقوم ، وهم أهل بيت النبوة ، وموضع الرسالة ، ومهبط الوحي ، ومعدن الرحمة ، وهم الدعوة الحسنى ، وحجج الله على أهل الدنيا والآخرة والأولى ، وهم الدعاة إلى الله ، والأدلّاء على مرضات الله ، والمستقرين في أمر الله والتأمين في محبة الله.

في الحق إن المودة في القربى ليست أجرا للرسالة ، وإنما هي طلب المزيد من تصديق الرسالة بالمودة في الملاصقين الأولين بالرسالة ، ودا تحملهم على ملازمتهم في الأخذ عنهم أهل البيت ، فأهل البيت أدرى بما في البيت!.

فلأن الأجر هو أجر الرسالة لا أجر محمد إلا كرسول ، فلتكن المودة في القربى هي في قربى الرسالة : من هو أقرب إليها من بيت الرسالة ، ثم وهو لهم كمؤمنين بالرسالة وهو ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، لا قرب محمد كسائر البشر إليهم ولا قربهم إليه ، فإن المودة في هذا القرب وذاك ليست إسلامية ولا تمتّ بصلة لرسالته أم ماذا؟

ثم المودة في قرباه إليكم ليست إلّا له لا لهم ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ كذلك هي والمودة في قرباهم إليه ليست اتخاذ سبيل إلى الرب اللهم إلّا قربى الرسالة ، سبيلا إليها فإلى الله وهي الأئمة من عترته (صلى الله عليه وآله وسلم).

فلئن قلت لا قربى أقرب من قربى الله فلتكن هذه المودة في قربى الله «أن تتقربوا إليه بطاعته» [(١)]؟ قلنا : كما المودة في طاعة الله تحملكم عليها ثم قربى بها إلى الله ، كذلك المودة في الأدلّاء إلى الرسول فإلى الله ، فلولا معرفة الرسول والرسالة كاملة لم تعرفوا طاعة الله حتى تقربكم إلى الله زلفى ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ فلو كان السبيل إلى الرب هي الطاعة المعروفة لكل أحد فكيف يسألهم المودة فيها كأجر الرسالة ، فإنما هذه سبيل جديدة يعرّفها لهم حيث هم يعلّمونهم ما خفي عنهم وعزب عن علمهم فهم أبواب مدينة علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ تصديقا للرسالة الإلهية ، وتذرعا بالمودة في القربى إليها فإلى الله زلفى ، أم ماذا من حسنة عقائدية أو عملية؟ ﴿نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً﴾ حسنا على حسنة نورا على نور ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ حيث التقصير والقصور في اقتراف حسنة لمن استغفر وأناب ﴿شَكُورٌ﴾ لمن يقترف حسنة ، ولمن يتوب بعد السيئة وقد ﴿يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾ (٢٥ : ٧).

ولقد كانت هذه الآية الغرة اليتيمة تذكرة لهم أمام مشهد روضات

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٦ ـ اخرج احمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردوية من طريق مجاهد عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية : قل لا اسألكم على ما اتيتكم به من البينات والهدى اجرا إلّا ان تودوا الله وان تتقربوا اليه بطاعته.

الجنات وحرية المشيآت فيها ، وهي حصيلة الدعوة الرسالية الصعبة الملتوية ليل نهار ، ذكرى أنه لا يسألهم على هذا أجرا إلّا المودة في القربى وهي لهم ، وإلّا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا.

لقد كان الاستثناء منقطعا معنويا حيث المودة هذه لم تكن أجرا ، وإن كان متصلا لفظيا حيث سماها أجرا وما هي بأجر ، ثم وليس مجرد عدم تناول الأجر بل ويتناولون هم أجرا وزيادة ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً ..﴾! ثم ومن بعد الأجر وزيادته غفرا وشكرا.

فخصيصة هذه المودّة أنها ليست أجرا له ، وهي لهم ، وهي السبيل إلى ربهم ، وليست القربى أشخاصا ، وإنما هي الأقربية إلى الرسول رساليا وإلى الله بعد الرسول معرفيا وعبوديا ، المتمثلة في الأئمة من عترته المعصومين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٤).

هذه الآية لا تمت بصلة لآية الأجر إلّا كونها موضع ريبة لجماعة من المسلمين ، كما القرآن كله عند الناكرين ، قولة في الجو الإسلامي الذي لم يسلم تماما عن الانحراف ممن ثقلت عليهم المودة في القربى (١) حيث قلبها

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٧٦ ح ٨٢ في تفسير علي بن ابراهيم بسند عن محمد بن مسلم قال : سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول في قول الله عز وجل : قل لا اسألكم عليه اجرا .. الى ان قال : ففرض الله عليهم المودة في القربى فان أخذوا أخذوا مفروضا وان تركوا تركوا مفروضا قال : فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول : عرضنا عليه أموالنا فقال لا ـ قاتلوا عن اهل بيتي من بعدي وقالت طائفة : ما قال هذا رسول الله وجحدوه وقالوا كما حكى الله عز وجل : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ ـ فقال عز وجل : ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ﴾ ـ

بعضهم الى العداوة كما عادوا النبي كالمنافقين ، وآخرون مذبذبون عوان دون عناد ولا وداد إلّا مودة كسائر المسلمين أو هي أعلى دون أن تتخذ إلى الرب سبيلا ، ثم قليل منهم متعهدون.

ثم قولة لغير المسلمين إن القرآن ككلّ مفترى على الله ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (١٠ : ٣٨) ﴿.. فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ﴾ (١١ : ١٣) ﴿..إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (١١ : ٣٥) ﴿.. إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ (٤٦ : ٨).

أو أن بعضه مفترى كالمودة في القربى عند البعض من المسلمين ، أم ماذا من غير المرغوب عندهم حيث يقولون : ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ ..﴾ (١٠ : ١٥) والجواب الحاسم هنا وفي الحاقة : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ. وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩).

و «أم» هنا عطف إعراض عما لا يستحق الذكر كأن كذب الله ﴿أَمْ

. ﴿يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ﴾ قال : لو افتريت ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ﴾ يعني : يبطله ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾ يعني بالائمة والقائم من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾.

وفي الدر المنثور ٦ : ٧ ـ اخرج الطبراني والخطيب من طريق أبي الضحى عن ابن عباس قال : جاء العباس الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : انك تركت فينا ضغائن منذ صنعت الذي صنعت فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا يبلغوا الخير او الايمان حتى يحبوكم.

يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ ..﴾. فهنالك مفترون على الله الكذب من غير رسل الله ، وهم مفضوحون إذ لا حجة لهم . فيما يفترون . باهضة ، إلّا داحضة ، وهم لا يصدّقون في صدقهم على الله دونما رسالة إلهيه أم ماذا ، فكيف يصدّقون في فريتهم على الله.

وأما أن رسولا صادق الرسالة بآياته يفتري الكذب على الله ، ثم الله يستمر في رسالته دون أن يأخذ منه بيمين القدرة ويقطع عنه وتين الرسالة ، فهذه خيانة إلهية ان يأتمن الخائن في رسالته ، وإضلال في موقف الهداية.

ف ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ لا يرسل ويأتمن الخائن ، ولو أرسل من تتأتى منه الخيانة فليختم على قلبه ، قلبا لقلب الرسالة ولسانها وأحوالها وآياتها إلى غيرها ، حسما لمادة الخيانة ، ثم قلبا إلى غير الايمان جزاء بما خان.

وسنة الله دائبة على محو الباطل وإحقاق الحق أيا كان ومن أي كان ، فهلا يمح الباطل من رسول الحق ، وهلا يحق الحق في رسول الحق؟ أجل : ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ﴾ بكلماته ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾.

علمه بذات الصدور لا يدعه يرسل الخونة ، ولو أرسل فلأنه يعلم موضع الخيانة يختم على قلب الخائن ، ولأنه يعلم الحق والباطل ككل ، ﴿يَمْحُ اللهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾ ودلالاته.

فما كان الله ليخفى عليه ما يدور بخلد الرسول قبل أن يرسله أو يقول ، فكيف بما بعده ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾!

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾(٢٦).

و «هو» لا سواه ﴿الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ فلما ذا القنوط من رحمته واللجاج في معصيته او اللجوء إلى سواه ، فباب التوبة مفتوحة على مصراعيها لمن تاب إلى الله ، وقبول التوبة لمن أرادها ، أن يتوب الله على العاصي ليتوب إلى الله ثم يتوب الله عليه ليقبلها عنه : ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٩ : ١١٨) ﴿وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا﴾ (٢ : ١٢٨) والتوبة الصالحة هي بعد الاستغفار : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (١١ : ٣) ومن بعد التوبة الإيمان والاهتداء والعمل الصالح : ﴿فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ (٥ : ٣٩) ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾ (٢٠ : ٨٢).

وقد تنتهي التوبة إلى الاجتباء كما في آدم : ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾ (٢٠ : ١٢٢) فقد عصى فتاب إلى الله فتاب الله عليه ثم هداه هدى ثانية بعد ما اهتدى في توبته ثم اجتباه بالرسالة.

﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ﴾ وترى العفو هنا عن السيآت بتوبة؟ وقبول التوبة يشمله! أم دون توبة فكيف هو؟! إن السيآت هي ما دون الكبائر ، والعفو عن السيآت دون توبة موعود شريطة اجتناب الكبائر : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (٤ : ٣١) فمقترف الكبائر والسيآت دون توبة لا تعفى عنه السيآت دون توبة.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ الله فيما دعاهم إلى دينه والتوبة إليه كما ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ الله دعاءهم وتوبتهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ في استجابتهم إياه واستجابته إياهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وأما ﴿الْكافِرُونَ﴾ ف ﴿لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ إذ لم يستجيبوا لربهم فلا يستجيبهم ربهم ، ولهم عذاب شديد.

وقد تعني التوبة هنا ـ والاستجابة فيما تعني ـ توبة من تقوّل عليه أنه افترى آية القربى على الله كذبا واستجابته [1].

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾(٢٧). ولكن :

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ (١٧ : ٣٠) ف ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ (٩٦ : ٧).

فلأنه تعالى بعباده خبير ما هي طبيعتهم ، وبصير إلى ما تصير حالتهم لو بسط في رزقهم ككل ، لذلك جرت سنته على أن ينزل من رزقه لهم بقدر : كميّة معيّنة معنيّة ، وهندسة خاصة مقضية ، من سعة وقدر وعوان بين ذلك.

فغزارة الحياة الأخرى للمؤمنين أن رزقهم كما يشتهون ولدي الله مزيد

---

(١) نور الثقلين في المجمع وذكر ابو حمزة الثمالي في تفسيره حدثني عثمان بن عمير عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين قدم المدينة واستحكم الإسلام قالت الأنصار فيما بينهم : نأتي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فنقول له ان تعرك امور فهذه أموالنا تحكم فيها غير حرج ولا محظور عليك فأتوه في ذلك فنزلت ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ فقرأها عليهم وقال : تودون قرابتي من بعدي فخرجوا من عنده مسلمين لقوله فقال المنافقون : ان هذا شيء افتراه في مجلسه أراد ان يذللنا لقرابته من بعده فنزلت ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ فأرسل إليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتد عليهم فأنزل الله ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ الآية فأرسل في اثرهم فبشرهم وقال : ويستجيب الذين آمنوا ـ وهم الذين سلموا لقوله.

مصلحة لهم إذ لا تنازع هناك ولا طغوى وبغي حيث يخرج أضغانهم فهم صالحون.

ونزارة الحياة الدنيا بجنب تلك الغزارة لحد لا تحسب بشيء ، هذه النزارة مهندسة مقدرة لهم بقدر ، فإن الخبير البصير يعلم أن عباده كهؤلاء البشر لا يطيقون الرزق إلّا بقدر ، فهم صغار لا يملكون التوازن حيث هم في بلاء الأرض ، فسيبقى فيضه المبسوط بغير حساب لمن ينجحون في محنة الدنيا وابتلائها ، وقد يبسط هناك لمن لا ينجحون ويبغون بسنن أخرى حاكمة على هذه السنة ، كسنة تعجيل العاجلة لمن كان يريدها دون الآجلة توفية الجزاء فيها : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١ : ١٨).

وسنة الاستدراج والإملاء : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٧ : ١٨٢).

فسنة الإصلاح ككلّ بتقدير الأرزاق ، سنة ابتدائية عامة تتبنى صالح المجموعة ، وسنة الاستدراج وتوفية الجزاء ، سنة هامشية خاصة لمن يستحقونها.

ففي حديث قدسي : «إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده وذلك اني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم» (١).

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٧٩ ـ عن مجمع البيان روى انس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن جبرئيل عن الله .:

ف «لو فعل لفعلوا ولكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض واستعبدهم بذلك ولو جعلهم أغنياء لبغوا ولكن ينزل بقدر ما يشاء مما يعلم أنه يصلحهم في دينهم ودنياهم إنه بعباده خبير بصير (١).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال له رجل يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟ فقال إن الخير لا يأتي بالشر وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطا او يلم إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى امتلأت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ، وإن المال حلوة خضرة ، ونعم صاحبها المسلم هو ان وصل الرحم وأنفق في سبيل الله ومثل الذي يأخذه بغير حقه كمثل الذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة» (٢).

وفي نص آخر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) جواب آخر هي هذه الآية ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ ..﴾ ثم استمر في جوابه (صلى الله عليه وآله وسلم) (٣).

---

(١) المصدر في تفسير علي بن ابراهيم في الآية عن الصادق (عليه السلام).

(٢) الدر المنثور ٦ : ٨ . اخرج احمد والطيالسي والبخاري ومسلم والنسائي وابو يعلي وابن حبان عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين سؤال السائل وجوابه . فسكت عنه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فرأينا انه ينزل عليه فقيل له ما شأنك تكلم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يكلمك فسرى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فجعل يمسح عنه الرخصاء فقال : اين السائل فرأينا انه حمد فقال : ...

(٣) المصدر اخرج ابن جرير عن قتادة في الآية ذكر لنا ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ...

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾(٢٨).

الغيث هو ما يغيث العطاش نشطا بعد فتور الى نعاش ، إن روحيا فأنبل وأحرى ، وإن جسميا عن كبد حرّى ، فهو المغيث هنا وهناك لا سواه ، ﴿مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا﴾ عن ريّ ، ودخلوا في غيّ ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ بغيث يغيث جسما أم روحا ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يلي من أمر عباده ما لا يليه إلّا هو ، ولا يقدر عليه إلّا هو ، ف ﴿هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ حميدا في ولايته دون قصور ولا تقصير.

﴿وَمِنْ آياتِهِ﴾ في ولايته الحميدة الرحيمة ﴿خَلْقُ السَّماواتِ ..﴾ :

﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ

فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١)

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ
(٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ
بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ
عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ
يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ

مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا
الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ
مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (٤٩)
أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ
اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)
وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً
نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ

لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) **صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**﴾(٥٣)

﴿**وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ**﴾(٢٩).

آية غرة بين الغرر ، تأتي بملاحم غيبية لم تسطع البشرية حتى الآن أن تتطلعها فتطّلع عليها ، رغم سبرها الأغوار العميقة الواسعة في أرجاء الكون بالأسفار الجوية وسواها من وسائل حديثة ، فلم تسطع إلّا على أشراف مما تحمله هذه الآية القصيرة من غرر :

١ ـ إن في السماوات دوابا كما في الأرض : هذه أم سائر الأرض من السبع ، كما في السماوات السبع ـ ٢ ـ ومنها عقلاء كإنسان هذه الأرض ـ ٣ ـ والله سوف يجمع بين عقلاء السماوات والأرض!!!.

أسرار مستسرة لم ينفذ إلى طبيعتها أحد ، فضلا عن التطلّع إلى إنشاءها وكيفياتها ، فكل المحاولات العلمية التي بذلت للبحث عن حياة في السماء حتى النباتية ، فضلا عن أحياء فيها حيوانية أم إنسانية أم ماذا إنها أغلقت دونها الأبواب ، وانحسرت عندها الأسباب ، حيث انقلب البصر إلى أهلها خاسئا وهو حسير.

إنسان الأرض لم يحط علما لحد الآن بدواب الأرض وهو ساكنها

وماكنها ، فكيف له التطلّع إلى السماء ليرى ساكنها وماكنها ، اللهم إلّا أن يطلعه إله الأرض والسماء كما في هذه الآية وأضرابها ، حيث تبث فيهما من دابة بعد خلقها ، ثم تجمعهما هنا وليوم الجمع في هذه اللمحة اللامعة ، فيشهد القلب مشاهد ثلاثة أو أربعة قبل أن ينتهي اللسان من آية واحدة قصيرة من الذكر الحكيم!.

وماذا تعني دابة السماوات والأرض؟ ... إن الدبّ ـ لغويا ـ مشي خفيف ، والدابة وهي المبالغة فيه ، تعني الماشية فوق الخفيف ، وأرض مدبوبة : كثيرة ذوات الدبيب فيها ، فالدابة ـ إذا ـ حيوان يمشي على أرض مّا في أرض أم سماء : ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٤ : ٤٥).

إذا فكل دابة تمشي ، فلا تطير في جو الأرض : ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ..﴾ (٦ : ٣٨) ولا في جو السماء كالملائكة : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٦ : ٤٩) وهذه الآية تكفي نصا على أن الدابة لا تشمل الملائكة ، وتأخر الملائكة هنا ذكرا على تقدمها شأنا علّه للإطاحة باحتمال تخصص الدابة بالأرض.

وفيما تطلق الدابة تعني كل دابة في الكون ، بثّا لها كما هنا ، أو أخذا بناصيتها : ﴿ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها﴾ (١١ : ٥٦) أو خلقا لها من ماء مشيا على بطن أو رجلين أم أربع (٢٤ : ٤٥) أم قضاء عليها كلها لولا أجل مسمى بظلم ناسها : ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (١٦ : ٦١) أم رزقا لها حيث لا تحمل رزقها : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها

وَإِيَّاكُمْ﴾ (٢٩ : ٦٠).

اللهم إلّا بقرينة قاطعة تحصرها بالأرض : ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٦ : ٣٨ و ١١ : ٦) ﴿فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ..﴾ (٢ : ١٦٤) هذه الأرض أم كل السبع إلّا بقرينة تخصها : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ (٣٤ : ١٤) ﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ (٢٧ : ٨٢).

ف ﴿ما بَثَّ فِيهِما﴾ هنا وفي أضرابها تدلنا على وجود دواب في السماوات كما في الأرض ، أترى أن فيها دابة الإنسان حيث يمشي على رجلين أم ماذا كما في الأرض؟

أجل! لمكان «هم» في «جمعهم» هنا حيث ترجع إلى ذوي العقول دون «ها» فإنها لغير ذوي العقول ، وقد يكون من «هم» ناس ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (١٦ : ٦١) فحيث لا مرجع هنا للضمير «عليها» فلترجع إلى الدنيا كلها من أرضها وسماءها ، كما وهما تذكران بآيات قبلها ﴿وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً ..﴾ (٥٢) فالناس المأخوذون هنا لولا أجل مسمى هم ناس السماوات والأرض ، ودليلا ثانيا إن دواب السماوات لا تؤخذ بما ظلم ناس الأرض ، فأخذ الدابة بما يظلم الناس أخذ لما ينفع الناس مع الناس.

وقد تعني آية الحج من ثالث الثلاثة في المساجد كثيرا من ناس السماوات والأرضين : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ ..﴾ (١٨) ف ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ من

ملائكة أو إنسان أم أية دابة أم من ذا؟ ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وغيرهما من نجوم السماء ﴿وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ﴾ من الأرض والسماء. ﴿وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ فيهما اختيارا ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾ تكوينيا واضطرارا.

وإذا السجدة هنا تعم ذوي العقول وسواهم ففي النحل يخصهم دون سواهم : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ (٥٠) حيث تتأخر الملائكة الساجدة لكي تعم الدابة الساجدة السماوات والأرض» وهم لا يستكبرون يخافون ..!

ثم الدابة العاقلة بين دواب السماء قد تكون إنسانا يمشي على رجلين أم ماذا؟ فلا مشاحة في الأسماء ، أم تكون أيا كان من العقلاء من جان أمن ذا ، فالعالمون في آياتهم دليل على فرقة ثالثة بعد الإنس والجان . لأقل تقدير . قضية أقل الجمع.

ففي (٧٣) موضعا من آي الذكر الحكيم يأتي العالمون والعالمين جمع العالم وهو العاقل ممن سوى الله ، نعرف من هذا الجمع عالم الإنس والجن ولا نعرف ثالثا أم زاد إلا إجمالا من آية البثّ والبعض من آيات الدابة وآيات العالمين : ك ﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ و ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ (٣ : ٣٣) مما يدل على أفضلية هؤلاء المرسلين على مرسلي الجن وسائر العالمين ، كما القرآن ورسوله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ﴾ (٦ : ٩٠) ذكرا ورسالة لعامة المكلفين ورحمة : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ (٢١ : ١٠٧) ونذارة : ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ (٢٥ : ١).

وقد تدلنا روايات عدة على مدن سماوية كما يروى عن الإمام علي (عليه السلام): «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في

الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودين من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتين وخمسين سنة» [١].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) في كل واحدة من السماوات السبع خلقا كثيرا وكذا في ما بينها» [٢].

وكما عن الرسول الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم): «رأيت في السماء السابعة ميادين كميادين أرضكم هذه» [٣] فالميادين كميادين أرضكم والمدائن مثل التي في الأرض والخلق الكثير والبقاع الكثيرة والمساكن الطيبة ، كل ذلك تؤيد أن «هم» في آية البث تعني وجود عقلاء في السماوات كما في الأرض وكما تدلنا متظافر الروايات [٤].

---

(١) تفسير علي بن ابراهيم القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عنه (عليه السلام).

(٢) بحار الأنوار عن كتاب مثنّى ابن الوليد الحفاظ عن أبي بصير عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٣) البحار عن الفخر الرازي باسناده عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٤) وعن الصادق : «ان الله تعالى خلق بقاعا كثيرة ومساكن طيبة فخلف مغربكم هذا تسعة وثلاثون مغربا ، مدينة تشرق فيها الشمس وتغرب وهي مملوءة من خلق عقلاء يتمتعون بمعرفة الله ونعمته لم يدنس ساحتهم اثم ولا خبرة لهم عنه.

وعن باقر العلوم (عليه السلام): «ان وراء شمسكم هذه أربعون عين شمس بين كل واحدة أربعون سنة وفي كل منها خلائق كثيرون لا يدرون هل خلق الله آدم ام لا ، وان وراء قمركم هذا أربعون قمرا وبين كل واحدة أربعون سنة فيها خلائق كثيرون لم يطلعوا على خلق الإنسان ولقد الهمهم الله كمثل النحل غريزة سنن المعيش (تفسير القمي). وفي مجمع البحرين نقلا عن الفخر الرازي في جواهر القرآن عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان لله أرضا بيضاء تسير الشمس فيها ثلاثين يوما وسعتها ثلاثين اضعاف أرضنا.

. وروى الشيخ ابو الليث السمرقندي (٣٧٣ هـ) في كتابه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) مثله بزيادة ان هذه الأرض مليئة من الأحياء.

وفي بحار الأنوار وبصائر الدرجات عن الإمام الصادق (عليه السلام) ان وراء أرضنا هذه ارض بيضاء نورها منا يعيش فيها خلق يعبدون الله ولا يشركون به أحدا. ويروى المفيد في الاختصاص عن الإمام الصادق (عليه السلام) ان عليا (عليه السلام) سار الأرضين السبع ثلاث خربة واربع عامرة ، وروى مثله في بصائر الدرجات ، وعن الإمام الباقر (عليه السلام) مثله في ذو القرنين.

ويروى الصفار في البصائر عن الإمام الباقر (عليه السلام) ان صاحبكم يركب الصعب ويرقى في السماوات السبع والأرضين السبع خمس عوامر واثنتان خربتان.

وفي زيارة العاشور «فلقد عظمت بك الرزية وجلت في المؤمنين والمسلمين وفي اهل السماوات واهل الأرضين أجمعين.

ويروى الصدوق في كتاب التوحيد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان لسائر الأرضين السبع سكنة وقرء : ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

وفي البحار عن السرائر باسناده عن بريدة الأسلمي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث المعراج : يا علي! ان الله أشهدك معي سبع مواطن. الى ان قال. في الموطن الثاني اتاني جبرئيل فأسري بي الى السماء ... فكشط لي عن السماوات السبع والأرضين السبع حتى رأيت سكانها وعمّارها وموضع كل ملك منها فلم أر شيئا من ذلك الأوقد رأيته كما رأيته.

أقول : ليس السكان والعمار هنالك من الملائكة فإنهم لا يمشون في الأرض : ﴿قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ (١٧ : ٩٧).

وفي البحار (٦ : ٥٠٧) عن أبي بصير عن الصادق (عليه السلام) ان جبرئيل احتمل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم). الى ان قال في حديث المعراج ... ثم صعد.

وترى ان استعمال «هم» أحيانا في غير ذوي العقول بمحسنات مجازية ، يهدم صرح دلالتها على ذوي العقول دون قرينة كما قيل [١].

كلّا ، وإنها ضابطة لغوية أن «هم» أيا كان لا تعني إلّا ذوي العقول ، أو هم مع غيرهم من غير ذوي العقول قضية التغليب ، اللهم إلّا بقرينة قاطعة تصرف «هم» عنهم إلى سواهم ، ولا نجد هذا الأخير إلّا في ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٦ : ٤٠) حيث السباحة العاقلة هكذا تسمح إرجاع ضمير العاقل إلى هذه السابحات ، إذ تسبح دون فتور ولا اصطدام وأعقل من العقلاء ، حيث تسبح بأمر خالق العقلاء!

ثم ونجد الجمع بين العقلاء وسواهم في آيات : ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٦ : ٣٨) ف «هم» راجع إلى «دابة» إذ تشمل العقلاء وسواهم ، وكذلك «من» في آية النور ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ﴾ .. من .. من .. فإن «كل دابة» تشمل الإنسان وسواه من دابة عاقلة وسواها ، فليكن موصوله موصول ذوي العقول.

إذا ففي السماوات دواب عاقلة وسواها وكما في الأرض ﴿وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ﴾ :

فهل إن هذا الجمع يعني جمعهم يوم الجمع؟ ويوم الجمع لا يخص

. بي الى السماء السادسة فإذا فيه خلق كثير يموج بعضهم في بعض ، ثم صعد بي الى السماء السابعة فإذا فيه خلق كثير وملائكة .. وفيها الكروبيون.

وفيه عن مثنى بن وليد الخياط عن الصادق (عليه السلام) قال : في كل من السماوات السبع خلق وبينها خلق ، قلت : وكيف الأرض؟ قال : سبع أرضون في خمس منها خلائق وليس في الأخريين.

(١) القائل هو العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان.

العقلاء كما تدلنا آية الأنعام ﴿ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ : كل دابة ، ولم يستحقوا هنا ضمير العاقل إلّا لأنهم أمم أمثالنا في الأولى ومن ثم يحشرون يوم الأخرى!

أم يخص الجمع يوم الدنيا في أسفار جوية متقابلة بين عقلاء الأرض والسماء؟ فلأنه جمع بعد البث ، وأنه جمع للبعض من المجموعين ليوم الجمع [١] فليكن في الأولى ، أم نجمع بين الجمعين ، في الأولى للعقلاء وفي الأخرى لكل دابة.

فقد جمعت هذه الآية على اختصارها ملاحم غيبية من وجود دواب في السماوات كما في الأرض ، ولزامها الماء والكلاء والهواء حيث تتبنى حياة الدواب ، ومن عقلاء الدواب إنسانا أم من ذا ، وان الله سوف يجمع بين عقلاء السماوات والأرض ، هل في تسافر إلى بعض بالسفن الفضائية فيجتمعان بين السماوات والأرض ، أم يسبق إنسان الأرض إنسان السماء إلى السماء أم إنسان السماء إلى إنسان الأرض؟ لا ندري!.

وترى الأوامر التشريعية خاصة بأرضنا هذه أم تعم كافة العقلاء المكلفين في أرجاء الكون؟ .. في بحث مسبق عن الآية ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها ..﴾ عرفنا أن الرسالة الإسلامية تشملهم كلهم كما الرسالات التي قبلها ، وفيما يروى عن الإمام الرضا (عليه السلام) «فأما صاحب الأمر فهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والوصي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإنما يتنزل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات والأرضيين» [٢].

---

(١) حيث الجمع هناك يخص الدابة بل والطير والملائكة وغيرهما من غير الدابة.

(٢) رواه علي بن ابراهيم القمي عن أبيه عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا.

وقد يعنيه ما يرويه ابن عباس «سبع ارضين في كل ارض نبي كنبيكم وآدم كآدم ونوح كنوح وابراهيم كإبراهيم وموسى كموسى وعيسى كعيسى» (١).

إن وجود الحياة العاقلة وسواها في سائر العوالم قد يكون من الواضح وفي صورة مبهمة قبل أن يدل عليه دليل الوحي أم دليل علمي آخر ، فمن البعيد كل البعد انحصار الحياة في هذه الكرة الصغيرة الهزيلة ، ثم لا حياة في بليارات من الكرات!.

نظرة ثانية إلى الآية :

﴿وَمِنْ آياتِهِ﴾ آيات علمه ورحمته وقدرته ، وآياته الدالة على أن هذا القرآن نازل بعلمه ، وآياته الدالة على وجوده أم ماذا من دلالات بينات :

﴿خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ جنس الأرض الشامل لسائر السبع (٢).

﴿وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ﴾ : أخلقا ثم بثّا لما خلق؟ أم بث الخلق أن خلق في كلّ ما خلق؟ .. إن بثه تعالى يعمهما ، وقد يشهد الواقع

. (عليه السلام) حول الآية ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ قلت : نحن على ارض واحدة؟ قال : نعم.

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣٨ . اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب وفي الأسماء والصفات عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله : ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ : ...

أقول : راجع ج ٢٨ من الفرقان ص ٤١٨ . ٤٢٤ تفسير الآية ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

(٢) قد يطلق الأرض ويراد بها هذه الأرض بقرينة تصرفها عن جنسها ، او تطلق ويراد بها جنسها الشامل للسبع ، كما السماء قد تعني جو الأرض ، او السماء الأولى او السماوات السبع كلها ، كما السماوات تعني السبع.

الملموس عندنا أنه بث الخلق ، إذ لم نر خلقا هنا يصعد إلى السماء! ولكنما الآية بمضيّها تعني ماضي البث ﴿ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ..﴾ (١٨ : ٥١) فضلا عن أن يلمسوا بث الخلق أم بثا لما خلق. اللهم إلّا أبا البشر وأمه حيث القرآن يهبطهما إلى الأرض. لا بثهما بعد خلقهما ، أو يقال : اسكتوا عما سكت الله عنه ، اللهم إلّا أن كل دابة تحتاج جوا يناسبها ، فإنسان الأرض لا يسطع الحياة على القمر أم ماذا ، فأحرى بالبث أن تعني هنا بث الخلق.

﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾(٣٠).

المصيبة في الأصل هي الرمية التي تصيب الهدف ، ثم اختصت بالنائبة ، اعتبارا أنها ليست رمية من غير رام ، وهذه الآية تختص كل نائبة بما كسبت أيديكم ، وإن كانت من عند الله ، فإنها من أنفسكم ، يرميكم بنصلكم الذي كسبتم ، إذا فهي رمية قاصدة برام عادل وأن الله ليس بظلام للعبيد.

هناك فرق بين الحسنة والسيئة أن الحسنة من الله ومن عند الله ، ولكنما السيئة هي من أنفسكم ثم من عند الله : ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ (٦٤ : ١١) ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً. ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ..﴾(٤ : ٧٩).

وترى إذا كانت المصيبة الداهية هي بما كسبتها ورمتها أيدي المصابين بها جزاء بما كسبت ، فكيف تلائم كون الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء؟.

والجواب : أن الدنيا دار عمل ككل ويجزى فيها أحيانا ، والآخرة دار جزاء ككل ، ومصائب الدنيا قد تمحو من سيئات او تحذّر أصحابها من عقوبات ﴿أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا﴾ (٣ : ١٦٥) أو أنها إصابة استئصال لسيئات موبقات لا تحمل حيث لا تحملها الحياة الجماهيرية : ﴿فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ (١٦ : ٣٤) ﴿فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٣٩ : ٥١).

ذلك ولكن الله ليس ليصيب الذين كسبوا السيآت بكل ما كسبوا ، فقد ﴿يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ هنا حتى يستوفيها في الأخرى ، أم ﴿يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ إذا اجتنبوا كبائر ما ينهون عنه : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ (٤ : ٣١) ثم الإصابة ببعض ما كسبوا إنذار عليهم كيلا يتورطوا.

وترى هؤلاء المسيؤون تصيبهم بعض ما كسبوا فما بال المعصومين يصابون بما لم يكسبوا ، وما بال غيرهم من الصالحين يصابون فيما تصاب جماهير بينهم عصاة ، أو من يصابون في سبيل الله جرحا او قتلا او تشريدا أم ماذا؟.

الجواب : أن «كم» في ﴿ما أَصابَكُمْ﴾ وفي ﴿فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قد تعني الجمع وجاه الجمع ، في فتنة ومصيبة ﴿لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (٨ : ٢٥) فبما كسبت أيدي الظالمين هم يصابون مع غير الظالمين ، أولاء لهم رحمة وهؤلاء عليهم نقمة ، فقد أصابتكم مصيبة بما كسبت أيديكم فليست إذا داهية ومصيبة من الله دون رامية ، فالظالمون يرمون وهم يصابون مع غير الظالمين ، ف «كم» في الرامية أخص من «كم» في المصابين ، ثم الذين يصابون في سبيل الله ليس الله ليجرحهم او

يقتلهم بسيئاتهم ، وإنما هم يصابون بسيئات الظالمين الصادين عن سبيل الله ، ف «كم» في ﴿فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ هم الرامية الظالمون ، وفي ﴿ما أَصابَكُمْ﴾ هم المرميون المظلومون ، أولاء لهم ما لهم ، وهؤلاء عليهم ما عليهم ، ف «إن الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب» [1] او يقال إن إصابة البريئين أيضا هي بما كسبت أيديهم من حسنات ، فقد تكسب اليد حسنة يمانعها السيئون ، وهذه الممانعة والمطاردة نتيجة طبيعية في هذه الحياة الدنيا ، وعلى الذين يصابون مظلومين الدفاع الصارم ما أمكن ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٤٢ : ٣٩) والتصبّر على المصيبات في سبيل الله : ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها ..﴾ (٥٧ : ٢٢) ﴿.. وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ. أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (٣ : ٥٧) ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٣١ : ١٧) ﴿فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا.﴾ (٣ : ١٤٦) ﴿الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ (٣ : ١٧٢) ﴿الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ﴾ (٢٢ : ٣٥).

فقد يصيب الإنسان داهية في جماعة بما رماه البعض منهم ، أو تصيبه بما رماه نفسه ، أو تصيبه في سبيل الله بما يرميه الصاد عن سبيل الله ، وقد تشمل كلها ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ..﴾ على اختلاف درجات الدلالة.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨١ ح ٩٨ عن الكافي باسناده عن علي بن رئاب قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن هذه الآية «أرأيت ما أصاب عليا واهل بيته (عليه السلام) من بعده اهو بما كسبت أيديهم وهم اهل بيت طهارة معصومون؟ فقال : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتوب الى الله ويستغفر في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب ان الله يخص ... وعن قرب الاسناد عن عبد الله بن بكير مثله الى ـ من غير ذنب.

وإنها أرجى آية للمؤمنين الذين يرجون رحمة الله ف «ما أصابك من مرض او عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه» [١] فذلك للمخاطبين المؤمنين.

وإنها أنكى آية للذين لا يرجون رحمة الله حيث تنبّههم ببعض ذنوبهم ويعفو هنا عن كثير ومن ثم العذاب الأليم.

ثم قد لا تشمل الآية المعصومين (عليهم السلام) [٢] أو تشمل بخفاء

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٩ . اخرج احمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم والترمذي وابو يعلي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : الا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وما أصابكم ... وسأفسرها لك يا علي : ...

وفيه اخرج جماعة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم إلّا بذنب وما يعفوا الله عنه اكثر واخرج مثله جماعات آخرون.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٨٠ ح ٩٥ في تفسير علي بن ابراهيم قال الصادق (عليه السلام) لما دخل علي بن الحسين (عليه السلام) على يزيد نظر اليه ثم قال له : يا علي! ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، فقال علي بن الحسين (عليه السلام) كلا! ما هذه فينا نزلت ، إنما نزل فينا : ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، فنحن الذين لا نأسى على ما فاتنا من امر الدينا ولا نفرح بما أوتينا.

أقول : انما تحوّل الإمام (عليه السلام) إلى هذه الآية لأنها أوسع دلالة على الإصابات الظالمة غير المستحقة وأما آية ﴿ما أَصابَكُمْ ..﴾ فلا يبلغ تفهمها مثل يزيد ، والرواية (٩٨) دليل شمول الآية لهم بما بينت وبينّا.

﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ بالنسبة لهم انه يصد كثيرا من كيد الظالمين عليهم فما تصيبهم هي قليل من كثير.

إن إصابات المؤمنين خير لهم وحظوة ، تنبيها في الدنيا وعفوا عن كثير في الدارين ف «ما عاقب الله عبدا مؤمنا في هذه الدنيا إلّا كان أحلم وأجود وأمجد من أن يعود في عتابه يوم القيامة .. [(١)]

ومهما يكن من أمر فالمؤمنون المسيئون هم أظهر مصاديق هذه الآية. إذا ف «توقوا الذنوب فما من نكبة ولا نقص رزق إلّا بذنب حتى الخدش والكبوة والمصيبة ، فما زالت نعمة ولا نضارة عيش إلا بذنوب اجترحوها إن الله ليس بظلام للعبيد ، ولو أنهم استقبلوا ذلك بالدعاء والإنابة لما نزلت ، ولو أنهم إذا نزلت بهم النقم وزالت عنهم النعم فزعوا الى الله عز وجل بصدق من نياتهم ولم يهنوا ولم يسرفوا لأصلح لهم كل فاسد ولردّ عليهم كل صالح [(٢)].

وهذه سطوة إلهية على البر والمسيء والفاجر تطهيرا للحياة عما يقضي عليها ، وسنة إلهية للدعاة إلى الله تصبّرا على ما يصيبهم في سبيل الله ، فالإصابات إذا هي خيرات وألطاف خفية إلهية تصلح الحياة [(٣)] ولا رادّ لها

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٠ ح ٩٤ في تفسير علي بن ابراهيم عن الأصبغ بن نباته عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال : اني سمعته يقول : اني أحدثكم بحديث ينبغي لكل مسلم ان يعيه ثم اقبل علينا فقال : ... ثم قال : وقد يبتلي الله عز وجل المؤمن بالبلية في بدنه او ماله او ولده او اهله ثم تلا هذه الآية ﴿وَما أَصابَكُمْ ...﴾.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٨٢ ح ١٠١ في كتاب الخصال فيما علم امير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه من الأربعمائة باب مما يصلح المسلم في دينه ودنياه : توقوا ... والمصيبة قال الله تعالى : ﴿وَما أَصابَكُمْ ...﴾ ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ إذا عاهدتم» فما زلت ...

(٣) المصدر ح (١٠٥) عن اصول الكافي عن أبي السامة عن أبي عبد الله (عليه السلام).

إلا الله :

﴿وما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾(٣١).

لا أنتم : أهل الأرض بمعجزين الله في الأرض في تخلفاتكم عن حكم الله ، حيث لا تضر إلّا أنفسكم دون مسّ من كرامة الألوهية ، ولا أنتم بمعجزين الله إذ يصيبكم ببعض ذنوبكم ، وما لكم من دون الله من ولي يلي أموركم ولا نصير ينصركم وجاه الإصابة الإلهية ، فأين يذهب هذا الذليل الحقير إلّا أن يلتجي إلى الولي النصير!.

﴿وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾(٣٥).

إن الجوار المنشآت في البحر كالأعلام من آياته ، فإنها له : ﴿وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾[1].

والجواري جمع الجارية ومنها ﴿الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ (٣ : ١٦٤) ومنها الجارية في البحر المحيط : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ

. قال : سمعته يقول : تعوذوا من سطوات الله بالليل والنهار قال : قلت وما سطوات الله؟ قال : الأخذ على المعاصي وح ١٠٤ عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : ما من نكبة تصيب العبد الا بذنب وما يعفو الله اكثر وعنه (١٠٦) قال : ان العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق.

(١) راجع تفسير الآية في ٢٧ : ٣٢ ـ الفرقان «وَلَهُ الْجَوارِ ...».

﴿حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ﴾ (٦٩ : ١١) ومنها الكواكب الجارية في الفضاء أم ماذا : ﴿فَالْجارِياتِ يُسْراً﴾ (٥١ : ٣) ومنها الطائرات الجارية في خضمّ البحر السماوي ومنها ما لا نعلمها ..

﴿وَمِنْ آياتِهِ﴾ هنا ﴿الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ﴾ الماء ـ لا الفضاء ﴿كَالْأَعْلامِ﴾ فإنّ سكن الريح إنما يركد جواري البحر دون الفضاء ، فإنه يساعد على جريها كما يراد دون التطام بصدامها.

إن لجريان الريح دخلا حيويا في جريان الجوار في البحر ، إن يشأ الله يسكن الريح فيظللن الجواري على ظهر البحر رواكد لا تجري ، فما ذا يصنع الإنسان الضعيف الضعيف إذا على ظهر البحر؟ ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ آية القدرة الإلهية في الريح وحراكه برحمته ، وسكونه بنقمته ، فليصبر الساكن نظرة الرحمة ، وليشكر الجاري لواقع الرحمة.

وترى أن القرآن يواجه فقط المكلفين زمن الجواري التي تجري بالريح ، حتى ينذر بسكونه ركودها على ظهر البحر؟ .. كلّا! وإنما يأتي بعامل حراكها الطبيعي الذي لا صنع للإنسان فيه ، وقد يأتي بما يشمله وسواه مما كان أو هو كائن أم سوف يكون : ﴿وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦ : ٨) فالفلك تجري بأمر الله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ (١٤ : ٣٢) ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ (١٧ : ٦٦) وبنعمته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١ : ٣١).

فليست الريح ـ فقط ـ من نعمة الله ، بل الكون كله من نعمة الله ، فلجري الجواري في البحر نعم سابقة وعلى مر الزمن : (الريح) ونعم سابغة بعدها من بترول ام ماذا ، وقد تشمله الآيات لكل صبار شكور ، حيث التصبر في محاولة دائبة لاستكشاف نعم الهية ينتج طاقات أخرى

للسفن الجارية.

ثم قد تشمله ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا﴾ حيث الإيباق : الإهلاك ، ليس من مخلّفات سكون الريح فركودها على ظهره او يقل وعلى فرض بعيد ، وهو كائن في نفاد سائر الطاقات التي يخترعها الإنسان لجريها أم ماذا؟ من غرقها في خضمّ البحر الملتطم ، بريح عاصف ، أم تصارعها في عراك الريح دون بترول ولا وسائل أخرى تهديها بها الرياح أم ماذا من أسباب الهلاك ﴿بِما كَسَبُوا﴾ المهلكون أم سواهم ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما كسبوا دون تعجيل ، وإنما تأجيلا إلى يوم الحساب ، أم عفوا للذين يستحقونه فلهم محيص عن كثير ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ :

ثم ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كما نجدها في أربع [1] كيف يقترن فيها صبار بشكور؟ إن الصبر هو على الابتلاء ، والشكر على النعماء ، وهما قوام النفس المؤمنة المطمئنة في الضراء والسراء ، تصبّر في محنة البحر أم ماذا نظرة النعمة ، ويشكر في نعمته مخافة النقمة.

﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٣٦).

آيات أربع. هذه والثلاث التي بعدها ، تحمل صفات عشر للصالحين ، من إيمان وهو الركيزة الأصيلة. والأولى و ﴿الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ هي الأخرى ، وبينهما متوسطات ثمان ومن أهمها سابعها : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾!.

فهنا إيمان بالرب وتوكّل على الرب يحافظان الإنسان في معترك الحياة الدنيا بمتاعها ، فهنا التوكل على الله بعد الإيمان بالله هو للإبقاء على الإيمان والاستزادة فيه.

---

(١) كما هنا وفي لقمان (٣١) وابراهيم (٥) وسبأ (١٩).

وكيف نعلم ما لنا عند الله؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «من أحب أن يعلم ما له عند الله فليعلم ما لله عنده» [١].

﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ تشمل كل شيء لنا : من أنفسنا وما أوتيت ، في ذواتنا ، أم منفصلة عنها مربوطة بها حيث تملكها [٢] ، كل ذلك ﴿فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ ترى وماذا تعني «متاع» و ﴿الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ فهل لهما صلة بالحياة الأخرى ﴿وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ فلتؤخذ ذريعة للوصول إليها ، أم هما تطاردانها فتطردان فلما ذا أوتينا إياهما؟.

المتاع هو كل ما ينتفع به ويتمتع على وجه مّا ، اما بنفسه ﴿وَلَكُمْ فِي

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٣ ح ١١٠ في محاسن البرقي عنه عن الحسين بن يزيد النوفلي عن إسماعيل بن زياد السكوني عن أبي عبد الله (عليه السلام) عن آبائه (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ..

(٢) ان قال قائل ان المخاطبين في «فَما أُوتِيتُمْ» هم المؤتى لهم فما يؤتى لهم هو غيرهم ضرورة اختلاف المؤتى والمؤتى له ، وأن الإيتاء بحاجة طبيعية إلى المؤتى له؟

فالجواب : ان المخاطب في الإيتاء التكويني لا يجب له كون قبل الإيتاء كما في سائر التكوين ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فقوله فعله وهو كلمة التكوين ، حيث التكوين قد يعني إيجاد ما لم يكن ، او تحويل الكائن إلى حالة او ماهية أخرى ، ولا يتعلق بالمستحيل ذاتيا ومصلحيا ، حيث الأول ليس شيئا والثاني شيء لإمكانية وجوده ذاتيا واستحالته مصلحيا ، فالشيء المتعلّق للتكوين والقدرة الإلهية قد يكون كائنا فتكوينه تحويله ، وهذا هو الشيء الحقيقي ، وقد يمكن تكوينه ذاتيا ومصلحيا فهو شيء باعتبار ما يؤول ، وهو المعني في الآية التكوين ﴿إِذا أَرادَ شَيْئاً ..﴾ اي أراد تكوينه ، وكذلك المعنى في آية الإيتاء ﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ..﴾ فمن المؤتى هم المخاطبون ومنه ما لهم من نعم أنفسية وآفاقية ، ثم المستحيل الذاتي ليس شيئا حتى يتعلق به القدرة والله على كل شيء قدير ، والمستحيل لا شيء.

الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ (٢ : ٣٦) فهو إذا متاع الغرور : ﴿وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ (٣ : ١٨٥) فالمغترون به باغون على أنفسهم : ﴿إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ (١٠ : ٢٣).

أم هو متاع للمعاملة المزايدة تجارة رابحة لن تبور : ﴿فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٩ : ٢٨) قليل يجزى به كثير ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ﴾ (١٣ : ٢٦) ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى﴾ (٤ : ٧٧).

والحياة الدنيا قد تعني أدنى الحياة العقلية لنا وهي هي دنوا إلينا ، أم تعني الأفعل من الدانية الرذيلة وهي هي لمن أبصر إليها وأخلد إلى شهواتها ، وقد تعنيهما كما هنا ﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ﴾ بمعنييه ﴿الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ كذلك الأمر ، نتمتع بها مبصرين بها نتذرعها إلى ﴿ما عِنْدَ اللهِ﴾ فإنه ﴿خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ فإذا كان متاع الحياة الدنيا باقيا بقاء عمرك ، أم بقاء الدنيا ، فما عند الله أبقى ، وإذا كان فيه خير فما عند الله خير منه حين تتذرعه إلى ما عند الله ﴿خَيْرٌ ... لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فبإيمانهم يجعلونه متاعا في الآخرة ، وبتكلانهم على الله يوفقون في هذه المهمة.

فمهما كان متاع الحياة الدنيا خيرا للمؤمنين المتوكلين على ربهم ف ﴿ما عِنْدَ اللهِ﴾ جزاء عما قدموا من متاع قليل ﴿خَيْرٌ وَأَبْقى﴾.

وكما الإيمان الصالح ليس إلّا بالله وحده ، كذلك التوكل فيه ليس إلّا على الله وحده ، كما يوحي به تقديم الجار ﴿عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فالإيمان بالرب يقتضي التوكيل في تداومه ، أن يكون على الرب ولكي ينجح الإيمان ويفلح المؤمن.

وترى لماذا التوكل على ربهم بعد الإيمان بربهم بدل العمل الصالح

الذي هو لزام الإيمان في سائر القرآن؟.

هنا التوكل وليس الاتكال ، فالإتكال بعد الإيمان أن يبقى المؤمن صفر اليد عما يقتضيه الإيمان ، ولكنما التوكل بعد الإيمان يقتضي تكريس كافة الطاقات للحفاظ على الإيمان وتداومه والاستزادة فيه وتطبيقه ، ثم الاستنجاد بالله والتوكل عيه إعانة له على ما يقصر أو يقصّر ، إذا فالتوكل بعد الإيمان هو عمل الإيمان ويزيد.

إنه ليس بعد الإيمان بالرب إلّا التوكل على الرب في عقيدة الإيمان وعمله ، ثم تبنّي الحياة الإيمانية على اجتناب كبائر الإثم والفواحش .. :

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾(٣٧).

إن اجتناب كبائر الإثم والفواحش هو ضمان إلهي في تكفير السيئات : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (٤ : ٣١) وشرط آخر في هذه السبيل ﴿وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فكما الله يغفر السيئات كذلك المؤمنون يغفرون سيئاتهم بعضهم لبعض دون توبة ، ويغفرون كبائرهم بعضهم لبعض بتوبة ف

«المؤمن مرآة المؤمن» و «من كظم غيظا وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمنا وإيمانا يوم القيامة ومن ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا غضب حرم الله جسده على النار» [١] وإنه «خير خلائق الدنيا والآخرة» [٢].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٣ ح ١١١ في تفسير علي بن ابراهيم القمي في الآية قال ابو جعفر (عليه السلام) من كظم غيظا ...

(٢) المصدر ح ١١٢ في اصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة : ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة : العفو .

والفواحش افحش واكبر من كبائر الإثم فاجتنابهما لزام الايمان والتوكل على الرب.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(٣٨).

بعد الإيمان بالله فالتوكل على الله واجتناب كبائر الإثم والفواحش والغفران إذا ما غضبوا ، بعد هذه الخطوات الخمس إلى الله يأتي دور الاستجابة لربهم و.. ألأنهم لم يستجيبوا لربهم وحتى الآن؟ إذا فما هذا الإيمان بإيمان بما فيه جانبان إيجابيان وسلبيات ثلاث ﴿آمَنُوا ... يَتَوَكَّلُونَ . يَجْتَنِبُونَ .. وَإِذا ما غَضِبُوا ..﴾؟!.

إن الاستجابة للرب هنا هي المكينة المتينة التي لا عوج لها ، فكثير هؤلاء الذين يؤمنون وعلى ربهم يتوكلون ، وكبائر الإثم والفواحش يجتنبون وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، ولكنهم بعد لم يستجيبوا بكيانهم ككل لربهم ، إلّا أن يستجيبوا حقا تداوموا لما استجابوا : ﴿الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣ : ١٧٢) ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى ..﴾ (١٣ : ١٨)

. عمن ظلمك وتصل من قطعك والإحسان إلى من أساء إليك وإعطاء من حرمك و ١١٣ عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : الندامة على العفو أفضل واليسر من الندامة على العقوبة وح ١١٤ عن سيف بن عميرة حدثني من سمع أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه وح ١١٥ عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من أحب السبيل الى الله عز وجل جرعتان : جرعة غيظ تردها بحلم وجرعة مصيبة تردها بصبر وح ١١٦ عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : كان علي بن الحسين (عليه السلام) يقول : انه ليعجبني الرجل ان يدركه حلمه عند غضبه».

استجابة لا تقف لحد العقيدة ومظاهر من الأعمال الإيمانية وإنما التي تحيي : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ (٨ : ٢٤).

هنا على محور الاستجابة لربهم يأتي دور إقام الصلاة أولا كصلة عريقة بين المستجيب وربه ، ثم أمر جماعي لصالح المسلمين : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ حفاظا على كيانهم ، ومن ثم ﴿مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في كلتا الصلتين الإلهية والبشرية ، تكريسا لكافة الإمكانيات.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾.

آية لا ثانية لها في القرآن كله إلّا ما تأمر الرسول أن يشاورهم في الأمر : ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٣ : ١٥٩) فهذه في شورى الرسول معهم وتلك في شوراهم فيما بينهم وأين شورى من شورى؟!.

ليست مشاورة الرسول إياهم في الأمر إلا تشجيعا لهم وتدريبا لحاجتهم إليه كمعلم يشاور ، لا حاجة منه إليهم فإنه كرسول وحي كلّه فكيف يشاور غيره فيتبعهم؟

ونص الآية ﴿فَإِذا عَزَمْتَ﴾ يرجع الأمر إليه في النهاية كما البداية» [1] وكما قال (صلى الله عليه وآله وسلم) حين نزلت هذه الآية :

---

(١) نور الثقلين ١ : ٤٠٥ ح ٤١٤ في تفسير العياشي احمد بن محمد عن علي بن مهزيار قال : كتب الي ابو جعفر (عليه السلام) ان سل فلانا ان يشير علي ويتخير لنفسه فهو يعلم ما يجوز في بلده وكيف يعامل السلاطين فان المشورة مباركة قال الله لنبيه في محكم كتابه ﴿.. وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ..﴾ فان كان ما يقول مما يجوز كنت أصوّب رأيه وان كان غير

. ذلك رجوت ان أضعه على الطريق الواضح ان شاء الله ﴿وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني الإستخارة.

وفي النسائي قسامة ٤٠ «ان النبي استشار الناس» وفي حم ٣ ـ ٢٤٣ «استشار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأسارى يوم بدر» أقول : ولا تعني استشارته إياهم إلا ما تعنيه استشارة الله إياه (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في حم ٥ / ٣٩٣ : «ان ربي تبارك وتعالى استشارني في أمتي».

وفي سنن الترمذي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا كانت أمراءكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير من بطنها.

وفي الوسائل ٨ : ٢٢٤ عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) استرشدوا العاقل ولا تعصوه فتندموا ، وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لما سئل عن الحزم ما هو؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) مشاورة ذو الرأي واتّباعهم. وفيه ٨ : ٤٠٩ عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لا مظاهرة أوثق من المشاورة ولا عقل كالتدبير.

وفي النهج الخطبة ٢١٤ عن الإمام علي (عليه السلام) فلا تكفوا عن مقالة بحق او مشورة بعدل.

وفي الوسائل ٨ : ٤٢٩ في وصيته (عليه السلام) الى ابنه محمد بن الحنفية : اضمم آراء الرجال بعضها الى بعض ثم اختر أقربها من الصواب وأبعدها من الارتياب قد خاطر بنفسه من استغنى برأيه ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ.

وعنه (عليه السلام) واستشر العاقل من الرجال الورع فإنه لا يأمر إلا بخير وإياك والخلاف فان في مخالفة الورع العاقل مفسده في الدين والدنيا.

وعن الامام زين العابدين في الحقوق الخمسين : واما حق المستشير فان حضرك له وجه رأي جهدت له في النصيحة وأشرت عليه بما تعلم انك لو كنت مكانه عملت به وذلك ليكن منك في رحمة ولين فان اللين يؤنس الوحشة وان الغلطة يوحش موضع الانس وان .

«أما إن الله ورسوله الغنيان عنها ولكن جعلها الله رحمة لأمتي من استشار منهم لم يعدم رشدا ومن تركها لم يعدم غيا» [(١)].

ان الرسول يحكم بين الناس بما أراه الله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً﴾ (٤ : ١٠٥) ولا يعني الحكم بينهم ـ فقط ـ أحكام العبادات والعلاقات الشخصية وإن كان يشملها ، ولكن ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ تلمح او تصرح بالأحكام الجماعية ، سياسية أمّاذا ، إذا فأحكامه بين الناس كلها مما أراه الله ، فهل هو بعد بحاجة إلى ما أراه الناس؟.

كل ما يقوله الرسول أو يفعله وحي يوحى ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾ (٥٣ : ٤) وإذا كانت صناعة فلك نوح بأعين الوحي وفيها نجاة الأبدان ، أفليست إذا صناعة الأمة الإسلامية بقيادة حكيمة بأعين الوحي وفيها نجاة الأبدان والأرواح: ﴿فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ

ـ لم يحضرك له رأي عرفت له من تثق برأيه وترضى به لنفسك دللته عليه وأرشدته اليه فكنت تأله خيرا ولم تدخر نصحا ولا حول ولا قوة الا بالله واما حق المشير عليك فلا تتهمه فيما وافقك عليه من رأيه إذا أشار عليك فانما هي الآراء ويصرف الناس فيها واختلافهم فكن في رأيه بالخيار إذ اتهمت رأيه فاما تهمته فلا تجوز لك إذا كان عندك ممن يستحق المشاورة ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه وحسن رأيه وحسن وجه مشورته فإذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من أخيك بالشكر والارصاد بالمكافأة في مثلها ان فزع إليك ولا قوة الا بالله ، الوسائل ٨ : ٤٢٦ وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يستغني رجل من مشورة ومن أراد امرا فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الأمور وفي النهج باب الحكم الرقم ٣٢١ قال وقد أشار ابن عباس على الامام علي ما لم يوافق رأيه : لك ان تشير علي وأرى فإن عصيتك فأطعني.

(١) كتاب الشورى بين النظرية والتطبيق ص ٣٠.

﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا﴾ (٢٣ : ٢٧).

وكيف يتبع الرسول رأى الشورى تاركا رأي الوحي و ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ ..﴾ (١٠ : ١٥) ﴿قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧ : ٢٠٣).

ثم وكيف يكون للمؤمنين التقدم بين يدي الله ورسوله ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ (٤٩ : ١) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٨ : ٦٧) ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (٢٣ : ٣٦).

ثم وما هي المصلحة في إرجاع أمر المسلمين إلى الشورى وبينهم الرسول والوحي متواتر يقضي كل حاجة ، فلما ذا يكلّف حامل الوحي أن يستوحي المؤمنين في الأمر ، هل في أمر الرسالة؟ وهو وحي يوحى! أم أمر المرسل إليهم؟ ويكفيهم أمر الرسالة! أو أمر الأحكام ف ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (٦ : ٥٧) أم أمر القيادة السياسية وهو مما أراه الله!.

فلا شورى يتخذ الرسول رأيها وإنما تشير الشورى لمن بعد الرسول والوحي منقطع كما يروى عن علي (عليه السلام): قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء؟ قال : اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد» [1] فهنا جمع للعابد من الأمة ، أن يجعلوا أمرهم شورى بينهم ،

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٠ . اخرج الخطيب في رواة مالك عن علي رضي الله عنه قال : ... أقول : هنا الرسول ناظر الى مجموعة المسلمين حيث ليس بينهم واحد من المعصومين ، فليس يشمل واجب الشورى بين العابدين من امة الإسلام زمن الأئمة المعصومين كما لا يشمل زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

شورى جماهيرية تجمع العابد من أمة الإسلام لكي يتشاوروا في المشكوك حكمه ، ولا يعني العابد القشريّ المتقشّف ، وإنما الذي يعيش عبادة الله وطاعته ، ويتبنّى شرعة الله في حياته علميا وعقائديا وأخلاقيا وعمليا أم ماذا.

فليس كل مسلم أهلا للشورى في الأحكام شرعية أو سياسية ، وإنما الواجب على الجماعة المسلمة انتخاب النخبة العابدة ولكي يتشاوروا فيما يحتارون من أمر الأمة.

ثم «وأمرهم» يبحث عنها في أمرين : «هم» و «أمرهم» أما «هم» ، فهم المؤمنون أجمع بسند الإيمان ، وشورى بينهم هو أوضح سبل الإيمان ، فلا يعني إلّا أمر الإيمان.

وأما «أمرهم» فهل تعني شيئهم فإنه من معانيه؟ ولا محصّل له شيئا أيا كان!

أم «أمرهم» وجاه نهيهم؟ وليس إلّا لأولي الأمر ، ولا يختص أمرهم بالأمر فإنه يعم النهي والأمر! وليس فيه شورى.

أم «أمرهم» في ولاية الأمر؟ وهو تضييق لأمرهم دون دليل ، مهما كان من أمرهم وأهمه!.

أم «أمرهم» هو فعلهم في جانحة وجارحة ، شخصية أم جماعية؟ وليس كل فعلهم بحاجة إلى شورى بينهم! فمنه الواضح الذي لا غبار عليه ، ومنه ما يتضح بتأمل دون حاجة إلى شورى ، ومنه ما لن يتضح على أية حال ، ولا مجال في هذه الثلاث للشورى.

ثم ومنه الغامض المختلف فيه بينهم ، من أمور شخصية أم جماعية ، سياسية ، وسواها ، فلأن المؤمن غير المعصوم ـ أيا كان ـ ليس مطلقا في

العلم والعرفان فليستعن بالشورى الصالحة ، ومن أهم الأمور الإيمانية انتخاب النخبة الصالحة لقيادة الأمة في كل مجالاتها ، ومنها أحكام القيادة المختلف فيها ، سواء السياسية منها والأحكامية ، فإنهما من أصدق مصاديق «أمرهم» حيث يتطلبان ﴿شُورى بَيْنَهُمْ﴾ فلا أمر لهم هكذا إلّا شورى بينهم ، كما هو قضية الحصر في ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ فالأمر الذي يمضي دون شورى ليس إلّا إمرا وغيّا!.

و «الشورى» من شار العسل : استخرجه من الوقبة واجتناه ، وأشرني على العسل أعنّي ، والمشور : عود يكون مع مستشار العسل ، فحصالة الشورى الإسلامية هي العسالة المستخرجة من وقبة آراء النخبة الصالحة.

وترى الشورى مصدر الشّور ، مثل الرجعى؟ أو هو الأمر الذي يتشاور فيه اسما لمادة الشّور؟ أم هي فعلى من الأشور صفة للمراجعة أو الحوار ، ف «أمرهم ـ حوار ـ شورى» يستشيرون بعضهم البعض ممن له رأي في حوار متواصل شورى كأفضل وأحوط ما يكون ، ولكي يتّبع من الأقوال أحسنها : ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (٣٩ : ١٨) إذا فأمرهم لا يتخطى ﴿شُورى بَيْنَهُمْ﴾ أن يستبد أحدهم برهانه ، او يستقل ببرهانه ، وإنما الشورى والشورى فقط هي سبيل المؤمنين في معتركات الآراء الحيوية.

ترى وما هو أمرهم الشورى؟ هل هي الأمور الشخصية ، أو الجماعية ، أم هما؟ قد تعنيهما «أمرهم» حيث تعني الجميع والمجموع ، وهي لمكان «هم .. بينهم» نص في المجموع ظاهر في الجميع.

وما هو «أمرهم» حيث يتطلّب إيمانهم أن يكون شورى بينهم؟ إنه ولاية أمر السياسة والديانة! حيث الأمر منه الإمارة ، ومنه فعلهم ، وطبعا لا كل فعلهم وإنما المشكوك صوابه ونجاحه ، يزيحون شكه بشورى بينهم

حيث يتبناها العلم والإيمان على ضوء القرآن والسنة ، فليس كل أمرهم شورى ، فمنه ضروري الصواب لا يحتاج إلى شورى ، وإنما أمرهم المشكوك صوابه بعد الإياس عن الحصول على صوابه من مصادره ، هذا الأمر شورى بينهم.

فالشورى إذا سبيل المؤمنين ومن أفضلها فيما لا سبيل إليه قاطعا ـ لتبين الحق ، لا سيما في الأمور الجماعية الإسلامية ـ إلّا بالشورى الصالحة ، سواء أكان أمر الولاية الإسلامية من المرجعية الدينية والسياسية ومن سائر الأمور ، ومن أهمها أمر الفتوى في معترك آراء الفقهاء ، فعليهم إزالة المفاصلات أو تقليلها بالشورى بين الرعيل الأعلى منهم ، ولكي يحصل على الوحدة بينهم ، أو يؤخذ برأي الأكثر منهم ، فاتّباعه هو اتباع الأحسن.

هذا النص على مكيته يتبنى حياتا جماعية متراصة في دولة كريمة إسلامية تدير شؤونها الشوراءات الصالحة بين من لهم آراء صالحة ، لكل حقل أهله ولكلّ أهل حقله ، أن يجعلوا أمرهم في حوار بالتي هي أحسن لكي يستخرجوا رأيا صائبا ثاقبا ليس فيه خطأ أو يقل.

ولكي يتأدبوا بأدب الشورى ويتدربوا فيها يؤمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على عصمته ﴿وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ تدريبا لهم فيما عليهم كسبيل دائبة لا حول عنها والرسول فيهم ، فكيف إذا غاب عنهم وذووه المعصومون ، فهم إذا بأمس الحاجة إلى الشورى.

والروايات القائلة أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) شاورهم في بعض الأمور فترك رأيه إلى آراء الاكثرية أمّاهيه ، إنها مخالفة لعقلية الوحي الحافلة لكل المصالح الجماهيرية ، الكافلة لحاجيات الأمة ومطالبيهم كما تخالف نصوصا من الكتاب والسنة.

و ﴿أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ تصبغ الحياة الإسلامية بهذه الصبغة المتكاملة المتكافلة لصالح المسلمين ، كطابع مبتكر ليس له مثيل ، حيث المشاركون في الشورى ليس في كل أمر كل من يشهد الشهادتين ، وإنما «العابد من أمتي» على حدّ تعبير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لكي يشير فيما يستشار بما عرفه من عقلية إسلامية أم ماذا.

فالشورى طابع ذاتي للجماعة المؤمنة ، وسمة مميزة لهم ، وسبيل إيماني يسلكونها في حياتهم ﴿وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً﴾ (٤ : ١١٥).

ليس يعني ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ ألا أمر لهم ولا شغل إلّا شورى ، وإنما الأمر الذي فيه يتحيرون ، ويتخيرون لصوابه بعد قصور العقليات الفردية ولا سيما في الأمور الجماعية ، يتخيرونه ﴿شُورى بَيْنَهُمْ﴾ استخراجا لصالح الرأي من وقبة الآراء ، كما يستخرج العسل من وقبته فيصبح خالصا دون خليط ، كذلك الأمر في الشورى الصالحة.

والشورى في أمور المسلمين درجات ، شورى لصالح الجماعة المسلمة ، وللدولة الإسلامية ، وشورى لصالح الأفراد ، وتلك ممتازة عن هذه وأهم منها أهمية الجماعة على الفرد ، وفي القسمين لا شورى في الضروريات المتفق عليها ، وإنما فيما تختلف فيه الفتيا لاختلاف الاستنباطات عن أدلتها ، أحكاما شرعية أم سياسية ، أصلية أم في شاكلة تطبيقها ، فليس الشكل الذي تتم به الشورى مصبوبا في قوالب حديدية لا تتغير ، وإنما يترك للصورة الملائمة لكل زمان وبيئة ، كما النّظم الإسلامية كلها ليست أشكالا جامدة.

في الشوراءات الفردية إنما يستشار المؤتمن [1] الأخصّائي فيما يستشار ،

---

(١) في د. ادب ١١٤ عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : المستشار مؤتمن.

وفي الجماعة انما يتشاور الجماعة المعنية العارفة بما يتشاور فيه ، ثم يؤخذ بالأكثر رأيا فإنه أحسن قولا ، ولا تعني الأكثرية في الكمية هنا إلّا دعما للكثرة الكيفية.

فللشورى ضوابط عدة تجمعها «العابد من أمتي» كما في حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يتبنّى طاعة الله وعبادته في الشورى ، أن تكون على خبرة وعقلية وعلم واطلاع وأمانة واضطلاع [1] ف «لا ظهير كالمشاورة [2] إذا ، كما أنها تكسر الظهر إذا لم تتوفر فيها شروطها.

وفي المجمع روي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): ما من رجل يشاور أحدا إلا هدي الى الرشد(٥ : ٥٨٤ نور الثقلين).

(١) وفي الدر المنثور ٦ : ١٠ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من أراد امرا فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الأمور وقال سليمان بن داود (عليه السلام) لابنه يا بني! عليك بخشية الله فانها اعانة كل شيء يا بني لا تقطع امرا حتى توامر مرشدا فانك إذا فعلت ذلك رشدت عليه يا بني عليك بالأول فان الأخير لا يعدله.

وفي سفينة البحار ٧١٨ عن الصادق (عليه السلام): لا تستشر السفلة في أمرك وإياك والخلاف فان خلاف الورع العاقل مفسدة في الدين والدنيا وقيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما الحزم؟ قال : مشاورة ذوا الرأي واتباعهم وعن الصادق (عليه السلام) ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به ان يستشير رجلا عاقلا له دين وورع وقال : ان المشورة لا تكون إلا بحدودها فمن عرف بحدودها وإلا كانت مضرتها على المستشير اكثر من منفعتها له فأولها أن يكون الذي يشاوره عاقلا ثانيها ان يكون حرا متدينا ثالثها ان يكون صديقا مواخيا والرابعة ان تطلعه على سرك فيكون علمه به كعلمك بنفسك ثم يستر ذلك ويكتمه فانه إذا كان عاقلا انتفعت بمشورته وإذا كان حرا متدينا جهد نفسه في النصيحة لك ، وإذا كان صديقا مواخيا كتم سرك إذا أطلعته عليه وإذا أطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك تمت المشورة وكملت النصيحة».

(٢) نهج البلاغة ح ٥٤ وفي ح ١١٣ لا ظهير أوثق من المشاورة.

وإذا كانت المشورة في أمور شخصية بحاجة إلى هذه الضوابط ، ففي الأمور الجماعية أحق وأحرى.

فالشورى في الفتيا الأحكامية تقتضي الرعيل الأعلى من أهل الفتوى حتى يحاوروا في جد واجتهاد وقوة وسداد للحصول على رأي واحد فأحسن ، أو اكثرية فحسن ، فاتباعها إذا إتباع للقول الأحسن ، فلا يصلح إتباع رأي واحد وإن كان أفضلهم.

كما الشورى في الفتيا السياسية تتطلب ذلك الرعيل من أهلها على ضوء الكتاب والسنة ، وهم نواب المجلس النيابي للشورى الإسلامية.

وبما أن الزمالة بين الدين والسياسة عريقة جوهرية أم هو هي وهي هو ، فعلى الرعيل الأول أن يكونوا ساسة وإن لم يصبحوا بتلك المثابة ، وإن كان الأخصائيون في السياسة الإسلامية لهم الأولوية من الأخصائيين في الفتيا الأحكامية ، فيحكم ـ إذا ـ الفقهاء فقهيا والساسة سياسيا على رعاية الفقهاء الأحكامية ف «العلماء حكام على الملوك والملوك حكام على الناس» وكما نرى في طالوت إذ بعثه الله ملكا على بني إسرائيل لقيادة الحرب على رعاية نبي لهم.

ترى ومن ذا الذي يعرفهم فيعرّفهم للجماعة المسلمة ، من أولاء وهؤلاء حيث يجمعها «العابد من أمتي»؟ طبعا إنهم العارفون من المسلمين في كل من الحقلين «اجمعوا له العابد من أمتي» وكيف يجمعون؟ طبعا بالشورى بينهم «واجعلوه» : هذا الجمع «بينكم شورى» والمخاطبون ـ بطبيعة الحال ـ هم العارفون ميزانية العلم والتقوى في الرعيلين على اختلاف مراتبهم.

إن معرفة التقوى السياسية والتقيّ السياسي لا تتطلب أكثر من لمس للسياسة الإسلامية وإخلاص إيماني ممن ينتخبونه ، فنواب المسلمين ف

مجلس الشورى الإسلامية هم نخبة سياسة إسلامية ، يجعل المسلمون ككل أمرهم شورى بينهم ، ثم هم يجعلون أمور المسلمين شورى بينهم.

ولكن معرفة التقوى العلمية بحاجة إلى ارتحال مراحل من علم الدين يميز بها الغث عن السمين ، فالرعيل الأعلى من أهل الفتوى هم نخبة ينتجها أهلوها أم أهل العلم أجمع.

هذان من أهم الأمور الإسلامية التي يجب أن تحصل بالشورى الصالحة ، حيث يتبنّيان الخلافة الإسلامية في حقلي الفتوى والسياسة فتديران أمور الدولة الإسلامية وتدبّرانها.

ثم المسؤوليات الجماعية الأخرى في هذه الدولة المباركة أيضا تكون ﴿شُورى بَيْنَهُمْ﴾ لكل حقل اهل ، فوزير الصحة لا ينتخبه إلّا الأطباء المسلمون العارفون بشؤون الصحة ومتطلبات الوزارة فيها ، كما وزير التربية والمالية والدفاع أم من ذا؟ فلكلّ شورى خاصة تصلح لانتخاب نخبتها للحصول على بلغتها دون هرج مرج لا يدري أي من أين.

ولماذا الشورى والشورى فقط تتبنّى أمرهم ، وفيهم الأعاظم من فقهاءهم وهم خلفاء الرسول والأئمة من عترته (عليهم السلام) ، فبأيديهم إذا أزمة الأمور؟.

هناك في حل الأمور أبعاد أربعة : ١ ـ الوحي الرسالي ، وهو مختص بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ ٢ ـ العلم الرسالي وهو خاص بأئمة أهل البيت (عليهم السلام) ـ ٣ ـ وحي الشورى في الرعيل الأعلى من الخلفاء العامين للرسول والأئمة ـ ٤ ـ الفتاوى الخاصة لكلّ من هؤلاء.

نحن عيش زمن انقطاع الوحي وخلافة العصمة ، فهل نأخذ بفتوى واحد من ذلك الرعيل : الأعلم الأورع الأتقى الأشجع الأبصر أم من ذا؟

والتعرّف إلى شخصية هكذا غير يسير ، وقد يكون من المستحيل ، أولا تجتمع عليها الآراء ، وبذلك تنفصم عرى الوحدة الإسلامية ، وإذا عرفت وتوحدت الكلمة في اتباعها ، فلا يخلوا هذا العبقري من أخطاء ، وعلينا أن نزيلها أو نقللها بالشورى ، حيث الطاقات المتداخلة المتشاورة أقرب إلى الصواب ، وهي أحسن قولا ، كما وتوحّد القيادة الروحية السياسية في أهل الشورى ، حيث البعد الثاني فيها هو الأخذ بالأكثر ، فعلى المسلمين أجمع اتّباعه ، وإن كانت القلة من أهلها لا يتبعونها إلّا في الأحكام الجماعية السياسية أم ماذا؟.

فكل أمر ينزل بالمسلمين بعد زمن الوحي وزمن حملة الوحي ، ما لم ينزل فيه قرآن في نصه ، ولم يسمع من الرسول بخصوصه ، فليجمع المسلمون العابد من أمة الإسلام بشورى عامة ، حتى يحل العباد المنتخبون مشكلة هذا الأمر ب ﴿شُورى بَيْنَهُمْ﴾ : حيث تقرّبهم إلى الحق زلفى ، وتنوب مناب عقلية العصمة شيئا كثيرا.

ولان ضمير الجمع في ﴿شُورى بَيْنَهُمْ﴾ راجع إلى ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ. وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ ..﴾ فإنما الشورى الصالحة لأمرهم بين من يحمل هذه المواصفات الخمس ، وهم النخبة الصالحة من شورى الأمة الصالحة ، ثم وهؤلاء الأكارم ينتخبون فيما بينهم الرعيل الأعلى من فقهاء الأمة ، الأحسن رأيا وقولا حيث هم أفضل فقها وعدلا وفضلا. ثم وهؤلاء ينتخبون فيما بينهم رئيس الشورى وقائد الأمة ، شورى ثالثة هي سلالة الأخريين ، ثم هناك الشوراءات المتواصلة على رعاية القائد المنتخب لتقرير مسير الأمة ومصيرها أحكاميا وسياسيا دون أن يستبد القائد برهان القيادة لفقدان العصمة.

ولا موقع للأكثرية في ميزان الحق ، إلّا الأكثرية بين الأقلية الصالحة. فإن ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٧ : ١٨٧) و ﴿لا يَشْكُرُونَ﴾ (٢ : ٢٤٣) و ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١ : ١٧) و ﴿لا يَعْقِلُونَ﴾ (٦ : ٣٧) و ﴿يَجْهَلُونَ﴾ (٦ : ١١١) ﴿وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ (١٠ : ٣٦) ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٢ : ١٠٦) ﴿وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ﴾ (٧ : ١٠٢) ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ (٤٣ : ٧٨) ﴿فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ (١٧ : ٨٩) ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ (٦ : ١١٦) ﴿وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ﴾ (٧ : ١٠٢).

إذا فالشورى الصالحة ليست إلّا بين الأقلية الصالحة العالمة الشاكرة العاقلة المؤمنة المتبعة علما العادلة المحبة للحق الهادية المتعهدة ، ويجمعها الفقيه الزاهد البصير الخبير.

﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إنفاقا في هذه السبيل وكل سبل الله ، إنفاقا لعقلياتهم وتجريباتهم ، أفكارهم وعلومهم ، أموالهم وكل ما يملكون من طاقات ذاتية أو منفصلة ، ولكي يحلّوا مشاكلهم التي لا حول عنها ولا مرجع معصوما لها.

إن مكية آية الشورى ـ ولم تكن هناك دولة إسلامية ولم تخلد بخلد احد الا الرسول ـ وان المسلمين يعيشون الرسول. وحصر أمرهم في ﴿شُورى بَيْنَهُمْ﴾ ـ تدلنا على مدى أهمية الشورى ، حيث تعم الحيوية الإسلامية في كل عصر ومصر ، ومهما كان في غنى عنها زمن قيادة العصمة ، ولكن عليهم التدرب فيها فقد نرى الشورى في شاكلتها ونتاجها في أبعاد اربعة.

١ ـ يستشير المختار ذا رأي صائب لكي يحصل على الرأي المختار

دون خطاء كما يستشار المعصوم [١] ، او قليل الخطاء كما يستشار غيره.

. ٢ . يشاور المعصوم غيره ليدله على خطاءه ويرشده الى صوابه ، ويبتليه كيف يفكر وكيف يحصل على الحق ، ولكي تصبح الشورى سنة دائبة للمسلمين ، وعقلية منفصلة لهم تساعد عقلياتهم الذاتية ، ولكي تنبع فكرتهم فتنبغ بالتقاء الآراء واصطكاكها ، كما امر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : ﴿وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ولا رأي مطاعا فيها إلا رأيه وعزمه : ﴿فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾.

. ٣ . يتشاور من هم على سواء أو كاد ، ولكي تجتمع عقلياتهم على ركيزة واحدة ، إزالة لأخطاء وخلافات ، فتوحيدا للرأي أم تقريبا للآراء ، وأخيرا إذا بقي اختلاف أخذا بأكثرية الآراء ، حين تدل على أقربية الرأي إلى الحق ، فلا مكانة للعدّة إلّا إذا دلت على عدّة ، ولا نفضل الأكثر عدّة هنا إلّا لدلالته على الأكثر عدة ، فإذا تساوى الفريقان عدّة نفضّل الأقوى رأيا وهو الذي فيه الأقوى رأيا ، وحتى إذا اختلفا عدة قد نفضل الأقل لو كان فيه الأعلم الأعقل ، وهكذا نتابع القول الأحسن ، وفي الأكثر هو مع الأكثر حيث المتشاورون أضراب.

. ٤ . يتشاور من ليسوا على سواء ، ليفيد الأقوى من دونه كما ويستفيد ممن دونه.

---

(١) تفسير البرهان ٤ : ١٢٨ علي بن ابراهيم القمي قال قال في اقامة الإمام «وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ» اي يقبلون ما أمروا به ويشاورون الإمام فيما يحتاجون اليه في امر دينهم كما قال الله «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ».

أقول : «بينهم» لو خص بشورى الإمام كان حق التعبير وأمرهم ان يشاوروا .. ولكنها لشمولها كافة الشوراءات الأربع فالجامع بينها هو «بينهم».

والشورى فيما سوى الأولى بحاجة إلى تحضير قبلها ، أن يفكّر أهلوها قبلها فيما يتشاورون ، ثم بالشورى يتفاوضون ويستنجدون.

وحصالة البحث في حقل الشورى أنها سبيل دائبة هي لزام الإيمان فيما لم يتبين رشده بوحي أم سواه ، من أحكام شرعية أم سياسية ، ومن انتخاب النخبة في كل حقل ، يتبنّى في كل ذلك العقلية الإسلامية في كاملها بكافة الجهات ، ولكي يحصل بالشورات الإسلامية ركامات من العقليات المجتناة من وقباتها ، من عسيلات الآراء حيث تستخلص من مزيجات لا تصلح.

فلا شورى في انتخاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة بعد الرسول حيث الانتصاب بوحي الله يغني عن الانتخاب ، ولا في الأحكام الضرورية شرعية وسياسية ، حيث الشورى ضرورة عند الاضطرار ، وإنما الشورى في انتخاب النخبة التي تتشاور فيما تحتار فيه الأمة الإسلامية وهم «العابد من أمتي» ثم هم يتشاورون فيما يصلح الأمة ويخرجها عن الحيرة ، حيث يوضّح الحق جماهيريا ويوحد كلمة المسلمين على القول الأحسن ، دون تفرّد واستبداد.

فالشورى تنوب مناب ما نخسره من غياب العصمة ، فإنها اجتهاد متراصّ دائب يجعل من المسلمين مفكرين متفاوضين في أفكارهم ، دون أن يظلوا أجسادا بلا أرواح لا يفكرون ولا يتدبرون.

فكما العصمة في القيادة صالحة ضرورية لتبني أساس الإسلام ، كذلك الشورى النائبة عن العصمة حيث تسد عن كل نائبة ، هي أيضا صالحة لاستمرار الحيوية البنائة الإسلامية ، غير الجامدة.

فحين ما نخسر قيادة العصمة زمن الغيبة ، نربح بديلها استمرارية عصمة الشورى حين تعصمنا عن التمزق والانزلاق ، وتقليلا من أخطاء

القيادة غير المعصومة ، ثم لا يضر الأمة الإسلامية أخطاءها القليلة وجاه عوائدها الكثيرة ، ومن أهمها صراع العقليات الإسلامية وسباقها على ضوء الكتاب والسنة والسياسة حيث تصنع أمة صارمة متكاملة غير جامدة.

وكما نرى القرآن المبين ـ على بيانه النور المتين ـ يحرّضنا على التدبر في آياته ، ولكي نستنبط من خفياته ، سبرا لأغواره ، ولكي نحصل بكل جد واجتهاد ، على ما أسرّه ، دون أن يوضّح لنا كل شيء وضح النهار ، كيلا تبطل عقولنا ، أو تجمد أفكارنا ، بل نكون دائبين في التدبر والتفكير ، ولكي يصنع أمة لها حيويتها البنّائة ، في استقلاليتها وقوامتها ، قائمة على سوقها على ضوء القرآن والسنة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم).

فعصمة القرآن ثم السنة القاطعة تعصم المسلمين عن التفلّت والانحراف ، إذا عاشوا القرآن في شورى دائبة من النخبة العابدة ، دونما استبداد واستقلال فاستغلال الكتلة المؤمنة ، وإنما الشورى والشورى فقط تكفل تلك الحيوية المجيدة المستغنية عن كل شارد ووارد ، حضورا لمختلف شعوب المسلمين في مصالحهم الجماعية ، أخذا لأزمّتهم بأيديهم ، فلا يحكمهم إلّا الله ومن يحكم بحكم الله ، ف ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾!.

فلنكرّس طاقاتنا كلها للشوراءات المتواصلة عبر زمن غيبة القيادة المعصومة ، ولكي نقوم على سوقنا ونحيي حياة طيبة سلمية إسلامية ، لا استسلامية تقليدية ذليلة.

وترى إذا كانت الشورى هي المرجع زمن الغيبة الكبرى فما هو موقف ولاية الفقيه؟.

أقول : إن ولي الأمر أيضا هو منتخب الشورى يرأسها على ضوء الشورى ، وهو يلي أمر المسلمين ولاية محددة بها دون استقلال له فيما يرتإيه ، فقد يتفق رأي الشورى أو أكثريتها المطلقة على واحد من أهلها ، فهو الذي يرأسها ، أم يتفقون أو أكثرهم على أكثر من واحد ، إذا فحصيلة الشورى هي شورى

الولاية والقيادة.

إنّ ولي الأمر ـ واحدا أو اكثر ـ هو الذي يحكم ، لكنما الحكم ليس إلّا بالشورى ، حيث تجبر الأخطاء الطارئة لشخص او اشخاص يولّون أمور المسلمين ، دون استقلال لأحد ولا استبداد برأي.

إتباع الأحسن هو سبيل المؤمنين حيث يبشرهم الله ويأمرهم ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (٣٩ : ١٨).

أترى أن رأي الواحد غير المعصوم أحسن ، مهما كان أعلم ممن سواه ، أم الأكثرية من الرعيل الأعلى نتيجة الشورى؟ لا ريب أنها الأحسن فاتباعه قضيّة اللب والهداية الإلهية.

أترى إذا تساووا أعضاء الشورى في فريقين اثنين فأي الفريقين أولى بالاتّباع؟ هنا الأولوية للفريق الذي فيه القائد بميّزة القيادة ، وأنه هو الذي ينظر إلى الأصلح بحال الأمة عند تضارب الآراء فعلى المؤمنين ـ ككل ـ الشورى العامة لانتخاب النخبة الصالحة لانتخاب أعضاء الشورى ، وليكونوا الأمثل بين الأمة والأمثال فيما بينهم للحصول على الرأي الأحسن وليكون في العدد الأكثر عند التضارب دلالة على الأحسن والأقرب إلى الحق.

ثم على هؤلاء انتخاب القائد الرئيسي للشورى ، فان اتفقوا على رأي وإلّا فالأكثر عددا ، وإلّا فالفريق الذي فيه القائد لأن فيه الرجاحة عند تساوي العدد ، وهكذا تسير الشورى مصيرها إلى انتخاب الأحسن فالأحسن لتقليل الأخطاء فالقيادة الأصلح لصالح الأمة ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إنفاقا لكافة الطاقات والإمكانيات الصالحة لهذه القيادة المباركة على ضوء الكتاب والسنة.

وإذا مات منهم واحد أم سقط عن الصلاحية فأمر الانتخاب البديل إلى سائر أعضاء الشورى.

ثم الشورى القيادية بحذافيرها ليست لها الولاية المطلقة على الأمة فلهم أن يخطّئوها ، ولا أولوية إلا ترجيحا لصالح المجتمع على صالح الأفراد إذا تعارضا ، كما ولا ولاية لهم على الفقهاء.

وهنا أصلان أصيلان ، أصالة الولاية لكل مؤمن بالنسبة للآخرين ، بمعنى المحبة والنصرة والمعاضدة ، وأصالة عدم الولاية بمعنى الأولوية على النواميس الخمسة إلّا في مقام الضرورة ، وهي ضرورة الحكم وفرض القرارات الحاكمة لرئيس الدولة الإسلامية على الجماهير المسلمة ترجيحا لصالح الجماهير على الأشخاص ، وأما الأشخاص على الأشخاص فلا ضرورة ولا ولاية ولا سيما على أشخاص الفقهاء ، إشخاصا لهم عما هم عائشوه.

﴿وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩).

ليس البغي : التجاوز إلى غيرك ـ فقط ـ محظورا ، بل وكذلك التصبّر عليه دون انتصار محظور.

حيث الظلم والانظلام كلاهما من المحظورات في شرعة الله ، وهكذا مظلوم هو مع ظالمه في النار.

وترى ألّا تناحر بين صفتي المؤمنين ، هذه ﴿وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؟ الغضب قد يكون بباطل فالغفر عنده صفة الإيمان ، أو يكون بحق حيث بغي عليه ، فإنما البغي بغيان ، بغي يعفى أثره إذا غفرت وهو الغفر المصلح : ﴿... فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ وغفر

يفسد حيث لا يتحمله المؤمن لإيمانه كأن يفترى عليه وهو يسكت ، ظلما بنفسه ، أم سكوتا عن حقه وحق الغير إذ يسكت ، ظلما ذا بعدين ، فالانتصار إذا من صفات الإيمان ، كما الغفر حين يصلح من صفات الإيمان.

آيات ثلاث تأمر بالانتصار بعد الظلم ، هذه والتي بعدها : ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ..﴾ وفي الشعراء ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧) وكما الله ينتصر لهم إلا ابتلاء ﴿وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ (٤٧ : ٤) ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٠ : ٤٧).

ويا لها من آية مكية تتبنّى الإنتصار في البغي والمؤمنون في مكة ما كانوا يستطيعونه أبدا ، فهي ذات دلالة لصفة أساسية في المؤمنين : عدم التصبّر على الظلم والتخاذل أمام الظالم حسب المستطاع ، وإن كانت هناك في مكة فترة مقتضية للتصبر ، ولكنها متقضّية بعد ردح قصير ، ثم المؤمنون لا يتصبرون.

لقد كانت هناك اعتبارات في العهد المكي تقتضي سياسة المسالمة والصبر ، مع تقرير الطابع الإسلامي غير الاستسلامي لهم : ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾.

فالانتصار البنّاء ، صدا عن تفشي الظلم يتبناه الإسلام كأصل من أصول الحياة الإيمانية ، سواء كان البغي عليك أم سواك أم على جمهرة أو جماهير من المسلمين ، لأن أنفس المسلمين نفس واحدة بعضها من بعض ، فلم يقل «والذي إذا أصابه البغي هو ينتصر» وإنما ﴿أَصابَهُمُ .. يَنْتَصِرُونَ﴾ لتشمل الجميع والمجموعة ، أن ينتصر المؤمن لمظلوم غيره كما

ينتصر لنفسه ، وأن ينتصر الفرد للجماعة كما تنتصر الجماعة للفرد ، فالانتصار عند البغي صفة الإيمان جماعات وفرادى.

إن الانتصار لإزالة البغي أو مكافأته ضابطة عامة لكل من بغي عليه ، ولكن حسب ما يقتضيه العدل ، والعفو خير إن كان في محله وليس العفو المصلح او الصالح غير المفسد إلّا في البغي على الأشخاص ، وأما البغي على الدين أو جموع أهل الدين فلا عفو فيه ، وحتى إذا تاب الباغي اللهم فيما أصلح وبيّن أنه بغى ، ولا يعني الإنتصار عند البغي إلّا صدا عن البغي ، ممن بغي عليه ومن تتطاول أيدي البغي عليه لولا الإنتصار.

﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(٤٠).

هنالك قضية العدل مماثلة بين سيئة وجزاءها في كل شيء ، ولا يصلح العفو عن المسيء إلا إذا أصلحه ويصد عن ظلمه ، وإذا ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾[1] واما العفو المفسد ان يتجرأ المسيء على ظلمك ، او تتطاول يده على سواك ، فهذا العفو ظلم على نفسك وسواك ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وكما إذا اعتديت على المسيء اكثر مما أساء ، انه جزاء ظالم ﴿إِنَّهُ

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١١ ـ اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا كان يوم القيامة امر الله مناديا ينادي ألا ليقم من كان له على الله اجر فلا يقوم الا من عفا في الدنيا وذلك قوله ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ وفي نقل آخر زيادة «فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله ، واخرج ابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ينادي مناد يوم القيامة لا يقوم اليوم احد الا من له عند الله يد فيقول الخلائق سبحانك بل لك اليد فيقول بلى من عفا .

لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وانما عدل : ﴿**جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها**﴾﴿**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها**﴾ (٤٠ : ٤٠) ﴿**وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ**﴾ (١٦ : ١٢٦) او فضل : ﴿**فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ**﴾ دون ظلم مفرط او مفرّط.

آية الجزاء ترسم ضابطة عادلة عامة في كافة الموازين ، فالمماثلة بين السيئة وجزائها قاعدة لا تستثنى ، اللهم إلا عفوا فيما يصلح ، أم لا يصلح ولا يفسد ، فهما إذا من الفضل والأفضل ، وأما ان تربوا جزاء سيئة عليها ، فهذه الربوة ظلم من أيّ كان وأيا كان وأيان ، إذا فكيف يفترى على أرحم الراحمين أنه يجازي بعض العصاة دون نهاية في الآخرة ،

. في الدنيا بعد قدرة ، وبنفس السند عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال موسى بن عمران (عليه السلام) يا رب من أعز عبادك عندك قال من إذا قدر عفا ، واخرج احمد وابو داود عن أبي هريرة ان رجلا شتم أبا بكر والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جالس فجعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يعجب ويتبسم فلما اكثر ردّ عليه بعض قوله فغضب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقام فلحقه ابو بكر فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يشتمني وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت؟ قال : انه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان فلم أكن اقعد مع الشيطان ثم قال يا أبا بكر نلت من حق ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله الا أعز الله بها نصره وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة الا زاده الله بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة الا زاده الله بها قلة.

وفي نور الثقلين ٤ : ٥٨٥ ح ١٢٣ . الكافي العدة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليكم بالعفو فان العفو لا يزيد العبد الا عزا فتعافوا يعزكم الله و ١٢٤ في كتاب الخصال عنه (عليه السلام) قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل خصال الايمان من صبر على الظلم وكظم غيظه واحتسب وعفى وغفر كان ممن يدخله الله الجنة بغير حساب ويشفعه في مثل ربيعة ومضر.

وهل هناك مماثلة بين سيئة محدودة في زمن محدود وأثر محدود من مسيء محدود ، وبين سيئة لا محدودة من إله غير محدود؟ وأدنى المماثلة بين سيئة وسيئة مماثلة النهاية في سيئة محدودة في الكيف والأثر وإن لم يكن في الكم والزمن.

جزاء سيئة سيئة مثلها عدلا ، وسيئة دونها أو عفو وإصلاح فضلا ورحمة ، فإذا يأمرنا الله تعالى بالعفو عن السيئة إصلاحا أم جزاءها المثل عدلا فكيف يجازي هو ظلما أن يخلّد بسيئات أهلها إلى غير نهاية ، وما هذا إلا كذب مفترى ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾!.

ثم المماثلة بين السيئة والجزاء والسيئة المجازى بها لا تقتضي إلّا اعتداء بالمثل ، وليست هي اعتداء ، وأما إذا كانت سيئة بنفسها دونما استثناء فلا ، فمن ضربك تضربه كما ضرب مراعيا كمّه وكيفه ، وأما من زنى بحليلتك فليست جزاءه أن تزني بحليلته ، وإنما هي الحد المحدد له في الشرع ، والضابطة العامة هي أن السيئات المتعدية التي لا حدّ لها في الشرع تجازى بمثلها ممن أسيئ إليه ، إذا لم يكن الجزاء محرما ، وأما المحرمة كمثل اللواط والزنا والسباب والإضلال ام ماذا فلا ، وقد توحي ﴿فَمَنْ عَفا﴾ أن السيئة هنا تعني ما تقبل العفو ممن أسيء إليه ، فلا تشمل إذا مثل اللواط والزنا والإضلال ، وإن شملت مثل القتل والسباب أم ماذا؟.

فإذا قال لك : أخزاك الله ، تقول له مثل قوله : أخزاك الله ، وإذا قال لك : أنت فاسق إهانة دون حجة ، تقول له : أنت فاسق جزاء بحجة ...

وأما إذا قذفك بما يوجب الحد ، فليس لك أن تقذفه حيث يوجب

الحد ، وانما جزاءه الى الله حيث سن حدا للقذف ، وكما إذا زنى أو لاط أم أساء سيئة من أضرابهما مما يوجب الحد فجزاءه إلى الله فيما حدّد.

فلا تعني مماثلة سيئة سيئة أنك حرّ أن تجازى أية سيئة بمثلها ، وإنما هي كضابطة ، فقد يجوز لك أن تجازي بمثلها ، وقد لا يجوز فالله هو الذي يجازي بما سنّ من حد أم ماذا ، ومن ثم فهي محددة بما يجوز العفو عنها.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(٤٣).

ليس على المنتصر بعد ظلمه من سبيل ، سواء أكان انتصاره فرضا أم راجحا أم ـ وعلى أقل تقدير ـ مسموحا ، حيث الانتقام أو الدفاع وجاه الظالم حق مشروع على أية حال.

قد يكون الإنتصار بعد الظلم من واجبات الإيمان ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ فهنالك الإنتصار والإنتصار فقط ، دون انتظار فإنه احتضار واهتدار ، فحين يظلم القرآن وشرعته ويظلم شعبه ورعيته فالانتصار هنا واجب ذو بعدين ، والانظلام والسكوت محرم ذو بعدين و ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (٨ : ٥٣) ف «حق من أساءك أن تعفو عنه ، وإن علمت أن العفو يضر انتصرت» [١] كما والقائم (عليه السلام) ينتصر للإسلام [٢].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٥ عن الخصال ١٢٥ في الحقوق المروية عن علي بن الحسين (عليه السلام) ... ثم يستدل بالآية «وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ».

(٢) المصدر ١٢٧ في تفسير القمي بسند عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في الآية.

إن للمظلومين سبيلا معبّدة إلى الدفاع ولا سبيل عليهم ، والظالمون ما لهم من سبيل وإنما السبيل كل سبيل عليهم لتقطع عنهم سبل الظلم والبغي ، و ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا انتصارا عليهم من المظلومين ، وفي الآخرة من ملجإ المظلومين.

وفيما إذا لم يكن ترك الإنتصار والتصبر على الظالم ظلما ، وإنما صنيعة حسنة ومحاولة لتوبة الظالم ، أو تخجيله حتى يكف عن ظلمه ، هنالك ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

ثم للانتصار مراتب عدة حسب المستطاع أقله «من دعى على من ظلمه فقد انتصر» [٣] وأكثره الإنتصار بالقتال ، وبينهما متوسطات.

ثم من الإنتصار شخصي أن تكرّس طاقاتك للذود عن الظلم ، ومنه جماعي أن تستعين بمن يعينك ، ولكل مجال حسب ما تقتضيه الحال.

إن الصبر على الظلم والغفر ليس إلّا عند المقدرة على الإنتصار

. ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ قال يعني القائم صلوات الله عليه وأصحابه ﴿فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ والقائم إذا قام انتصر من بني امية والمكذبين والنصاب هو وأصحابه وهو قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..﴾.

وفي ملحقات الاحقاق ١٤ : ٤٩٣ العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في «الاشاعة في أشراط الساعة ص ٦٩ ط مصر قال : قوله «لمن انتصر بعد ظلمه الآية. اشارة الى الحسين بن علي (رضي الله عنه) وقيامه على يزيد وقتاله على حق الى ان قتل هو واهل بيته.

(٣) الدر المنثور ٦ : ١١ ـ اخرج ابن أبي شيبة والترمذي والبزاز وابن مردويه عن عائشة قالت قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من دعا ...».

والجزاء ، حين يشعر ظالمك أنك تصبر وتغفر على قدرة فيستحي ، وأما أن تصبر على ظلمه مغلوبا عاجزا فليس إلّا تخاذلا ، إذا فانتصر في دفع الظلم.

لا تخلو حال المظلوم أنه أقوى من ظالمه أو أضعف أو هما على سواء ، ففي الأولى على الأغلب ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ فإنه عفو على قدرة وهو يصلح ، اللهم إلا إذا أفسد ، وفي الثانية ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ حيث الصبر على الظلم تخاذل وتقوية للظالم اللهم إلا إذا أصلح ، والثالثة مورد الآيتين حسب إحدى المصلحتين ، وقد يكون الصبر راجحا غير واجب كما يكون محرما أو واجبا حسب مختلف الظروف والمقتضيات.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾(٤٤).

ولا يضل الله إلّا من ضلّ ظالما ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ (١٤ : ٢٧) ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ﴾ (٤٠ : ٧٤) ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ﴾ (٤٠ : ٣٤) فليس الله ليضل من لا يضل فإنه ظلم ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ﴾ (٤٠ : ٣١) ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤١ : ٤٦).

وليس إضلاله تعالى من ضل دفعا له إلى ضلال بعد ضلال ، وإنما ترك له يستمر في الضلال دون أن يوفقه لترك الضلال حملا له عليه : ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧ : ١٨٦) ثم ختم على قلبه جزاء بما ختم حتى إذا أراد أن يهتدي لم يكن له سبيل» ﴿خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ

وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢ : ٧) ، ترك أو ختم ثم لا دفع إلى ضلال.

الله هو الولي يلي أمور عباده ، فإذ يترك ولايته لمن يضل فيضله ﴿فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إذ لا هادي إلا الله.

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ﴾ وهم بين الموت والحياة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ﴾ إلى الحياة الدنيا «من سبيل» لنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل : ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾ (٢٣ : ١٠٤).

ثم ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ﴾ إذ يدخلون الجحيم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ : ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٣٥ : ٣٧).

﴿وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ﴾ (٤٥) ﴿وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٦).

﴿وَتَراهُمْ﴾ الظالمين ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْها﴾ النار ﴿خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ لا خشوع العبادة والطاعة من العز ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ على يأس إلى أية بارقة للخلاص ولات حين مناص ، فالطرف منه جلي حين ينظر المتقون إلى رحمة الله وكما وعدوها ، ومنه خفي حين ينظر الظالمون الآيسون من رحمة الله وقد منعوها ، كما وينظرون إلى النار التي عرضوا عليها من طرف

خفي مغبّة الّا يدخلوها وهم داخلون ولا يجترءون أن يمتلئوا عيونهم بها فيخفون طرفهم كيلا يروها وهم إليها داخلون ، فإن نظرهم نظر المخالف الذليل والمرتاب الظنين ، فهو لا ينظر إلا مسترقا ولا يغضي إلا مشفقا ، من عظيم الخيفة وتوقع العقوبة.

هنالك تتهاوى كبريائهم إلى هوات النار ، إياسا من خلاص مع كل لهفة وانهيار ، منكّسي الرؤوس والأبصار إلى جهنم يصلونها وبئس القرار.

وترى كيف لهم بصر حتى ينظروا من طرف خفي وهم عمي : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾ (٢٠ : ١٢٤) علّه لأن آية العرض تعنيه قبل الحشر في سكرة الموت ، وفي البرزخ ، أو يسمح له أن ينظر من طرف خفي يوم القيامة عذابا فوق العذاب ، لفترة ، كما يحشر أعمى عذابا فوق العذاب ، أو أن حشرهم عميا لا يعني إلا حشرهم ولفترة ، وأما ان يضلوا عميا فلا وكما و ﴿نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا﴾ (١٧ : ٩٧) ولو كانوا بكما وصما دوما فكيف التخاصم : ﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٣٨ : ٦٨) ﴿قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ. تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٦ : ٩٦) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾(٣٩ : ٣١).

﴿وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ هم يعرضون على الجنة ناظرين إلى أهل النار ومنهم أصحاب الأعراف ﴿إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ إذ ضلوا ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ إذ أضلوهم خسروا أنفسهم وإياهم ﴿يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾.

وهذه مقالة الرسول يرددها المؤمنون به يوم القيامة ﴿.. قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ (٣٩ : ١٥) فقولهم يوم الأخرى تأويل لقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الدنيا.

وترى هؤلاء الذين خسروا أنفسهم إذ هم ظلموا فما بال أهليهم إذ يخسرونهم؟ .. أهلوهم هنا هم المخسرون وليسوا معهم خاسرين ، فإن كان أهلوهم أمثالهم حيث اتبعوهم فقد خسروهم مع أنفسهم فهما معا في الجحيم ، فهم إذا خاسرون أهليهم كما خسروا أنفسهم ، سواء أكانوا معهم أم مفترقين.

ثم القول الفصل الأخير من رب العالمين يصدق مقالة الرسول والمؤمنين : ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ﴾ يقيم معهم إذ يقيمهم فيه ، لا حول لهم عنه وهم فيما قدمت أيديهم خالدون.

أو أنه ايضا من مقالة المؤمنين خبرا ل ﴿إِنَّ الْخاسِرِينَ﴾ و ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا.﴾ وصفهم ، لا خبرا عنهم ، وقد يقربه عدم الفصل ب «هم» «بين الخاسرين الذين» فالمعنى أن الخاسرين الذين خسروا .. ألا ان الظالمين (وهم هؤلاء الخاسرون) ﴿فِي عَذابٍ مُقِيمٍ ..﴾ والمعنيان علهما معنيّان حيث تتحملهما الآية.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ﴾(٤٨).

الاستجابة للرب تمتد في الحياة الدنيا ما دامت قائمة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ مهما كان له مرد من نفسه حسب حسبانه ، وهو يوم البرزخ ومن ثم القيامة ، وهل يستجاب للرب قبل القيامة يوم البرزخ؟ ﴿كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها﴾ وإنما هي قبل البرزخ ، وهل يستجاب له قبل الموت فينفع الإيمان حتى عند رؤية البأس؟ كلا فيما لا مرد له من الله ، حيث الإيمان قشري خوف البأس ، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ

وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ (٤٠ : ٨٥) ونعم إذا كان حق الاستجابة والإيمان حيث له مرد من الله : ﴿فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ (١٠ : ٩٨) فالمردّ المنفي أيام ثلاثة ، يوم البأس زمن التكليف فلا مردّ من استحقاق العقوبة إلى سواها ، ثم اليومان الآخران.

فواجب الاستجابة هو كونها في حياة التكليف ، حقا حالة الإختيار ، لا جزافا في نفاق أم خاويا عند رؤية البأس ، فما للمستجيب مرد من الله قبل الموت وبحقها فالإجابة حاصلة والإيمان ينفع ، وإذ ﴿لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ فلا مرد له ممن سواه : ﴿ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ تلجؤون إليه من دون الله ﴿وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ : منكم تنكرون عذابه أو تنكرون أسبابه ، حيث الأسباب بارزة يومئذ والعذاب لا محالة كائن ، ولا ﴿مِنْ نَكِيرٍ﴾ من سواكم ، ينكر عذابكم فإنه ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (١١ : ١٠٥).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الاستجابة فلم يحفظوا أنفسهم عن الكفر اختيارا ، ﴿فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ تكرههم على الإيمان إجبارا ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ إراءة الطريق ، لا الإيصال إلى المطلوب.

وحالة الإنسان الكفور النسيان ﴿إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها﴾ شكورا أو يظن أنه يحق لها ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لا أيدينا ﴿فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ﴾ يكفر بالله وينسى رحمة الله ، فهو في الحالتين كفور ، وإن تظاهر حالة النعمة أنه شكور.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(٥٠).

.. لأن ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا سواه ، فبيده ملكوت كل شيء وناصيته لا سواه ، فهو ﴿يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ دون ما يشاء سواه ، ومما يخلقه إناث وذكور كهبة لخلقه في خلقه حيث الأولاد مظهر من مظاهر المنح والعطاء ، يقدم هبة الإناث على الذكور ف «من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى» [1] والناس يتقدمون إلى الذكور قبل الإناث! ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً﴾ والعقم يكرهه كل الناس و ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ ..﴾ توحي بأن الأولاد من هبات الله فكأن الوالدين يملكانهم ، وهذه الآية هي مصدر ما اشتهر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «أنت ومالك لأبيك» و «إن أولادكم هبة الله ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ﴾ فهم وأموالهم لكم إذا احتجتم إليها» [2].

ف ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٨ : ٦٨) فإذ يختار لك الذي له ملك

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٢ . اخرج ابن مردويه عن ابن عمران رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ... لأن الله قال : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ﴾.

وفي نور الثقلين ٤ : ٥٨٧ عن تهذيب الأحكام باسناده عن زيد بن علي عن آبائه عن علي (عليه السلام) قال : أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رجل فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان أبي عمد الى مملوك لي فأعتقه كهيئة المضرة لي؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أنت ومالك من هبة الله لأبيك أنت سهم من كنانة ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ ... وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً﴾ جازت عتاقة أبيك ، يتناول والدك من مالك وبدنك وليس لك ان تتناول من ماله ولا من بدنه شيئا الا باذنه».

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٢ . اخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عائشة قالت قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

السماوات والأرض أنثى كهبة ومنحة ربانية فهل لك أن تردها او تبغضها؟ أو يختار لك ذكرا فهل لك أن تتبجح حيث لم يهبك أنثى؟ أم إذا جعلك عقيما حرمانا عن هبة الأولاد ذكرانا وإناثا فهل لك أن تغضب لماذا جعلك عقيما؟ كلا ثم كلا! فإن هبات الله كلها مرضية والله يقدم هنا «إناثا» لكي يقضي على ثورة حمقاء : بغض الإناث ، ثم يقدم ذكرانا لكي يفهمك أنها في هبة الله على سواء «أرأيت لو أن الله أوحى إليك أن أختار لك أو تختار لنفسك ما كنت تقول؟ (طبعا) يا رب تختار لي ، فإن الله اختار لك ..»[1].

وقد يختار الله أنثى هي مفتاح كل خير وبركة كما كانت فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أم الأئمة النقباء النجباء ، كوثرا عظيما من كوثر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم) عن البنات «نعم الولد البنات ملطفات مجهزات مؤنسات مباركات مفليات» [2].

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٧ ص ١٠٢ ح ٤ عن الحسين بن سعيد اللحمي قال : ولد لرجل من أصحابنا جارية فدخل على أبي عبد الله فرآه متسخطا فقال له أرأيت ... ما كنت تقول؟ قال كنت أقول : يا رب تختار لي ثم قال : ان الغلام الذي قتله العالم الذي كان مع موسى (عليه السلام) وهو قول الله عز وجل ﴿فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ أبدلهما الله عز وجل به جارية ولدت سبعين سنة.

(٢) المصدر ص ١٠٠ وفيه ١٠٢ ح ٣ عن الجارود بن المنذر قال قال لي ابو عبد الله (عليه السلام) بلغني انه ولد لك ابنة فتسخطها وما عليك منها! ريحانة تشمها وقد كفيت رزقها وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا بنات و..

وح (٥) محمد بن علي بن الحسين قال بشر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بابنة فنظر الى وجه أصحابه فرأى الكراهة فيهم قال : فما بالكم ريحانة أشمها ورزقها على الله عز وجل وكان أبا بنات.

وح ٨ عيون اخبار عن الحسن بن علي العسكري عن آبائه عن الصادق (عليه السلام) .

وترى ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً﴾ تخص من يوهب ـ فقط ـ البنات ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ﴾ فقط ـ الذكور؟ علّه نعم إذ تعني الهبة طيلة العمر ، ولكنها قلة قليلة ، أن يوهب الوالدان فقط بنات او كذلك البنين! إلّا أن ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً﴾ تعني الكثرة الكثيرة ، أو أن ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ تعني كل ولادة وولادة ، فقد تكون أنثى وقد تكون ذكرا وقد تكون توأما ﴿ذُكْراناً وَإِناثاً﴾؟ علّ الآية تعنيهما.

«أو يزوجهم» تعني يهب لهم زوجا : ﴿ذُكْراناً وَإِناثاً﴾ في ولادة أم ولادات.

وترى ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً﴾ يعني عقما مّا ، وإن كان لمانع ترفعه الدواء أو عملية أخرى؟ وليس هذا عقما لا هبة فيه ، حيث العقيم لمانع مّا حين يرزق ولدا كان من هبات الله فتشمله ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ ...﴾.

فهذا العقم هو عقم في العمق حيث لا علاج له ، ولا عاديا بعلاج ، ولا خارجا عن العادة بمعجزة إلهية كما في أم إسحاق على حد قولها ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

. ان رجلا شكا اليه غمه ببناته فقال : الذي ترجوه لتضعيف حسناتك ومحو سيئاتك فارجه لصلاح حال بناتك اما علمت ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لما جاوزت سدرة المنتهى وبلغت قضبانها وأغصانها رأيت بعض ثمار قضبانها اثداءه معلقة يقطر من بعضها اللبن ومن بعضها العسل ومن بعضها الدهن ومن بعضها شبه دقيق السميد ومن بعضها الشياب (النبات) ومن بعضها كالنبق فيهوى ذلك كله نحو الأرض فقلت في نفسي اين مقر هذه الخارجات؟ فناداني ربي يا محمد! هذه ابنتها من هذا المكان لاغذو منها بنات المؤمنين من أمتك وبنيهم فقل لآباء البنات لا تضيقن صدوركم على بناتكم فاني كما خلقتهن ارزقهن.

ثم ترى لماذا «الذكور» بعد «إناثا» معرفة وهي منكرة؟ ومن ثم ﴿ذُكْراناً وَإِناثاً﴾ بعكسه ومنكرين؟.

تقدّم الإناث هنا جبر لتأخرهن عند الناس ، ولأنهن في كونهن مظاهر العطف الرباني أعطف ، والهبة تقتضي في البداية أعطف العطف وكما يستلهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذا التقدم قوله «من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى لأن الله قال ..».

وتعريف الذكور مجاراة لمن يقدمونهم على الإناث أو للإشارة إلى واقع التقدم ، وتأخير ذكرهم يقضي على هذا العرف الخاطئ أو للتعديل في تقدّم وتأخّر ، ثم تقديم «ذكرانا» على «إناثا» للتدليل على أنهما سواء ، أو جبر لتقدم الإناث قبله ، ولم يعرّف هنا «ذكرانا» كيلا يخيل إلى الذكران أنهم فوق الإناث كضابطة ، أو لا يزعم أن في تقديمهم تقدّم على «إناثا» ويا لها من صيغة سائغة كأنها صاعقة تحرق التخيلات الجارفة الحمقاء حول الإناث بين هؤلاء الناس النسناس ، لحد كانوا يعتبرونهن حيوانا أو أدنى ، فقد رفعهن الله كما وضعن ، وسوى بين القبيلين إلا فيما يسعى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾.

﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(٥١).

هنالك تكليم لله في مثلث لا رابع له ، فما هو تكليمه ، ومن ثم ما هو «وحيا» ﴿أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾؟ فهل إن ﴿مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ وحي ك «وحيا» فكيف يقابله؟ ام ليس وحيا فليكن بإرسال رسول فكيف يقابل ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾؟.

التكليم الإلهي :

إن التكليم الإلهي يعني فيما يعنيه الرباط العلمي وحيا إلى بشر ، كلام

إلى سمع أو معنى إلى قلب ، بواسطة أو دون وسيط ، بحجاب أو دون حجاب الّا حجاب ذات الألوهية حيث يستحيل ارتفاعه ، لارتفاع ذات الألوهية وسموها عن أن يدرك دون حجاب «فلا يحس ولا يمس ولا يجس ولا يدرك بالحواس الخمس».

ليس كلامه بآلة في ذاته لسانا أم ماذا كمن سواه ، إنما هو إيحاء يحمل صوتا أو معنى دون صوت ، يخلقه الله تعالى كسائر خلقه ، إلّا أنه يختصه من يصلح من ملائكته ورسله دون سائر خلقه : ﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢ : ١١٨) .. وليس الله مكلم الذين كفروا لا في الدنيا ولا في الآخرة مهما كان مكلّم المؤمنين في الآخرة : ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ﴾ (٣ : ٧٧) فلا تكليم إلهيا يوم الدنيا إلّا مع المرسلين.

﴿ما كانَ لِبَشَرٍ﴾ سلب للكيان البشري ، يضرب إلى عمق الماضي أن يتحمل كلام الله مواجهة برؤية أو بسماع لفظة كما يلفظ البشر فيسمع ، لا هذا ولا ذاك ، وإنما ﴿وَحْياً أَوْ ..﴾ وجوه ثلاثة لا رابع لها وكلها كلام الوحي.

فالوحي وهو الإشارة في رمز قد يكون من أرقاه في أعلى القمم الممكنة ، وهو وحي دون حجاب ودون رسول ، إلقاء في قلب الرسول دون وسيط من شجرة كما أوحي بها إلى موسى ، أو كلام لفظي كما ﴿كَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ أو حجاب المنام ، وإنما المعنى والمعنى فقط يلقى دون أي وسيط إلى قلب الرسول ، في حين ليس بين الرسول وبين الله أحد حتى نفسه حيث يتناسى حينه عنها ، ارتفاعا لحجب الظلمة والنور إلّا نور

الذات المقدسة حيث تبقى حجابا لن يزول.

هنا لا يبقى حجاب للوحي إلّا حجاب هو لزام ذات الألوهية لمن سواه [١] ، فهو وحي دون أي حجاب ممكن الكون والارتفاع ، وكما الوحي إلى الرسول الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة القدر وليلة المعراج كان وحيا بلا حجاب ، حيث لا كلام ولا منام ولا شجرة أم ماذا؟ ولا جبريل ولا حجاب نفس الرسول المقدسة النورانية ، حيث «لم يكن بينه وبين الله احد» [٢].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٧ ح ١٣٤ في كتاب توحيد المفضل بن عمر المنقول عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) في الرد على الدهرية قال (عليه السلام) بعد ان ذكر الله عز وجل ، والعجز عن ان يدرك فان قالوا : ولم استتر؟ قيل لهم ما يستتر بحيلة يخلص إليها كم يحتجب عن الناس بالأبواب والستور ، وانما معني قولنا : استتر انه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام كما لطف النفس وهي خلق من خلقه وارتفعت عن إدراكها بالنظر.

وفي كتاب التوحيد عن الرضا (عليه السلام) كلام طويل في التوحيد وفيه : لا تشمله المشاعر ولا تحجبه الحجاب فالحجاب بينه وبين خلقه لامتناعه مما يمكن في ذواتهم ولإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته ولافتراق الصانع والمصنوع والرب والمربوب والحاد والمحدود.

وفيه عن الرضا (عليه السلام) ايضا كلام وفيه قال الرجل : فلم احتجب؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) ان الحجاب على الخلق لكثرة ذنوبها فأما هو فلا تخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار.

(٢) في التوحيد باسناده عن زرارة قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا نزل عليه الوحي؟ قال فقال : ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله احد ذاك إذا تجلى الله له ـ قال ثم قال : تلك النبوة يا زرارة واقبل يتخشع.

وفي امالي الشيخ باسناده عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قال بعض أصحابنا : أصلحك الله كان رسول الله (صلى الله عليه وآله

ولم يسبق هكذا وحي لأحد من المرسلين ، ولا الملائكة المقربين ، لأنه يتطلب مقام ﴿ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾ حيث لم يسطع الرسول إلى الرسل : جبريل (عليه السلام) ، أن يعرج إلى معراج الرسول ولا بجسمه فضلا عن روحه [1].

هذا تكليم إلهي متحلل عن لفظية الكلام وعن أي وسيط ، ثم يأتي دور تكليمه ﴿مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ ولا يعني الوراء وراء مكانيا للمكلّم ، وإنما الوراء لكلامه الموحى إلى رسول ، سواء كان وراء الكلام اللفظ وهو أبسطه ، أم وراء النوم ، أم وراء شجرة كما لموسى ، أم أي وراء هو حجاب ، وليس رسولا للوحي ، وإن كان هو ايضا من الحجاب ، إلّا أنّ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ يختصه بوحي بعد ﴿وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ فلا يشمله هنا «حجاب» والوحيان يعنيان ما لا وسيط له رساليا ، ومن ثم :

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ إلى بشر «فيوحي» الرسول الملك إلى رسول البشر ﴿بِإِذْنِهِ﴾ : الله ﴿ما يَشاءُ﴾ الله ، فالموحي الأصيل هو الله ، والموحي الملك هو رسول الوحي ، يشير في رمز ما تلقاه من الله إلى الرسول البشري.

. وسلم) يقول : قال جبرئيل وهذا جبرئيل يأمرني ثم يكون في حال اخرى يغمى عليه؟ فقال ابو عبد الله (عليه السلام) انه إذا كان الوحي من الله اليه ليس بينهما جبرئيل اصابه ذلك لثقل الوحي من الله وإذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك فقال : قال لي جبرئيل وهذا جبرئيل.

وفي الدر المنثور اخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن عائشة ان الحارث بن هشام سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف يأتيك الوحي؟ قال : أحيانا يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وهو أشده عليّ وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول. أقول وهو أشده علّه خاص بما يوحي إليه بواسطة ملك الوحي ، فان أشده ككل ما يوحى اليه دون وسيط.

(١) راجع الفرقان ج ٢٧ ص ٣٩٨ ـ ٤٠٥ من سورة النجم حول آية التدلّي.

إن الوحي ـ حيث يحمل تكوينا أو تشريعا ـ ليس إلّا من الله ، سواء أكان رمزا في التكوين : ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها﴾ أو في الغريزة : ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (١٦ : ٦٨).

أو إلهاما يحمل حكما خاصا إرشاديا : ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٨ : ٧).

ومن ثمّ الوحي التشريعي الذي يحمل أحكاما شرعية للموحى إليه شخصيا ، أم له ورسالة إلى جماعة قلوا أو كثروا ، أم الى العالمين أجمعين.

و ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾ حيث يحمل وحي التشريع من ملك الوحي بإذن الله ، آية يتيمة في القرآن كله ، على احتمال أن الموحي بإذنه هنا ايضا هو الله ، حيث الآية تتبنى التكليم الإلهي في هذا المثلث البارع ، فليكن المكلّم الموحي في ثالثه هو الله كما في الأولين.

إذا «أو يرسل» الله «رسولا» ملائكيا «فيوحي» بواسطته كحجاب يعقل «بإذنه» تعالى لا بإذن الملك أو الموحى إليه أو مسيّرا في وحيه «ما يشاء» الله ـ لا ما يشاء الرسول الملك او الرسول البشر «إنه عليّ» عن أن يواجه في كلامه بذاته ، أو يكلم غير رسله وأنبياءه «حكيم» يوحي بحكمة بارعة إلى كلّ كما يحق له ويتحمل ، وكما يجب في رسالته.

لقد جمع لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بين مثلث الوحي : دون حجاب ـ ومن وراء حجاب المنام او الكلام ـ وبواسطة جبريل ، ووحيه الأول دليل أن الآخرين لم يكونا لحاجة منه إلى حجاب او ملك ، وإنما هو تثبيت للمؤمنين حتى لا يقولوا فيه ما قالوه في المسيح (عليه السلام) : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى

﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦ : ١٠٢) «وكان جبرئيل إذا أتي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قعد بين يديه قعدة العبد وكان لا يدخل حتى يستأذنه» (١).

ولئن قلت : تنزيل جبريل لم يكن بمشهد للمؤمنين فكيف يصدقونه حتى يثبتوا على الإيمان أنه ليس كما قيل في المسيح (عليه السلام)؟

فالجواب نجده من ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حيث يصدقونه . لإيمانهم . قوله : إن تنزيل القرآن بواسطة روح القدس.

أو قلت : هلّا كلم الله تعالى إبليس وكما في مواضيع من خطابه له ، فهل يدخل في مثلث الوحي أم ماذا؟.

فالجواب : أن الآية تتحدث عن تكليمه لبشر دون أي كائن من جن وشيطان أم من ذا؟ ثم قد يكون وحيه إلى إبليس من وراء حجاب الغضب والظلام دون حجب النور الذي كانت لرسل الله ، أو أنه لا يدخل في مثلث الوحي إذ لم يكن وحي رسالة وإنما وحي تنديد وتبكيت.

﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٥٢).

«وكذلك» الذي يوحي ربك ﴿وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ ﴿أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ والوحي إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) شمل هذا المثلث كله ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ إن كان روح القرآن فمحكمه وما أوحي إليه ليلة القدر والمعراج أم ماذا «وحيا» ومفصله : ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ..﴾ وعوان بين ذلك في المنام أم ماذا.

---

(١) علل الشرائع باسناده عن ابن أبي عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ...

ام «كذلك» الذي يوحي من وحي الكتاب ﴿أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ الروح القدسي الرسالي الذي هو سند العصمة ولزام المرسلين وسائر المعصومين ، وكل منهما روح من أمر الله وفعله ، لا صنع للموحى إليهم فيه ولا أمر ، اللهم إلّا تحضيرا مستطاعا لهم بتوفيق الله وجهودهم لكي يستأهلوا لنزولهما عليهم ووحيهما إليهم ، وحي التكوين : روح العصمة ، ووحي التشريع : روح الكتاب.

وقد يشملهما «كذلك» وكما في سائر القرآن ، فالروح القرآن وهو روح الأرواح كلها : ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (١٧ : ٨٥) وهي تشمل روح القدس أيضا ، ولكن الروح المنزّل هو القرآن : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (١٦ : ٢) اللهم إلا أن يعني التنزل التدريج الأرواح العدة التي تتنزل عليهم واحدا تلو الآخر ، أو يشملهما معا ، ثم الروح الملقى هو روح القدس ، وروح الكتاب النازل دفعة كالقرآن المحكم أم ماذا : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ (٤٠ : ١٥) فبالروح القدسي الرسالي يتم الإنذار ويطمّ في الجو الملتطم ، وبكتاب الوحي يبلغ الروح القدسي ، فلو لا عصمة القرآن لم يكف الروح القدس ، ولولاه لم تكف عصمة القرآن ، فالروحان متجاوبان متناصران في الدعوة الرسالية المتحللة عن أية أخطاء.

وكما أن من وحي القرآن إلى محمد «وحيا» دون حجاب أو رسول ، كذلك وحي الروح القدس إليه دون وسيط ، فقد يلقيه الله كذلك أو ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ حيث يشمل روح القدس.

وقد يختلف ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ عن «روح من أمرنا» ف «نا» حيث تلمح إلى جمعية الصفات تجمع ـ للموحى إليه في الروح الموحى ـ كتابا

وروحا قدسيا ، تجمع كافة الصفات والرحمات الإلهية ، عصمة فوق العصم ، وكتابا فوق الكتب ، كما العصمة المحمدية وكتابه يجمعان ما بالإمكان أن يوحى من الله.

ثم الرسول الحامل لوحي الكتاب هو جبريل ـ روح القدس (٢ : ٨٧ و ٢٥٣ و ٥ : ١١٠) والروح الأمين (٦ : ١٩٣) والحامل لوحي العصمة : ـ الروح القدسي الرسالي في وحيه الوسيط ـ قد يكون هو أو الروح الذي ليس من الملائكة وهو يرأسهم ، فهو يحمل هذه الروح القدسية إلى المعصومين ، أنبياء وسواهم ، ويتنزل مع الملائكة ليلة القدر من كل أمر ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ (٩٧ : ٣) كما ﴿يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ (٧٨ : ٣٨) و ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (٧٠ : ٤) ، ولكنما الروح القدس النازل على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو كمحكم القرآن نازلان عليه دون أي وسيط ، وحيا دون أي حجاب ، كما وأن قبض روحه (صلى الله عليه وآله وسلم) عند ارتحاله لم يكن بوسيط.

فهنالك أرواح أربع من الله إلى رسل الله ، روحان ينزلان وحيا : روح القدس وروح الكتاب ، وروحان ينزّلان وحيا : ـ ١ ـ جبريل ـ روح القدس : الروح الأمين ، وسيطا في وحي الكتاب ، ـ ٢ ـ والروح وسيطا في وحي الروح القدسي أم ماذا من أمر ، والرسول الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يتلقي وحي الروح القدسي دون أي وسيط ، كما قد يتلقى روح القرآن دون وسيط ، وقد يوحى إليه القرآن ـ كما في مفصله ـ بوسيط ، أو يلقى إليه ليلة القدر من كل أمر بواسطة الروح.

و ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ هنا تشمل الروحين ، وعلّ أظهرهما روح القرآن ، كما تلمح إليه «كذلك» وألمح منه ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾

فالروح القدسي ليس لزامه دراية الكتاب والايمان القرآني ، لأنه أعم ، وروح القرآن الموحى اليه لزامه الروح القدسي ، وقد يكون تفسير ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ هنا بروح العصمة تفسيرا باللازم او بمصداق خفي [1].

اللهم إلّا ان تعني دراية الكتاب والايمان دراية اجمالية عنهما كما يحق للقمة الرسالية ، ومن ثم تفصيل الكتاب ، فالروح القدسي بما يوحى اليه من محكم الكتاب يتقدم تفصيل الكتاب ، ف ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ يشملهما أولا الاول وثانيا الثاني ، وهما اللذان يتبنيان الرسالة القدسية المحمدية كسائر الرسالات على شتى مراتبها.

ام يعكس الأمر ف ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ تعني أولا الروح الرسالي لمكان «أوحينا» الضارب الى اعمق الماضي من زمن الرسالة ، فلا يعني إلّا هذا الروح السابق وحيه على وحي الكتاب محكما ومفصلا ، ام ووحي الكتاب محكما ليلة القدر بعد بداية البعثة قرابة خمسين ليلة.

ثم ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾ شاهد ثان أنه قبل هذا الوحي ما كان يدريهما ، ولو كان ـ فقط ـ روح القرآن المتأخر عن روح الرسالة فانه كان يدري ما الكتاب والايمان اجماليا قبل وحي القرآن ، كما دراهما ليلة القدر أكثر ، ثم درى تفصيلهما بنزول تفصيل القرآن ، إذا فهو روح الرسالة أولا ومن ثم روح القرآن.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٩ ح ١٣٩ في اصول الكافي باسناده عن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله تبارك وتعالى : وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ... قال : خلق من خلق الله عز وجل أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده وفي ح ١٤٠ باسناده الى أسباط بن سالم قال : سأله رجل من اهل هيت وانا حاضر عن الآية فقال : منذ انزل الله عز وجل الروح على محمد ما صعد الى السماء وانه لفينا وفي معناها روايات عدة وفي بعضها انه من الملكوت.

وقد يعتبر الروحان واحدا كما هنا ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ وفي الخبر «روح القدس فيه حمل النبوة [١] ولأنهما متلازمان كل يلازم زميله في حمل النبوة وتبنّي الرسالة.

وترى أن الرسول قبل هذا الوحي ما كان مؤمنا كما لم يكن يدري القرآن؟.

إنه كان مؤمنا منذ كان فطيما «ولقد قرن الله به من لدن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره» [٢].

ولكنما الإيمان درجات، ولأن «الكتاب» هنا القرآن أم وسواه «والإيمان» على ضوء وحي العصمة الرسالية والقرآن، فهو كبشر قبل الوحين ما كان يدري ما هذا الكتاب ولا ذلك الإيمان، على إيمانه العقائدي والعملي بما كان يسلكه الروح الأمين.

فما كان يدري هو من نفسه أو بأيّة دراسة وارتياض ما القرآن ولا الإيمان القرآني ﴿وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً ...﴾.

---

(١) سفينة البحار ١ : ٥٣٧ زع ١٩١ ير عن المفضل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال يا مفضل ان الله جعل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خمسة أرواح روح الحياة فبه دب ودرج وروح القوة فبه نهض وجاهد وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال وروح الايمان فبه امر وعدل وروح القدس فبه حمل النبوة.

(٢) نهج البلاغة عن الإمام علي (عليه السلام). راجع «شريعة محمد قبل الإسلام» في ج ٣٠ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ الفرقان.

وفي الدر المنثور اخرج ابو نعيم في الدلائل وابن عساكر عن علي قال : قيل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هل عبدت وثنا قط؟ قال : لا. قالوا : فهل شربت خمرا قط؟ قال : لا. وما زلت اعرف ان الذي هم عليه كفر وما كنت أدرى ما الكتاب ولا الايمان وبذلك نزل القرآن ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾.

أجل ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (٤ : ١١٣) ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١١ : ٤٩).

لقد كان مؤمنا نبيا أم سواه قبل رسالته ، وما كان يعلم الكتاب قرآنا وسواه : ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٩ : ٤٨) ما كان يتلوا ولا يخط بما أحال الله تعالى عليه قبل الوحي الرسالي ﴿إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فعدم القراءة والخط لهذه الغاية كمال حيث يتبني قوام الرسالة.

وما كان يدري ذلك الإيمان الحاصل بوحي الروحين ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ (١٢ : ٢).

فالإيمان هنا معرّف معروف حسب المقام أنه إيمان خاص ، بحاجة إلى تعريف الوحي ، كما علم الكتاب بحاجة إلى الوحي ، دون أن يملك الرسول قبل رسالته هذا العلم أو يدري هذا الإيمان!.

هنالك بالنسبة لإيمان الرسول قبل رسالته مفرط ومفرّط ، قولا أنه كان ضالا لم يؤمن ، وآخر أنه كان يعلم ما أوحي إليه قبل أن يوحى ، والحق المستفاد من القرآن عوان بين ذلك[١].

﴿وَلكِنْ جَعَلْناهُ﴾ ما كنت تدري ولكن أدريناك بما ﴿جَعَلْناهُ﴾ : روحا

---

(١) وإذ لم يكن الرسول ليعلم القرآن قبل وحيه فبأحرى لم يعلمه غيره ، فالروايات القائلة ان الإمام علي (عليه السلام) قرء سورة المؤمنون حين ولادته مزورة مقحمة تعني تفضيله على الرسول ، ونبوته قبل الرسول!.

من أمرنا والكتاب والإيمان ﴿نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا﴾ هداية الدلالة والإيصال إلى الهدى ، فخصوص الهداية الدلالة عام ، والهداية الإيصال خاص ب «من نشاء» وهم من يشاءون الهدى ويعملون لها ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً﴾ (٤٧ : ٧). ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فقط هداية الدلالة دون إيصال تكويني إلى الهدى [(١)].

وعلّ الهداية الأولى هي الهداية بوحي الروحين ، ثم الثانية هي العامة وأين هدى من هدى؟.

﴿صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (٥٣).

لله صراطان ، صراط الربوبية المختص بالله ﴿ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١١ : ٥٦) وصراط العبودية المختص بعباد الله ، حيث رسمه الله وخططه لعباده وجعل عليه الأدلاء اليه وأمرهم أن يدلوا العباد إليه ﴿أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

شرعة الرسول قبل الإسلام؟

ترى أن محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) كان نبيّا موحى إليه بشرعة تخصه قبل رسالته؟! أم كان يسترشد فيها بأعظم ملك من ملائكة

---

(١) تفسير البرهان ٤ : ١٣٣ ح ٩ بإسناد عن جابر الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل : ﴿وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا﴾ قال : ذاك علي بن أبي طالب. أقول : عله يعني روح القدس النازل على علي (عليه السلام) بعد الرسول ، كما القرآن يعلمه علي بعد الرسول فهو (عليه السلام) مزود بالروحيين دون وحي إلا في روح القدس الذي هو مع الأئمة يسددهم كما كان مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

الوحي دون أن يوحى إليه أم كان متعبدا بالشرعة المحكّمة زمنه : شريعة الناموس التوراة حسب الإنجيل؟ بيد التدليل ـ وحيا أم ماذا ـ على مواضع التحريف والتجديف ـ ٣ ـ؟ أم دون تدليل ـ ٤ ـ؟ أم كان على شرعة إبراهيم : ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ﴾ ـ ٥ ـ (٣ : ٦٨) رغم أنها نسخت بشرعة التوراة والإنجيل؟ فضلا عن شريعة نوح؟ أم لم يكن على أية شرعة وإنما على الفطرة الطاهرة التي فطره الله عليها ـ ٦ ـ ام كان ضالا عن كل هذه الشرائع ـ ٧ ـ : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى﴾ (٩٣ : ٧).

من المؤكد قرآنيا وفي السنة أن الله اصطفاه بين العالمين على العالمين أجمعين ، وفيهم ـ طول الأربعين ـ عباد الله المخلصون من اهل الكتاب الموحدين ، واصطفائه عليهم يتطلب ـ ولأقل تقدير ـ أنه كان مؤمنا كما هم ، وعاملا بالشرعة المحكمة زمنه كما هم ، ولكنما الاصطفاء يقتضي أنه كان بينهم اوّل المؤمنين والعابدين ، إضافة إلى تحضير رباني وتسديد دائب طول الأربعين ولكي يصلح للرسالة على العالمين أجمعين ، هذه الرسالة السامية القمة التي تربوا الرسالات كلها ربوة تطمّها وتتممها ، أفلا يقتضي ذلك لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) نبوءة قبل رسالته ، أم استرشادا بأعظم ملك من ملائكة الوحي يسلك به سبيل المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ، وإن لم يكن بوحي ، أم لا أقل من اتباعه شرعة التوراة الأصيلة على ضوء الإنجيل الأصيل ، تدليلا بوحي ام سواه في موارد التحريف أم ماذا.

ومهما يكن من شيء فهو كان أفضل المؤمنين العابدين على الإطلاق وإن كان «ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان» قرآنيا قبل نزوله ونزوح روح القدس عليه.

وقد يعني نبوته الشخصية قبل رسالته قوله «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» واقع النبوة منذ كان فطيما حتى رسالته ، ونبأ النبوة وآدم بين الماء والطين.

أم يعني نبوّته في وجوب تصديقه قبل بعثته طول التاريخ الرسالي للرسل والنبيين أجمعين : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٣ : ٨١)

سورة الزخرف مكيّة

وآياتها تسع وثمانون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ
الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ
أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٧) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ
مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
(١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي
خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ

الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)
وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ
بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧)
أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ
إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (١٩) وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما
لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ

مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)
وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا
عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٢٥)

﴿**حم**﴾ رابعة الحواميم السبع ، تبدأ بالكتاب المبين وكما في الدخان ، إلا أن هنا يجعل قرآنا عربيا ، وهناك ينزل في ليلة مباركة ، ثم لا إنزال للكتاب في سائر السبع إلا تنزيلا كما يسبقها أيضا تنزيل الزمر دون «حم» إذا ففي مفتتحات الحواميم تنزيلات ست للكتاب ، منها ما هنا : ﴿**إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا**﴾ ... تعني تفصيل الكتاب ، وإنزال واحد في الدخان يعني محكم الكتاب النازل ليلة القدر جملة واحدة.

أترى ما هو الكتاب المبين؟ إن له حسب القرآن مصاديق ثلاثة ، أعلاها أمّ الكتاب لدى الله ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ كما هنا و ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾[1] كما في الدخان أم ماذا .. وأدناها القرآن المفصل : ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ﴾ (٥ : ١٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٣٦ : ٦٩) وأوسطها القرآن المحكم النازل في ليلة مباركة على قلب الرسول محمد (ص) ﴿حم وَالْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾ (٤٤ : ٢) ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (٩٧ : ١).

فقد يعني الكتاب المبين هنا أم الكتاب فجعله قرآنا عربيا جعل ثان بعد إنزاله في ليلة القدر ، أو يعني النازل فيها فجعله جعل أول ، وقد يلوح من ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أنه الكتاب المبين الأوسط ، وهنا يلوح «حم» خطابا ل (احمد. محمد) قسما بالكتاب المبين الذي أنزلناه عليك في ليلة مباركة ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إذ لم يكن قبله بمحكمه النازل فيها لا قرآنا : يقرأ بألفاظ ، ولا عربيا : لائحا لغير الرسول (ص) ، ولقد كان قبل النزول الأول : المحكم ﴿فِي

---

(١). فان ضمير الغائب المفرد في «أنزلناه» راجع الى القرآن قبل الانزال لا بعده حيث الجمع بين حالتي النزول وقبله محال ، ف «ه» يعني ام الكتاب والله تعالى أنزله من عل الربوبية إلى دنو العبودية حتى تلقاه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بصورة محكمة ، ومن ثم نزل هذا المنزل آيات مفصلات لعلهم يعقلون.

وقد يحتمل ان الضمير راجع الى الحالة الحاضرة لدى الجميع وهو القرآن المفصل وان كان أنزل وأدنى من المنزل ليلة القدر ، فهناك حالة قبل الانزال في ام الكتاب ، وحالة الانزال في ليلة القدر وحالة التنزيل في الكتاب المفصل والحقيقة واحدة ، الا ان للكتاب الام فضله حيث الآخران من ولده ، فانه علم الله المحيط بكل شيء ، وللكتاب للمحكم فضله على المفصل بإحكامه وانه يشمل ما يختص بالرسول نفسه ، وهذا المختص بارز في الحروف المقطعة التي هي مفاتيح كنوز القرآن ، اضافة الى علم التأويل الخارج عن دلالة التنزيل ، فهنا اختصاصان للرسول من القرآن.

﴿أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ﴾ من أن تناله الأفهام حتى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) و «حكيم» لا يتخلل حتى للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)!. إذ لم يكن له سبيل إلى علم الله قبل وحيه اللهم إلا بوحيه بما أنزل عليه من علمه تعالى.

فقد أنزله الله مرة أولى في ليلة مباركة حتى وعاه الرسول محكما ، ثم جعله قرآنا عربيا إنزالا ثانيا تفصيلا : ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١١ : ١)

وترى ما هو الكتاب المبين الأم؟ وما هو الفرق بين الكتب الثلاث؟

للكتاب الأم مواصفات عدة في سائر القرآن تميّزه عن الآخرين على وحدة في الثلاثة.

إنه العلم المطلق بكل شيء : ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ (٦ : ٥٩) ومفاتح الغيب تشمل العلمين الإلهيين الذاتي والفعلي ، ثم يستعرض الثاني ﴿وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والكتاب المبين الثاني : القرآن المحكم ، ولا الثالث : القرآن المفصل ، لا يشملان العلم الفعلي كله فضلا عن الذاتي الذي هو عين ذاته تعالى فلا يحدث وينفصل عنه والفعلي حادث منفصل : ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ (١٠ : ٦١) هنا الآية تختص باستعراض العلم الفعلي الإلهي ككل ، وتختصها بالكتاب الأم : ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ (١١ : ٦) ﴿وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ

مُبِينٍ﴾ (٢٧ : ٧٥) ﴿.. عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ (٣٤ : ٣) ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ (١٣ : ٣٩).

وذلك الكتاب الأم المبين هو الإمام المبين : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ (٣٦ : ١٢) وهو من لوح محفوظ ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (٨٥ : ٣٣) ولوح محفوظ هو الكتاب الأم ، لائح لدى الله ، محفوظ عند الله ، والنازل منه ليلة القدر على لوح قلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المحفوظ بالعصمة الإلهية ، ثم المنزل طول البعثة لائح في صدور الحفاظ ، محفوظ عن التحريف ، وأخيرا في ألواح الأوراق أم ماذا ، لائح للقارئين محفوظ عن التحريف ، وكتاب مكنون : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ﴾ (٥٦ : ٧٨).

والكتاب النازل بمحكمه ومفصله كانا في الكتاب الأم ، فتولد المحكم من محكم الأم ، والمفصل من هذا المحكم ، كولد ثان لهذه الأم.

فأم الكتاب يعم ويطم كل علم ، فما من غائبة في السماء والأرض ولا رطب ولا يابس ، وما من قرآن ولا عمل ولا من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا اكبر إلا في كتاب مبين ، لا يعزب عنه علم شيء ولا أي شيء ، فهو العلم المطلق بكل شيء.

إذا ـ بطبيعة الحال ـ ليس الكتاب المبين الثاني : النازل ليلة القدر على قلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس هو النسخة الثانية عن الكتاب الأم ككل ، وإنما هو منه كما هو فيه ، وليس الشيء في نفسه وإنما هو فيما يحويه ، كما نطق به آياته.

ثم الكتاب المبين الثاني أم للثالث : القرآن المفصل ، فإنه آياته وليس الأم بتمامها ، اللهم إلا ما هو للناس والعالمين أجمعين ، اللهم إلا ما تعنيه

رموز القرآن ومفاتيح غيبه الخاص بمن أوحي إليه وأهليه وتأويله ، إذا فالقرآن المفصل هو هو الأم الثاني برموزه المنحصرة بالرسول المنحسرة عمن سوى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ثم المبين الثالث : هذا القرآن ليس إلا آيات الكتاب المبين : ﴿الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ (١٢ : ١) ﴿الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (١٥ : ١) ﴿طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ﴾ (٢٧ : ١).

فهذا الكتاب القرآن والقرآن الكتاب ليس إلا آيات للكتاب ، والقرآن الأم ، النازل في ليلة القدر ، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه ، إلا بيان ما يختص بالرسول من حروفه الرمزية وتأويله ، ثم هما : الأم الثاني بولدها ، ليسا هما الكتاب المبين الأول بتمامه ، حيث يجري علم الغيب كله دون عزوب أو غروب.

﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ ..﴾ دليل أن القرآن المحكم والمفصل واحد لا يختلفان إلا في الإحكام والتفصيل : ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١١ : ١).

ثم ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ دليل أن أم الكتاب الأولى ظرف للثانية بولدها ، فهي تحويهما وتحيط بهما ، دون تساو ، وإنما أنزل منه ونزّل ما يحتاجه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والعالمون أجمعون إلى يوم الدين ، فهو من العلم الرباني وليس العلم كله ، فهو من الغيب وليس الغيب كله.

والكتاب المبين الأوّل هو أولا مبين لرب العالمين لا عن جهل ، ومبين للنبي والعالمين على حدّهم ، ومبين كل شيء علما واقعا.

والمبين الثاني يخص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث لا سبيل لمن سواه إلى ما أوحي إليه ليلة القدر إلا ما بينه أو بينه القرآن المبين.

والمبين الثالث من طبعه أنه يبين دون خفاء في قصور دلالي ، وعلى من يستبين دقيق النظر وحديد البصر ليبلغ مدى بيانه ف ﴿هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣).

الكتاب المبين الأم الثاني فضلا عن الأول ، لم يكن قرآنا : يقرأ في آيات ، ولا عربيا : بيّنا يعرب عن حقيقته «للعالمين» ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولا يعني «عربيا» إلا واضحا لاخفاء فيه ، لا أنه باللغة العربية وان كان بها. إنه عربي في بعدين : باللغة العربية فإنها أعرب اللغات وأظهرها ، بلسان عربي في هذه اللغة حيث لا تعقيد فيه ولا ريب يعتريه ، وجملة القول في عربيته أنه يعرب عن حقائقه كأوضح ما يمكن في فصاحة التعبير وبلاغته ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ : تأخذون ما يعرب عنه دون قصور وخفاء فيما يعرب حيث لا يعزب عن دلالة ، ولا يغرب عن لمحة إلا وهو بيان له ، يعرب كأعرب بيان وأعذب تبيان.

ف «كم» في لعلكم ليسوا هم العرب فحسب ، حيث القرآن شرعة للعالمين وبيان للناس أجمعين ، بل هم العالمون أجمع شرط أن يعرفوا هذه اللغة ، أو يترجم لهم إلى لغتهم : ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٤١ : ٣) فرب عربي لا يعلمه ورب أعجمي يعلمه ، إن بلغته أم مفهومه أم ماذا.

إنه لسان عربي يعرب ، لا لغة عربية قد تعرب وقد تغرب ﴿وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦ : ١٠٣) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ. لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٢٦ : ١٩٥).

إنه لسان عربي كما أنه حكم عربي ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا﴾ (١٣ : ٣٧) دون أن يختص لسانه وحكمه بالإنسان العربي ، وإنما هو عبارة تعرب وحكم يعرب دون عوج في حكمه او خفاء في تعبيره : ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا

غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٣٩ : ٢٨).

أترى لو نزل القرآن بغير هذه اللغة ما كان يعقل أو يتقى ، فإنما يتقى ما يعقل ، ويعقل ويقبل الظاهر دلالة ، الموافق للعقل والفطرة والمصلحة مدلولا.

فكم من عبارة عربية لا تعقل فلا تقبل ، وكم من أعجمية تعقل فتقبل ، ولكنما القرآن جمع بين عربية اللغة وعربية اللسان وعربية البيان وعربية الحقائق التي يتقبلها العقل والفطرة ، ويصدقها الواقع ، فهو حكم عربي في كافة المجالات. و «لعلّ» هنا في موقف ترجّي العقل عن القرآن ، لا أن الله يترجى ، وإنما العالمون المكلفون بشرعة القرآن ، فمنهم من يعقله ومنهم من لا يعقله ، فالقرآن في نفسه بيان لا عوج فيه ، فيه رجاء عقلكم أن تأخذوا حقائقه ، لا إثبات في عقله مطلق ولا سلب عن عقله مطلق ، وإنما هو عوان ، يعقل لمن يعقله ويعقل عنه ، ولا يعقل لمن لا يعقله ولا يعقل عنه ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(٤).

الكتاب هنا كتاب العلم المحيط من تشريع وتكوين ، يحوي كتابات التشريع ومطلق التكوين ، والقرآن موقفه في أم الكتاب «علي حكيم».

و «لدينا» هنا تعني : انه لدينا . في أم الكتاب لدينا ، إنه في ميزان الله ، في أم الكتاب لدى الله «علي حكيم» ، «علي» على سائر الكتب السماوية وهي دونه ، كما هو علي عن أن تناله الأفهام قبل نزوله وحتى للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فكيف بمن دونه!.

«حكيم» من أن يتدخل فيه الأوهام ، حكيم من النسخ والتحريف ،

فكما الله علي لا ينال في علوه ، وحكيم لا يغتال ، كذلك قرآنه المبين ، فعلوه وحكمته لزام له لا يزول ، وإن كان كلّ درجات في مثلثة الحالات «لدى الله» «لدى رسول الله» «لدى خلق الله» ولكنما الأمر الثابت أنه عليّ يعلو كل عال ، حكيم لا يتطرق إليه أي إدغال ، ولا ينفذ إليه غيره في أي مجال على أية حال!.

القرآن هنا «علي» والله تعالى «علي» في آيات سبع ، وأين علي من علي! ، حيث القرآن قبس من أم الكتاب لدى الله ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

ثم القرآن هنا «حكيم» وفي آيات عدة : ﴿ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٣ : ٥٨)[١] والله حكيم في (٩٣) آية ، وأين حكيم من حكيم!

ولا يعني «علي» هنا عليا (عليه السلام) حيث الضمير في «إنه» راجع إلى ﴿الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ فالكتاب المبين في أم الكتاب لدى الله علي حكيم ، وإذا أوّلته إلى ضمير شأن ـ حيث يتطلب مبتدء وخبرا ـ لا تجد إلا خبرا موصوفا ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ بلا مبتدء! حيث المبتدء لا يبتدء بلام التأكيد ، ولا يعني رواية «على حكيم» إلا تطرفا جاهلا بعيدا عن أدب اللفظ والمعنى [٢] اللهم إلا تأويلا يعني النسخة الثانية من الحكمة المحمدية تمثلا في الإمام علي (عليه السلام) وتداوما في الأئمة من أهل بيته

---

(١). كما في ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ﴾ (١٠ : ١) (٣١ : ٢) ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (٣٦ : ٢).

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٩٢ في كتاب معاني الاخبار باسناده متصل عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال : هو امير المؤمنين ومعرفته والدليل على انه امير المؤمنين قوله عز وجل : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ وهو امير المؤمنين (عليه السلام) في ام الكتاب في قوله ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؟!.

الطاهرين كما يلوح من الرواية نفسها.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ (٥).

هذا ذكر مبارك أنزل قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، رحمة عالية غالية لعلكم ترشدون ، فإن عقلتم فأنتم مهتدون ، وإن أسرفتم في الجهالة والتجاهل فحقّ عليكم عذاب الله أن يضرب عنكم الذكر صفحا ، إعراضا عنكم بنعمته واستعراضا لكم بنقمته ، وإنه لتهديد مخيف أن يلوح لهم بعد ذلك بالإهمال من حسابه ورعايته جزاء إسرافهم القبيح.

إن ربكم يحدثكم في هذا الذكر بلسانكم كما يتفهمه كل إنسان ، لسان الناس دون تكلف ف ﴿هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ﴾ فهل إذا تحولتم من الناس إلى النسناس ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ [1] الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾؟

فلو أن ضرب الذكر صفحا كان عنكم المسرفين برفعه أو محوه فما ذنب غير المسرفين؟ أو أن ضربه عنكم فقط أن يجعل بينه وبينكم حجابا مستورا ، فانقطاع لحجة دائبة عليكم من رب العالمين ، فليكن الذكر أمامكم وبين أيديكم تعيشونه بأسماعكم وأبصاركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتتقون شفاء ورحمة للمؤمنين ، أم نكالا وخسارا للظالمين :

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٧) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾(٨).

«الأولين» هنا تعني من قبل الآخرين المسلمين كما ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٥ : ١٠) ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ. قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ﴾ (٥٦ : ٣٩).

٤٩)﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٧ : ٧١) ، وإن كانت تعني أحيانا من قبلكم وقبل الأوسطين : ﴿قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٦ : ٢٦) فحين تعني الأولين أولية الرسالة والمرسل إليهم فالآخرون هم المسلمون ، لمحة لطيفة إلى أن الرسالات كلها تقدمات وتهيئات لهذه الرسالة الأخيرة السامية ، لا شأن لها إلا أوليتها وأنها تعبّد طريق هذه الأخيرة.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ﴾ رسالة تترى دونما انقطاع ﴿فِي الْأَوَّلِينَ﴾ : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٣ : ٤٤) سنة دائبة في تواتر الرسالات رغم تواتر التكذيبات دون أن يضرب عنهم الذكر صفحا أن كانوا مسرفين!

﴿ما يَأْتِيهِمْ﴾ هؤلاء المناكيد الأوغاد ﴿مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ وهم أولاء المترفون : ﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ (٣٤ : ٣٤) ومن ثم المستضعفون ، والرسالات الإلهية تحارب المستكبرين وتؤوي المستضعفين :

﴿فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً﴾ أشد منهم بينهم [1] وأشد منكم ﴿وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ مضيا في واقعه حيث الهلاك الواقع ، ومضيا في إنباءه حيث الإنباءات الماضية منذ بزوغ وحي القرآن ، ومضيا في إمضاءه ككل إنباء لكم ، حيث الإنباءات تترى طول نزول القرآن ، ومضيا في تحقيقه بينكم : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾ (٨٤ : ١٩) سنن من كان قبلكم حذوا النعل بالنعل والقذة بالقذة.

---

(١) ف «هم» يعنيهما ، أشد منهم بينهم وأشد من هؤلاء الموجودين زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً﴾ : حملة على الرسل والرسالات ، وحملة على الأفراد والجماعات ، هؤلاء الأشداء أهلكوا بالطاغية.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(٩)

هنالك خطوات ثلاث إلى الله ، أولاها أن هناك مخلوقا أو ان العالم كلّه مخلوق ، وثانيتها أن الخالق عزيز عليم ، وثالثتها انه هو الله.

الخطوة الأولى بيّنة مبرهنة نعيشها ليل نهار ، ولا أقل من أنفسنا حيث نخلق تلو بعض ومع بعض ، فلا ناكر أن هناك مخلوقا بين المختلفين في الله من ماديين ومشركين أم من ذا؟.

فهنا يأتي دور الخطوة الثانية «من خلق»؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾ (٥٢ : ٣٦) فالخالق لهم ولما سواهم غيرهم ، فهل يعلم الخالق أم يجهل؟ ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (٦٧ : ١٤) فاللطافة الدقة والخبرة الحكمة باهرتان في الخلق كله :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ فالعزة : القدرة الغالبة ، والعلم المطلق : اللطافة والخبرة ، نلمسها كلها في هذا الخلق العظيم ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٦٧ : ٤).

فلو أن الحكمة والإتقان في هذا الصنع البارع البديع دليل الجهل والعجز ، أم لا يدل على علم وقدرة ، فما هي آثار العلم والقدرة أم ليست لهما آثار؟.

إن القدرة الغالبة غير المغلوبة والعلم النافذ هما لزام هذا الخلق العظيم؟ فلو لا العزة لم تكن قدرة لخلق فضلا عن هذا الخلق القويم ،

ولو لا العلم لم تكن حكمة ونظام في هذا الخلق الحكيم ، ولو لا هما فلا هما فلا خلق فضلا عن هذا الخلق القويم الحكيم ، وآيات العزة والعلم والخبرة واللطف والحكمة نقرءها ليل نهار في هذا الخلق العظيم.

فسواء أكان هذا السؤال عن المشركين المقرين بالله ذي العرش ، أم عن الماديين الناكرين الله ، حيث الخلق وإتقانه دليل لا مرد له على خالق أتقنه ، فالفطرة تجيب : ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ والعقل يجيب والعلم ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وحتى المجانين يعرفون أن العزة والعلم هما لزام الخلق وأي صنع.

كلّ من له أدنى شعور لا ينسب هذا الخلق ـ بما فيه هذه العقول البارعة ـ إلى مادة غير ذات شعور ، فلو أن العجز والجهل يأتيان بما لا يقدر عليه فطاحل العلماء ونوابغ المخترعين ، فلنحاول في تحصيل العجز والجهل أم لا نحاول في تحصيل العلم والقدرة ، بغية أن نقدر على ما تقدر عليه المادة العاجزة الجاهلة! فليكن الخالق أيا كان أعز وأعلم من كل ما خلق وهو ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

ثم يأتي دور الخطوة الثالثة ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[(١)] يقوله المشركون المعترفون بالله ، وليقله الماديون الناكرون الله.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠).

إن جعل الأرض مهدا بعد ما كانت شموسا محكومة بحراكات

---

(١) كنص الآية نفسها في ٢٩ : ٢٥ و ٣٨ واضافة «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» (٢٩ : ٦١) «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها ..» (٢٩ : ٦٣) «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ..» (٤٣ : ٨٧).
فهذه الآيات الست في سورتي الزخرف والعنكبوت.

مضطربة ، وجعل سبل لنا فيها بغية اهتداءنا الى منافعنا ، هما من مظاهر العزة والعلم لخالق السماوات والأرض.

فكما الطفل يربّى في المهد ثم يمشّى في سبل الحياة ، كذلك يتربى الإنسان في مهد الأرض ويمشي في سبلها إلى منتفعات الحياة ، سواء أكانت الحياة الأرضية المادية لصالح الجسم ، أم حياتا معنوية سماوية هي معرفة الله ، فالسبل المجعولة لكم فيها ليست هي السبل الأرضية فحسب ، بل وسبل الإنسانية كلها بما كوّن فيها او شرع ، فمن شرعة التكوين تهتدون إلى المكوّن وإلى حياتكم الأرضية ، ومن شرعة التشريع تهتدون إلى مشاريع الإنسانية ، وهي حجر الأساس في تبنّي الإنسان كإنسان.

فهناك مثلث من السبل المجعولة في الأرض يعيشها كل إنسان وكل جيل حسب مستطاعه وعلى ضوء محاولاته الدائبة : سبل المعرفة الإلهية بما أودع في الأرض من بدايع العزة والعلم ، وسبل الحياة برّا وبحرا وجوّا ، وسبل التشاريع الإلهية ، عبر الرسالات ، والإنسان يعيش هذه السبل ويهتدي بها إلى معارج الكمال.

فالأرض بسبلها تكوينية وتشريعية مهد للطفولة الإنسانية حتى تبلغ بالإنسان الى رجولات ورجولات ، حسب مختلف الإمكانيات والإدراكات.

فالأرض مهد بحراكها الذلول بعد أن كانت شموسا ، ومهد بحراكها المختلفة المولدة للفصول ، ومهد بحراكها التطورية في مختلف الحقول ، ومهد متمهد لترقية الناشئة إلى آماد وقمم من الكمال الإنساني ..

﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ ترى أن «كم» هنا تعني الموجودين زمن الخطاب : ام ومن يتلو هم إلى يوم القيامة؟ أم بني الإنسان أيا كانوا وأيان؟ أم كل عاقل ممن سبقنا من إنسان كما نحن؟.

طبعا ليس مهاد الأرض جديدا يخصنا ، فإنه يعم ويطم كل من يحتاج إلى مهاد الأرض من إنسان أمن ذا ، وعلى هامشه سائر النبات والحيوان! فمهاد الأرض ومهدها وذلولها وكل ممهدات الحياة الأرضية هي مجعولة بعزة الله وعلمه لمحاويجها من إنسان وغير إنسان ، مهما كانوا هم في درجات.

فالأرض مهد كما هنا وفي طه (٥٣) ومهاد كما في النبإ (٧٨) وذلول كما في الملك (٦٧) وراجفة (٧٩ : ٦) وقرار (٤٠ : ٦٤) وكفات (٧٧ : ٢٥) تسبح كسابحات أخرى في يمّ الفضاء الملتطم (٢١ : ٣٣) أما ذات من دلالات على حركاتها التي هي من مخلّفات عزته تعالى وعلمه بحكمته ورحمته ، تعبيرات سبع عن حركات عدة في مربع من كونها وكيانها : قبل الحياة عليها ، وزمنها وعند موتها وفي قيامتها.

ومن سبل الحياة الأرضية في الحقل المادي نزول ماء السماء عليها بقدر :

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(١١).

إن ماء الأرض كله نازل من السماء بقدر ، لا يزيد فيغرق ، ولا يقل فتجف الأرض ، وإنما بقدر يقدّره علم الله وينزله بعزته وحكمته ، فالأرض قبل نازل السماء كانت ميتا ، ﴿وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ (٢ : ١٦٤) ولو لا ماء السماء لظلت الأرض ميتا دونما حيات وإنبات : ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ﴾ (٢٣ : ١٨) وإنما نبات كل شيء نابت بماء السماء المقدر للأرض : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٦ : ٩٩) فللأرض ماء من السماء يخصها ﴿وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي﴾ (١١ : ٤٤) وليس «ماءك» إلا النازل من السماء

بقدر! فماء السماء النازل على الأرض بقدر دليل على مدبر عزيز عليم ، وإنشاءه بلدة ميتا آية له لإخراج ميت البلاد يوم المعاد : ﴿كَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ رحمة ذات دلالتين لسبل الاهتداء ، على المبدء والمعاد.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١٤).

الأزواج كلها حسب القرآن والواقع الكوني هي الخلق كله ، فما من خلق إلا وهو زوج ولا زوج إلا وهو مخلوق ، فلا فرد حقيقيا إلا الله سبحانه وتعالى عما يشركون.

أجل إن الزوجية التركّب وإن من جزئين فيزيائيين أم هندسيين ، إنها قاعدة الكون المخلوق وصيغته الشاملة «كل شيء» : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥١ : ٤٩) ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦ : ٣٦) فلا تخص الأزواج والزوجان. إذا. الذكر والأنثى ، وشحنتي السلب والإيجاب أم ماذا ، مما عرفه الإنسان حتى الآن أم سوف يعرفه ، حيث الزوجية ضاربة إلى اعماق الكيان المادي أيا كان ، وإن في كل شحنة وأجزائها ما دامت مادة ، وزوال الزوجية ككلّ هو زوال الكيان المادي فالانعدام المطلق ، كما أن الوجود المادي. وكل موجود سوى الله مادي. هو الوجود التركيبي الزوجي مما يعلمون ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾!.

وخلق الأزواج بنفسه دليل على عدم الزوجية في خالقها ، كما الزوجية بنفسها دليل حدوثها بعزيز عليم.

﴿خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ﴾

تركبونه كالأنعام ، أو فيه كالفلك وأضرابها ، و «من» هنا تلميحة أن ما تركبون لا يخص الفلك والأنعام : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦ : ٨) من سفن تحت البحرية او طائرات وصواريخ أو سيارات أما هيه.

﴿لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ﴾ : ظهور ما تركبون ، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ حيث سخرها لكم بما خلقها ، أو رزقكم من عقول بما تصنعون مما تركبون ﴿وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ : ضابطين ، يصبح لنا قرنا نركبه ، أو تقرن أسباب اصطناعه فنصطنعه ، إلا بفضل من الله ورحمة ﴿وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ : انقلابا من النكران به إلى الإيمان ، ومن الخلق إلى الخالق فرارا : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥١ : ٥٠).

آية الانقلاب تجعله في نطاق الركوب وطبعا في السفر طال أم قصر ، والعبد دائم الانقلاب إلى ربه ، ﴿كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (٨٤ : ٦) ولكنما السفر لابتعاده عن الموطن المألوف أم أي مسكن ، يتطلب انقلابا إلى الرب أكثر قضية اضطراب هنالك أكثر ، ولتقل في السفر حين تركب ضمن ما تقول : «اللهم أنت الحامل على الظهر والمستعان على الأمر ، اللهم بلغنا بلاغا يبلغ إلى خير ، بلاغا إلى مغفرتك ورضوانك ، اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا حافظ غيرك» [١].

إن الأدب الإسلامي هنا وثيق الصلة بتربية الروح الإنساني ، أنه ليس

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٩٣ ح ١٢ القمي عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال : إذا استويت على راحلتك واستوى بك محملك فقل : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ومنّ علينا بمحمد (ص) ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ والحمد لله رب العالمين اللهم ...

قولة فاضية ، وانما فائضة على القلب ، نابضة منه ، لا مجرد طقوس لفظية عابرة ، وإنما استحياء للمشاعر واستجاشة للضمائر ، ولكي يرى الإنسان حياته كلها مربوطة بفضل الله ورحمته ، فيصبح دائب الانقلاب إلى الله ، فرارا دون قرار ولا ارتجاع إلى دار الفرار.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾(١٥).

رغم أن خالق الأزواج والزوجين ليس من الأزواج والزوجين ، حيث الزوجية آية الفقر ، ومن المستحيل أن الفقير الذات يخلق الفقير الذات .. رغم كل ذلك ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً﴾ ولدا تجزئوه انفصالا عن ذاته المقدسة من ملك او إنس وجان ، ام جزء من الإنسان (روحه) جزء من روحه ، وقد يخرصون له بكلامه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (١٥ : ٢٩) رغم أن ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (١٧ : ٨٥) لا من ذاته!

فقد جعلوا المسيح ابن الله بولادة إلهية ، والملائكة بنات الله ، والجن أبناء الله :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٦ : ١٠٠).

وذلك الجزء المخروق من ذاته سبحانه لا بد وأن يكون مثل ذاته سبحانه ، فكيف أصبح مخلوقا كما يقو لون وهو خالقه؟ .. ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ نعمة العقل والوجدان ، فيكفر بربه كفرا وكفرانا مبينا.

وترى الجزء المجعول له من عباده هم فقط الذين ولدهم على زعمهم ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؟ وقد جعلوا!

أم تجزئوا عباده فجزء له وجزء لآلهة أخرى؟ والجزءان عباده كما هم معترفون! وقد جعلوا!

أم تجزئوا الخلق ، والتدبير لعباده ، فله خلقهم ولآلهة أخرى تدبيرهم؟ .. وقد جعلوا!

والآية تتحمل هذه الثلاث لفظيا معنويا مهما عنت «له» الجزء الذاتي المتجزئ من ذاته كالأول ، أو الجزء العبادي ففريق يعبدونه وآخرون يعبدون آلهة أخرى هم من ولده أمّن ذا؟ كالثاني ، أو الجزء في كيان العباد خلقا وتدبيرا ، فجزء الخلق له وجزء التدبير لآلهة أخرى!. كما وأن «من عباده» تعني في الأول بعض العباد وهم الذين ولدهم في زعمهم ، وفي الثاني فريق له يعبدونه وفريق لسواه يعبدون سواه ، وفي الثالث قسم من كيانهم له وقسم آخر لآخر!.

ولأن الجزء في أصله من الكل ، فهو قسم من ذات واحدة أو من ذوات ، فالمعنى الثاني يصبح في القوة ثالث الاحتمالات ، كما الأول أول حيث الأظهر من الجزء هو من شخص لا أشخاص كالثاني ولكنما الجزء في إطلاق عام يعم الثلاثة.

وبصيغة أخرى و «جعلوا» تشمل جعل الولادة أم البنوة التشريفية أو الإعتقاد في جوانب أخرى من الألوهية لغير الله و «له» : لذاته ـ لخالقيته ـ لتدبيره ـ أم لهما ـ «من عباده» من ذواتهم ككل ، أم بعضا كالروح ، أم شان المعبودية ، أو الخالقية أو التدبير ـ فتشمل الآية من جعل لله ولدا بولادة ذاتية بعضا كالروح أو روح المسيح ، أو كلّا كالمسيح عند جماعة ، أن الله تنزّل من لاهوت الألوهية إلى رحم مريم فتحول مسيحا ولم يبق منه شيء ، أم بولادة تشريفية ، ومن جعل لله شريكا في عبادة أو خلق أو تدبير ، فمن الناس من يقول أنه الخالق المدبر وحده وله شركاء في العبادة ، ومنهم من يقول أنه الخالق لأول الخليقة ثم هو الخالق لسائر الخلق مستقلا أو كوسيلة لله ، ومنهم من يقول أنه الخالق والمدبر غيره ،

ومنهم من يقتسم الخلق والتدبير بينه وبين خلقه ومنهم .. فكل هذه الخرافات وأشباهها داخلة في تنديد الآية!.

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾(١٦).

«أم» هنا تعطف إلى محذوف من قبيل المعطوف ك «أتخذ جزء له عبدا لنفسه فهو إذا يعبد نفسه في حين يعبد؟ أو اتخذ عبدا له مخلوقا لنفسه ولدا تشريفا له؟ وشرافة في عبوديته ، «أم» إذا اتخذ لنفسه ولدا مما يخلق ، قسم قسمة ضيزى ف ﴿اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ﴾ لنفسه «واصطفاكم» واختاركم على نفسه «بالبنين»؟ .. أفهل إيثارا لكم عليه وليس الإيثار إلا خصاصة وليست لله خصاصة ، ثم ولا إيثار إلّا تفضيلا ولا تفضيل على الله ، وهل يفضّل الله على نفسه ـ لو صح تفضيله ـ من يشرك به إهانة ومهانة لساحته؟ ومن ثم لو صح التبنّي فليجعل خلقه جميعا ولده من بنين وبنات ، دون أن يقتسم تلك القسمة الضيزى الجاهلة المجنونة ، العاجزة الملعونة.

إن البنات أضعف من البنين حيث الأنثى تنشأ في الحلية فهي في الخصام غير مبين حيث لا تسطع حد الخصام ، وهذا واقع من البون بين البنات والبنين.

ثم في زعمهم البنات عار تظل وجوههم مسودة إذا بشروا بالأنثى ، وهم على هذين النقصين الواقعي والخيالي يهرفون أن الله اتخذ مما يخلق بنات وأصفاهم بالبنين!.

﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٧).

يسودّ وجهه من الغضب والاختجال وهو كظيم غيظه لا يظهر حتى

يدسها في التراب! ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ (١٦ : ٥٨)

وإنما ﴿بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً﴾ هنا بدلا عن «الأنثى» كما في سواها؟ لأنهما في سواها بناتهم حيث بهن يبشرون ، وهنا لسن بنات الله ، وإنما ﴿بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً﴾ ضربا للرحمن باطلا ، مثلا : آية تمثّل ، والولد آية لوالده يمثّله ، وهم يمثلون في مثلهم الرحمن بمظهر الأنوثة.

﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾(١٨).

هنا الواو في ﴿أَوَمَنْ﴾ تطوي عن ذكر سائر المفارقات بين البنين والبنات إلى ذكر رعونتهن وعدم رجولتهن ، وهم يهتمون في الأولاد بالبطولات التي ليست إلا للأبناء.

أترى لو أن الله اتخذ لنفسه مما يخلق ولدا فكيف لم يصطف لنفسه الأفضل : البنين ، وهو الخالق للبنات والبنين ، أو لم يسو بينه وبينهم أن يجعل لنفسه بنين وبنات كما جعل لهم!؟

هنا يذكر من المفارقات بين البنين والبنات إيجابية واحدة : «ينشأ في الحلية» حيث تتربى في الزينة والرعونة والليونة وهي خلاف البطولة ثم سلبية واحدة : ﴿وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ لا في خصام الصراع بدنيا فإنها أضعف من الذكر ، ولا الصراع عقليا وفي المناظرة ، فإن عقليتها في الأغلب أضعف ، ولا في أي خصام وعراك يبين وإن بان بين المخاصمين!.

والقوة العقلية والبدنية لقبيل الذكور بالنسبة للإناث في الأغلبية الساحقة مما لا تكاد تنكر ، وإن كان في كل ذلك مصلحة جماعية في حقل

الزوجية وسائر الحقول ، إلا أن ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ لنفس المصلحة.

أفمن اللياقة والأدب الإنساني لمن يعترفون بالله الخالق للبنات والبنين أن ينسبوا إلى الله من هم يستاءون إذا بشروا به ، ويتميزون غيظا يكظمونه ، إجلالا عن التصريح بما يكتمونه؟ فهم ـ على سنتهم السيئة ـ يرفضون البنات دسا في التراب ويستحيون البنين ، ثم هم أولاء يجعلون لله ما يدسون ، دسا لحرمة رب العالمين ودوسا لكرامته ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

ثم وهم في تهتّكهم لساحة الربوبية في هذه النسبة الجاهلة يهتكون الملائكة أيضا ولأنهم من عمال رب العالمين إذ يجعلونهم بناته :

﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾(١٩).

وكيف يجعلون الملائكة وهم عباد الرحمن المكرمون إناثا يهانون؟ وعبوديتهم لله تجعلهم من المكرمين عند خلقه ، أم وفي ظنكم في بنوّة تشريفية تشرّفهم بهذه الكرامة ، فليجعلوا ـ إذا ـ بنين لا بنات! ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ حين خلقهم أم بعد حين؟ و ﴿ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ (١٨ : ٥١) فكيف بشهادة من خلقوا قبلهم! ﴿سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ﴾ الكاذبة هذه إذ كانوا مدعين ﴿وَيُسْئَلُونَ﴾ عنها!

ومن هنا يعلم أن الشهادة بما لا تعلم تحمل مسئولية كبرى أمام الله ، ولا سيما في التي تكذبها العقول ، ولا تصدّق في أيّ من الحقول أن الملائكة بنات الله!

فالملائكة لا بنات لله ولا أبناءه ، وهم لا ذكور ولا إناث ، خارجون عن القسمين إلى ثالث ، فالذكورة بآلتها وحالتها تقتضي إناثا كما الأنوثة

بآلتها وحالتها تقتضي ذكورا ، ولا تناسل بين الملائكة ولا تزاوج حتى تكون فيهم ذكورة وأنوثة!

وكتابة هذه الشهادة الكاذبة قوليا في قولة البنوة الكاذبة ، وفعليا في عبادة بنات الله الملائكة ، واعتقاديا : ﴿لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾ مثلث الشهادة هذه ﴿سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾ عنها سؤال توبيخ لا استعلام.

ولماذا «ستكتب» والله كاتب الشهادات وكافة الأقوال والأعمال والأحوال في مثلث الزمان دون مستقبله اللامح من «ستكتب»؟

عله مستقبل استمراري أن هذه الكتابة تلحق الشهادة أماهيه ، دوما دون ترك أو فتور ، فكتابة الأعمال هي بعد تحققها لزاما لصاقا ، كما جزاء الأعمال هي بعدهما جزاء وفاقا.

إنهم عباد الرحمن حيث خلقهم لا ولده ، ولو كانوا من ولده فليكونوا من أبناءه إكراما لهم إذ هم عباده الخصوص ، لا من بناته.

ثم ومن فضيح فعلتهم أنهم يعبدون الملائكة على قولتهم أنهم بنات الله ، وكيف يعبدون من يترذلونهم عندهم ، ثم هم ينسبون فعلتهم الرذيلة هذه إلى الرحمن؟!

﴿وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾.

كفر مربع لهؤلاء المناكيد الأوغاد : ١ ـ إثبات الولد لله سبحانه. ٢ ـ أنه بنت ٣ ـ الملائكة بنات الله ٤ ـ هم يعبدونهم بمشيئة الله : ﴿لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾!

هؤلاء بعد ثالوث كفرهم يحاولون التهرّب حين يحاصرهم الحجج ، وتتهافت بين أيديهم الأسطورة فيحيلون عبادتهم لهم على مشيئة الله ، لو

شاء الرحمن ألّا نعبدهم ما عبدناهم ، أن يمنعنا من عبادتهم تسييرا! وهذه قولة المجبرين ، ولكنهم يتقولونها جاهلين ﴿ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ لا علم بمرضاة الله ومشيئته في عبادتهم ، ولا علم بمشيئة الله أنها لا تختص بالتكوينية ، ولله مشيئتان تكوينية وتشريعية ، والثانية كائنة في توحيد الله عبر الرسالات ، والأولى لا تمنع الإختيار ، وهل يشاء الله ما منعته شرعته وتمنعه العقول أن يشرك به ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ : يكذبون بما لا يعلمون ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ﴾ (٥١ : ١١) خرص عن جهل في ذلك التهتك المائر لساحة الربوبية.

وأية مشية من الرحمن تبرر فعلتهم هذه ، لا تثبت إلا بوحي وكتاب أم حجة قاطعة من العقل ، ولا حجة لهم في خرصهم إلا سنة الآباء على أمة الشرك :

﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ. بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾(٢١).

«أم» هنا تعطف إلى محذوف على هذا المعطوف كمثله أو هو أدنى ، لا حاجة إلى ذكره. ك «هل تدلهم عقولهم على ما يدعون»؟ «أم أوحي إليهم ما يخرصون»؟ ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾؟ فلا وحي العقل يثبت ما يتقولون ، ولا وحي خالق العقل بوسيط أم دون وسيط ، فلا حجة لهم فيما يخرصون ﴿بَلْ قالُوا ...﴾.

انحسرت حجتهم عما يصح ، وانحصرت فيما لا يصح ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾! ومن الأمة الطريقة والسنة المستمرة التي تقصد وآباءنا القدامى كانوا على هذه السنة وإنا على آثارهم مهتدون إلى الحق.

ولكن إذ تنتقل هذه الحجج البالغة إلى آباءهم ، فهل عندهم من

إجابة كهذه؟ فتسلسلا إلى بداية أم غير بداية! أم عندهم إجابات من عقلية أو وحي وكتاب فما هي؟

فمجرد أن الآباء كانوا على أمة ، لا يبرر تقليد الأبناء لهم دون دليل ، وإنما الإنسان العاقل ابن البرهان أيا كان ومن أيّ كان ، مهما كان ابن أبيه في الولادة البدنية.

إن الآباء كالأبناء هم كانوا يوما أبناء ، فلأي مبرّر يقلّدون إذا ، ألكونهم فقط آباء ، فهل ولدوا إلّا الأبناء؟ أم ولدوا مع الأبناء حججا تقنع الأبناء .كذلك! :

﴿وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (٢٣).

ثم هب إن آباء من هذا القبيل كانوا على أمة الشرك فأنتم على آثارهم مقتدون ، فما لكم لا تقتدون بآباء موحدين إبراهيميين وهو الأب الأكبر لكم الأميين ، وأمته أمة التوحيد ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾!

المترفون المنعمون في كل قرية كانت حجتهم الأولى والأخيرة ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا ..﴾ حلقات موصولة بعضها ببعض ، تحلّق حجتهم الداحضة عليهم عبر الفكرة المشركة بالله في الطول التاريخي والعرض الجغرافي.

ومع التنازل عن بطلان هكذا تقليد أعمى ، واحتمال أنه حق أم تأكدا من حقه وهداه ، فعلى فرض المستحيل في زعمكم أنّ هناك هدى أهدى من هداكم ، فهل تقبلون هدى التوحيد؟ :

﴿قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾(٢٤).

«قال» داعية التوحيد : النذير في كل قرية كلمة واحدة موحّدة ﴿أَوَلَوْ

جِئْتُكُمْ ..﴾ لو أنكم تفتشون عن هدى ولذلك ترونكم ﴿عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ . ﴿لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ﴾ . لو كانوا على هدى . فهل أنتم تستمرون فيما أنتم عليه؟ «قالوا» كلمة واحدة موحدة في شركهم ﴿إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ ولو جئتمونا بأهدى مما وجدنا عليه آباءنا!

ويا لها من حجة بارعة أمام هؤلاء الحماقى أنها على فرض إحالة حجة أهدى من حججهم ﴿أَوَلَوْ﴾ تجتث جذور كافة الحجج عن أعماقهم حيث «قالوا» على افتراض أن تأتيهم حجة أهدى من أمة آبائهم ﴿إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾!

والإنسان العاقل حتى وذو جنة وحتى الحيوان لا ينفي أمرا أو يثبته فيثبت عليه إلا ببرهان ، وأما أن يثبت على تقليد أعمى ﴿إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ رغم توفر البراهين وتواترها بدحضه وإبطاله ، فهو أضل سبيلا من الأنعام ، أم ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ (٢٧ : ١٤) كأئمة الضلال ، أو حمقا في عمقهم في تقليد أعمى كالمستضعفين المتنازلين عن عقولهم ، عن فطرهم وفكرهم في كل حقولهم!

﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٢٥).

«فانتقمنا» في صيغة التعبير يخيّل للبسطاء أنه انتقام كما عندنا ، نتيجة الغضب وتهدّر الأعصاب ، وليس لله غضب كما لنا ولا أعصاب ، فإنما يعني عذبناهم بما كفروا كنتيجة عادلة لكفرهم بما يظهر في ملكوت الواقع ، هنا يسيرا ، وفي الأخرى كثيرا ، وبينهما في البرزخ عوان ، ف ﴿إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ و «بما» في أخرى تعنى «ما» كما هنا ، تعبيران عن حقيقة واحدة ونمط واحد من واقع العذاب ، فالعذاب هو العمل بما عمل نتيجة الإختيار لعامل العذاب.

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ (٣٠) وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها

يَتَّكِؤُنَ (٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)
وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ
الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ
الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ
(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ
إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَسْئَلْ مَنْ
أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً

يُعْبَدُونَ﴾(٤٥)

﴿**وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**﴾(٢٦).

اذكروا أنتم المهتدون على آثار آباءكم المشركين تقليدا أعمى ، اذكروا من زوايا التاريخ الرسالي بطولات الموحدين ورجولاتهم ضد الآباء المشركين «و» اذكروا من بين هؤلاء الأكارم «إبراهيم» وقد تربى في جوّ الشرك على يدي أبيه آزر ﴿**إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**﴾ عصيانا جريئا على جو الشرك رغم أنه تربى فيه ، حيث يحاج أباه : عمه أو جده لأمه ـ حجاجا بالتي هي أحسن فيتغلب عليه! وأنتم دون حجاج مع آباءكم على آثارهم تهتدون! رغم تواتر الحجج ضد أمتهم الشركية؟!

وهب إن تقليد الآباء جائز أو يجب ، أفليس إبراهيم أكرم الآباء في العرب فلتقلدوه في ترك تقليد الآباء ، ثم تقلدوه في أمة التوحيد واتباع الحجة على المحجة التي بها تهتدون!

ثم هب إن لتقليد الآباء مبررا لأنهم آباء يحترمون ، فهل الآباء القدامى أقرب إليكم فأوجب حرمة وأقرب وطئة إن تركتموهم؟ أم الأب الحاضر دون فصل حيث يربيك ويحملك على ما يريد؟ وإبراهيم مسيطر عليه بأب مشرك يصنع الأصنام ، ويهدده في ترك الأصنام ، ولكنه يرفض باطل التقليد ولا يخاف ضغط المربي ، ويتفجر في وجهه بجدال بالتي هي أحسن سلبا للآلهة وإيجابا لله.

أم إن للقدمة حرمتها ، فالقدامي يحترمون لأنهم قدامي أكثر من الجدد ، ولماذا؟ أو لم يكن القدامى قبل ردح من الجدد ، أم لا يكون الجدد

بعد ردح قدامي ، ثم ومن أكارم القدامى إبراهيم أبو العرب فليحترم ـ على أقل تقدير ـ لقدمته إضافة إلى حجته!

هنالك تقليد مطلق أعمى دون أي دليل بإجمال أو تفصيل ، ثم تقليد بصير بدليل مجمل ، ومن ثم اجتهاد مطلق أماذا؟ وسبيل الحق هو التقليد بدليله ، أم إذا استطاع اجتهاد مطلق بدليله.

وكيف يصح للإنسان العاقل أم والمجنون أن يرجح سبيلا على سبيل دون أي دليل؟ وإذا كان سلوك الآباء دليلا وليس به ، فما ذا يصنع بآباء مختلفين في سبلهم؟ فهل ترجح آباء على آباء دون أي دليل إلا أنهم آباء ، أفليس الآباء الآخرون آباء! ام ليس أبوكم الأكبر إبراهيم من الآباء؟ فما ذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون؟.

إبراهيم يتربى في جو ممحض في الشرك ، ولكنه لرفضه التقليد وتحرّيه عن دليل يواجه أباه المشرك وهو ﴿بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ : محض البراءة عن الشرك ، حيث البراء مصدر ، فهو براءة عن الشرك ومصدر لهذه البراءة ، رغم تربّيه في محض الشرك!

فإبراهيم البراء مما يعبده هؤلاء ويترأسهم أبوه ، لا يتابع أباه ولا يسايره لحظة ولو في ظاهر الحال ، إنه محض البراء وصراحه ، لا يحاري ولا يداري ولا يجاري أباه في لفظة قول ، أو لحظة بصر ، أو لمحة فعل إلا ﴿إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾(٢٧).

﴿إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقني وجعل فيّ فطرة التوحيد ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ (٣٠ : ٣٠) هذه الفطرة فيها الهداية الإجمالية التوحيدية ، ثم الذي فطرني في هكذا «سيهدين» هداية الوحي

تكملة تفصيلية لهدي الفطرة لمن جاهد في الله ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ (٢٩ : ٦٩) وبين الهديين هدى متوسطة ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٢٦ : ٧٨) أترى أنّ ذلك المشرك كان والده والأنبياء هم من أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة وأية دناسة أدنس من الإشراك بالله؟

كلّا : إنه كان عمه أوجده لأمه ولم يكن والده ، إذ تبرء عن أبيه آزر لما تبين أنه عدو لله ، ثم وهو يبني البيت مع ابنه إسماعيل يستغفر لوالده : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾ (١٤ : ٤١) فحتى إذا لم يكن إبراهيم معصوما. وهو من أفضلهم .! لم يكن ليستغفر لأبيه آزر ، فاستغفاره لوالده يدلنا أنه غير آزر ، وإلا كذب كلام الله «تبرء منه» حيث يبرئه عن ذلك الاستغفار طول حياته.

﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨).

دون ان يكتفي بحاضر النضال! ترى وما هي الكلمة الباقية في عقبه؟ هل إنها الأولى : ﴿بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾؟ ولا تكفي توحيدا لله حيث تحمل الرفض المطلق لعبادة كل معبود حتى الله! أم هي الثانية : ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ : عبادة الله؟ وهي دون صلة بالكلمة الأولى بتراء وقد تحمل عبادة الله مع غيره ، أم دون نفي مطلق لمن سواه!

إذا فهي كلا النفي والإثبات : كلمة ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾ ف ﴿إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ تعني «لا إله» و ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ تعني «إلا الله» مزودة بدليل فطري : ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ لا «الله» فقط ، وآخر من هدى الفاطر ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾!

ولماذا «فطرني» دون ﴿فَطَرَ النَّاسَ﴾ كما في آية الفطرة؟ حيث الفطر درجات ، منها المستورة بظلم الشرك والضلال ، ومنها مشرقة في درجات

متوسطة ، ومنها ما هي في درجات عليا كالفطرة الإبراهيمية ، إذا فحقّ له «فطرني».

ولأن معنى الإشراك بالله هو أن يعبد غير الله مع الله كيفما كانت هذه وتلك ف ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء متصل ب ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أم وإذا كان منفصلا وعلّه أنسب ، حيث إن عبادة الله بين المشركين لا تليق بالله ، ف ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾ هي المعنية من الكلمتين السلبية والإيجابية وهما كلمة واحدة تامة.

وبطبيعة الحال ليست هذه الكلمة الباقية هي الأصوات المقطعة والحروف المنظومة فإنها لا تبقى وهي ﴿كَلِمَةً باقِيَةً﴾ ثم ماذا تفيد هذه الكلمة لو لا واقع المعنى والالتزام بها!

وهل الضمير المستتر في «جعلها» لإبراهيم لا لله؟ فهو مصدر الكلام هنا وركنه! وهو القائل ﴿إِنَّنِي بَراءٌ ... إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾! وهو الموصي بها بنيه : ﴿وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٢ : ١٣٢)! فقد وصى بها ولده وأمرهم أن يتواصوا بها ما تناقلتهم الأصلاب وتناسختهم الأدوار!

أم لله دون إبراهيم؟ حيث الوصية ليست جعلا ، فقد تخالف الوصية الإبراهيمية والجعل الباقي ثابت ليس بيد إبراهيم أم سواه إلّا الله! وإبراهيم وإن كان مصدر الكلمة هناك ، ولكنما الهداية الإلهية فيها ليست له إلا من الله : ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ فضلا عمن سواه من عقبه وهو لا يملكهم بعد ألا يملك نفسه!

أم المعنيان معا معنيّان ، فقد جعلها الله كلمة باقية في عقبه حتما لا حول عنه ، ولكن بما زرعها إبراهيم في القلوب بأمر الله ، وبما دعى الله ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ (١٤ : ٣٥) ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ

وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ (٣٠ : ١٢٨) فإبراهيم (عليه السلام) عمل لله ودعى الله في بقاء كلمة التوحيد فجعلها الله كلمة باقية في عقبه : نسله وذريته ، فلا يخلو نسله عن موحدين إلى يوم الدين.

ثم ومن أبرز الموحدين من نسله أئمة التوحيد وحملته الأعلون محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الأطهرون ، وإلى ذلك تنظر الروايات التي تفسر هذه الكلمة بالولاية العليا والعصمة الكبرى [1] لا أنها هي المعنية دون سواها ، وإنما هي المصداق الأجلى الحملة الإبراهيميون لكلمة التوحيد ، حيث حملوها أعرق وأعمق مما حملها إبراهيم (عليه السلام)!

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٩٦ ج ٢٣ وفي كتاب علل الشرايع باسناده الى أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قال : في عقب الحسين (عليه السلام) فلم يزل هذا الأمر منذ أفضى الى الحسين ينقل من ولد الى ولد لا يرجع الى أخ وعم ولم يتم بعلم احد منهم الا وله ولد ، وفيه عن معاني الاخبار عن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن هذه الآية قال : هي الامامة جعلها الله عز وجل في عقب الحسين باقية الى يوم القيامة : وفيه عن الاحتجاج للطبرسي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل يقول فيه في خطبة الغدير : معاشر الناس القرآن يعرفكم ان الائمة من بعده ولده وعرفتكم أنه مني وأنا منه حيث يقول الله عز وجل ﴿كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ وقلت : لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما ، وفيه عن المناقب لابن شهرآشوب الأعرج عن أبي هريرة قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذه الآية قال : جعل الامامة في عقب الحسين وسيخرج من صلبه تسعة من الأئمة منهم مهدي هذه الامة ، وفي احقاق الحق ج ١٣ ص ٣٠٦ العلامة الشيخ هاشم بن سليمان في كتاب المحجة على ما في ينابيع المودة ص ٤٣٧ اسلامبول روى حول الآية عن ثابت الثمالي عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال : فينا نزلت هذه الآية وجعل الله الامامة في عقب الحسين الى يوم القيامة وان للغائب منا غيبتين إحداهما أطول من الأخرى فلا يثبت على إمامته إلّا من قوي يقينه وصحت معرفته.

فليست هنا بين الآيات لفظة الولاية حتى يرجع إليها ضمير «ها» في «جعلها» وإنما ما قالها إبراهيم المختصرة المحتصرة في : ﴿لا إلـهَ إلّا اللهُ﴾! المتدرجة في درجات حسب درجات الموحدين!

ومن في عقبه الموحدون درجات أعلاهم أئمة التوحيد الأعلون محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلفاءه المعصومون (عليهم السلام) ، وكما التمس لعقبه الإمامة فاستجيب لغير الظالمين ﴿قالَ إِنّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (٢ : ١٢٤).

وقد تعني روايات الولاية أن «ها» في «جعلها» راجعة إلى الهداية الإبراهيمية و ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ الضاربة إلى المستقبل تعني هداية الولاية والإمامة الإبراهيمية ، بعد هدايته قبلها بالوحي ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ فتلك الهداية المستقبلة باقية في عقبه في مثلث من ١ هدى موسى وعيسى التي علّها كهدي ابراهيم وإمامته ، ٢ ومن هدى من دونهم من الأنبياء الإبراهيميين كأنبياء بني إسرائيل وإسرائيل نفسه وأضرابه ، ٣ ومن هدي من فوقهم كلهم وإمامته ، كالهدى المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) الثابتة في أهل بيت هذه الرسالة السامية إلى يوم الدين ف «عقبه» يشمل العقب العام : كل من يأتي بعد إبراهيم (عليه السلام) من المكلفين حيث لا يخلون من كلمة التوحيد إلى يوم الدين ، ثم العقب الخاص : ذريته من موحدين ومشركين ، ثم الأخص : الأنبياء الإبراهيميون من إسحاق وإسماعيل ، ثم أخص الخاص : الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله المعصومون ، و ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يخص العقب الأول والثاني.

وعلى أي الحالين فهذا وذاك من التأويل والتفسير بأعلى المصاديق وأجلاها دون منعة لسعة الكلمة كلّ موحد من نسل إبراهيم إلى يوم الدين. و ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ في ترجّي رجوعهم إلى كلمة التوحيد تؤيد الشمول ، فإن أئمة التوحيد هؤلاء لم يسبق لهم شرك حتى يرجعوا عنه إلى

توحيد ، فلعل «هم» في لعلهم يخص المشركين ممن في عقبه وسواهم وإن كان الصدر ﴿فِي عَقِبِهِ﴾ يزهر كأعلى مصداق في صدور المعصومين منهم وبينهما متوسطون أما ذا؟

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾(٢٩).

«بل» هنا إعراض عما علّه يفهم من ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أن كلمة التوحيد جعلت عريقة عميقة ثابتة في عقبه ، مندغمة في كيانهم لا يتخلفون عنها خلاف من قبل ابراهيم ، فالرسل الإبراهيميون منذ إسماعيل وإسحاق وإلى موسى وعيسى ومن بينهم من الرسل وسائر دعاة التوحيد رفعوا مشعله وأناروا مناره دون خمول وأفول اتصالا دونما انفصال.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ﴾ ولكن هؤلاء المشركون حيث متّعوا وآباءهم وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم زمن الفترة الرسالية بين المسيح ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .. هؤلاء من العقب الإبراهيمي تخلفوا عن تلك الكلمة الباقية وتعرقوا في الشرك ، حيث طال بهم العهد ومتعهم الله جيلا بعد جيل حتى طال عليهم العمر ونسوا ملة ابراهيم ، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة .. ﴿حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن بعد غروبه زمن الفترة وجاءهم ﴿رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ للحق أوضح بيان لحد لم يسبقه سابق ، وكأن من سبقه من رسل لم يكن فيهم مبين وكلهم في حدّه مبين.

فهذا الرسول مبين بنفسه ومبين بكتابه ومبني بمعجزاته ، مبين بمن قبله في بشاراته ومبين بشاهد منه في تربياته : ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١ : ١٧)!

والضرورة البلاغية في رسالة هكذا ، خالدة حتى القيامة الكبرى ، بازغة في قوم لدّ ما أتاهم من نذير من قبل ، تقتضي هكذا حق ورسول مبين! ولكن :!

﴿وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ﴾(٣٠).

﴿وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ قرآن محمد ومحمد القرآن «قالوا» كلمتهم المختصرة عن تفاصيل أقاويلهم المحتصرة في ﴿هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ﴾! وليس الحق المبين يختلط بالسحر غير المبين ، أو يبين بنفسه أنه سحر ، ولا يختلف اثنان من ذوي حجي ومن دونهم في تمييز السحر عن المعجزة ، ولذلك تراهم لا يعترضون ويتشككون في القرآن الذي يتقولون أنه سحر إلا فيمن جاء به :

﴿وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٣١).

هنا الواو تعطف على معطوف عليه كالمعطوف مثل ﴿لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ ثم التنزل إلى هذا المعطوف ، لو كانت النبوة في ف ﴿لَوْ لا نُزِّلَ ...﴾؟

فلم تبق من الريبة في هذا الحق إلا نزوله على يتيم غير ذي مال ولا منال ، فلو نزل على رجل من القريتين عظيم لكانوا مصدقيه؟ أترى إن كان القرآن سحرا. فهو سحر أيا كان وبيد أيّ من الرسل كان. فهل يتحول السحر إلى المعجزة إن تحول من يدلا ترضونها إلى من ترضون ، أم يتحول المعجزة إلى السحر لو عكس الأمر ، تلك إذا قسمة ضيزى!

هؤلاء الحماقي المخلدين إلى الحياة الدنيا وزهراتها وزهواتها ، لما اختلت عندهم الموازين ، ورأوا العظمة فقط في الجاه والمال وساير قيم الأرض ، استعظموا رسالة السماء أن تنزل إلا على عظيم في ميزان

الأرض ، عظمة خيالية وخارجة عن طبيعة الرسالة ، بل ومنافية لها غير مواتية معها وقد اعتبروها أصلا ومحورا للتفاضلات فلتتّبعه فضيلة السماء ولكن ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ يجعلها فيما لها سند من داخله ، مساندا لها غير معاند ، الخليق المتجرد عن كافة العلاقات والصلات إلا بالله ، فلم يختره زعيما ولا صاحب مال أو منال ، لكي لا تلتبس واحدة من قيم الأرض بقيم السماء ، ولا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلي الأرض ، او حيلة من حيلها ، دونما صلة بينهما إلا إغراء لها بمصاحب خارج عن ذاتها المجردة ، فلا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف.

فالدعوة الرسالية مجردة عن كل دعاية إلا الحقيقة البارزة من ذاتها ، والحق البارز في دعاتها ، حق يحمل حقا ناصعا صارما إلى من يتحرى عن الحق المطلق ، دونما تدجيل ودعاية زائدة تظهر الرسالة بمظهر أعلى مما هي ، كما لا تقصر فيها لتخفيها عما هي.

و ﴿رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ هو الوليد بن المغيرة المكي وابو مسعود عروة بن مسعود الثقفي الطائفي ، أمن ذا من الزعماء الأثرياء دوي الأنفة والكبرياء ، ولو أنزل هذا القرآن على رجل منهما ، لأصبحت الرسالة السماوية التي هي للمستضعفين في أصلها ، أصبحت للمستكبرين ، أن يجتلبوا أضرابهم إليها ، أم ويخونوا في الدعوة لها ، فإنها تناحر الأثرة والكبرياء ، وتنافر المستأثرين الكبراء.

والقرآن يجيب عن هذه التطرفة الحمقاء ، والتطلبة الخواء ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الرحمة التي ربتك حتى أصبح قلبك المنير مشرقا ، تلك الرحمة العليا الروحية من رسالة السماء ، أهم يعرفونها حتى يقسموها ، ولو عرفوها ولن! فهي رحمة ربك ، فهو الذي يقسمها كما يشاء لمن يشاء ف ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ فلا يجعلها في قلوب خاوية عن الحق ،

خاملة بالباطل ، قلوب مقلوبة لا تتعلق إلا بزهرات الدنيا وشهواتها ، فتضيع الرسالة فتجعل المرسل إليهم هباء!

ويا عجبا وما لهم هم ورحمت ربك العليا أن يقسموها ، وليس لهم أن يقسموا الرحمة الدنيا : [١].

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٣٢).

فهل إن الله يعجز أن يقسم رحمته الرسالية وهم قادرون؟ أو يجهل وهم عالمون ، أو يبخل وهم لا يبخلون ، أمّاذا من عطب أو نقص يقتضي أن يتوكلوا عنه قسمة رحمته دون توكيل «أهم» أولاء الحماقى الجهال ، العجزة البخال ، الأوغال البطال الرّذال ﴿يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ وهم يتطلبون قسمة في الحياة العليا ، فهم أولاء أهل الدنيا يجهلون قسمة معيشتهم الدنيا ، فكيف يطلبون قسمة لمعيشتهم العليا؟! وتفصيل الجواب عن هذه الهرطقة نجدها في مناظرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) معهم [٢].

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٦ . اخرج احمد والحاكم عن ابن مسعود في قوله تعالى : أهم يقسمون رحمة ربك قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين الا من يحب فمن أعطاه الدين فقد أحبه.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٩٧ ح ٢٨ في كتاب الاحتجاج عن أبي محمد الحسن العسكري عن أبيه (عليه السلام) قال : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال له عبد الله بن امية المخزومي : لو أراد الله ان يبعث إلينا رسولا لبعث اجل من فيما بيننا مالا واحسن حالا فهلا نزل القرآن الذي تزعم قرآن ان الله أنزله عليك وابتعثك به رسولا على رجل من القريتين عظيم : إما الوليد بن المغيرة بمكة .

. وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : اما قولك : لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم الوليد او عروة فان الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظم أنت ولا خطر له عنده كما له عندك ، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة ما سقى كافرا به مخالفا شربة ماء ، وليس قسمة رحمة الله إليك بل الله القاسم للرحمات والفاعل لما يشاء في عبيده وامائه وليس هو عز وجل ممن يخاف أحدا كما تخافه أنت لما له وحاله فعرفته بالنبوة لذلك ، ولا ممن يطمع في احد في ماله او حاله كما تطمع أنت فتخصه بالنبوة لذلك ، ولا ممن يحب أحدا محبة الهوى كما تحب فيقدم من لا يستحق التقديم ، وانما معاملته بالعدل فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين وخلاله الا الأفضل في طاعته والأجدّ في خدمته ، وكذا لا يؤخر في مراتب الدين وجلاله الا أشدهم تباطئا عن طاعته وإذا كان هذا صفته لم ينظر الى مال ولا الى حال ، بل هذا المال والحال من تفضله وليس لأحد اكراهه من عباده عليه ضريبة لازب فلا يقال له : إذا تفضلت بالمال على عبد فلا بد ان تتفضل عليه بالنبوة ايضا لأنه ليس لأحد اكراهه على خلاف مراده ، ولا إلزامه تفضلا ، لأنه تفضل قبله بنعمة ، الا ترى يا عبد الله كيف اغنى واحدا وقبح صورته وكيف حسن صورة واحد وأفقره ، وكيف شرف واحدا وأفقره وكيف أغنى واحدا ووضعه؟ ثم ليس لهذا الغني ان يقول : هلّا أضيف الى يساري جمال فلان ، ولا للجميل ان يقول : هلا أضيف الى جمالي مال فلان؟ ولا للشريف ان يقول : هلا أضيف الى شرفي مال فلان؟ ولا للوضيع ان يقول : هلا أضيف الى مالي شرف فلان؟ ولكن الحكم لله يقسم كيف يشاء ويفعل كما يشاء ، وهو حكيم في أفعاله محمود في اعماله وذلك قوله : وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . قال الله : . أهم يقسمون رحمة ربك . يا محمد . نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا . فأحوجنا بعضا الى بعض ، أحوج هذا الى مال ذلك وأحوج ذلك الى سلعة هذا والى خدمته فترى اجلّ الملوك واغنى الأغنياء محتاجا الى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب إما سلعة معه ليست معه وإما خدمة يصلح لا يتهيأ لذلك الملك ان يستغني الا به ، وإما باب من العلوم والحكم هو فقير الى ان يستفيدها من هذا الفقير الذي يحتاج الى مال ذلك الملك الغني وذلك الملك يحتاج الى علم هذا الفقير او رأيه او معرفته ثم ليس للملك ان يقول : هلا اجتمع الى مالي علم هذا الفقير؟ ولا للفقير ان يقول : هلا اجتمع الى رأيي ومعرفتي وعلمي وما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني؟.

﴿نَحْنُ قَسَمْنا ..﴾ ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ﴾ في المعيشة الدنيا لغاية أسمى هي في تنظيم حياتهم الدنيا عادلة عاقلة :

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ جملة من آية منقطعة النظير ويتيمة في سائر القرآن ، تبين حقيقة ثابتة من النواميس الإلهية في هذا الكون ، أن هناك طبقية بارادة الرحمن الرحيم لتنظيم الحياة حيث يدور دولابها.

هنالك معيشة في الحياة العليا ، الرسالة الإلهية ، و ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ في قلوب صافية ضافية تفيض كما تستفيض دونما خيانة.

وهناك عيشة في الحياة الدنيا ، كسائر ما يعيّش الإنسان فيما سوى الروحية والمعنوية ، من عقلية علمية واستعدادات في تحصيل المال والمنال أم في صناعات أم ماذا مما تدير شؤون هذه الحياة ، ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ دون أن يكون جميع الناس على سواء في معيشتهم نسخا متماثلة مكرورة تحيل أن تقوم معيشة وحياة في هذه الأرض.

ما هي الطبقية المرفوضة والمفروضة؟

نجد مثلثة من الطبقيات بين المجتمعات ، من ظالمة وعادلة وفاضلة ، فالطبقية الحصيلة من المظلمات ، من أكلة الأرض ومصّاصي الدماء ، من هؤلاء الظالمين بحقوق المستضعفين ، تلك الطبقية ظالمة تطاردها التشاريع الإلهية ، حيث تقرر ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ﴾ أما ذا من ضوابط اقتصادية عادلة تحارب الفقر المظلوم والغنى الظالمة ، وأما الغنى عن سعي فلا ، أو الفقر عن تقصير وعطالة فتحارب فقيره الذي ظلم نفسه ، لا الغني الذي لا يظلمه ، كما يندد بالفقير المتخاذل الذي يتكاسل عن الأخذ بحقه.

هذه الطبقية ليست من فعل الله لا تكوينا ولا تشريعا ، وإنما هي من مظلمات الناس النسناس ، دون الناس العدول ولا إله الناس.

ومن ثم طبقية عادلة في مراعات الناس ، إعطاء كل ذي حق حقه ، وإعطاء سعي كل ساع حقه ، فإن زاد سعيه عن حاجته فإنفاقا على من نقص ، وإن نقص سعيه عن حاجته فرحمة عليه ممن زاد دون منّ ولا أذى.

هذه طبقية عادلة تقرّب بين الساعين في عيشتهم رغم اختلافهم في مساعيهم ، وهكذا تقرّر الشريعة الإلهية ، سعيا حسب المستطاع وتراحما بين الساعين حسب المستطاع! وهذه طبقية الناس.

ثم طبقية فاضلة هي من إله الناس ، لا من عدل الناس ولا ظلم النسناس ، وهي الحصيلة من مختلف المواهب والاستعدادات : ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ فسمة التفاوت في مقادير الرزق ، نتيجة تفاوت الدرجات في استعدادات وفعليات ، هذه السمة لا تتخلف أبدا حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجّهة أن تساوي جميع الأفراد في هذا الرزق أبدا!

والحكمة الأصيلة الإلهية في هذه السمة هي «التسخير» وطبعا التسخير العادل المتعادل ، لا الاستثمار الظالم او الاستعمار والاستكبار والاستحمار والاستبداد والاستضعاف والاستخفاف : سخريا ظالما هاتكا حرم الإنسانية في أبوابه السبع الجهنمية ، حيث التشاريع الإلهية تحاربها وتغلقها دون مواربة ولا مسايرة.

أجل إن «سخريا» لا يعني طبقيا مشكّلا من مسخّر ومسخّر دائبين ، فإنه سخري جانبي من النسناس ، وإنما السخري من كل الجوانب عدلا وفضلا ، فالعامل مسخر للمهندس ولصاحب العمل ، والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل ، وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على سواء ، فكلّ مفضّل على الآخر بما عنده كما الآخر مفضل عليه بما

عنده ، فلو كان الكل على سواء في المواهب والاستعدادات لما مكّن أحد نفسه في شغل لآخر مثله ، ولما تمكن أحد من تسخير أحد هو مثله ، وحالة الاستغناء هذه تمنع الحياة الجماعية والتساخر بين الأفراد في حاجياتهم فتقف عجلة الحياة.

ف «سخريا» هذه هي التعامل اللازم واللائق بشأن الحياة كما تقتضيه الشرعة العادلة الإلهية : أن لكل ساع سعيه ، ثم الزائد والناقص في سعيه دون تقصير يتعاملان تعاملا آخر ، أن يفيد الأول من سعيه الآخر ، ويستفيد الآخر من سعي الأول ، إنفاقا دون منّ ولا أذى حتى تحصل طبقية الناس.

فطبقية النسناس تعم ما تحصل من ظلامات ، ومن ترك الإنفاقات الواجبة والراجحة ، وطبقية الناس تطردهما في ترك الظلامات وفعل الإنفاقات ، على ضوء الطبقية الفاضلة من إله الناس!.

فليست الطبقية كلها ظالمة ، كما اللّاطبقية ليست كلها عادلة ، وإنما الظلم مرفوض في طبقية ام لا طبقية ، والعدل مطلوب مفروض ـ والفضل ـ في طبقية أولا طبقية.

أترى لو تغاضينا عن آماد المساعي فأعطينا عمالا على اختلاف مساعيهم أجورا متساوية أم قدر الحاجة لإزالة الطبقية بينهم ، ولكي لا تحصل ، هل هو إذا عدل ،؟ ف ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ إذا ظلم؟ كما يقوله الإقتصاد الشيوعي.

أم لو أعطينا كلا كما سعى دون رعاية لقصور الضعاف أن نزيدهم لحد الكفاف ، ودون أخذ الضرائب من الأقوياء إنفاقا للضعاف ، تطبيقا مكانيكيا لقاعدة السعي ، فهل عدلنا ام كما تقول الاشتراكية أم ظلمنا؟.

أم إذ نجمع ـ على ضوء الإقتصاد الإسلامي ـ بين قاعدة السعي وبين رعاية الضعاف القصّر بفرض ضرائب الكفاف على الأثرياء رعاية للمحاويج أفرادا أو جماعات فهل ظلمنا أم عدلنا؟ وهذا ما يقوله الإسلام : ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ على ضوء قاعدة السعي والإنفاق المستحق ، لتتقارب الجماعة المسلمة ماديا ومعنويا ، فسماحة الإنفاق ربوة روحية بين الناس ، وتطبيق قاعدة السعي عدل واقعي ، وفي اختلاف المواهب والاستعدادات تمازج في تعاون دائب بين الناس ، حيث الكل محاويج بعضهم إلى بعض نتيجة اختلاف الدرجات والموهبات والحاجيات.

آية السخري تجعل مباعضة في بني الإنسان كافة كأنهم أبعاض لشخص واحد ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً﴾ وكما أن هناك سخري التساخر العادل المتعادل المتكامل بين أعضاء الفرد الإنساني على درجات في الموهبات والاستعدادات في هذه الأعضاء ، تحكمها روح واحدة باتجاه واحد هو صالح المجموعة ، فلتكن كذلك المجموعة الإنسانية بأفرادها ، فيعني كلّ كادح صالح حياته ضمن المجموعة ، في سخري الترابط التضامن العادل المتكامل قضاء لحاجيات الأفراد ضمن المجموعة والمجموعة ضمن الأفراد.

لا تجد في أية شرعة إلهية سماحا لسخري الاستبداد والاستكبار والاستخفاف والاستعمار والاستثمار والاستضعاف والاستحمار ، حيث أغلقت هذه الأبواب السبعة الجهنمية بمصراعيها على بني الإنسان ، فاتحة أبواب التعايش العادل السلمي والحياة التضامنية العادلة الفاضلة.

فلا تجد تسخيرا مسيّرا على عمل ، أم مخيرا في سعي لا يوازيه أجره ، فحرية العمل وحرية الانتخاب في العمل لا يسلبها «سخريا» إلا عادلا

يرجع إلى صالح الأفراد والمجتمعات ، تقديما لصالحها على صالح الأفراد ، دون تأصّل للأفراد والمجتمع على هامشها ، أو تأصّل للمجتمع والأفراد على هامشه ، بل الأصلان مرعيّان تفضيلا لصالح المجتمع عند التعارض ، وكما تجده في الحقل الاقتصادي الإسلامي كأفضل ما يمكن على ضوء الكتاب والسنة!

ثم إن في اتخاذ بعضهم بعضا سخريا حسب اختلاف الدرجات ومقتضاها منتوجة أخرى بعد قضاء هذه الحاجيات ، هي درك الإنسان للكمال والأكمل فالتحري عنه والالتذاذ به ، ولو كان الناس على سواء جمالا وكمالا وفي كافة المتطلبات فغضّا عن شلّ الحركة التضامنية حينذاك ، لم يحظ الإنسان حظوة بما عنده حيث يراه عند سائر الناس على سواء ، ولم يلتذّ إنسان بنعمة عنده لما يراها عند سائر الناس على سواء ، إذا لزالت اللّذات ومرّت الحياة مرّة دون حراك ، لو أنها مرت دون تضامن التساخر والتعامل!

فالاشتراكية المتساوية خلقة وفي استعدادات هي هادمة اللذات ، موقفة عجلة السير الدائب المتسابق في الحياة ، ولكنما الطبقية العادلة المتعادلة المتكاملة على ضوء التشاريع الإلهية ، إنها تضمن عجلة دائبة في صراع عجلة الحياة وسرعتها في صراعها ، سباقا سائغا سابغا في ميادينها وسراعا ﴿سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ .. وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ..﴾.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ الروحية الرسالية ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من المادية الدنيوية.

فإن الله يختار ل ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ وهي الخير المطلق نسبيا إلى سائر الخير ، يختار لها من يناسبها وتناسبه ، من يحتضنها وتحتضنه ، من يعمل بها ويبلغها كما هو أحرى ، ولا صلة بينها وبين عرض هذا الأدنى ، بل الدنيا بزهرتها

وزخرفتها تنافرها وتتعارض معها ، كما الرسالة الإلهية بغيتها الرئيسية هي التزهيد في الدنيا ، التحديد لشهواتها ، أترى المترفين أولي النعمة يتقبلون رسالة تقضي على ترفهم لصالح المحاويج من طرفهم ، أم لو تقبلوها يبلغونها كما هو أحرى بلاغا يضاد كيانهم ، أم لو سلمت الرسالة من هذا وذاك ، أليست هذه الرسالة نفسها بالتي تقرب أهل الدنيا وتبعد أهل الآخرة أم تغري الناس بمغريات الرسول أم ماذا؟

﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ تلمح إلى قمة الرحمة الروحية في الحياة العليا ، وأين هي من معيشة الحياة الدنيا ، وإذا هم لا يصلحون لقسمة الحياة الدنيا وهم من أهلها ، فكيف يصلحون لقسمة الحياة العليا وهم ليسوا من أهلها ، ولا أن لأهليها أن يقتسموها ، إنها الربوبية الوحيدة المطلقة في قسمة الحياة دنياها وعلياها ف ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ حيث السؤال الاستنكار يخص من يجوز عليه الخطأ ، والسؤال الاستعلام لا يجوز في كل صغيرة وكبيرة إلا ما عرّفنا ربّنا بحكمته ورحمته ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ العليا ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا والتي لم ينظر الله إليها منذ خلقها!

﴿وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ ٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ ٣٤ وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣٥).

إن قاعدتي السّخري والسعي تقتضيان خليطا من الفقر والغني في قبيلي الإيمان والكفر ، دون اختصاص لأحدهما بأحدهما ، مهما كان الكفار بطبيعة الحال أغنى من المؤمنين لأنهم مكبون على الحياة الدنيا دون الأخرى ، ثم الإيمان قيد الفتك!.

إلا أن قاعدة ثالثة تناحرهما هي رخاصة الدنيا ودنائتها ، وهي مجلبة

الشهوات ومدحرة الطاعات فلا تناسب في ميزان الله إلا لمن يكفر بالرحمن دون المؤمنين ، إلا أن فريق الإيمان ليسوا على السواء ، صابرين على الفقر المطلق لهم والغنى المطلقة لفريق الكفر ، فهناك قد يتفلت الإيمان ، فكرّ على ما يفر منه ، خروجا عن الحفرة إلى البئر!

لذلك اختلط الفريقان في الفقر والغنى ، وفي قبيل الكفر مزيد الغنى في أبعاد : إخلادهم إلى الدنيا فيعطون منها كما أخلدوا : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ..﴾ (١٧ : ١٨) ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ..﴾ (١١ : ١٥) وأن «الايمان قيد الفتك» والبعدان هما قضية الكفر والإيمان ، ومن ثم بعد ثالث من رحمة الرحمن على المؤمنين أنه لا يغنيهم كأصل كما يسعون لكي لا تلهيهم ، وأنها لا وزن لها في ميزان الله ، كما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لو كانت الدنيا تزن جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء» [١].

﴿وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ كما كانوا قبل البعثات الرسالية ضلّالا «لجعلنا ..» إلا أن جعلا هكذا يجعل الناس أمة واحدة بعد الرسالات كما قبلها و «لو» تحيل بقاء فريق المؤمنين على الإيمان ، أو رغبة المتحرين عن الإيمان في الإيمان ، رغم أن هذا الجعل قضية خسة الكافرين وخسة الدنيا! دون تبعيد لمن يتحرّى عن إيمان.

وقد تعني «لو لا ..» معنى ثانيا : لو لا السنة الدائبة الإلهية على كون الناس أمة واحدة في قاعدي السخري والسعي ، لجعلنا .. رفضا لهما .. حيث خسة الدنيا وزهادتها؟ ولكنما استثناء القواعد التي جعلها الله تعالى

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧ . أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجة عن سهل بن سعد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

كونية وتشريعية ، إذا كان لصالح الكتلة المؤمنة ، هذا الاستثناء راجحة أم لازمة ، لو لا مانعة أخرى ك ﴿أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ ضلّالا بعد الرسالة وبها كما قبلها.

وقد تعنيهما الآية وما أحسنهما متضامنين ، فإن هكذا جعل لمن يكفر بالرحمن خروج عن قاعدتي السخري والسعي ، وجعل للناس كلهم ضلّالا لا يحنون إلى إيمان! و ﴿أُمَّةً واحِدَةً﴾ تعنيهما معا ، ولكنما الأصل هو الثاني وعلى هامشه الأول [1] مهما كان الثاني هو الأول والأول هو الثاني حصولا!

إن الثراء بلاء للمؤمن لا بد منها تمشية للحياة الدنيا ، وإنفاقا على محاويجها ، وأن لا يكون الناس أمة واحدة فما أقل المؤمنين الأثرياء أن يكونوا بمؤمنين صادقين ملتزمين بإيمانهم ، وما أكثر المؤمنين الفقراء أن يظلوا صادقين ، حتى أن أحدهم قد لا يتقبل الثراء كيلا يبتلى ببلاء الأثرياء [2].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٩٩ ح ٣١ ـ القمي عن الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية «لو فعل الله ذلك لما آمن من أحد ولكنه جعل في المؤمنين أغنياء وفي الكافرين فقراء وجعل في الكافرين أغنياء وفي المؤمنين فقراء ثم امتحنهم بالأمر والنهي والصبر والرضا. وح ٣٢ في كتاب علل الشرايع باسناده الى سعيد بن المسيب قال : سألت علي بن الحسين (عليه السلام) عن الآية قال : عنى بذلك امة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يكونوا على دين واحد كفارا كلهم «لجعلنا ..» ولو فعل ذلك بامة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لحزن المؤمنين وغمهم ذلك ولم يناكحوهم ولم يوارثوهم : أقول : امة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هنا المصداق الاجلى والآية بإطلاقها تعني كل الناس : وفيه (٣٤) باسناده الى منصور بن يونس قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) قال الله عز وجل : لو لا ان يجد عبدي المؤمن في نفسه لعصبت الكافر بعصابة من ذهب.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٠١ باسناده عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : جاء رجل موسر الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نقي الثوب فجلس الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس الى جنب الموسر.

ولكن الثراء بنفسها ليست بلاء ، وإنما لضعاف الإيمان ، فمن قوة الإيمان أن يحاول المؤمن في تحصيل المال توسعة على العيال وإنفاقا للمحاويج وتمشية لعجلة الحياة الجماعية للكتلة المؤمنة.

فالمؤمن بين تزهيد عن الثراء كيلا تلهيه عما يعنيه ، وبين تزويد للثراء لكي يطبق ما يعنيه من صالح الجماعة المؤمنة وصالحه في سبيل الله.

فليست الثراء ـ إذا ـ مرغوبا عنها بإطلاقها في ميزان الله ، كما ليس الفقر مرغوبا فيه بهذا الميزان فقد «كاد الفقر أن يكون كفرا»! أو قد يعكس الأمر ، ولكنما الأكثرية الساحقة أن الثراء بلاء أكثر مما الفقر بلاء! فليست الغنى لصاحبه كرامة كما ليس الفقر عليه مهانة ، فهما لأصحابهما بلاء وابتلاء : ﴿فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ. كَلَّا ..﴾ (٨٩ : ١٧)!.

﴿وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ ... لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ﴾ ولماذا الكفر بالرحمن ، دون الله أو الرحيم؟ علّه لأن الرحمن أعم الصفات الإلهية التي تشمل عامة رحماته وخاصتها ، فالكفر بالله خاص بالملحدين فيه او المشركين به ، والكفر بالرحيم خاص برحماته الخاصة ، ولكلّ من هذه الثلاث أهل ، وأما الكفر بالرحمن فهو يعمها كلها ، كفرا بالله في شقيه ،

ـ فقبض الموسر ثيابه من تحت فخديه فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أخفت ان يمسّك من فقره شيء؟ قال : لا ، قال : فخفت ان يصيبه من غناك شيء؟ قال : لا ـ قال : فخفت ان يوسخ ثيابك؟ قال : لا ، قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : فما حملك على ما صنعت؟ قال : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! ان لي قرينا يزين لي كل قبيح ويقبح لي كل حسن وقد جعلت له نصف مالي فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) للمعسر : أتقبل؟ قال : لا ـ فقال له الرجل : ولم؟ قال : أخاف ان يدخلني ما دخلك! :

وكفرا بالرحيم في شقه ، وكفرا بالربوبية دون الخالقية او الخالقية دون الربوبية ، أم كفرا بالعبودية دونهما أمّا هيه؟ من كفر بأية رحمة من رحمات الرحمن ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾!

﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ﴾ وما ألطفها وأنضرها نظرة إليها كأنما ينظر إلى السماء اللؤلؤية البيضاء ﴿وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ﴾ والمعارج وهي ما يعرج بها تعم المعارج الأرضية وفوق الأرضية من طائرات أم ماذا ﴿عَلَيْها يَظْهَرُونَ﴾ : يطّلعون ظاهرين غالبين على ما يهوون من التطلّع إلى سقف أرضية أم ما فوق الأرضية أم ماذا؟

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً﴾ كما تناسب ذوات السقف الفضّية «وسررا عليها يتكؤون» كما تناسب تلك البيوت «زخرفا» : زينة من ذهب أو فضة أم زمردة ام أية زينة من الزين من نابتات : ﴿حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ ..﴾ (١٠ : ٢٣) أو مصطنعات ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ..﴾ (١٧ : ٩٣) وإلى ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (٦ : ١١٢) وهو صوت الشيطان : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ (١٧ : ٦٤) ف «زخرفا» هي مطلق الزينة للبيوت وسواها ، عموما بعد خصوص ، والحياة الدنيا كلها زخرف ، ولذلك تسمت هذه السورة بالزخرف وصيغتها الأخرى سورة الدنيا ، حيث تمثّلها كما هيه.

﴿وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

«لما» هنا قد تعني «إلا» (١) وعله غير فصيح ولا صحيح أن يؤتى بدل «إلا» الصريحة «لما» كإحدى معانيها بل ، ولا يعرف لها هذا

---

(١) كما حكاه سيبوية «نشدتك بالله لما فعلت» اي الا فعلت.

المعنى [(١)].

أو أنها تعني معناها الانتظار حتى الآن و «إن» مخففة عن مثقلة ف ﴿كُلُّ ذلِكَ﴾ المذكور حتى الآن متاع الحياة الدنيا ، عند أهل الآخرة والدنيا بميزان الله ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

إلا أن «لما» بمعنى «إلّا» مكررة في الذكر الحكيم وقرينتها التي تعني منها «إلا» هي معها ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ (٣٦ : ٣٢).

﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فإنها لصالحهم حيث هيئوا لها بما قدموا من صالحات ، فهي ليست لسواهم وإنما عليهم بما قدمت أيدهم من طالحات ، ولكنما الدنيا تعاكس الآخرة ، حيث المتقون لهم منها حظوة قليلة يستقدمونها لأخراهم.

و ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ قد تكون وصفا للآخرة ، فإنها عند ربك والدنيا بعيدة عنه ، وإن كانتا عند ربك قدرة وعلما وحكما ، ولكنما الآخرة عند ربك قربا وملكا ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾!

وقد تكون ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في ميزان الرب ، وخصوص الحضور للرب ، فالآخرة للمتقين عند ربك ، أو أنها تعنيهما : «فالآخرة التي عند ربك هي عند ربك للمتقين عند ربك»!

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦).

متاع الحياة الدنيا وزهرتها يعشي أصحابها عن ذكر الرحمن تعاميا عنه

---

(١) كما رواه الامام الرازي عن أبي الحسن وحكى عن الكسائي في انه قال : لا اعرف وجه الثقيل :

بتقصير دون قصور [١] فالبصر يعشوا ومن ثم البصيرة تعشوا ويصبح الإنسان عشوا عن ذكر الرحمن متعاميا متغاضيا عما يذكره الرحمن ، محجوبا قلبه ، ناسيا متناسيا ، وهنالك مهبط الشيطان وهنا «نقيض» : نرسل ﴿لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.

وذكر الرحمن هو كلّ ما يذكّرك الرحمن ، وهي كافة الرحمات التي تعيشها في نفسك وحولك ، من عامة تعم الكون ، ومن خاصة للخصوص من خلق الله ، الدالة على وجوده وتوحيده وعلمه وعدله وحكمته وسائر صفاته وأسماءه الحسنى.

فليعش الإنسان ذكر الرحمن دون أن يعشو عنه أيا كان ، عشو القلب او القالب ، عشو البصر والبصيرة ، عشوا عن اي إدراك وتبصّر ، ولكي يتذكّر الرحمن فإنه يتبنّى عقيدة الإيمان وعمل الإيمان ، وبه تنضبط الحياة في مسيرة ومصيرة الإنسان!

فلا يختص العشّو عن ذكر الرحمن بعشو الباصرة بصرا وبصيرة ، إنه يعمها وكل مدركة في الإنسان ، فعليه أن يكرّسها كلها لذكر الرحمن.

وذكر الرحمن مصدرا وصادرا درجات كما العشو عن ذكر الرحمن دركات ، فرسالات الله وكتاباته ذكر ، وآيات الله في الأنفس والآفاق ذكر ، والإنسان هو نفسه بما يحوم حوله من قريب أو غريب ذكر ، وهذه بين معصوم سديد ، او مأثوم طريد ، أم عوان بين ذلك ، فالمعصوم ذكر مضمون بعصمة تبشيرا ، والمأثوم ذكر بطرده إنذارا ، والعوان إنذار

---

(١) عشى يعشى عشا من باب علم إذا كان يبصره آفة لا يبصر مطلقا او بالليل وعشا يعشوا عشوا من باب نصر إذا تعامى وتعشى بلا آفة وهنا : يعش من الثاني مجزوما ولو كان من الاول لكان يعش بالكسر.

وتبشير.

فالعاقل اللبيب يذكر الرحمن بكل ذكر ، والجاهل البليد لا يذكر الرحمن فيعشو عن كل ذكر وإن كان قرآن محمد او محمد القرآن ﴿وَاللهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ﴾!

فالذاكرون الله لا يقيّض لهم هكذا شيطان يمدّهم في عشو هم ، مهما كان لهم شيطان غيره ، والعاشون المتعامون عن ذكر الله يقيّض لهم شيطان : ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ (٤١ : ٢٥) ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (١٩ : ٨٣) ﴿وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾(٧ : ٢٠٢).

فقد يتغلب عليه وقد يغلب في عراك دائب ، خنّاس نسناس يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ، وقد يغلب على طول الخط فيسلم كصاحبه المسلم كما للرسول ، (صلى الله عليه وآله وسلم) [1] ومن معه.

وهنا شيطان آخر يبعث إلى من يعشو عن ذكر الرحمن ، أخ له قرين

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧ ـ اخرج ابن حبان والبغوي وابن قانع والطبراني وابن مردويه عن شريك بن طارق قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ليس منكم احد الا ومعه شيطان قالوا ومعك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال : ومعي الا ان الله اعانني عليه فأسلم ، وأخرجه مثله جماعة من طريق عائشة وابن مسعود وابن عباس : أقول : ليس هذا هو الشيطان المرسل المقيض لأنه خاص بمن يعشو عن ذكر الرحمن ، وإنما هو الذي مع الكل كما أخرجه احمد في الزهد عن وهب بن منبه قال : ليس من الآدميين احد الا ومعه شيطان موكل اما الكافر فيأكل معه من طعامه ويشرب معه من شرابه وينام معه على فراشه واما المؤمن فهو يجانب له ينتظره حتى يصيب منه غفلة او غرّة فيثبّ عليه ..».

يمدّه في الغي دون إقصار ، وهذا غالب على طول الخط على «من تصدى بالإثم» [(١)].

وهذه سنة دائبة آئبة للعاشي عن ذكر الرحمن أن يعيش معه الشيطان ليمده في الغي دون إقصار ، غيا يحسبونه هدى ، ضلالة على ضلالة هيئوا لهما بعشو هم ظرفا يناسبه ، وقد قضت مشيئة الله ألّا يخلو القلب من هاد أو مضل ، فمن يرفض الهادي جاءه المضل ، فإن الإضلال طبيعة الشيطان ما وجد له سبيلا ، ثم الله ليس ليقطع سبيله إلى قلب عاش عن ذكره تسييرا على ترك الضلال وكما لا يسيّر إلى الهدى : ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (٦١ : ٥) وإنما يهدي الله من اهتدى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً﴾ (٤٧ : ١٧) جزاء وفاقا وعطاء حسابا!

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(٣٧).

ويا لهذا الحسبان من خسران حيث ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٧ : ٢٤) ﴿... وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾(٢٩ : ٣٨) فقد كانوا قبل ذالك مستبصرين ، فعثوا عن ذكر الرحمن على بصيرة وعناد تعاميا معمّدا عن الحق فقيّض الله لهم شياطين تزيينا لهم فصدو هم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (١٨ : ١٠٤)؟ حيث لا يدعه الشيطان القرين أن يفيق أو يتبين الضلال فيثوب ، وإنما يوهمه أنه سائر في الطريق القاصد القويم ، حتى

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٠٣ ح ٤٧ في كتاب الخصال فيما علم امير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه من الاربعمائة باب مما يصلح للمسلم في دينه ودنياه «من تصدى بالإثم اعشى عن ذكر الله تعالى؟ من ترك الأخذ عن امر الله بطاعته قيض له شيطان فهو له قرين.

يصطدم بالمصير الأليم ، وترى أن الشيطان الثاني هو من قبيل الجان أم وهو أيضا من الإنسان؟ إنه يعمهما كما الأول دون اختصاص بجان أم إنسان ، اللهم إلّا النفس الأمارة بالسوء ، فإنسان يستجيب سائر الشيطان ، ومن المصيبة العظمى والداهية الكبرى أن قرن الشيطان المقيض لهذا الإنسان يبقى معه حياته دون انفصال في البرزخ والقيامة الكبرى وهو عليه وبال! :

﴿حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾(٣٨).

ترى ماذا يعني «جاءنا» والله لا يجيء إلى ولا يجاء إليه؟ .. إنه مجيء عالم الرحمن برحمتيه الرحمانية والرحيمية الخاصة بيوم الحساب. ف «جاءنا» يعني ما يعنيه ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾ تجيء ربوبيته الخاصة بيوم الجزاء وهم يجيئون إلى تلك الربوبية يوم الجزاء!

فقد يستمر ذلك العشو ، وهذا القرين وصدّه عن السبيل ﴿حَتَّى إِذا جاءَنا﴾ العاشي عن ذكر الرحمن مع قرينه الملازم له ، وذلك المجيء بادئ من الموت مجيئا برزخيا وإلى القيامة الكبرى مجيئا نهائيا ﴿قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ بينونة غابرة في حياتها الأولى وحاضرة في حياتها الأخرى ، ولكنه تأوّه بعد حينه ولات حين مناص!

ليس هنا فعل ماض أو مضارع يخص التأوّه بقربه مع الشيطان القرين في زمان خاص ، بل هو تأوه يشمل هذا القرن في مثلث الزمان ، فبعد المشرقين أم أبعد ﴿إِذا جاءَنا﴾ لا يبعده عن عذابه الذي خلفه بقرنه في الحياة الدنيا!.

هكذا ينتقل العاشي في ومضة من هذه الأولى إلى الأخرى ، طيا لشريط الحياة السادرة وشرائطها إلى نهاية المطاف فجأة دون انتظار ، وهنالك

يفيق بعد طويل النوم ، ويفتح عينيه بعد مديد العمى ، ويرى قرينه شيطانا أضله بعد ما رآه هاديا دلّه ، فيتأوه لحاضره وماضيه ، حيث يرى قرنه به عذابا فوق العذاب ، فيخاطبه خطاب العتاب : ﴿يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ بونا بين المشرق والمغرب وهو أبعد البعد في هذه الكرة ، وأنا عشتك في أقرب القرب القرين ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾!

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(٣٩).

ترى وما هو الفاعل في ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ﴾ أهو التأوه الندم «يا ليت» ل ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ باشتراك ، إذا فاشتراك باشتراك؟ فلن ينفعكم «يا ليت» كم ، لا فصلا بينكم (إنسان وشيطانه) ولا تخفيفا عن المضلّل زيادة على المضلّل ، ومن اشتراك العذاب الجمع بينهما حيث يتراءيان في حوار وتأوّه!

أم الفاعل «أنكم ..» فاشتراككم في العذاب ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ﴾ لا تسلية ، فكلّ مشغول بنفسه منشغل عن غيره والعذاب شديد لا يبقي مجالا لتسلية ، ولا تخفيفا فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولا يتقاسمه المشتركون ، ولا أن الله يخفّف عن مضلّل ويثقل على مضلّل ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ فكلّ يعذّب على حد ظلمه أيا كان ولو مضلّلا ، أو يكون الإضلال على جهل من المضلّل : فمضلّلا : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ﴾ (١٦ : ٢٥) ، فاشتراك الظلم لزامه اشتراك العذاب كلّ على قدر ظلمه ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾! فلا التأوه ينفع إذ ظلمتم لاشتراك العذاب ، ولا اشتراك العذاب ينفع إذ ظلمتم ، والآية لفظيا ومعنويا تتحمل الفاعلين على البدل ، فتحمل المعاني

المسرودة ككل دون تحميل ، لا سيما الثاني [1] والسبب الرئيسي في ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ﴾ هو ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ فكلّ يعذب لظلمه وعلى حدّه ، دون رعاية للظالم المضلّل ، أو نكاية زائدة على الظالم المضلّل ، اللهم في مزيد الظلم من مضلّل او مضلّل على سواء! ولا يظلمون نقيرا.

موقف بائس متقاعس ، شائن متشائن ، اشتراكا في العذاب ولات حين متاب ، حيث الظلم عريق والضلال عميق :!

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٠). «أف» بعد ذلك الصمم المعمدة والعمى القاصدة والضلال المبين ﴿فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ ولا سمع لهم يستمعون ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ ولا بصر لهم يبصرون ويتبصرون فإنه «كان» طول حياته غريقا ﴿فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ : يبينه لنفسه وسواه ، دون ابتغاء لهداه؟!

فهداية الدلالة هنا لا مجال لها ، وهداية الإيصال إلى المطلوب لست أهلا لها ولو لأهلها ، فكيف تكون إذا لغير أهلها ، ما الله على قدرته المطلقة لا يهدي لها؟ فلما ذا هذا التجشم في إسماعهم وليهتدوا؟ ولم ذلك التحزن عليهم إذ لم يهتدوا ، فإن عشو هم عن ذكر الرحمان في سمعهم أصمهم ، وفي بصرهم أعماهم ولن يهتدوا إذا أبدا! فلا حظوة لهم إلا الانتقام ، بعدل إذ ﴿ما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (٨ : ٣٣) أم وعندك حيث الضلال تعدّى طوره واقتضى انتقاما فوره.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ٤١ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾(٤٢).

ف ﴿إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ﴾ (١٠ :

(١) حيث الاول يتطلب حذف لام التعليل «لأنكم»

٤٦) ﴿... فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾ (١٣ : ٤٠) ف ﴿ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٦ : ٥٢) ﴿إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾(٨٨ : ٢٦).

فهل أنت مستاء بعد لم يهتدوا؟ أم لم يعذبوا بعد ما عاندوا؟ فلا لك هذا ولا عليك ذاك إن عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب.

وترى كيف تناسب نون التأكيد الثقيلة الحاتمة لمدخولها ، وإن الشرطية المشككة؟ .. عله لأن هناك حتمية الموت أيّا كان ، ولكنما الانتقام على حتميته قد يكون قبل الموت أو بعده!

وترى كيف التلاحم بين وعد الانتقام قبل موته ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ..﴾ وبين ترك العذاب فيه : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (٨ : ٣٣)؟

قد يكون ﴿الَّذِي وَعَدْناهُمْ﴾ هنا ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ في ثلاث أخرى ، والعذاب في حياته كل عذابهم يوم الدنيا والثابت فيها ـ أحيانا ـ بعضه ، حيث يتعدى ضلالهم طوره فيقتضي عذابهم فوره.

أو أن الذهاب به لا يعني موته وإلا لقال ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ كما في آياته الأخرى ، بل يعني هجرته من مكة إلى المدينة ، أو أنه يعنيهما كالذي بيّنا وفي أحاديثنا [1] وقد تعني ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ كونه بينهم في مكة قبل هجرته لا حياته!

---

(١) فقد يروى انه موته كما في الدر المنثور ـ ٦ : ١٨ ـ اخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن ابن صالح عن جابر بن عبد الله عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله : فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون ـ نزلت في علي بن أبي طالب انه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي ، وفي ملحقات الإحقاق ١٤ : ٣٥٤ ـ اخرج الحافظ ابن المغازلي في المناقب ص ١٠٢ نسخة مكتبه صنعاء اليمن قال : أخبرنا الحسن بن احمد بن موسى الفندجاني قال حدثنا هلال بن محمد الحفار قال حدثنا إسماعيل بن علي قال حدثنا أبي علي قال حدثنا علي بن موسى الرضا قال حدثنا أبي .

فهناك تسلية لخاطر النبي الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه أدى واجبه في دعوته وماذا عليه بعد مهما ضلّوا ، وأخرى أن الله ينتقم منهم في حياته شطرا أو بعد مماته ، فما عليك إذا إلا استمساك بوحيه :

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٤٣).

عش يا صاحب الرسالة السامية استمساكا بالذي أوحي إليك دونما فترة

. موسى بن جعفر قال حدثنا أبي جعفر قال حدثنا أبي محمد بن علي الباقر عن جابر بن عبد الله الانصاري قال : اني لأدناهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع بمنى حتى قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : لألفينكم ترجعون بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض وايم الله لئن فعلتموها لتعرفنني في الكتيبة التي تضاربكم ثم التفت الى خلفه فقال : او علي او علي ثلاث مرات فرأينا ان جبرئيل غمزه فانزل الله على اثر ذلك ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ بعلي بن أبي طالب او نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ثم نزلت ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ثم نزلت : فاستمسك بالذي اوحي إليك من امر علي انك على صراط مستقيم وان عليا لعلم للساعة ولك ولقومك وسوف تسألون عن علي بن أبي طالب. وفيه اخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن مسعود العبدي قال قرء علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) هذه الآية قال : ذهب نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) وبقيت نقمته في عدوه ، وأخرج ما في معناه جماعة آخرون منهم ابو نعيم الاصفهاني بسنده عن زر بن حيش عن حذيفة انه قرء : فإنا منهم منتقمون بعلي بن أبي طالب ، ورواه مثله في فضائل السمعاني بسنده عن ابن عباس وروى محمد بن العباس عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : ان الله تعالى انتقم بعلي في حرب البصرة وهذا ما وعده الله ورسوله.

وفي ملحقات الاحقاق ٣ : ٤٤٤ روى جماعة من أعلام القوم نزول الآية في علي (عليه السلام) منهم النيسابوري في تفسيره ٢٥ : ٥٧ بهامش تفسير الطبري عن جابر انه قال : لما نزلت : فانا منهم منتقمون قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، ومنهم السيوطي في الدر المنثور ٦ : ١٨ عنه والترمذي في مناقب مرتضوي ٥٣ عنه والقندوزي في ينابيع المودة ٩٨ عن حذيفة بن اليمان مثله.

ولا فتور ، أنه لا يهتدي به هؤلاء ، ودونما نخوة أو غرور أنك تهدي به هؤلاء ، وإنما استمساكا به كما أوحي دونما تقتصر فيه أو قصور!

وترى «أوحي» الماضي يختص الاستمساك بالماضي فقط من وحي القرآن؟ والقرآن قرآن بماضي وحيه ومستقبله ، بل إنما «أوحي» حيث يضم مطلق الوحي المحكم ليلة القدر وقسما من المفصل ، ثم القسم المستقبل من المفصل تتمة لتفصيل محكمه وتكملة لمفصله.

ولأن هذه التكملة من الوحي ، وليس واجب الاستمساك بما أوحي إلا بعلة الوحي ، فليشمل الاستمساك بالوحي القرآني مثلث زمن الوحي ، ف ﴿بِالَّذِي أُوحِيَ﴾ أبلغ من كل الصيغ ، فإن «ما يوحي» لا تشير إلى محكمها الماضي ، و «بالوحي» يشمل كل وحي في كل الرسالات ، و «با الوحي إليك» لا تصرح بمادة الوحي وإنما بمصدره ، و «بالقرآن» لا يشمل محكم القرآن ولا وحي السنة ، فما أبلغه وأشمله ﴿بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾!

ثم ﴿بِالَّذِي أُوحِيَ﴾ دليل أول لوجوب الاستمساك ، ودليل ثان : ﴿إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من صراط العصمة والروح القدسي الرسالي ، يعصمانك بإذن الله عمليا ، فاستمسك بالذي أوحي إليك علميا فإنه صراط مستقيم وإلى صراط مستقيم ، كما أنك على صراط مستقيم وإلى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٢ : ٥٢) تماسكا بين الصراطين المستقيمين : الناطق والصامت ، إيفاء بالرسالة الإلهية في عصمة تامة ، فاستمساك غير المعصوم بكتاب معصوم أو استمساك المعصوم بكتاب غير معصوم ناقص وإلى نقص!

ولماذا «فاستمسك» طلب المسك ، دون «فامسك الذي أوحينا إليك»؟ لأنه كرسول عليه طلب المسك بوحيه بين العالمين ، كما أمسكه لنفسه قبل العالمين ، فالاستمساك إمساك لنفسه وطلب من غيره ، ليصبح الرسول والمرسل

إليهم تمسكا بالوحي يعيشونه في كل حياتهم

فالاستمساك بالقرآن صراط مستقيم لا حول عنه ولا عوج فيه ، وهو سبيل المصلحين: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (٧ : ١٧٠) وهو العروة الوثقى يستمسك بها في إسلام الوجه إلى الله ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ (٣١ : ٢٢) وهو القاطع لكل عذر والحجة في كلّ غدر ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٤٢ : ٢١).

فما دام الاستمساك بالقرآن فأنت على صراط مستقيم ، وإذا تحولت عنه إلى سواه فأين الصراط المستقيم؟ اللهم إلا إذا وافق القرآن! وإلا فسوف تسألون :

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾(٤٤).

كلّ كتابات الوحي ذكر ﴿وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (٢٦ : ٥) والقرآن هو أفضل الذكر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ (١٥ : ٩) تأكيدات منقطعة النظير عن سائر الذكر! وكل رسول من الله ذكر ﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ ..﴾ (٢٦ : ٥).

ولكن الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل الذكر : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً ..﴾ (٦٥ : ١٠) وهنا يأتي ذكر «القرآن» لذكر «رسول القرآن» وقومه : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾!

وترى المعني من ذكر القرآن للرسول وقومه فقط أن يتذكروا به كما أنه حجر الأساس فيما يهدف من ذكر القرآن؟ أم وأنه يرفع ذكر من تذكر

به قدره كما رفع الله ذكر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن معه ، فمئات الملايين من الشفاه تصلي وتسلم عليه وتقرن ذكره بذكر الله في أذانات الصلاة وإقاماتها ، ذكر المحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار على مر التاريخ! وكذلك الذين معه من مسلمي التاريخ أيا كانوا وأيان!

﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ ماذا فعلتم بهذا الذكر؟ وهل أديتم واجب الشكر في ذكره لكم؟ فأما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والذين معه فمعهم ما معهم من إجابات حسب الدرجات ، ولكن الذين ﴿اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ (٢٥ : ٣٠) علميا وعقائديا وعمليا ، رغم ما استظلوا تحت ظله أننا أهل القرآن فاحترمهم العالمون! فهؤلاء ﴿سَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ تهتكا واستنكارا ، وهم الأكثرية الساحقة من المسلمين وحتى من لا نسميهم وهم يجهلون القرآن! متجاهلين موقفه في حوزات الإسلام! يدرسون فيها ويدرّسون كتابات سوى القرآن والقرآن مندرس بينهم لا يدرس ، وهذه قسمة ضيزى ما أظلمها بجنب القرآن أن يندرس ولا يدرس ، اللهم إلا قراءته خاوية خالية عن الذكرى ، خاصة لأرواح الأموات والأحياء منها بعاد وحتى في استماعه! مستمعين إلى كل متكلم إلا قارئ القرآن!

اجل إن هناك مسئولية كبرى عن هذا الذكر العظيم عمن حمّلوه ولم يحملوه ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (١٠٢ : ٨) وليست هذه المسؤولية لما دون ذلك النعيم العظيم!

ترى ومن هم قوم الرسول المسؤلون معه عن ذلك الذكر؟ .. إن للرسول أقواما يجمعهم «العالمون» لمكان رسالته العالمية ، ولكنهم على مدارج شتى من حيث وجهة هذه الرسالة ومفعوليتها فيهم.

فمنهم المكذبون به ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ (٦ : ٦٦) ﴿وَلَمَّا

ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٤٣ : ٥٧).

ومن قومه من قام بتمام الواجب في تقبّل وحمل دعوته وهم عترته المعصومون [١] ، وبينهما متوسطون ويجمعهم سائر العالمين وتجمعهم ﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ مهما اختلفت المسؤوليات حسب المسؤوليات ، في درجات أم دركات!.

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٤٥).

المأمور بالسؤال هنا هو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسؤول عنهم كافة الرسل ، ومورد السؤال ﴿أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ترى ولماذا السؤال وكيف سئل المرسلين وهم أموات؟ فمسائلة الذين درجت قرونهم وخلت أزمانهم غير ممكنة ولا مفيدة إن أمكنت! بطبيعة الحال ليس هذا السؤال ليعلم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد جهل ألّا معبود إلا الله ، فإنه قبل رسالته كان على توحيد الله وهذا السؤال حين رسالته ، كذلك وليس ليعلم هل إن الرسول قبله كانوا موحدين ودعاة التوحيد أم ماذا؟ وإنما لكي يعلم الناكرون أو الشاكون في توحيد الله أن التوحيد سنة الرسالة الدائبة دونما استثناء!

ثم وسؤاله (صلى الله عليه وآله وسلم) الرسل ينطلق عنهم وهم حضور لديه ليلة المعراج [٢] أمّا ذا ، فله الحوار معهم أينما شاء في معراج أم

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٠٤ ينقل روايات عدة ان الائمة (عليهم السلام) هم قومه في هذه الآية وهم المسؤولون ، رواه عن الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) وعنه عن أبي عبد الله (عليه السلام) بعدة اسناد.

(٢) هنا روايات عدة من طريق إخواننا ومن طرقنا أن هذا السؤال كان ليلة المعراج ،

. واللفظ الأكثر رواية «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا عبد الله اتاني ملك فقال : يا محمد : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا﴾ على ما بعثوا؟ قلت : على ما بعثوا؟ قال : على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب ، أقول وهذا في ليلة المعراج كما رواه جماعة منهم العلامة الشيخ ابراهيم بن محمد بن أبي بكر بن حمويه الحويني في فرائد السمطين المخطوط جزء ٣٢ بسند متصل الى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والعلامة البدخشي في مفتاح النجا ص ٤١ مخطوط والعلامة الحسكاني في شواهد التنزيل ج ٣ ص ١٥٦ ط بيروت بسند له عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قال قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما أسري بي الى السماء إذا ملك قد اتاني فقال لي يا محمد! سل من أرسلنا من قبلك من رسلنا على ما بعثوا؟ قلت معاشر الرسل والنبيين على ما بعثكم الله؟ قالوا على ولايتك يا محمد وولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) ورواه مثله ابو الحسن الفقيه ابن شاذان من طرق إخواننا عن ابن عباس له.

ثم أقول : هذه ولاية التوحيد الكامل وعلى ضوئها ولاية الرسالة المحمدية والخلافة العلوية ، فلا تنافي نص الآية ان السؤال حول التوحيد! وكما يرويه أبو نعيم المحدث الاصفهاني في حلية الأولياء في تفسير هذه الآية انه لما أسري برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأحضرت الرسل عنده قال الله تعالى يا محمد! سلهم بماذا بعثكم الله ، قالوا بشهادة الا اله الا الله والإقرار بنبوتك وبولاية علي (عليه السلام)(كفاية الخصام (ص ٣٤٨ / وفي الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ولايتنا ولاية الله وما بعث نبي الا بها.

ومن طريق أصحابنا في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن أبي حمزة الثمالي عن أبي الربيع قال حججت مع أبي جعفر (عليه السلام) في السنة التي حج فيها هشام بن عبد الملك وكان معه نافع بن الأزرق مولى عمر بن الخطاب فقال يا امير المؤمنين من هذا الذي تتكافى عليه الناس؟ فقال هذا نبي اهل الكوفة محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال نافع : لآتينه فلاسألنه عن مسائل لا يجيبني فيها الا نبي او وصي نبي او ابن وصي فقال هشام فاذهب اليه فاسأله فلعلك تخجله فجاء نافع فاتكى على الناس ثم اشرف على أبي جعفر (عليه السلام) .

ـــــــــــــــــــ

. فقال : يا محمد بن علي! إني قرأت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وقد عرفت حلالها وحرامها وقد جئت اسألك عن مسائل لا يجيبني فيها الا نبي او وصي نبي او ابن وصي نبي فرفع اليه ابو جعفر (عليه السلام) رأسه فقال له : سل . فقال : اخبرني كم بين عيسى ومحمد من سنة؟ فقال : أخبرك بقولي ام بقولك؟ قال اخبرني بالقولين جميعا قال اما قولي فخمسمائة سنة واما قولك فستمائة سنة ، قال فاخبرني عن قول الله عز وجل «واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ، من ذا الذي سأل محمد وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة؟ قال : فتلا ابو جعفر (عليه السلام) هذه الآية ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا﴾ فكان من الآيات التي أراها الله محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) حين أسري به الى البيت المقدس ان حشر الله له الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين ثم امر جبرئيل (عليه السلام) فاذن شفعا واقام شفعا ثم قال في إقامته حي على خير العمل ثم تقدم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فصلى بالقوم فانزل الله عليه ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ : فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : على ما تشهدون وما كنتم تعبدون؟ فقالوا : نشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وانك رسول الله أخذت على ذلك مواثيقنا وعهودنا ، قال نافع : صدقت يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا أبا جعفر أنتم والله أوصياء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلفاؤه في التوراة وأسماؤكم في الإنجيل والزبور وفي القرآن وأنتم أحق بالأمر من غيركم:

وفي الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه واما قوله ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا﴾ فهذا من براهين نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) التي آتاه الله إياها وأوجب به الحجة على ساير خلقه لأنه لما ختم به الأنبياء وجعله الله رسولا الى جميع الأمم وساير الملل خصه بالارتقاء الى السماء عند المعراج وجمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به وحملوه من عزائم الله وآياته وبراهينه فأقروا أجمعين بفضله وفضل الأوصياء والحجج في الأرض من بعده وفضل شيعته وصيه.

غير معراج ولكنه سؤال بإجابته لا يفيدان من سواه فإنه غيب حيث المؤمنون عنه بعاد فضلا عن سواهم! وإنما هو تشريف لهم أن يسألوا وله أن يسأل.

ومن ثمّ سؤالهم عن كتبهم الناطقة ـ على تحرّفها ـ بجوابه حيث المآت من آياتها البينات إجابة له شافية : «لم يجعل ﴿مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ مهما تمسّك المنحرفون من أهل الكتاب بمتشابهات من آياتها أو مختلقات ، ولكنما المحكمات الثابتة منها ناطقة دون تشابه واختلاف! ودليل الفطرة والعقل يؤيدان توحيد العبادة ويرفضان شركها فإنه ظلم مستحيل على الله أن يسوي بينه وبين خلقه في العبادة.

ثم وسؤال علماء الأديان غير المنحرفين منهم والمتطرفين ، وإنما الربانيون منهم وهم حضور في كل زمان : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ ..﴾ (١٠ : ٩٤) وأهمّ ما أنزل عليه هو التوحيد ، وشكه (صلى الله عليه وآله وسلم) من باب إياك اعني واسمعي جارة.

وذلك السؤال في الحقلين الأخيرين استجاشة للأمم المشركة أو المتشككة أن يتساءلوا أهله عما يشركون أو يتشككون ، والجواب كلمة واحدة عقليا ونقليا : ﴿أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

وعلّ مربع السؤال معني في أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يخصه كسؤال الحضور في معراج وغير معراج ، وما يعمه وسواه كالآخرين.

وفيما يخصه نجد أبعاد الزمان والمكان وأبعاد الحياة والموت كلها تطوى وتتلاشى أمام ذلك السؤال من إمام المرسلين ، فيراهم جميعا ويسألهم ما أمره

الله ويسمع الجواب الذي نجده في كتاباتهم وعلى ألسنة الربانيين من علماء أديانهم.

ثم وفي غير هذا الموقف الجماهيري الرسالي ليلة المعراج ، بإمكانية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يواجه أي رسول أيا كان فإنهم كلهم من أمته المؤمنين به الناصرين له كما في آية الميثاق وروايته :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٣ : ٨١)

ففي الامالي عن الصادق (عليه السلام) عن أبيه عن جده عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أخذت من النبيين ميثاقهم بربوبيتي ونبوتك وولاية علي.

أفبعد هذا كله ، يحجز الرسول عن سؤاله المرسلين المؤمنين به حاجز الزمان وحاجز المكان وحاجز الموت أمّاذا من حواجز يخرقها!

وترى ان معراجه وما سواه من آياته الكبرى اكبر ام سؤاله المرسلين في معراجه؟ طبعا معراجه الذي حوى سئواله ، اللهم الا آيته الكبرى : القرآن!.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٦)
فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (٤٧) وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها
وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ
إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ
قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ
مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ
الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٥٤)

فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (٥٦)
وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ
لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي
إِسْرائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا
تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢)
وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا
اللهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤)

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** (٦٦) **الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾(٦٧)

﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ**﴾ (٤٦).

حلقة مختصرة غير مختصرة من قصة موسى وفرعون وحوار بينهما ، بينها وبين قصة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) متشابهات كأنها نسخة تكرّر وأسطوانة تعاد! تدليلا على وحدة الرسالة في جوهرتها وآياتها ، ففي عرض له (صلى الله عليه وآله وسلم) تسليات واستقامات وطمئنينات.

وهنا في إرسال موسى إلى فرعون وملاءة دلالة صريحة على عدم اختصاص رسالته ببني إسرائيل مهما كانوا حجر الأساس في دعوته إذ كانوا مستضعفين أمام الفرعنة الجبارة ، و «آياتنا» كجمع مستغرق آيات الله كلها وكما في أخرى ﴿**وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى**﴾ (٢٠ : ٥٦) هذه

لا تعني كل الآيات الإلهية إلا جلّها ، و «كلها» و «آياتنا» هنا وهناك تعنيان كل الآيات التي كانت تناسب ظرف الزمان وظرف المكان ، وما أرسل رسول بمثل هذه المجموعة من الآيات التي تحلّق على الأرض والسماء برا وبحرا وإنسانا في مختلف الضروب والظروف! ولأنها كانت من أصعبها وأصلبها أصبحت تترى عليهم يمينا وشمالا ، ترغيبا وترهيبا لعلهم يرجعون ،» وجمعية أخرى لهذه الآيات أنها تجمع بين متصلة كاليد البيضاء ومنفصلة قريبة كالعصا حيث قلّت حية تسعى وثعبانا مبينا ، وقلّبت الحجر اثنتي عشرة عينا ، والبحر رهوا ، وطريقا يبسا ، ثم منفصلة بعيدة هي الدم والقمل والطوفان والضفادع بآيات مفصلات تترى.

فقد أوتي إذا آيات الله كلها بأنواعها في هذا المثلث ـ إلى فرعون وملإه!.

﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ﴾(٤٧).

متظاهرين أنها ضحك السخرية والاستهانة بها ، وهذه من سيرة الفرعنة الثراء ، توهينا لرسالات الله بآياتها : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٨٣ : ٢٩) يوم الدنيا ، وأما الآخرة : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩ : ٨٣).

﴿وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٤٨).

وهذه ظاهرة مكرورة واقعة في آيات موسى.

﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ﴾(٤٩).

وكان العذاب المدعو كشفة من آل فرعون هو الرجز : ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ. وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ. فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ ..﴾ (٧ : ١٣٦).

﴿فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾(٥٠).

وإلى هنا تتختم الآيات منذ حيّة العصى حتى غرقهم في اليم ، يطويها طيا لعرض حوار في هذا البين ، وعجب من هؤلاء النكدين الأشراس ، تراهم غرقى في بلاء الآيات ، وثم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم رجز البلاء ، ويعدونه بذلك الاهتداء ، وهم على ما هم يتهتكون موقفه الرسالي : ﴿أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾؟! وموقف الرب «ربك» كأنه ربه لا سواه و ﴿بِما عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ كأن عهده لا يتخطاه إلى سواه كشفا للرجز عن هؤلاء!

فلو كان ذلك «الرجز» سحرا فلتدفعوه بسحر مثله وأنتم أهله ، وإن كانت معجزة فلما ذا ﴿يا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾؟ ومن ثم «ربك» ثم «عندك»؟ فلو كنتم من أهل الإيمان والاهتداء بالآية الإلهية فتلك هي الآية والأخيرة من الآيات كلها ، فهل إن كشف الرجز آية ووقوعه سحر وليست آية؟ ولكنما الله يستجيبهم ﴿إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ﴾ تأكيدا للحجة وإنارة للمحجة ف ﴿إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ومن قبل كان يعلم نكثهم بأضرابهم الأسلاف السّلاف : ﴿وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٢٣ : ٧٥) ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾ (٤٤ : ١٥).

تلك آيات من الله وما واجهها آل فرعون فما هي الآيات الفرعونية وإجاباتها؟ إنها لا تتخطى خداعات خواء وادعاءات جوفاء وزخرفات تجلب عقول الجماهير الساذجة المخدوعة بالأبهة والبريق وزينة الحياة الدنيا.

﴿وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾(٥٣).

عرض تافه رخيص يواجه به آيات الله البينات ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ ...﴾ وماذا يثبت له ملك مصر الذي حصل عليه بالسيف والنار ، بالزور والغرور؟ وحتى إذا كان له حقا وخيرة من شعبه ، أكلّ ذلك يثبت أنه إله؟ أم عبد يستغني عن الله؟ إذا فكل ملك إله ، أو هو مستغن عن الله! وترى من هذا الذي هباه وأعطاه؟ هل هو هو أم الله؟ فليس هو إذا بإله ولا يستغني عن الله!.

فرعون بيّن فضله واستجاش قلوبا مستغفلة مستخفّة ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ بأبصاركم ، إذ لا حاجة إلى بصيرة لهذا العرض المحسوس؟ .. ومن ثم يبين مهانة موسى عنده ﴿وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ ﴿فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ .. ومهانته الأخرى عند الله ﴿أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾؟ ويقايس بين نفسه وبين ذلك المهين ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ...﴾.

فرعون الطاغية هنا في تدجيله بين نفي وإثبات ، يثبت لنفسه كلّ أهلية ينفيها عن موسى ، وينفي عن موسى ما يثبته لنفسه :

١ ـ ﴿لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ﴾ وموسى مهين ليس له ملك ولا هو من الطائفة الملوكية ، بل من بني إسرائيل المستضعفين المستخدمين!

٢ ـ أنا أبين وهو لا يكاد يبين ، حيث العقدة في لسانه ولا عقدة في لساني!

٣ ـ أنا عليّ أسورة من ذهب ، ﴿فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾؟

٤ ـ أنا معي جندي مقترنين ولم يجيء مع موسى حتى ملائكة مقترنين.

ولكن ليس ملك مصر ولا أي ملك أوسع منه كرامة ، ولا استضعاف موسى مهانة ، وأما أنك تبين وتفصح عما تريد ، فما ذا تبين إلا خرافات وادعاءات ، وموسى الذي لا يكاد يبين على حد زعمك يبين كما يستطيع حقائق بينات.

وترى ماذا يعني ﴿لا يَكادُ يُبِينُ﴾ هل لأنه لم يكن فصيحا كما يليق ﴿وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي﴾ (٢٨ : ٣٤) ينطلق لسانه ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ﴾ (٢٦ : ١٣) أم كانت في لسانه عقدة لا ينطلق كما يحق ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٠ : ٢٨) فقد أرسل أخاه هارون ، وأحل عقدة من لسانه ﴿قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾ (٢٠ : ٣٨) فصاحة متصلة بإزالة العقدة عن لسانه ، ومنفصلة بإرسال هارون وهو أفصح منه لسانا ، وتعزيزا بتأزيره بأخيه ، وكل ذلك حصل.

وأما الملائكة المقترنون ، فهم ليسوا معك ، اللهم إلّا شرذمة كافرة من الضالين معك ، وآيات موسى التسع المقترنة به تكفيه عن إقران الملائكة ، ولو اقترنوا به لكانوا في صور الرجال فما هي إذا فائدة الاقتران؟.

وأما الأسورة من ذهب تصدّق رسالته! فهي تصدق فرعنة وترفا وقد تكذب الرسالة ، حيث الرسالة الإلهية تناحر هذه الفخفخات المادية ، وتشاجر المترفين ذوي الأثرة والكبرياء!.

(لقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون (عليه السلام) على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصيّ فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال : ألا تعجبون من هذين؟ يشترطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما مما ترون من حال الفقر والذل ، فهلا ألقي عليهما أساور من ذهب ، إعظاما للذهب وجمعه ، واحتقارا للصوف ولبسه ، ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل ، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحلت الأنباء ، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين ، ولا لزمت الأسماء معانيها ، ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم ، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم ، مع قناعته تملأ القلوب والعيون غنى ، خصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى ، ولو كانت الأنبياء (عليهم السلام) أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام وملك تمتد نحوه أعناق الرجال وتشد إليه عقد الرحال لكان ذلك أهون على الخلق في الإعتبار ، وأبعد لهم من الاستكبار ، ولأمنوا رهبة قاهرة لهم ، ورغبة مائلة بهم ، وكانت النيات مشتركة والحسنات متقسمة ، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون

الإتّباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أمورا له خاصة ولا يشوبها من غيرها شائبة ، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل» (١).

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾(٥٤).

الاستخفاف هو طلب الخفة من ثقل ، وثقل الإنسان عقله وهو إمام النواميس الخمسة في كيان الإنسان وهي العقل والدين والنفس والمال والعرض ، فإذا خف العقل باستخفاف تغافلا عنه وتنازلا عن حكمه تخلفه الطاعة المطلقة لمن يستخف ، وهو الاستحمار الذي يخلفه سائر الأبواب السبع الجهنمية من الاستثمار والاستعمار والاستكبار والاستبداد والاستضعاف ، فالاستحمار وليد الاستخفاف ثم هو أم لسائر الأبواب فإذا خف الإنسان عقله أمام الاستخفاف ، حرمانا عن التعقل أو ابتعادا عن حكم العقل أصبح كالريشة في مهب الرياح الاستحمارية ، متخليا عن كيان الإنسانية ككل ، إلى أنزل وأنذل دركات البهيمية اللّاشعورية ، وهنالك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى! وكافة المحاولات الفرعونية في حمل قومه على طاعته تختصر في هذه الصيغة : «فاستخف ..» فللمستضعفين أمام الطغاة إحدى حالات ثلاث.

المنعة والاستقامة على موازين العقل والحكمة كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ، فلا يزيده الاستخفاف إلا قوة وسدادا ، وهؤلاء هم المستضعفون المؤمنون الذين وعدهم الله خلافة الأرض

(١). نور الثقلين ٤ : ٦٠٦ ح ٦٦ عن نهج البلاغة عن امير المؤمنين علي (عليه السلام).

ووراثتها ، حيث لا يخفّون مهما يستخفون ، بل ويزدادون ثقلا في الإيقان وتبلورا في الإيمان.

٢ ـ سفه وقلة عقل دون فسوق ولا تقصير ، اللهم إلّا في مبادئه ، وهنا الطاعة بالاستخفاف واقعة لا محالة ، ولا ذم فيها إلّا قليلا : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُولئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ..﴾ (٤ : ٩٩).

٣ ـ تخاذل دون تثاقل على عقل ودراية ، بفسق عامد ، رغم إمكانية المنعة والاستقامة : وهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً﴾ (٤ : ٩٧).

هؤلاء هم المستخفون فسقا حيث يخفون ، يحتنكهم كل شيطان وهم له مطيعون ، يحنون ظهورهم فهم عليهم راكبون ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾! فمادة الفسق : الخروج عن حكم العقل والفطرة وعن حكم الله ، تزداد فعالية لما يستخف الإنسان عن أثقال الإنسانية فيخف تنازلا عنها وتخاذلا : فطاعة مطلقة للمستخف المستحمر! فاستخفاف الطغاة لهذه الجماهير استحمار فاستثمار دائب لا حول عنه ، حيث يعزلون الجماهير عن أسباب المعرفة فيتناسونها حتى ينسوها ، فلا يعودون ليبحثوا عنها ، فلما تخلّوا عن المعرفة بأسبابها ألقوا في روعهم ما يشاءون من بواعث الكوارث فيسهل استخفافهم ويلين سلسا قيادهم فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال حيث يلعبون بهم كالريشة في مهب الريح العاصفة.

ولما انتهت مراحل الابتلاء إلى هذا الحد من الخفة والبلاء ، وقع هنالك الانتقام في الأولى قبل الأخرى.

﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾(٥٦).

وهذه سنة الله بالنسبة للمستخفين الفاسقين العائشين على هوامش الفرعنات ، يستدرجهم مليّا يملي ، ثم يأخذهم بغتة وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله) على ضوء هذه الآية : (إذا رأيت الله يعطي العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له ثم تلا هذه الآية) [1].

وترى كيف بإمكان العبد أن يؤسف ربه ، وربّنا لا يأسف مهما توفرت عوامل الأسف؟ لا يعني «آسفونا» هنا إلّا أنهم عملوا الأعمال المؤسفة وهو سبب الانتقام ، وأمثال هذه الأفعال تجرّد عما لا يليق بساحة الربوبية كما الغضب وأضرابه من تغير الحال حيث (لا يتغير بانغيار المخلوقين)! فهو تعالى (لا يأسف كأسفنا) [2]﴿فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً﴾ ماضيا فيه عبرة «ومثلا» نموذجا من عواقب الفسوق «للآخرين» كمن أتوا ويأتون بعدهم من الفاسقين ، وهم أمثال في رزاياهم وقضاياهم كما قومك من هؤلاء الآخرين.

---

(١). الدر المنثور ٦ : ١٩ ـ اخرج احمد والطبراني والبيهقي في الشعب وابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال ..

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٠٨ في كتاب التوحيد باسناده الى احمد بن أبي عبد الله رفعه الى أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل ﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ﴾ قال : ان الله تبارك وتعالى لا يأسف كأسفنا ولكنه خلق اولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مدبّرون فجعل رضاهم لنفسه رضى وسخطهم لنفسه سخطا وذلك لأنه جعلهم الدعاة اليه والأدلاء عليه فلذلك صاروا كذلك ، وليس ان ذلك يصل الى الله كما يصل الى خلقه ولكن هذا معنى من قال من ذلك وقد قال ايضا : من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها ، وقال ايضا : من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وقال ايضا ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ[1] جَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ (٥٩) ترى من هنا ضارب المثل وما هو هذا المثل الذي فاجأ صدا من هؤلاء ضجّا وضحكا؟! [2] ثم احتجوا بما احتجوا جدلا وخصومة ، فجاءت الإجابة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ.﴾.؟

هل هو المثل المضروب بابن مريم في سورة مريم (عليها السلام) فإنها المكية الوحيدة التي أتت بذكر عيسى بن مريم ، حيث يذكر مع جموع من النبيين من ذرية آدم ، وتختم قصته معهم بأنه عبد أنعم عليه كما هم : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا ..﴾ (٥٨) ثم وفيها رد على الذين تبنّوا المسيح لله ﴿ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ .. وَإِنَّ

. ﴿الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ وكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك ولو كان يصل الى المكوّن الأسف والضجر وهو الذي أحدثهما وانشأهما لجاز لقائل ان يقول : ان المكون يبيد يوما ، لأنه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير ، فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة ولو كان ذلك كذلك لم يعرف المكوّن من المكوّن ولا القادر من المقدور ولا الخالق من المخلوقين تعالى الله عن هذا القول علوا كبيرا هو الخالق للأشياء لا لحاجة فإذا كان لا لحاجة استحال الحد والكيف فيه فافهم ذلك إنشاء الله.

ورواه مثله في اصول الكافي باسناده عن حمزة بن بزيغ عنه (عليه السلام) : .. أقول : بداية الحديث لتوجيه العوام حيث «نا» في «آسفونا» هو الله وليس أوليائه الا بضرب من التأويل أنّ أسفهم أسف الله ، وذيل الحديث لتوجيه الخواص ان أسفه يجرّد عن تغير الحال الى عذابه الناتج عن الأسف.

(١). الصدّ بالكسر هو الضج الصريح والضحك وقد يروى كذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «الصدود في العربية الضّحك ، معاني الاخبار للصدوق بسند متصل عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي الدر المنثور ٦ : ٣٠ ـ اخرج ابن مردويه .

اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾(٣٦).

فهنالك ﴿قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ : ضجة وضحكة ، فضجة وإنكارا لما ضرب أنه عبد وليس إلها ولا ابنه فلا يعبد ، وإنما هو حسب النصارى وهم أهل كتاب ، إله أو ابن إله. يعبد ، ومن ثم ضحكا : كيف أنت تصدنا عما نعبد من ملائكة وهم آلهتنا [(١)] وهؤلاء الكتابيون : يعبدون بشرا ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ طبعا آلهتنا الملائكة! فأنت تصدّنا ونحن منك نصّد! ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾ فالقرآن يضرب ابن مريم مثلا للتوحيد ، وهم يحولونه إلى مزعمة النصارى مثلا للشرك ، فمثل الحق يحوّل إلى مثل الباطل ، ضجة في تحويله وضحكة من تحوّله : ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾! وطبعا آلهتهم ـ في زعمهم ـ خير من ابن مريم في زعم النصارى.

وهذا تبرير كتابي في جدلهم الخصوم أن يعبدوا آلهتهم الملائكة من دون الله! فيأتي الجواب كما لمح له في مريم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ.﴾!

أم إن ضارب المثل هو من هؤلاء لما نزل ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال قائلهم للرسول (صلى الله عليه وآله): خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال (صلى الله عليه وآله) : بل لجميع الأمم! فقال خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وتثني عليه خيرا وعلى أمه وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيرا والملائكة يعبدون فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا نحن وآلهتنا أن نكون معهم ، فسكت النبي (صلى الله عليه وآله) وفرح القوم وضحكوا وضجوا فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها

---

(١). الدليل على ان هؤلاء القوم كانوا عبدة الملائكة هنا قوله فيما بعد «وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً» وفيما سبق» «وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ (١٩) : وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ» (٢٠).

مُبْعَدُونَ﴾!ونزلت هذه الآية ايضا ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ :﴾[١].

وهنالك تنقلب الحجة عكس ما مضت ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ لعله هو! فإذا هو في الجحيم فنحن وآلهتنا نرضى ذلك الجحيم!

أو أن ضارب المثل رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث شبه عليا (عليه السلام) بابن مريم كما رواه سادة أهل البيت عن علي (عليه السلام) قال : جئت إلى النبي (صلى الله عليه وآله) يوما فوجدته في ملاء من قريش فنظر اليّ ثم قال : يا علي! إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى بن مريم (عليهما السلام) أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا واقتصد فيه قوم فنجوا فعظم ذلك عليهم

---

(١). وفي الدر المنثور ٦ : ٢٠ ـ اخرج احمد وابن أبي حاتم والطبراني وأبن مردوية عن ابن عباس ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لقريش انه ليس احد يعبد من دون الله فيه خير فقالوا : الست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا وقد عبدته النصارى فان كنت صادقا فانه كآلهتهم فانزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال يضجون وانه لعلم للساعة قال : خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة ، وفيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان المشركين أتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا له أرأيت ما يعبد من دون الله اين هم؟ قال : في النار قالوا ، والشمس والقمر قال : والشمس والقمر ، قالوا فعيسى بن مريم فأنزل الله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾.

أقول : وما ذكرناه في المتن تجده في تفسير الرازي ج ٢٧ ص ٢٢١ وفي هامشه : ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) رد عليه عند ذلك بقوله لابن الزبعري «ما أجهلك بلغة قومك ، «ما» لما لا يعقل ، وحينئذ فلا تقع على الذين اتخذهم الكفار آلهة من الأنبياء والملائكة والصالحين وانما عنى من الأصنام التي عبدوها ، ثم أقول : ان «ما» في ﴿ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يخص غير ذوي العقول فلا يشملهم الا بدليل و «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى» يستثني الصالحين!.

وضحكوا وقالوا يشبهه بالأنبياء والرسل فنزلت هذه الآية» [١].

فالوجهان الأولان موجّهان بالقرآن أولا فالأول وثانيا فالثاني ، وهذا الأخير موجّه وعلى هامش القرآن بالسنة [٢] لا أنه المقصود فقط أم بالأصالة ،

---

(١) رواه في مجمع البيان وفي نور الثقلين ٤ : ٦٠٩ عن روضة الكافي بسند متصل عن أبي بصير قال : بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم جالسا إذ اقبل امير المؤمنين (عليه السلام) فقال له رسول الله (عليه السلام) : ان فيك شبها من عيسى بن مريم لولا ان تقول فيك طوائف من امتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك قولا لا تمر بملإ من الناس الا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة قال : فغضب الأعرابيان والمغيرة بن شعبة وعدة من قريش معهم فقالوا : ما رضي ان يضرب لابن عمه مثلا الا عيسى بن مريم فانزل الله على نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) : ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون .. وفي كتاب الخصال في احتجاج علي (عليه السلام) على الناس يوم الشورى قال : قال : نشدتكم بالله هل فيكم احد قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) احفظ الباب فان زوارا من الملائكة يزوروني فلا تأذن لأحد فجاء عمر فرددته ثلاث مرات وأخبرته ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) محتجب وعنده زوار من الملائكة وعدّتهم كذا وكذا ثم اذن فدخل فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! اني جئتك ثلاث مرات غير مرة وكل ذلك يردني علي ويقول : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) محتجب وعنده زوار من الملائكة وعدتهم كذا وكذا فكيف علم بالعدة ، أعاينهم! فقال : يا علي! كيف علمت بعدتهم؟ قلت : اختلفت علي التحيات وسمعت الأصوات فأحصيت العدد قال (صلى الله عليه وآله وسلم) صدقت فان فيك شبها من اخي عيسى فخرج عمر وهو يقول : ضربه لابن مريم مثلا فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ غيري؟ قالوا : اللهم لا. وفي مناقب ابن شهر آشوب ، قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يدخل من هذا الباب رجل أشبه الخلق بعيسى فدخل علي (عليه السلام) فضحكوا من هذا القول فنزلت هذه الآية :

(٢) أخرج في كفاية الخصام بهذا الصدد عشرين حديثا (١٣) منه من طريق إخواننا .

وانما تأويلا يلائم القرآن حيث الجواب عن صدهم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ لا يناسب نصا إلّا الأولين ، والأخير يناسب التأويل بتأويل الدليل! ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾ : إن المثل الذي ضرب بابن مريم نحن ضربناه حقا وأنت ، وهم ضربوه لك جدلا ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

فلو كان الجدال بحق وإلى حق فبالتي هي أحسن : ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وإن كان بباطل وإلى باطل فهي أسوء الجدال ، أم بباطل إلى حق أو حق إلى باطل فهو سيئ وليس إلّا خصومة للحق [1].

ـ والباقية من طرقنا وممن رواه من إخواننا الحافظ ابو نعيم الاصفهاني في كتابه نزول القرآن في علي عن ربيعة بن ناجد عن علي (عليه السلام) انها نزلت في شأنه ، ومحمد بن العباس بسنده عن ابن عباس وعبد الله بن احمد بن حنبل بسنده عن الشعبي وبسنده عن علي (عليه السلام) ومحمد بن قاسم بسنده عن ربيعة بن ناجد عن علي (عليه السلام) ، وفي ملحقات إحقاق الحق ٣ : ٣٩٨ ورواه احمد بن حنبل في فضائل الصحابة ١٧٢ والنسائي في الخصائص ٣٩ ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى ٩٢ وابن عبد ربه الاندلسي في عقد الفريد : ١٩٤ وابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة ٩٥ وابن حجر الهيثمي في الصواعق ١٢١ والسيوطي في تاريخ الخلفاء ١١٧ والمتقى الهندي في منتخب كنز العمال بهامش المسند ٥ : ٣٤ والمير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٥٨ والقندوزى في ينابيع المودة ١٠٩ ، ومنهم سعيد بن الحسني وسفيان بن وكيع وابن عقدة وعبد الله بن احمد وابن الصلت والوكيع واحمد بن القاسم كما في البحار ٩ : ٦٠ ـ ٦٢.

(١) الدر المنثور ٦ : ٢١ ـ اخرج سعيد بن منصور واحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن أبي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل ثم قرأ ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ وفيه اخرج سعيد بن منصور عن أبي إدريس الخولاني قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما ثار قوم فتنة إلّا أوتوا بها جدلا وما ثار.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ (٥٧)

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ لا إله او ابن إله حتى يقاس بآلهتكم أيهما خير فليس العبد إلا ابن عبد ﴿أَنْعَمْنا عَلَيْهِ﴾ بما أنعمنا، كما بيّن في مريم ﴿وَجَعَلْناهُ مَثَلاً﴾ آية بنفسه حيث ولد دون أب، وآية برسالته وآياتها، مثلا إلهيا ف ﴿لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ والمسيح من المثل الأعلى في الأرض ﴿مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ كحجر الأساس في رسالته ودعوته ثم وللعالمين أجمعين، فنحن جعلناه مثلا لنا، ثم جماعة جعلوه لنا مثلا فنسوا المثل وضلوا في المثل! :

﴿وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(٦٢).

أنتم البشر تعبدون الملائكة لكونهم ملائكة؟ ﴿وَلَوْ نَشاءُ﴾ ولن ﴿لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً﴾ أن نبدلكم ملائكة، أو نجعلكم في عصمتهم وطهارتهم كملائكة ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ كونهم أناسي من قبل، ويخلف بعضهم بعضا بالتناسل!

. قوم في فتنة الا كانوا لها حرزا، وفيه اخرج ابن عدي والخرائطي في مساوي الأخلاق عن أبي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان الكذب باب من أبواب النفاق وان آية النفاق ان يكون الرجل جدلا خصما.

ويروي ابن جرير الطبري في جامع البيان بسند متصل عن أبي امامة قال : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن فغضب غضبا شديدا حتى كأنما صب على وجهه الخل ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فانه ما ضل قوم قط الا أوتوا الجدل ثم تلا (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

إذا فأنتم تعبدون أمثالكم ، ومن بالإمكان تبديلكم بهم.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ وما هو المرجع لضمير الغائب في «إنه»؟ هل هو المسيح (عليه السلام) في خارقة ولادته علم للساعة الخارقة عندكم ، وكذلك في سائر خوارقه ولا سيما إحياء الموتى؟ أو أنه في نزوله آخر الزمان فإنه من أشراط الساعة [1]؟ وهو كذلك في كل ذلك! أو أن القرآن بما هو خاتمة الوحي في آخر الزمان لعلم للساعة؟ وهو كذلك! أو أن نزول الملائكة إلى الأرض علم للساعة ﴿لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠ ـ أخرجه الفرياني وسعيد بن منصور ومسدد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني من طرق ابن عباس «قال : خروج عيسى قبل يوم القيامة «واخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة في الآية قال : خروج عيسى يمكث في الأرض أربعين سنة تكون تلك الأربعون اربع سنين يحج ويعتمر ، واخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : آية للساعة خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن مثله.

وفي مجمع البيان قال ابن جريج اخبرني ابو الزبير انه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم تعال صل بنا فيقول ان بعضكم على بعض أمراء تكرمة من الله لهذه الامة ـ أورده مسلم في الصحيح وفي حديث آخر : كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم؟ واخرج مالك والشيخان وابو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله احد حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها ، أقول : وحديث نزول المسيح (عليه السلام) تواتر عن طريق الفريقين وانه يصلي خلف المهدي (عليه السلام) وفي قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ دلالة قوية على هذا النزول.

الصَّادِقِينَ : ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ (١٥ : ٨)؟

كل ذلك علم للساعة فكل محتمل والجمع أجمل على درجات لهذه المحتملات ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾!

إنه لعلم للساعة ، لا إله الساعة او الدنيا إمّا ذا ، وانما مثل للعالمين يوم الدنيا وعلم للساعة فلا تمترن بها! ﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ [1] إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

صد متأكد للشيطان عليكم ف «لا يصدنكم» وعداء متأكدة له عليكم يبينه لكم ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤). فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾(٦٥).

بينات عيسى التي جاء بها هي الآيات المعجزة البينة وآيات الإنجيل وآيات من نفسه المقدسة حيث التربية والعناية الإلهية بيّنة في هذه الثلاث وإن كانت درجات ، ﴿قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ وهذه كلها حكمة والرسالة كلها حكمة عقلية وعلمية وعملية ، تحكم ما انفصل وفصل بين الناس ، أو بين الإنسان ونفسه من المشككات ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فالكل موكول الى خاتمة الرسالات محمد (صلى الله عليه وآله) كما ينطق به القرآن : ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (١٦ : ٨٩) [1] وينطق به الإنجيل كما في يوحنا ١٦ : ٧ ـ ١٥) ومما فيه «وان

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦١١ عن بصائر الدرجات علي بن إسماعيل عن محمد بن عمرو .

عندي كثيرا أقوله لكم ولكنكم لا تطيقون حمله الآن (١٢) ولكن متى جاء روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق.» [(١)]!

ثم الحكمة هي الناحية الإيجابية من الشرعة الانجيلية «ولأبين :» من الناحية السلبية التي تتكلف بيان جذور من الخلافات والانشقاقات بينهم ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ : في سلبياته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في حكمه الإيجابية ومنها ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ سواء ولا أمتاز عنكم بربوبيته ، فأنا وأنتم عبيد رب واحد «فاعبدوه» لا سواه ﴿هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا سواه ولكن.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أحزاب مذهبية متخلفة عن شرعة

ـ الزيات عن عبد الله ابن وليد قال قال لي ابو عبد الله (عليه السلام): اي شيء يقول الشيعة في عيسى وموسى وامير المؤمنين (عليه السلام) قلت : يقولون ان عيسى وموسى أفضل من امير المؤمنين (عليه السلام) قال : أيزعمون ان امير المؤمنين قد علم ما علم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قلت : نعم ـ ولكن لا يقدمون على اولى العزم من الرسل أحدا قال ابو عبد الله (عليه السلام) فخاصمهم بكتاب الله قلت : وفي اي موضع منه أخاصمهم؟ قال : قال الله تبارك وتعالى لموسى ﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ علمنا انه لم يكتب لموسى كل شيء وقال الله تبارك وتعالى لعيسى : ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وقال تبارك وتعالى لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وفي الاحتجاج للطبرسي عن الصادق (عليه السلام) يستدل بدلا عنها : وقال لصاحبكم امير المؤمنين (عليه السلام) قل كفى بالله شهيدا ، بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ، و ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ وعلم هذا الكتاب عنده.

(١) اوردنا في كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية بشارات ثلاث من يوحنا ١٤ : ١٦ و ١٥ : ١٦ : ٧ ـ ١٥ : يبشر فيها المسيح بمجيء بريكليطوس «محمد ـ احمد» ومن ضمنها انه يرشدكم الى جميع الحق ـ راجع ص ١٤٦ ـ ١٥٧.

الحق ، كان من بين هؤلاء اختلفوا في البينات والحكم والبيان التي جاء بها المسيح ظلما ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ بين قائل إنه الله ، وقائل إنه ابن الله ، وقائل بالثالوث ، وقائل بألوهية المسيح وأمه وآخرين في أخريات من العقائد والطقوس تأتي في طيات آياتها المفصلات (١).

جاء المسيح بصراح التوحيد والتسامح الروحي والخلقي قبل الشكليات الخاوية التي تخلت عن هذه الروح فحاربه المحترفون الناكرون له وجماعة من المعترفين إياه ، تفريطا من هؤلاء وإفراطا من أولاء ، فأصبح بين من يلعنونه ومن يؤلّهونه على مختلف مذاهبهم الفلسفية وسواها ، وبقي القليل ممن وفى لرعاية الحق وهم الموحدون المخلصون حيث اتبعوه وتعرضوا لأنواع العقوبات من قبل الأحزاب!

---

(١) شرحناها في كتبنا الثلاثة «عقائدنا . المقارنات . رسول الإسلام في الكتب السماوية» : ومن هؤلاء الأحزاب طائفة الصدوقيين التي تولت الكهانة من عهد داود وسليمان وهم حسب احترافهم كانوا متشددين في شكليات العبادات وطقوسها وينكرون البدع وهم مترخصون في ملاذ الحياة ناكرون للقيامة.

وطائفة الفريسيين وكانوا على شقاق مع الصدوقيين ينكرون ذلك التشدد وجحدهم للقيامة ، والسمة الغالبة عليهم هي الزهد والتصوف وفي بعضهم اغترار بالعلم والمعرفة والمسيح ينكر عليهم تلك الخيلاء والشقشقة.

وطائفة السامريين وكانوا خليطا من اليهود والآشوريين تدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية وتنفي ما عداها من المضافات إليها.

وطائفة الآسين او الأسينيين وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية يعيشون عزلة عن سائر طوائف اليهود ويأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف :

وهناك غير هذه الطوائف نحل فردية شتى وبلبلة في الاعتقادات والتقاليد بين بني إسرائيل الراضخين لضغط الامبراطورية الرومانية الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧)

«هل ينظرون» : . نظرا أو نظرة . أمرا «إلا الساعة» فإنهم ناكرون كافة الإنباءات الغيبية والآيات الإلهية فلم تبق ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ مباغتة مفاجئة تحدث غريبا فهم كانوا يرونها بعيدا ونراه قريبا ﴿تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لا واقع الساعة ولا اعتقاد مجيئها ، لا شعورية في بعدين ، عامدة إذ لم يشعروها في حياة التكليف حيث لم يعتبروا ويستدلوا بآياتها ولم تنفعهم مؤشراتها ، وغير عامدة إذ ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ دون خبرة سابقة بزمن وقوعها ، او أمارات متصلة بوقوعها ، وانما هي مباغتة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾! وان كانت مؤشرة بأشراطها وهم يتغافلونها!

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾(٦٧) [(١)] ترى ولماذا هنا الأخلاء دون الأصدقاء أو الاودّاء؟ علّه لأن الخلة هي قمة الصداقة والمودة لحد يخل الخليل في خليله كأنهما نفس واحدة ، أو تخل المودة بينهما وفي كل منهما فإذا أصبحت الأخلاء أعداء فمن دونهم أولى بالعداء! فكل خلة بين الأخلاء نبعت ونبتت على غير تقوى تبوء يومئذ إلى العداء حيث تبنّتها الطغوى ، ولماذا إلى العداء دون أن تحبط فلا خلة ولا عداء؟ لأنها حصلت على ضلال ، ونبتت وقويت على ضلال ، فأصبحت مضللة لكلّ خليله ، فلا يتلاحمون عليها يومئذ بل ويتلاومون ويتلاعنون ، يلقي كل على خليله تبعة ضلاله ، فالخلة التي تجمع بين الأخلاء هنالك تجمح بينهم ، فقد كانت ظاهرها فيها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب.

---

(١) الأخلاء جمع لخليل من الخلة : ما يغطى به جفن السيف لكونه في خلالها ، او الخلة : المودة لأنها تتخلل في جوانح الموادين وبينهم فلا تبقي فراغا للعداء.

وهكذا يكون دور كل خلة واتصالة على غير تقوى حيث تبوء إلى عداء ، واما خلة التقوى فهي تبقى هنالك وتقوى حيث هنالك حياة الربوة والمزيدة : ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾! ف «إذا كان يوم القيامه انقطعت الأرحام وقلت الأنساب وذهبت الأخوة إلا الأخوة في الله ..» (١) (ألا كل خلة كانت في الدنيا في غير الله عز وجل فإنها تصير عداوة يوم القيامة) (٢) (وللظالم غدا يكفيه عضه يديه وللرجل وشيك وللأخلاء ندامة إلا المتقين (٣) ف «اطلب مواخاة الأتقياء ، ولو في ظلمات الأرض وإن أفنيت عمرك في طلبهم فإن الله لم يخلق أفضل منهم على وجه الأرض بعد النبيين (عليهم السلام) وما أنعم الله على عبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم ، وأظن من طلب في زماننا هذا صديقا بلا عيب بقي بلا صديق) (٤).

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢١ ـ اخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .. وفيه استناده في قوله الى الآية.

(٢ ، ٣). نور الثقلين ٤ : ٦١٢ عن تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) وعن امير المؤمنين (عليه السلام).

(٤) المصدر ح ٨٣ في مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) ويستند الامام بالآية بعد «لصحبتهم».

وفي الدر المنثور ٦ : ٢١ ـ اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن زنجويه في ترغيبه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في شعب الايمان عن علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» في قوله ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ومن طريق أصحابنا القمي بسند متصل عن الحارث عن علي (عليه السلام) قال .. أقول بين النقلين اختلافات لفظية والمعنى واحد وما يأتي من طريق القمي لأنه اضبط وأجمل : قال في الخليلين مؤمنين وخليين كافرين ومؤمن غني ومؤمن فقير وكافر غني وكافر فقير ، فاما الخليلان المؤمنان فتخالا في حياتهما في طاعة الله تبارك وتعالى وتباذلا عليها وتوادا عليها فمات أحدهما قبل صاحبه فأراه الله في منزله في الجنة يشفع لصاحبه فيقول : يا رب.

هنا نعرف ان الخلة المنفية يوم القيامة والشفاعة ليست عن المتقين ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢ : ٢٥٤).

﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (٧١)

. خليلي فلان كان يأمرني بطاعتك ويعينني عليها وينهاني عن معصيتك فثبته على ما ثبتتني عليه من الهدى حتى تريه ما اريتني فيستجيب الله له حتى يلتقيا عند الله عز وجل فيقول كل واحد منهما لصاحبه : جزاك الله من خليل خيرا كنت تأمرني بطاعة الله وتنهاني عن معصيته ، واما الكافران فتخالا بمعصية الله وتباذلا عليها وتوادا عليها فمات أحدهما قبل صاحبه فأراه الله تبارك وتعالى منزلته في النار فقال : يا رب خليلي فلان كان يأمرني بمعصيتك وينهاني عن طاعتك فثبته على ما ثبتني عليه من المعاصي حتى تريه ما اريتني من العذاب فيلتقيان عند الله يوم القيامة يقول كل واحد منهما لصاحبه : جزاك الله من خليل شرا كنت تأمرني بمعصية الله وتنهاني عن طاعة الله ثم قرء الآية ... أقول : واخرج مثله في المعنى عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : وذكر لنا ان نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول الأخلاء اربعة مؤمنان وكافران ..

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (٧٣)
إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَما
ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ
(٧٧) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩)
أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ
وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (٨١) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢)
فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي
الْأَرْضِ

إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) **وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (٨٥) **وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (٨٦) **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** (٨٧) **وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ** (٨٨) **فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** (٨٩) **يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** (٦٨) **الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ**﴾(٦٩).

إلى هنا كانت التهديدات تتلاحق على غير العباد ، ومن هنا البشارات المتلاحقة للعباد «يا عباد»! صيغة صيغت في سائر القرآن لعباد الله الصالحين : ﴿**فَبَشِّرْ عِبادِ**﴾ (٣١ : ١٧) عباد منحصرون في الله منحسرون عما سوى الله ﴿**لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾ مما يحصل ، ﴿**وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ مما

حصل قبل اليوم ، فحاضركم لا يخيف وماضيكم لا يحزن ، حيث الإيمان كان قيد الفتك ، والإسلام بعده خروج عن أسر الهوى إلى حرية الهدى.

وترى ما هو الإسلام في تداومة طول حياة الإيمان ﴿وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ والإيمان حاصل قبله بداية الإسلام ، والإسلام هو دوما قبل الإيمان؟

هنالك إسلام قبل الإيمان ولما يدخل الإيمان في القلب ، وهو الإسلام الظاهر على اللسان أم وعلى الأركان ، ومن ثم إيمان حيث يدخل الإسلام في الجنان ، ثم هنالك اطمئنان للإيمان الإسلام في القلب يعيشه المؤمن طول حياة الإيمان ، إسلاما لوجهه كل وجهه لله ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ (٣١ : ٢٢).

إذا فالإسلام الثاني هو ثنيّ الإيمان وكماله وهو أحسن الدين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (٤ : ١٢٥) وعلى هذا الضوء فالرسول (صلى الله عليه وآله) وهو أوّل العابدين هو أول من أسلم ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ (٦ : ١٤)!.

وهناك سلبية الخوف الحزن من سمات ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فلرب مؤمن لم يسلم فعليه خوف وحزن قدر ما لم يسلم رغم إيمانه ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ لا يخلصون لله ويسلمون!.

ويا لهذا الخطاب الحنون من عطف منون أن يخاطبنا ربنا بنفسه دون وسيط كأننا من رسله ، وتشريفنا بعبوديته الخاصة وهو أعلى تشريف كما ﴿أَسْرى بِعَبْدِهِ﴾ ومن ثم إضافة ضيافته ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ بداية الورود ولما ، ولكيلا يطمع غيرهم فيتحسرون ، وليطمح المؤمنون يواصف «عباد» ب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ وثم أمر بالدخول في ضيافته للمؤمنين الأصلاء وأتباعهم :

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾(٧٠) تسرون سرورا يشمل أعطافكم ويبدو عليكم الحبور والسرور [١] ترى هؤلاء العباد الصالحون يدخلون الجنة بما قدموا ، فلما ذا أزواجهم؟ فهل هن مؤمنات كما هم مؤمنون؟ ف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ تشملهن ، حيث ﴿عِبادِ .. الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ تشمل إناثهم كذكرانهم سواء! وإلّا؟ فكيف تدخل غير المؤمنات مع الأزواج المؤمنين جنتهم! وهنالك الصّلات منقطعات إلّا صلات إيمان ، لا خلّات ولا شفاعات ولا أنساب ولا أية صلات إلّا للمتقين! الجواب أن الأزواج هنا الأقران في الإيمان إلّا أنهم أتباع ، سواء أكانوا زوجاتهم أم الأغارب ، ذكرانا وإناثا ، فهم كلهم من أزواجهم : القرناء الأتباع كما في الذريات : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٥٢ : ٢١)[٢] ، كما وفي اهل النار : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ﴾ (٣٧ : ٢٣) :

﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ﴾(٧١).

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾

---

(١) الحبور هو السرور الذي يظهر اثره وحباره في الوجه والحبرة الزينة وحسن الهيئة. وفي نور الثقلين ٤ : ٦١٣ ح ٨٥ في روضة الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال لابي بصير يا أبا محمد! صرتم عند اهل هذا العالم شرار الناس وأنتم والله في الجنة تحبرون وفي النار تطلبون وفي رواية بصائر الدرجات عنه (عليه السلام) اضافة «فلا توجدون».

(٢) راجع سورة الطور حول الآية في الفرقان.

(٧٦ : ١٩) هم أمّن ذا؟ من ذرياتهم وأزواجهم! «بصحاف» : قصع أو أصغر «من ذهب» وما ألطفها وأسماها «وأكواب» جمع كوب : كوز لا عروة له ، تلك للطعام وهذه للشراب.

ثم وكنعيم شامل في بعدين. ١. ﴿وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾. ٢. ﴿وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ﴾! إن لأسفل أهل الجنة فوق ما نتصوره من نعيم مقيم فضلا عمن فوقهم [1] وترى ﴿ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ تعم كل المشتهيات والملذات؟ ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ﴾ (٢١ : ١٠٢) ﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ﴾ (٤١ : ٣١)؟!.

أقول : نعم حيث الأنفس هناك طيبة لا تشتهي إلّا الطيبات دون شقاء ولا عناء ، فإذا اشتهى ولدا لم يحمّل حمل التوليد والتربية ، ولا الوالدة حمل الحمل ، فقد يخلق الله له ما يشتهيه من دون حمل ولا ولادة [2] أم بهما

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٢ ـ اخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ... ان ادنى اهل الجنة منزلة واسفلهم درجة لا يدخل بعده احد يفسح له في بصره مسيرة عام في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر الا معمور يغدى عليه كل يوم ويراح بسبعين الف صحفة في كل صحفة لون ليس في الآخر مثله شهوته في آخرها كشهوته في أولها لو نزل به جميع اهل الأرض لوسع عليهم مما اعطى لا ينقص ذلك مما اوتي شيئا.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦١٣ ح ٨٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن الحجة القائم (عليه السلام) وفيه سئل (عليه السلام) عن اهل الجنة هل يتوالدون إذا دخلوها ام لا؟ فأجاب (عليه السلام) ان الجنة لا حمل فيها للنساء ولا ولادة ولا طمث ولا نفاس ولا شقاء بالطفولية وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين كما قال الله سبحانه فإذا اشتهى المؤمن ولدا خلقه الله عز وجل بغير حمل ولا ولادة على الصورة التي يريد كما خلق آدم (عليه السلام) عبرة.

دون حمل ولا عناء ، ولا طول زمان [1] تلك الأنفس لا تشتهي ذوات البعل من نساء الجنة ، إذ تتهيأ لها ما تشاء ولا تشاء دعارة ولا تحتاجها إمّا ذا من مشتهيات كاذبة أم ظالمة ، وإنما طيبات ملذات دونما عناء ولا تنازعات وايذاءات! إذ ﴿يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ﴾ (٤٧ : ٣٧) وليست الجنة دار المنازعات والمشاجرات ف ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ﴾ دونما دناءة في خيانة واعتداء على الآخرين ، ولا ابتغاء شهوة رذيلة ، فكلها فضيلة لا تحوي محرمات ذاتية والمحرمات المصلحية لا مجال لها في الجنة حيث النعمة المستطابة المتوفرة هناك لا تسمح لشهوة كاذبة أمّاذا في غير فضيلة!

وهنالك أحاديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله) يبين فيها مدى المشتهيات والملذات في الجنة أنها لا تقف لحد إلّا أنها كما تطيبه النفوس الطيبة [2].

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ﴾ (٧٣)

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا﴾ (١٩ : ٦٣) ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧ : ٤٣).

. أقول : نفي الولادة هنا يعني الولادة الصعبة وشقاء الطفولة وكما في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) التالي :

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣ ـ اخرج احمد وهناد والدارمي وعبد بن حميد والترمذي وحسن وابن ماجة وابن المنذر وابن حبان والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال : قلنا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان الولد من قرة العين وتمام السرور فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال : ان المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي.

(٢) راجع الدر المنثور ٦ : ٢٣ ـ ٢٤ :

هنا ميراث للمستضعفين المتقين يوم الدنيا ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا﴾ (٧ : ١٣٧) ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٧ : ١٢٨) ويعني إخراج الأرض من حكم المستكبرين وتحويلها للمستضعفين ، فهل هكذا يورثون الجنة ولا شركة فيها ولن ، فضلا عن أن المستكبرين كانوا زمنا محتليها حتى تحوّل إلى المستضعفين؟ وليس الميراث إلّا انتقالا لدولة ام دولة أم ماذا من شخص أو اشخاص إلى آخرين!

علّه لأن الله تعالى خلق كلّا من الجنة والنار على سعة العالمين ، فأهل الجنة يورثونها بتقواهم ، وأهل النار يحرمونها بطغواهم ، وكان لهم فيها أمكنة ودور ، وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله): «ما من أحد إلّا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة وذلك قوله ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ ..﴾»[1].

كما وان ما يتركه الميت هو لكل ولده ويحرم الولد الكافر ويرثه في نصيبه الولد المؤمن ، فان آمن الكافر قبل القسمة يؤتاه نصيبه ، فمن مات مؤمنا دخل الجنة وأورث ما كان لغير المؤمن ، وأما من يموت كافرا فلات حين مناص إذ فات زمن الخلاص وقد كانوا داخليها لو آمنوا!

﴿لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ﴾ : كثيرة لا تفنى بأكلها بل «منها» تلميحا مليحا أنها باقية لا تنفد مهما كثر الأكل والآكلون!

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾(٧٥)

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣ ـ اخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :

أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة ، والمجرم هو ذو جرم : أن سنته في الحياة هي قطع ثمرة الحياة وبترها ، فلا تفيد يوم الأخرى ، ولا الدنيا إلا قضاء شهوات ، هم : ﴿فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ﴾ : ماكثون طويلا قدر إجرامهم ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ ما يستحقونه ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ : آيسون هنا ساكتون عن الخروج وتفتّر العذاب ، فإنهم من الآبدين : أبد النار ، وهل ينقضي منهم عمر؟ أو «لا ينقضي منهم عمر أبدا» [1] قضية العدل والرحمة الإلهية والجزاء الوفاق لأخلد الخالدين وهم الآبدون أن يفنوا بفناء النار ، وعدم الفناء فيما يروى يعني مع بقاء النار حيث الأدلة القاطعة تدلنا على فنار النار بمن في النار!

﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾(٧٦) حيث خلّدوا في جهنم بما ظلموا ، وأما إذا ظلّوا فيها إلى غير نهاية ، وهم بأجرامهم لهم نهاية ، فإنه ظلم بجزاء غير وفاق ، فنفي الظلم هنا في خلود النار وإبلاسهم في النار دليل لا مرد له على فناء النار ففناء من في النار.

﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾(٧٧) : صيحة متناوحة من مكان سحيق ، لا طلبا للبراءة فهم عارفون ألّا براءة لهم ، ولا تخفيفا فإنهم مبلسون ، وإنما يصيحون مستغيثين في طلب الهلاك السريع

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤ ح ٨٩ القمي عن امير المؤمنين (عليه السلام) «واما اهل النار فخلدهم في النار وأوثق منهم الاقدام وغل منهم الايدي الى الأعناق والبس أجسادهم سرابيل القطران وقطعت لهم منها مقطعات من النار هم في عذاب قد اشتد حره ونار قد اطبق على أهلها ما يفتح عنهم ابدا ولا يدخل عليهم ريح ابدا ولا ينقضي منهم عمر ابدا العذاب ابدا شديد والعقاب ابدا جديد لا الدار زائلة فتفنى ولا آجال القوم تقضى» أقول : عدم زوال الدار هنا يعني قبل زوال الاعمار ، وعدم انقضاء الآجال يعني قبل فناء النار.

الذي يريح فلا يحسوا بعد عذابا ، أم قضاء الخروج دون مكوث أمّاذا غير المكوث ، ولماذا لا يطلبون الرب دون وسيط ، إذ ﴿قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ (٢٣ : ١٠٨) ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (٨٣ : ١٥)! و «مالك» ليس إلّا هنا وفي ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو هنا مالك النار بما ملّكه الله كما يراه ، فلا يملك لأهل النار أو عليهم حكما إلّا من الله ، لذلك يتطلبون قضاءهم منه من ربه ، وفي «ربك» هنا تلميحة بهذه الأصالة في ربوبية النار ، وأخرى أنهم يرونهم منقطعين عن الرب و ﴿نادَوْا ... رَبُّكَ﴾ وثالثة كأنهم يحاكون ما كانوا عليه يوم الدنيا من نكران ربوبيته العامة أم أصلها ، فجاء الجواب الحاسم دون تأخير ﴿إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾ فلا خروج عن النار ، فإنهم الذين لا يخرجون عن النار مهما فنوا بفناء النار! [١] وقد يعني المكوث هنا الخلود آبدا وغير آبد ، فالإبلاس ايضا إياس عن تفتّر العذاب وعن الخروج قبل أمده أو مطلق الخروج ، وليناسبه قوله تعالى :

﴿لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ (٧٨)

فالأكثرية الكارهة للحق من أهل النار هم الآبدون دون خروج ، والأقلية غير الكارهة ، بل المضلّلة تقصيرا في تحري الحق ، دون كراهة للحق فيرفضوه كراهية ، ولا محبة له فيتحروا عنه حبا ، هذه القلة كافرة وفاسقة تخلّد في النار دون أبد ، فإنهم كانوا على هوامش الضلالة ، لا اصلاء ولا دعاة إليها إلا جهلا دون كراهية وعناد للحق! :

وهذه قضية عدله سبحانه ألّا يسوي بين أهل النار كما لا يسوي بين

---

(١) فمن اهل النار من يخرج قبل فناء النار وهم غير المؤبدين من اهل النار ، وهنا المعنيون بالمجرمين هم المؤبدون لا كل اهل النار.

أهل الجنة ، فلكلّ ما أحسن قدره ، وعلى كلّ ما أساء قدره ولا يظلمون فتيلا! : ولا نجد أكثرية كارهة للحق يوم الدنيا : وإن كان ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢١ : ٢٤) اللهم الأكثرية خاصة ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ (٢٣ : ٧٠) فالأكثرية الكارهة للحق هنا هي من بين من ﴿يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ لا كل الناس ولا كل الكافرين ، فطالما الأكثرية من الناس غير شاكرة ، فهي جاهلة فاسقة كافرة لا تؤمن وهي مضلّلة عن سبيل الله أم ايّة دناءة وانجراف ، ولكنما القليل منها كارهة للحق ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ فهم مضللون والكثير منهم يجهلون فيضللون ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ إعراضهم عن الباطل إذ تصوّر لهم الحق بصورة الباطل!

وقد يعني «كم» في «أكثركم» عامة المكلفين ، فأكثرهم متخلفون عن فطرة التوحيد ، فهم له ولسائر الحق كارهون؟ إلّا أن «كم» هنا يخص المنادين مالكا في الجحيم ، والأكثرية ليسوا للحق كارهين ، بل هم الضالون ، وقليل منهم مستكبرون وهم للحق كارهون ، وكثير مستضعفون ضالون بإضلالهم.

وهل إن «جئناكم» من كلام «مالك»؟ ولم يكن من الرسل ، ولا وسيطا في وحي الرسل! أم من الله؟ وهم ﴿عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (٨٣ : ١٥)! اللهم إلا في خطاب تبكيت! أو أن مالكا ينقله ك ﴿إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾ عن الله؟ أم ليس «جئناكم» إطلاقا من الله ، فإنه مصدر الحق لا الجائي به [1] و «جئناكم» يتطلب مجيئا منه وهو الله وجائيا به

(١) لا تجد المجيء بالحق في القرآن كله الّا في رسل الله ، الذين يجيئون بالحق من عند الله.

وهم رسل الله ، إذا ف «جئناكم» ليست إلا من رسل الله!.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾(٧٩)

«أم» عطف على محذوف لا يهم ذكره وقد يعرف من المعطوف ك أكذبناهم في إنذار العذاب «أم» إذ صدقنا فهم ﴿أَبْرَمُوا أَمْراً﴾ فلا يخافون العذاب بما أبرموا ، من كيد يريدونه : ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٥٣ : ٤٢) أو مكر بالرسول في دار الندوة : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾ (٨ : ٣٠) أم أي إبرام في أي أمر خلاف الحق في الدنيا والآخرة فإن الله يبرم الحق ويبطل الباطل إن الباطل كان زهوقا! كما أبرموا أمر الخلافة الإسلامية في غير أهلها فابرمها الله في أهلها [1]!

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(٨٠)

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦١٥ ح ٩٢ في اصول الكافي بسند متصل الى عبد الله بن كثير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ فلان وفلان ارتدوا عن الايمان في ترك ولاية امير المؤمنين (عليه السلام) قلت : قوله تعالى : ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾؟ قال : نزلت فيهما والله وفي اتباعها وهو قول الله عز وجل ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ ، قال : دعوا بني امية الى ميثاقهم ألا يصيّروا الأمر فينا بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يعطونا من الخمس شيئا وقالوا : ان أعطيناهم إياه لم يحتاجوا الى شيء ولم يبالوا ان لا يكون الأمر فيهم فقالوا : سنطيعكم في بعض الأمر الذي دعوتمونا اليه وهو الخمس أن لا نعطيهم منه شيئا وقوله : ﴿كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ﴾ والذي نزل الله ما افترض على خلقه من ولاية امير المؤمنين (عليه السلام) وكان معهم ابو عبيدة وكان كاتبهم فانزل الله : ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ. أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ﴾ الآية.

حيث «قال واحد منهم ترون الله يسمع كلامنا فقال واحد إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت : أم يحسبون؟ [١].

لا فحسب أنا نسمع سرهم ونجواهم ، بل ﴿وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ من ﴿كِراماً كاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾ ومن أنبياء شهود ، ومن الجوارح والأرض بفضائها ، رسل إلهية تكتب كل حسبها الأقوال والأعمال كلها والنيات!

و «لديهم» يعني رسلنا الكائنين لديهم ، يكتبون لديهم سواء أكانت رسالة تكوينية كرسل الأعضاء والأجواء ، أم تدوينية علما أماذا من تسجيل الأعمال!

﴿قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾(٨١)

آية يتيمة غرة منقطعة النظير في سائر القرآن كثرت في تفسيرها القيلات والاحتمالات! ندرسها وسواها في تساؤلات حتى يتبين الحق على ضوء الدلالات القرآنية والسنة وما تتحملها الآية لفظيا ومعنويا أو لا تتحمل وما هو عوان بين ذلك ، والذي يهمنا هو كشف الرباط بين جملتي الشرطية ﴿إِنْ كانَ .. فَأَنَا ..﴾؟

يا ترى «إن» نافية تعني لم يكن للرحمن ولد فأنا اوّل العابدين الموحدين له أن ليس ولد معه يعبد؟ وإن النافية لا تدخل على فعل! وعند نفي الولد فلا فرق في توحيد العبودية بين اوّل العابدين وسواه! [٢] ثم

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣ ـ اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي او ثقفيان وقرشي فقال واحد منهم ترون ..

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٤ ـ اخرج ابن جرير عن زيد بن اسلم قال هذا كلام العرب ان كان للرحمن ولد ، اي لم يكن.

والمناسب لهذا النفي اثبات الأوّلية في العقيدة لا العبادة ، ومناسبة أخرى «و» بدل «ف» إذ لا تفريع في «إن» النافية!

أم إنها شرطية والعابدين تنفي العبادة بأنها هنا من «عبد» إذا اشتدت أنفته ، فإن كان له ولد تولد عن ذاته ، فهو والد كسائر من يلد ، فمتجزّئ فمحدود كسائر الخلق ، فليس إذا إلها يعبد فأنا اوّل المتأنفين لعبادته ، ولأنني أعبده مخلصا فليس له ولد؟ ولكن العابدين بمعنى الآنفين ، وإن كانت لغة ولكنها شاذة ، وذكرها دون قرينة تصرفها عما يعرف غير فصيح ولا صحيح ، وإن كان المعنى في نفسه. من الصحيح! [1]

أم إنها شرطية والعابدين هم العابدون ، ف ﴿إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ﴾ كما تقولون ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ لهذا الولد ، فإني العارف بوالد وما ولد قبلكم وقبل كل أحد ، فإذا لا أعبد رحمانا هكذا ولا ولدا ، فليس إذا للرحمن ولد؟ والمناسب لموقف صلب هكذا «لو» الامتناعية لا «إن» المجوّزة كلا النفي والإثبات! ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ ترمي إلى اثبات قاطع مطلق أنّه أوّل العابدين! [2].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦١٦ ح ٩٥ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : قوله : ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين» اي : الجاحدين والتأويل في هذا القول باطنه مضاد لظاهره.

أقول : مضادة الباطن للظاهر في القرآن البيان غير مقبولة حيث لا تضاد فيه لا ظاهرا ولا باطنا ، فليس هذا من كلام علي (عليه السلام) وقد يروى مثله عن ابن عباس ، كما في الدر المنثور ٦ : ٢٣ . اخرج الطستي عن ابن عباس ان نافع الأزرق قال له اخبرني عن قوله عز وجل ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ قال : انا اوّل متبرئ من ان يكون لله ولد.

(٢) المصدر ح ٩٦ في تفسير علي بن ابراهيم في الآية يعني اوّل القائلين لله عز وجل أن يكون له ولد.

أم ﴿إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ للوالد دون ما ولد؟ حيث التسوية بين والد وما ولد ظالمة متهتكة؟ وهو يناسب «لو» ولا تناسبه أولية العبادة ولا أصلها حيث الرحمان الوالد لا يعبد!

أو ﴿إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ﴾ دون ولادة ذاتية ، وإنما تكريما لشرف العبودية القمة كما المسيح وعزير والملائكة ـ زعم المتبنّين لله ـ كانوا أعبد من عبد الرحمان فاتخذهم ولدا ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ في رتبة العبودية [1] وكما أنني أوّل في درجات العصمة والولاية والرسالة بين العالمين ، إذا فأنا أوّل من يتخذ ولدا لهذه الكرامة العليا؟ ولم يوح اليّ ولا لمحة من هذه الولادة ، ولم أدّع ولن لمحة منها ، فلا ولادة هكذا لمن دوني في كرامة العبودية وكما : ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٢١ : ٢٩).

وفي هذا الوجه الوجيه ليست الجملة شرطية كاملة ، جزاءها ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ بل هي وصلية ، فإنما ﴿أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ يهدم صرح هذه الولادة التكريمية لمن ادعيت له ، و «إن» الوصلية هنا دون «لو» الشرطية مسايرة في الحوار التي تأتي لهم بكل بوار وخسار! وهذا هو المعنى الأصل ، ثم الولادة الذاتية عن الرحمن ، كذلك هي منفية حيث ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ للرحمان العارفين وحيه ، ولا أعرف له وحيا يسانده ، فإنما يعانده ، فليس إذا للرحمن ولد.

---

(١) فهذه الاولية ليست زمنية ولا عددية وانما عددية رتبية حتى تصلح هدما لصرح «إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ»!

هذا وما يليه من صحيح المعاني التي لا تعنى كل بمفردها ، قد تعنيها الآية كلها ، دون ما لا يصح والله أعلم [١].

﴿سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢) سبحانه أن يلد او ان يتخذ ولدا وهو رب السماوات والأرض ورب العرش دونما شريك ، سبحانه عما يصفون وتعالى عما يشركون.

هناك ربوبيتان للرب الواحد ، ربوبيّة الخلق : ﴿رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو تعبير عن الخلق كله ، وربوبية التدبير : ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٠ : ٣) «وهو وصف عرش الوحدانية عما يصفون»[٢].

إذا فما لمن دونه من خلقه الذين هم في تدبيره مهما سمي ولدا أمّاذا رجما بالغيب وكذبا!

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾(٨٣)

---

(١) ف «إن» بين احتمالات ثلاث : نافية ـ شرطية ـ وصلية و «كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ» بين احتمالين : ولادة ذاتية وتشريفية ، و «فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» بين ايجابية العبادة وسلبيتها ، وكل هذه الوجوه علّها معنية على مختلف مراتبها والأصل فيها ما رجحناه وعلى هامشه سائرها إلا غير الصحيح معنويا أو أدبيا ، اللهم إلّا ضمن الصحيح فيها ، ف «إن» النافية وان كانت لا تأتي قبل الفعل ولكنها ضمن شرطيتها ووصليتها تأتي قبل الفعل ـ تأمل :

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦١٧ ح ٩٧ في كتاب التوحيد باسناده الى حنان بن سدير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث طويل ذكر فيه العرش وقال : ان للعرش صفات كثيرة .

ولما تصل الحجاج إلى ذلك الحد من اللجاج «فذرهم» واتركهم «يخوضوا» أغوارا مظلمة من تلكم الهرطقات «ويلعبوا» في خوضهم وكل حياتهم كأطفال ﴿حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ يوم الموت ويوم القيامة وهما يوم واحد لوحدة النشأة مهما كانا يومين لاختلافهما في الحدّة ﴿الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ : ﴿وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ..﴾ (٦ : ٦٨) ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٦ : ٩١).

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤)

هذه الآية تنفي مزعمة الإلهين أحدهما إله السماء وثانيهما إله الأرض ، وتنفي أيضا كونهما مكانا لإله واحد إذ ليس له مكان ، فألوهيته ـ لا ذاته ـ تضم الأرض والسماء على سواء [١] لا أنه في إحداهما ويحكم فيها وفي

ـ مختلفة له في كل سبب وضع في القرآن صفته على حده يقول فيه ، فمن اختلاف صفات العرش انه قال تبارك وتعالى : ﴿رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وهو وصف عرش الوحدانية عما يصفون ، وقوم وصفوه بيدين فقالوا : يد الله مغلولة ، وقوم وصفوه بالرجلين فقالوا : وضع رجله على صخرة بيت المقدس وارتقى الى السماء ، وقوم وصفوه بالأنامل فقالوا : ان محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : اني وجدت برد أنامله على قلبي ، فلمثل هذه الصفات قال : ﴿رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقول : رب المثل الأعلى عما به مثّلوه ولله المثل الأعلى الذي لا يشبهه شيء ولا يوصف ولا يتوهم فذلك المثل الأعلى.

(١) نور الثقلين ٤ : ٦١٧ ح ٩٨ في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن الحكم قال قال ابو شاكر الديصاني : ان في القرآن آية هي قولنا ، قلت : وما هي؟ فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ﴾ لم أدر بما أجيبه فحججت فخبرت أبا عبد الله (عليه السلام) فقال : هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت اليه فقل : ما اسمك بالكوفة ، فانه يقول : فلان ـ فقل له : ما اسمك ـ

الأخرى ، أم هو فيهما جميعا ، وإنما ﴿فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فيهما «العليم» بهما سواء ، يحكم فيهما هو لا سواه ، ويعلم ما فيهما وحده لا سواه ، فلا أنّ المسيح أو سواه إله الأرض ولادة أم وراثة والله إله السماء كما يهرف المسيحيون في صلاتهم «ليأت ملكوتك في الأرض كما هو في السماء» وترى من يلتمسونه أن يأتي بملكوت الله إلى الأرض كما هو في السماء؟ ولا أن الملائكة آلهة السماوات وهو إله الأرض ، فما من ألوهة في الخلق والتدبير والعبادة إلّا لله.

فهذه الآية تجرف ما يهرفه ويخرفه المقتسمون للألوهية إلى أقسام الكون ، أم يمكّنون ويسكنون إله السماوات والأرض في السماوات أو الأرض ، وإنّما تمكينا لألوهيته في الكون كله دون تمكّن لذاته في الكون كله ، فإنما حكمته النافذة وعلمه الشامل يديران الكون ويدبّرانه ، فالمدبر هو الخالق والخالق هو المدبر ، دون فرق بين كائن وكائن ، ودون تمكن في أي كائن!

﴿وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٨٥)

«تبارك» : تعاظم وتسامى ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾ حيث يملكهما ، وما بينهما ثم لا ملك ولا ملك سواهما «وعنده» لا سواه ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وهي المنزل الأقصى للسالكين «وإليه» لا سواه «ترجعون» ومن إليه الرجوع فإليه التدبير ، ومن إليه التدبير فله الربوبية ،

. بالبصرة؟ فانه يقول : فلان ، فقل كذلك الله ربنا في السماء إله وفي الأرض إله وفي البحار إله وفي القفار إله وفي كل مكان إله ، قال : فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته فقال : هذه نقلت من الحجاز!.

فهو متبارك عما يصفون بهذا المثلث المجيد من شئون الألوهية!

﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) ملائكة أو أنبياء أو الجن أم أيا كانوا ممن دونه ، فهم لا يملكون الشفاعة التي ليست إلّا باذنه وتمليكه ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ : بحق الله في توحيده ، وبحق العبودية لنفسه ، وبحق الشفاعة لنفسه ، وبحق للمشفع له وهو من ارتضى الله دينه ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ (٤١ : ٢٨)﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ : شروط الشفاعة في ميزان الله ، ويعلمون حقيقة حال المشفّع لهم أنهم أهل لأن يشفع لهم ، إذا فقوله في الشفاعة مأذون وصواب : ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ (٧٨ : ٣٨)!

وأما الذين عبدوا إذ عبّدوا لأنفسهم ودعوا فلا يشفعون ولا يشفّع لهم كأمثال فرعون الطاغية ، ثم الذين عبدوا ولم يعبّدوا من الصلحاء ، فمنهم من يملك الشفاعة إذ ﴿شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ومنهم من لا يملكها ويملك أن يشفع له لأنه من «من ارتضى» ثم من الأشقياء الذين عبدوا دون أن يدعوا او يرضوا من لا يصلح أن يشفع له ، ومن ثم غير العقلاء من الأصنام والأوثان فسوالب بانتفاء الموضوع ، حيث الشفاعة في بعديها تتطلب علما وشعورا!

ف ﴿لا يَمْلِكُ .. الشَّفاعَةَ﴾ قد تعم الشافعين والمشفّع لهم ، وإن كان الأولين أولى ، ومهما اختلفت شروطهما حيث يشتركون في الإيمان ، ف ﴿مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بينهما درجات.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) والخالق هو الذي يملك خلقه وتدبيرهم ، ويملك عبوديته وشفاعتهم ، فأنّى يصرفون إفكا وكذبا وهم بوحدانيته في خلقه معترفون!.

﴿وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ

سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٨٩).

لقد قيل في «قيله» قيلات عليلات لا تناسب القرآن البيان ، و «قيل» هو «قول» صيغة ثانية مصدرية ، والضمير الغائب راجع إلى حاضر الوحي : الرسول (صلى الله عليه وآله) فبعد الاستفتاء العام من العالمين ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ** ..﴾ والجواب العام بين المشركين والموحدين : ﴿**لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ فلينظر العالمون إلى «قيله» عن المشركين ﴿**رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ والواو تعطف إلى غير مذكور من ساير قبيله من هذا القيل.

وهنا الجواب من رب العزة في ثلاثة بنود : ﴿**فَاصْفَحْ عَنْهُمْ**﴾ إعراضا بصفحك عمن لا يحنّ إلى حق ، ولكن بالصفح الجميل : ﴿**وَقُلْ سَلامٌ**﴾ لست لكم إلّا سلاما ، ولا أدعوكم إلّا إلى سلام ، وإذ تعرضون عن سلامكم فسلام ﴿**وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً**﴾ دون خفاء ولا جفاء تزيد في جهلهم وكفرهم ، وما أنت وتعذيبهم بصفح غير جميل ﴿**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ حين موتهم والقيامة الكبرى ، يعلمون حقا بعد علم متجاهل قاحل إذ ﴿**جَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا**﴾!

سورة الدّخان مكيّة

وآياتها تسع وخمسون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيها
يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ
مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢)
أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا
كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً

إِنَّكُمْ عائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾(١٦)

﴿حم﴾ ١.

.. الدخان هي خامسة الحواميم السبع [١] ، بازغة بذكر الكتاب المبين المنزل في ليلة مباركة ، و «حم» هذه قد تعني فيما تعني الرسول محمدا (صلى الله عليه وآله) حيث يقسم بالكتاب المبين انه أنزله في ليلة مباركة ولا منزل له إلا قلبه المنير ، كما و ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ لمحة لامعة أنه المخاطب في «حم» ولا يناسب النزول المحكم للكتاب المبين إلا الرسول الأمين ، والست الأخرى من السبع الحواميم يعقبها تنزيل الكتاب وهنا ـ فقط ـ إنزاله.

ولأن «الحواميم تاج القرآن» [٢] ومحمد (صلى الله عليه وآله) تاج النبيين [٣] فلتكن خاصة به (صلى الله عليه وآله) في خطابها كما هي وأضرابها تخصه في معانيها ، وكما في الكاظمي (عليه السلام) «أما حم

---

(١) راجع سورة الأحقاف ج ٢٦ من الفرقان ص ٧ ـ ٨ وسورة الشورى ج ٢٥.

(٢) المجمع عن انس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٣) في : نبوئت هيّلد : وحى الطفل : لحمان حطوفاه الموجود باللغة الأنقلوسية وهي عبرانية رمزية ، يصفه (صلى الله عليه وآله وسلم) ب «محمد كايا بايا إعاد يطمع هويا ويهى كليليا» يعمر بيت الله بملك عظيم اسمه «محمد هو كبير قدير ، الشجرة الطيبة الرفيعة ، مأمول لإفناء ما كان وإطفاء النائرة وهو الكل والتاج وحمل على الأكتاف.

فهو محمد» (صلى الله عليه وآله) [1] وقد تعني «ح» أحمد و «م» محمد ، وإذا لم تكن «حم» خطابا لصاحب الكتاب المبين ، لم يكن لها موقع أدبي كمبتدء أم ماذا ، ﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ القسم لا يصلح خبرا ولا فعلا ولا أيا كان بالنسبة ل «حم» إلّا أن تعني جملة مستقلة عن ، ﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا!

﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ ٣ إن للقرآن مراحل ثلاث أعلاها أم الكتاب ، وأوسطها محكم الكتاب وأدناها تفصيل الكتاب : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ وقد أنزل من أم الكتاب حكيما في ليلة مباركة هي ليلة القدر ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾. ﴿. فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ثم نزل طول البعثة قرآنا عربيا : ﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ ومهما تشترك الحواميم السبع في نزول القرآن تلوها ، فالدخان تختص من بينها بنزول الإنزال ـ المحكم ـ في ليلة مباركة ، والست الأخرى بنزول التنزيل طول البعثة :

وترى أن هذه الليلة المباركة هي غير ليلة القدر ، كالنصف من شعبان؟ ومحكم القرآن لم ينزل إلّا مرة في ليلة واحدة هي ليلة القدر ـ ليلة مباركة! أم إن ليلة القدر هي النصف من شعبان كما يقولها رعيل من

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٢٣ ج ١٤ عن اصول الكافي ، باسناده الى يعقوب بن جعفر بن ابراهيم قال : كنت عند أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) إذ أتاه رجل نصراني فقال : إني اسألك أصلحك الله فقال سل ، فقال : اخبرني عن كتاب الله الذي انزل على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ونطق به ثم وصفه بما وصفه فقال : «حم ... ما تفسيرها في الباطن فقال : اما حم فهو محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

أهل السنة؟ ومحكم القرآن نازل في رمضان : ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فلتكن ليلة القدر وليلة مباركة هما ليلة من رمضان دون شعبان أو ايّا كان!

فليلة مباركة هنا هي ليلة القدر هناك من رمضان ، كما المواصفات المذكورة هنا وهناك توحّدها في قدر رمضان.

١ ـ ليلة القدر هناك واحدة وليلة مباركة هنا واحدة ، ولم ينزل محكم القرآن إلّا مرة واحدة ، إذا فهما هذه الواحدة ، هي من رمضان حيث هو منزل محكم القرآن!

٢ ـ ليلة القدر هي الوحيدة بين ليالي السنة قدرا ، وليلة مباركة هي الوحيدة بينها بركة ، والقدر القمة والبركة القمة هما واحدة وإلّا فلا قمة في كل منهما على حدة ، فهما ـ إذا ـ واحدة من رمضان!

٣ ـ هناك في وصفها ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ﴾ وهنا ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ و ﴿كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ﴾ و ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ هما واحد ، فهما واحدة من رمضان! :

٤ ـ هناك ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وهنا ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنا﴾ وهما واحد ، فهما واحدة من رمضان! :

٥ ـ هناك «سلام هي» وهنا ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ وهما واحد ، فهما واحدة من رمضان!

ومن ثم الروايات المتواترة عن الفريقين أن ليلة القدر هي من رمضان ، فلتكن هي ليلة مباركة من رمضان ، مهما وردت روايات أخرى

بشأن النصف من شعبان [١] وعلّها تبجيلات بشأنها لأنها مولد المهدي من آل محمد (عليهم السلام) : فإنها مولد النور الذي يشع الكون بأسره ، ويخلص العالم عن أسره في عسره (صلوات الله عليه)!.

لا دليل للقائلين بان ليلة مباركة هي النصف من شعبان من كتاب او سنة [٢] وهو منهما برهان قاطع لا مرد له أنها هي ليلة القدر من رمضان.

---

(١) في الدر المنثور ٦ : ٢٦ ـ ٢٧ يروي أحاديث نزول الله الى السماء الدنيا في ليلة النصف من شعبان ولا ريب انها مختلقة ، وروايات أخرى خالية عن النزول مادحة لهذه الليلة ولا ريب فيها ولا تثبت أنها ليلة القدر ، ومنها ما أخرجه البيهقي عن عائشة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث قال : (صلى الله عليه وآله وسلم) يا عائشة أو يا حميراء .. هذه ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر اهل الحقد كما هم» من ثلاث بين روايات عدة تذكر فضيلة ليلة النصف من شعبان أكثرها عن عائشة وفيها خرافة نزول الله الى السماء الدنيا!.

(٢) كما يعترف الرازي في تفسيره ٢٧ : ٢٣٨ في قوله : واما القائلون بان المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية هي ليلة النصف من شعبان فما رأيت لهم فيه دليلا يعول عليه وانما قنعوا بان نقلوه عن بعض الناس ، فان صح عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه كلام فلا مزيد عليه وإلا فالحق هو الاول . يعني انها ليلة القدر وهي من رمضان ، أقول : ولن يصح عن رسول الله ما يكذبه القرآن والسنة المتواترة! وقد اخرج عبد بن حميد عن أبي الجلد قال : نزلت صحف ابراهيم في أول ليلة من رمضان وانزل الإنجيل لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان وانزل الفرقان لأربع وعشرين . وكما تظافرت في رواياتنا اضافة الى نزول التوراة لثلاث عشرة والزبور لثمان عشرة ، وان القرآن نزل في التاسع عشر او الواحد والعشرين او الثالث والعشرين ..

واخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال : كنت عند الحسن فقال له رجل يا أبا سعيد ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال : اي والله انها .

وإنها ليلة مباركة بنازلها القرآن ومنزلها قلب نبي القرآن ، كما أنه كتاب ذو قدر وهو (صلى الله عليه وسلم) نبي ذو قدر ، فلا قدر ولا بركة لزمان أو مكان إلّا بما ينزل فيهما أو يصدر منهما من بركة وقدر.

وليلة مباركة مستمرة في بركتها وقدرها مرّ الأعوام إلى يوم القيام ، حيث تتكرر بكل قدر اللهم إلّا نزول القرآن حيث كان لأول ليلة قدر من أولى سنيّ الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله) ومن ثم ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ فرقا وتنزّلا مستقبلا منذ نزول القرآن المحكم حتى القيامة الكبرى.

وما دام النزولان ـ للقرآن المحكم ولكل أمر ـ كانا في اختصاص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) للمرحلة الأولى من ليلة القدر ، فتنزّل الملائكة والروح فيها من كل أمر يعمه والمحمديين المعصومين من عترته ، حيث

ـ لفي كل رمضان وانها لليلة يفرق فيها كل امر حكيم فيها يقضي الله كل اجل وعمل ورزق الى مثلها ، وفي نور الثقلين ٤ : ٦٢٤ ج ١٦ عن الكافي باسناده عن إسحاق بن عمار قال : سمعته يقول وناس يسألونه يقولون : الأرزاق تقسم ليلة النصف من شعبان؟ قال : فقال : لا والله ما ذلك الا في ليلة تسع عشرة من شهر رمضان وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين ، فان في تسعة وعشرين يلتقي الجمعان وفي ليلة احدى وعشرين يفرق كل امر حكيم وفي ليلة ثلاث وعشرين يمضي ما أراد الله تعالى من ذلك وهي ليلة القدر التي قال الله تعالى ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال : قلت : ما معنى قوله : يلتقي الجمعان؟ قال : يجمع الله فيها ما أراد من تقديمه وتأخيره وارادته وقضائه ، قال قلت : فما معنى يمضيه في ثلاث وعشرين؟ قال : انه يفرق في ليلة احدى وعشرين ما أمضاه ويكون له فيه البداء فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين أمضاه فيكون من المحتوم الذي لا يبدو له فيه تبارك وتعالى.

يفرق فيها كل أمر حكيم بنازل الملائكة والروح في منزل قلب الإمام في كل عصر ، فكان هو الرسول في اثنين وعشرين سنة ، حيث الأولى جمع إليه إنزال القرآن ، ثم من بعده المعصومون من عترته.

﴿... إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ طول كتابات الوحي والرسالات الإلهية ، طالما الإنذار بالقرآن هو أمّ الإنذار ، كما وأن رسالته هي أمّ الرسالات.

وعلّ ﴿كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ تعني فيما تعني سابق الإنذارات الإلهية في كتابات الوحي بنزول القرآن ، بطيّات البشارات ، وقد أوردناها في «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

وإنها حقا ليلة مباركة منقطعة النظير عن كل نذير ولهذا البشير النذير ، إذ فتح فيها ذلك الفتح المبين للعالمين ، بادئا فيها استقرار خاتمة المناهج الإلهية على المكلفين من الجنة والناس أجمعين ، يعيشون الكتاب المبين ويحيون به في كل حين.

ثم لا تقف هذه الليلة لمرة واحدة ذات قدر ومباركة ، ثم القدر في كل سنة ليس ذكرى لما مضى ، بل وتتكرر في كل سنة :

﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وقد فرق القرآن المحكم في أولاها عن أم الكتاب ﴿لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ فرقا من تلك الحكمة العليا ، ثم فرق فرقا آخر هو تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . : ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١١ : ١) فرق التفصيل الأخير طول البعثة.

ومن ثم يستمر فرق كل أمر حكيم سوى أم الكتاب على مرّ الزمن منذ القدر الاوّل ، والفرق هو التبيين لكل أمر غير مبين في هذه الليلة ، حتى يصبح كفرق الصبح في بيانه ، او مفرق الطريق في اتضاحه ، ومنه فرق

الشعر إذا خلصت بعضه من بعض ، وبيّنت مخطّ وسطه بالمدرى او الإصبع.

هكذا يفرق فيها كل أمر حكيم ، للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فرق للقرآن المحكم عن أم الكتاب ، وفرق لكل محكم يحتاجه الرسول في ولايته الرسالية ، وللائمة من آل الرسول فرق واحد هو الثاني.

فيها يتضح لولي الأمر كلما أحكم له وأجمل قبلها ، كما فرق القرآن ولم يكن الرسول يعلمه قبل إنزاله من أم الكتاب.

ترى لمن يفرق فيها كل أمر حكيم بما تنزل الملائكة والروح فيها من كل أمر ، إلّا لولي الأمر؟ وهل ترى أنه كل من تولى أمر الامة أيا كان؟ ومنزل الملائكة والروح ليس إلّا قلب محمد او قلب محمدي! وكما في حوار لباقر العلوم (عليه السلام) [1] و ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ هنا هو ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ في

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٢١ ج ١٠ في اصول الكافي باسناده الى أبي جعفر الباقر (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) فان قالوا : من الراسخون في العلم؟ فقل : من لا يختلف في علمه ، فان قالوا : فمن هو ذاك؟ فقل : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صاحب ذلك فهل بلغ أولا؟ فان قالوا : قد بلغ فقل : فهل مات (صلى الله عليه وآله وسلم) والخليفة من بعده يعلم علما ليس فيه اختلاف؟ فان قالوا : لا. فقل ان خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مؤيد ولا يستخلف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الا من يحكم بحكمه والا من يكون مثله الا النبوة ، وان كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يستخلف في علمه أحدا فقد ضيع في أصلاب الرجال ممن يكون بعده ، فان قالوا : فان علم رسول الله كان من القرآن ، فقل : ﴿حم وَالْكِتابِ الْمُبِينِ ـ﴾ الى قوله ـ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ فان قالوا لك : لا يرسل الله عز وجل الّا الى .

القدر ، فبعض الأمر مفروق عند ولي الأمر وهو الأصل الرسالي الذي تحتاجه الأمة ويحتاجه ولي الأمر في أمره ، وبعض غير مفروق وهو حكيم يحتاجه ولي الأمر في الأمة في كل سنة ، وبعضه حكيم عند الله لن يفرق لأحد ، ولا يعني كل أمر إلّا الأوسط من حكيم الأمر ، كما عبر عنه في القدر بالبعض : ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ تنزل الملائكة والروح به لفرقه بأذن ربهم «انه لينزل في ليلة القدر إلى ولي الأمر تفسير الأمور سنة سنة يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا أو كذا وفي أمر الناس بكذا وكذا وإنه ليحدث لولي الأمر سوى ذلك كل يوم علم الله الخاص والمكنون العجيب المخزون مثل ما ينزل في تلك الليلة من الأمر» [١].

ـ نبي فقل : أهذا الأمر الحكيم الذي يفرق فيه هو من الملائكة والروح التي تنزل من سماء الى سماء او من سماء الى ارض؟ فان قالوا : من سماء الى سماء فليس في السماء أحد يرجع من طاعة الى معصية ، فان قالوا : من سماء الى ارض واهل الأرض أحوج الى ذلك فقل : فهل لهم بد من سيد يتحاكمون اليه؟ فان قالوا : فان الخليفة هو حكمهم ، فقل : ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ...﴾ ولعمري ما في الأرض ولا في السماء ولي لله عز ذكره الا وهو مؤيد ومن أيد لم يخطأ وما في الأرض عدو لله عز ذكره الا وهو مخذول ومن خذل لم يصب كما أن الأمر لا بد من تنزيله من السماء يحكم به أهل الأرض ، كذلك لا بد من وال . فان قالوا : لا نعرف هذا . فقل لهم قالوا : ما أجبتم أبي الله عز وجل بعد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يترك العباد ولا حجة عليهم.

(١) عن الباقر (عليه السلام) قال قال الله عز وجل في ليلة القدر ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ قال : ينزل فيها كل امر حكيم والمحكم ليس بشيئين انما هو شيء واحد فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم الله ومن حكم بأمر فيه اختلاف فرأى انه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت ، انه لينزل ... ثم قرأ ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ..﴾ (نور الثقلين ٤ : ٤٢٢ ح ١١ عن اصول الكافي).

و «أمر» هنا كما في القدر يعم أمر الفعل وأمر الحكم مقابل النهي ، وأمر الشيء ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (١٥ : ٢١) ينزل مثلث الأمر الحكيم فيفرقه لولي الأمر عن حكمته إلى تفصيله ، فلكل سنة من سنّي الأمة أمور وأوامر حكيمة ليست من صلب الشرع وأصله ، يفرقها الله تعالى لولي الأمر ، نبيا في زمنه ، وإماما في زمنه ، مما يدل على تقاسم الأمر لدى ولي الأمر ، من دائب هو لزام ولايته وإمرته على المسلمين رسالة وإمامة ، ومن غيره وهو لزامه المتجدد في كل عام ، «ولو كان للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دون غيره لكان الخطاب يدل على فعل ماض غير دائم ولا مستقبل ، ولقال : نزلت الملائكة وفرق كل أمر حكيم ، ولم يقل : تنزل الملائكة ويفرق كل امر حكيم»[(١)].

---

(١) نور الثقلين ع : ٦٢٦ ج ٢٤ في كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) في حديث طويل بعد ذكر الحجج قال السائل : من هؤلاء الحجج؟ قال : هم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن حلّ محله من أصفياء الله الذين قرنهم الله بنفسه ورسوله وفرض على العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم ميثاقا لنفسه وهم ولاة الأمر الذين قال الله فيهم : ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وقال فيهم : «ولو ردوه إلى الرسول وإلى اولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، قال السائل : ما ذاك الأمر؟ قال (عليه السلام) الذي تنزل به الملائكة في الليلة التي يفرق كل امر حكيم من رزق واجل وعمل وحياة وموت وعلم غيب السماوات والأرض والمعجزات التي لا تنبغي الا لله وأصفيائه والسفرة بينه وبين خلقه وهم وجه الله الذي قال ﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ هم بقية الله يعني المهدي (عجل الله فرجه) الذي يأتي عند انقضاء هذه لنظرة فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملأت ظلما وجورا ومن آياته الغيبة والاكتتام عند عموم الطغيان وحلول الانتقام ، ولو كان هذا الأمر الذي عرفتك بيانه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دون غيره لكان الخطاب يدل ...

ولقد أمرنا ان نحاجج ناكري ولاية الأمر الدائبة بسورة القدر والدخان «فإنها لولاة الأمر خاصة» (١).

وعلّ «حكيم» هنا تعني الحكمتين ١ . : صاحب الحكمة والمصلحة . ٢ . وغير المفروق ، ففرقه هو عن حكمته الثانية ليتضح الأمر لولي الأمر.

إن كل أمر حكيم أمر وفرقه امر ، وهما ليسا من عند ولي الأمر ولا الملائكة والروح ولا أي من الخلق ، وإنما ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ : أمر الأذن في تنزّلهم على ولي الأمر ، وأمر الفرق لكلّ أمر حكيم ، أمر التشريع لفرق شرعة حكيمة ، وأمر التكوين لشرعة تكوينية حكيمة ، أم اي أمر يحتاجه في الأمر في إمرته على الأمة ، فكما أن شرعة التكوين

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٢٢ ح ١٢ . في اصول الكافي باسناده الى أبي جعفر (عليه السلام) قال : يا معشر الشيعة خاصموا بسورة ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ﴾ تفلحوا فوالله انها لحجة الله تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وانها لسيدة دينكم وانها لغاية علمنا ، يا معشر الشيعة خاصموا بحم والكتاب المبين. انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين» فانها لولاة الأمر خاصة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا معشر الشيعة يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ قيل : يا أبا جعفر ، نذيرها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : صدقت . فهل كان نذير وهو حي من البعثة في أقطار الأرض؟ فقال السائل : لا . قال ابو جعفر (عليه السلام) أرأيت بعيثه أليس نذيره كما ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في بعثته من الله عز وجل نذير؟ فقال : بلى . قال : فكذلك لم يمت محمد الا وله بعيث نذير ، قال : فان قلت : لا . فقد ضيع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من في أصلاب الرجال من أمته ، قال : وما يكفيهم القرآن؟ قال : بلى ان وجدوا له مفسرا ، قال : وما فسره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال : بلي قد فسره لرجل واحد وفسّر للامة شأن ذلك الرجل وهو علي بن أبي طالب (عليه السلام) والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

والتشريع التي تتبنى ولاية الأمر رسالة وإمامة ليست إلّا من عند الله ، كذلك الأمر فيهما سنويا ليس إلّا من عند الله ، ولاية دائبة ، وعلى هامشها ولاية سنوية!.

وعلّ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ تدل على دوامة ليلة القدر منذ بزوغ الرسالات الإلهية حتى آخر زمن التكليف ، حيث تضرب إلى اعماق الماضي الرسالي ، رسالة ذات بعدين : نزول كتاب الشرعة ، ومن ثم فرق كل أمر حكيم في كل سنة ، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رسل الوحي ، ورسل القدر لفرق الأمر! وقد تعني ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ الرسالة الأولى وهي الدائبة الأصيلة ، ثم ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الرسالة الثانية السنوية ، فالأولى خاصة بالرسل والثانية تعم أولي الأمر ، طالما الرسل يجمعونهما.

ف «إنا كنا» هنا وهناك تضم دوامة أمر الولاية إلى أمر الرسالة منذ بزغت الرسالة ، فلتكن ليلة القدر دائبة عبر الرسالات والولايات منذ البداية حتى النهاية القيامة.

أو أن الأولى تخص الرسالة والثانية تعمها والولاية ، ولكنما الرسالة في الولاية ليست في أصل الشرعة وبوحي ، وإنما في فرق كلّ أمر حكيم بإلهام على هامش الرسالة.

ومهما يكن من أمر فليلة القدر المحمدية تختلف عن القدر لسائر الرسل وولاة أمرهم ، في قدر الأمر المفروق لهم ، والكتاب النازل عليهم ، والملائكة المتنزلة إليهم : فإن ﴿كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ و ﴿كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إنما تثبت أصل القدر ، لا قدر القدر وكيفيته ، إذا فالملائكة والروح خاصة بهذه الرسالة السامية ، كما أن مادة الوحي وكيفيته هنا تختلف اختلافا شاسعا عما هناك رغم الاشتراك في أصل الوحي.

وكما الرسالة المحمدية وولايتها هي المركز الرئيسي لسائر الرسالات

والولايات ، كذلك قدرها والملائكة والروح فيها وأمرها بفرقها ، ولذلك ترى خماسية الرحمة تربط بالنازلة على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٦) ١ ـ إنا أنزلنا .. ٢ ـ إنا كنا منذرين ـ ٣ ـ فيها يفرق كل أمر حكيم ـ ٤ ـ أمرا من عندنا ـ ٥ ـ إنا كنا مرسلين! : ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ...﴾.

فكما أن ١ ـ نزول القرآن ـ ٢ ـ وفرق كل أمر حكيم في قدرك ٣ ـ من عند الله ، هي ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ كذلك الإنذار في الرسالات مع رسالتك ، ورسالات القدر فيها مع قدرك ، هما ايضا ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾!

فهما إذا نابعتان من كوثرك جاريتان طول التاريخ الرسالي في سواقي الرسالات وولايات الأمر حيث «فعلهم فعله وأمرهم أمره» (١).

---

(١) تفسير البرهان ٤ : ١٥٩ ح ٢ ـ الكافي عن علي بن ابراهيم عن عمر بن أذينة عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران انه سأل أبا جعفر (عليه السلام) عن قول الله عز وجل ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾ قال : نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في عشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر قال الله عز وجل : ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ قال : يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة الى مثلها من قابل من خير وشر وطاعة ومعصية ومولود واجل ورزق ، فما قدّر في تلك السنة وقضي فهو المحتوم ولله عز وجل فيه المشية قال : قلت : ليلة القدر خير من الف شهر» أي شيء عنى بذلك؟ قال : العمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وانواع الخير من العمل في الف شهر ليس فيها ليلة القدر ولولا ما يضاعف الله تبارك وتعالى للمؤمنين ما بلغوا ولكن الله يضاعف لهم الحسنات ، والطبرسي في الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) في حديث طويل قال (عليه السلام) فيه : وانما أراد الله بالحق اظهار قدرته وإبداء سلطانه وتبيين براهين حكمته فخلق ما شاء كما شاء واجرى فعل بعض الأشياء على ايدي من اصطفى من امنائه فكان فعلهم فعله وأمرهم امره كما قال : ﴿مَنْ يُطِعِ

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ دعوات المرسلين قبلك بشأنك ، كإبراهيم الخليل وأضرابه ، سميع كل الدعوات الصالحة ليالي القدر وطول السنة ، سميع ألسنة القال والاستعداد والحال في صالح الأقوال والأحوال .. «العليم» حاجيات ومتطلبات الأمم فرادى وجماعات.

﴿رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾(٧)

ذلك وكأنما الرحمات الربانية لرب السماوات والأرض وما بينهما مجموعة في الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فناشئه عنه بإذن الله إلى الكائنات ، فالرب الإله هو أولا ربك ، ومن ثم هو ﴿رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾!.

وإشارة ثانية في هذا الانتقال . تهدم صرح مختلف الربوبيات المزعومات . أن ربه هو رب الأرض والسماوات ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بالرب الإله ، حيث الشرك في الربوبيات مع العلم أن ربك هو خالق الكون

. الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ وجعل السماء والأرض ووعاء لمن يشاء من خلقه ليميز الخبيث من الطيب مع سابق علمه بالفريقين من أهلهما وليجعل ذلك مثالا لأوليائه وامنائه وعرّف الخليفة فضل منزلة أوليائه وفرض عليهم من طاعتهم مثل الذي فرضه منه لنفسه والزمهم الحجة بان خاطبهم خطابا يدل على انفراده وتوحيده وابان لهم اولياء اجرى أفعالهم وأحكامهم مجرى فعله فهم العباد المكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون هم الذين أيدهم بروح منه وعرّف الخلق اقتدارهم بقوله ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾ وهم النعيم الذي يسأل عنه ان الله تبارك وتعالى أنعم بهم على من اتبعهم من أوليائهم.

أجمع ، إنه ينافي الإيقان بربوبيته ، فالألوهية الوحيدة لزامها الربوبية الوحيدة.

﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾(٩)

ربوبية وحيدة جامعة للكون أجمع من سماواته وأرضه وما بينهما ، ولأهل الكون أجمع ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ «بل هم» المشركون «في شك» من وحدة الربوبية رغم الاعتراف بوحدة الألوهية «يلعبون» لعبة بساحة الألوهية كأنه اقتسم ربوبية ما هو إلهه وخالقه ، بينه وبين خلقه! ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾(١١)

لا نرى الدخان في سائر القرآن إلّا هنا وفي فصّلت ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ (٤١ : ١١) أترى أنهما واحد أو من سنخ واحد أن ترجع السماء إلى ما كانت دخانا وهو المستصحب مع اللهيب ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٤ : ٤٨)؟ قد يكون هذا صحيحا في نفسه كما ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ﴾ . ومنه الرجوع إلى ما ابتدأت دخانا . قد تأتي له شاهدا ، ولكن يوم الدخان هذه هو قبل القيامة الكبرى ، فهي تتلوه : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ (١٦) فبطشة الدخان ليست من الكبرى ، ثم ولا كشف للعذاب يومها ولا قليلا ، ويوم الدخان ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾(١٥) فبطشة الدخان قد تكشف قليلا وهي في نفسها أقل من الكبرى ، فليست هي الأخرى! وقد يعني بطش الدخان المبين العذاب الأدنى : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣٢ : ٢١) أو أنه

العذاب دون الأكبر وليس الأدنى ، اللهم إلّا أن يعنى من الأدنى ضمنها ، قياسا إلى الأكبر.

أترى بعد ما هو هذا الدخان ومتى؟ هل إنه مضى فيما مضى أو يأتي كشرط من أشراط الساعة الكبرى؟ لا نعرف فيما مضى دخانا يغشي الناس كلّا ولا جلّا أو بعضا من السماء كعذاب أليم ، فعلّه من أشراط الساعة كما يروى عن نبي الساعة» [1].

وقد وصف ذلك الدخان بثلاث ١ «مبين» ٢ ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ ٣ ﴿هذا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ مما يؤكد أنه من أشراط الساعة المستقبلة ، ف «مبين» قد

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٩ ـ اخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان مرفوعا اوّل الآيات الدجال ونزول عيسى ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس الى المحشر تقيل معهم إذا قالوا والدخان قال حذيفة يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وما الدخان فتلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة ، اما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة واما الكافر بمنزلة السكران ليخرج من منخريه وأذنيه ودبره ، واخرج ابن جرير والطبراني بسند جيد عن أبي مالك الاشعري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان ربكم أنذركم ثلاثا الدخان يأخذ المؤمن منه كالزكمة ويأخذ الكافر فينفخ حتى تخرج من كل مسمع منه والثانية الدابة والثالثة الدجال ، واخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يهيج الدخان بالناس .. واخرج مثله عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن ، قال بلغني ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ... واخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن علي (عليه السلام) قال : ان الدخان لم يمض بعد ـ ثم ساق مثله ..

وفي المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي ٢ : ١١٧ «طلوع الشمس من مغربها او الدخان او الدجال م فتن ١٢٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ١٢٩ ، د ملاحم ١٢ ، ت فتن ٢١ ، جه ٢٥ ، ٢٨ ، حم ٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ ، ٣٧٢ ، ٤٠٧ ، ٤٤٦ ، ٥١١ ، ٤ ، ٦ ، ٧.

يعني إبانة الدخان عن أمر غير مبان وأهمه الساعة ، فدخان الساعة رجع للسماء إلى ما كانت من دخان الغاز ، ودونه دخان من أشراط الساعة ، كما انشقاق القمر من قبل هو من أشراط انشقاقه عند الساعة ، وأين دخان من دخان وانشقاق من انشقاق ، اللهم إلّا أنهما من أشراطها.

و «يَغْشَى النَّاسَ» ككلّ : «أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» (١٢ : ١٠٧) والساعة غاشية «هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ» (٨٨ : ١) «يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (٢٩ : ٥٥).

يغشاهم ذلك الدخان أدنى من غشية الساعة ، فيشملهم عذابا «هذا عَذابٌ أَلِيمٌ»! وترى الطغاة هم الذين يستحقون غشية العذاب الأليم هنا ويوم الدين ، فما بال التقاة يغشاهم معهم هنا دون يوم الدين؟.

علّه لهم عذاب دونما للطغاة تخفيفا عنهم وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يأخذ المؤمن منه كالزكمة واما الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره ، فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه [1]! فقد اختلف عذاب الدخان هنا بين المؤمن والكافر وكما يختلف في قيامة التدمير «يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ» (٢٢ : ٢).

وحتى إذا لم يختلف عذاب الدخان هنا والزلزال هناك ، فهو للكافر عذاب قبل العذاب الأكبر ، وللمؤمن عذب حتى يخفف عنه من العذاب الأكبر ، وكما في الزلازل والبركانات التي لا تميّز بين مؤمن وكافر! وقد

---

(١) نفس المصدر.

يشير ﴿يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى الاكثرية الساحقة من نسناس الناس حينذاك فإنه من أشراط الساعة القريبة إلى الرجعة وقيام المهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي به يملأ الله الأرض قسطا وعدلا بعد ما ملأت ظلما وجورا.

وقد يعني دخان السماء الغاشي ما يحصل في الحرب العالمية الثالثة ، التي يذهب فيها ثلثا الناس أو ثلاثة أرباعهم ، أو سبعة أو تسعة أعشارهم حسب مختلف الحديث ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٢١ : ٩٧ ـ ٩٦) ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا. وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً﴾ (١٨ : ٩٩).

فنسل يأجوج ومأجوج من كل حدب مرتفع ، تهجّما على من تحت كل حدب ، قد يعمل دخانا غاشيا كعذاب أليم ، وكما نرى الطائرات الحربية كيف تشعّل نارا ودخانا في كل حدب؟.

ومهما يكن من شيء فدخان السماء الغاشي كلّ إنسان قبل الساعة هو من أشراط الساعة ، سواء أكان من هذه الحرب العالمية ، والنسل اليأجوجي ، أماذا من عوامل الدخان بشريا أم إلهيا ، اللهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا!

وترى ما هو ـ إذا ـ لسان حال الناس وقالهم ، أفهم تائبون وإلى ربهم آئبون ومن بعد الغفلة يتذكرون؟.

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ

قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾(١٦).

فمن الناس ـ حينئذ ـ النسناس الخناس ، المتولون عن الرسول القائلون إنه مجنون ، يقولون ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ نؤمن الآن أو آمنا وهم كاذبون ، و ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى﴾ حتى يؤمنوا وقد تعرّق في أعماقهم الكفر حيث ﴿قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ : لكلّ حق كالشمس في رابعة النهار «ثم» بعد البيان ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ وازدادوا كفرا حيث ﴿قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ بدل أن يقولوا «معلم عاقل»!

ورغم أننا عالمون بكيدهم في استكشاف العذاب وكيدهم في دعوى الإيمان ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً﴾ تحقيقا لما التمستم وإظهارا لما كذبتم وكدتم ﴿إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾ إلى ما كنتم ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا﴾ (١٧ : ٨) وكما يعود تطهيرا للأرض ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣٢ : ٢١) فذوق العذاب هو لمسه ، وكشف العذاب يعم قبل اللمس وبعده ، أم لذوقه ، دركات عدة بعضها تلو بعض!

وأما الناس المؤمنون أم غير المكذبين من دونهم فقد لا يستكشفون العذاب ، لأنهم ليس لهم عذابا ، أو يرونه تخفيفا لهم عن آثام لهم فيقبلون ، وإلى ربهم يقبلون!.

ثم لا يكفي فريق النسناس ذوق العذاب الأدنى وعوده ـ بل : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ منهم!

وترى ناكرو الرب إلحادا وإشراكا كيف يستكشفون العذاب وهم في أعمق الكفر وأحمقه؟ .. إنها نداء من عمق الفطرة عند ما تتقطع الأسباب ، فيظهر عنها ما تخفى تحت ستارات الذنوب والشهوات ، وكما الله ينبّه الغافلين ويوجّههم إلى تلك الحالة ، لما ﴿جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ

مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..﴾ (١٠ : ٢٢).

وكيف يكشف الله عنهم العذاب قليلا وهو يعلم كذبهم ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ والإيمان عند رؤية البأس لا ينفع؟ إنه ليس من منافع الإيمان الكاذب حيث لم يتقبّل ، وإنما هو تأجيل للعذاب حجة عليهم ولمن دونهم ، أنهم كاذبون ، فكشف العذاب هنا من أصله هو من منافع الإيمان ، وكشفه قليلا هو من حجج اللّاإيمان! فتنة عليهم وأخرى لغيرهم [١].

ومن ثم كيف تحيل ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى﴾ ذكرى الإيمان ، بأن تولوا عن الرسول المبين وقالوا معلم مجنون؟ إنه استحالة بالاختيار ، حيث زاغوا عن بيان ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ﴿وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ﴾ ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ﴾.

وترى ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً﴾ تعني تقليل العذاب كشفا عن وطأته ، أم تقليل الزمان كشفا عن أصله؟ قد تعني «قليلا» كلتا القلتين إذ تحملهما أدبيا ويناسبانه معنويا ، أو أن كشف العذاب يقتضي نفيه عن أصله زمنا «قليلا» ﴿إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾ بعد قليل ، فالقلة الزمنية مقصودة على أية حال ، والقلة الأخرى مشكوكة ، أم إنها تقليل للفتنة والحجاج عليهم ولمن سواهم ، فلتكن قلة زمنية لا غيرها!.

---

(١) عليهم فتنة شر أن يبتلوا بعذاب اكبر ويظهر كذبهم لمن لم يظهر له انهم كاذبون ، وفتنة خير لغيرهم انتباها.

وأمّا ﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ فمجنونها يفسر معلّمها أن ليس تعليما إلهيا حيث المشركون لم ينسبوا إلى الله فرية الجنون أم تعليم الجنون ، فإنما هو تعليم بشري في سحر وجنّة ، أو في غيرهما : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦ : ١٠٣).

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ انتقاما يستحقون ، جزاء وفاقا بما كانوا يعملون ، حيث البطشة الدنيا هي ما دون الكبرى مهما كانت كبيرة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ
(٢٢) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ
تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (٢٧)
كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ
(٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ

الْمُسْرِفِينَ (٣١) **وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ** (٣٢) **وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ**﴾ (٣٣)

﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**﴾(١٧)

فتنة سالفة قبل فتنتهم ، من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وأن جاءهم رسول كريم ، وإنّها لفتنة كبرى أن يصبح الإنسان في قوة ونعمة وثراء ثم يأتيه رسول من الله يهدّده بطغواه فيها ويحد له تقواه.

وهذه من النصوص على الرسالة العالمية لموسى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ جاء قوم فرعون ، كعديد أمثالهم ، وهكذا تقتضي كرامة الرسالة وسعتها ألّا تخص قوما دون سواهم ، مهما ركزت على قوم دون آخرين كما في بني إسرائيل ، ﴿**جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**﴾ برسالة كريمة ، وهم لئام مستكبرون ، ومن ثم بنو إسرائيل لئام مستضعفون إلّا شذر منهم نبيون أم مؤمنون ، وما وصف رسول بشخصه أنه كريم إلّا موسى ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾ (٨١ : ١٩) وقرآنه : ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**﴾ (٥٦ : ٧٧) طالما الرسل بوجه عام : ﴿**سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ**﴾ (٨٠ : ١٦) وعلّ هذا الإختصاص فيهما لموضع اللئامة المنقطعة النظير في قوم موسى وهذا البشير النذير.

وما هي دعامة الرسالة الموسوية إلى فرعون وملإه ، في اختصار دون احتصار؟ إنها :

﴿**أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** (١٨) **وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ**

إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٩)

إنها تختصر في سلبية الفرعنة والاستكبار على عباد الله وعلى الله ، وما لم يتحقق السلب فلا دور للإيجاب ، ف ﴿أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ﴾ تطلّب أوّل من برثنة الفرعنة هو تخلية السبيل من عباد لله استعبدهم فرعون وملأه ، إذ جعلوهم عبيدا لهم من دون الله ، ولا يتضرر من هذه السلطة إلّا من تحت السلطة وهم بنو إسرائيل المستضعفون المستعبدون ، فليبدأ بهم تخليصا لهم عن المستعبدين ، ومن ثم يرجعهم إلى عباد رب العالمين ، فما لم يخرج الإنسان من عبودية من سوى الله ، ليس ليصبح عبدا لله.

ثم ﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ﴾ تطلّب ثان ، فإن فرعون كان عاليا من المسرفين ، على عباد الله استعبادا ، وعلى الله ادعاء ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾ فهو الطاغوت الذي يطغى على عباد الله ويطغى على الله! :

يعلل الأمر الأول ب ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ رسول لكم من الله أحمل أمانة الله ، فأدوا إليّ عباد الله لأحقق فيهم ما ائتمنت من الله ، وحتى إذا كانوا هؤلاء عبادا لكم مملوكين ، فالله يملكهم وإياكم ، وقد أرسلني لاستدعائهم منكم تخليصا لاستعدائكم عليهم.

ويعلل الثاني ﴿أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ﴾ ب ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ ألّا سلطان لكم على الله وعباده ، وألّا إله إلّا الله وأني رسول الله ، سلطان يبين صدق ما أقول.

فالعلوّ الظالم أيا كان ، على عباد الله وعلى الله ، إنه رذيل قبيح ، تطارده الرسالات الإلهية كأصل أصيل من أصولها ، وهذا الرسول الكريم يؤمر أولا بسلب العلو الاوّل ، ومن ثم الثاني ، فإن العباد هم المستاؤون المتضررون من هذا العلوّ كواقع خطير ، ولكنما الله لا يعلى عليه إلّا في

توهمات واهية ، تركّز الرسالة الإلهية على سلبها ثانية ، ولكي لا يعلو على عباد الله بتركهم العلو على الله ، وتعبدّهم لله!

ثم «ليس عباد الله» هنا لمحة إلى كرامتهم في عبادة الله لموقفهم المتخلف طول تاريخهم ، وانما هي تعريضة بآل فرعون ان اتخذوهم عبادا لهم ، فالواجب الرسالي تخليصهم عن أسر العبودية لغير الله ، حفاظا على ساحة الربوبية وتحريرا لمستضعفي عباد الله!

﴿جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ﴾﴿فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ (٢٠ : ٤٧) وتحذرا من خلفيات هذه التطلّبات الثقيلة على آل فرعون يستعيذ بالله أن يرجموه ، وقد كان عذاب الرجم عندهم أشد العذاب ، وهذا الرسول الكريم لا يترك أو يؤخر دعوته خوف الرجم ، ولا يعوذ بهم من عذاب الرجم ، وإنما ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ (٢٠) «عذت» الماضي لا «أعوذ» الحال أو المستقبل ، تدليلا على أن زاده في دعوته عوذ الرب فإنه رسول الرب فليعذه ربه في هذه السبيل الشائكة الفاتكة وكما أعاذ! .. وآخر المطاف في دعوته ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾(٢١) : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فلا تتعرضوني برجم أم ماذا؟ كما لا أحملكم على ما أدعوا كرها دون إختيار «فاعتزلون» فإنما شأني بعد كمال الدعوة مع ربي : ﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾(٢٢) أجرموا قطعا لثمرات الإنسانية الحرة قبل إيناعها ، وفصلوا عنها كافة معداتها ، والرسالة حياة جماهيرية وسلالة من ثمرات الإنسانية هم مجرموها وقاطعوها ، يا رب أنت بعثتني للإثمار الإيناع لاستعدادات خاملة كرما على الإنسانية جمعاء ﴿وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهم برجمهم المهدّد مجرمون هذه البعثة الكريمة فأنت وشأنك يا رب! فلا مخلص لي في أمرك إلّا بأمرك يا رب!

هنالك تأتي الإجابة فور الدعاء كأنها آتية مع الدعاء ، ولما يصل أمرك إلى ما وصل : ﴿فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (٢٣) «أسر بهم» فرارا عن تجدد حصرهم وأسرهم إياكم ، ولأن سراة كل شيء أعلاه ، فالإسراء ليلا هو السير بهم في مرتفع الليل ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ رغم ظلام الليل وارتفاعه ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ)﴾(٢٤.

ولماذا هذا السريّ السرّي في مرتفع الليل؟ ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ على أية حال ، فليكن الفرار ليلا لكي يبطئوا عن اتبّاعكم فلا يلحقوكم ، وإذا اقتربوا إليكم بحرا ، ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ ل ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ في اتباعهم إذا وجدوه رهوا!.

والرّهو هو السكون ، وهو الفرجة الواسعة ، وكيف يترك البحر ساكنا على التطامه وتموّجه؟ إنه ضرب بعصاه البحر : ﴿فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٦ : ٦٣) وهذا المنفلق أصبح طريقا يبسا : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾ (٢٠ : ٧٧) وعلّ رهو البحر هو طريقه اليبس بفرجة واسعة ، إذ لا ماء فيه حتى يلتطم ولا ضيق حتى يصطدم ، أم ورهو سائر البحر الماء مدّ البصر من الطريق اليبس دفعا عن الرهب ،

هنا يؤمر موسى أن يترك البحر في رهوه أم رهويه كيلا يهابه آل فرعون ، فيدخلوه لكي يصبحوا ﴿جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ وقد حصل ما أراد الله من غرق آل فرعون المتبقين وإنجاء بني إسرائيل المتبعين! وقد تلمح ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ﴾ أن موسى أراد بعد الخروج عن البحر أن يرجعه إلى ما كان صدّا عن آل فرعون ، فأمره الله بترك البحر رهوا ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ أتركه لإغراء فرعون فإغراقه ، وهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب جلية وخفية ، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى!

هنا يطوى شريط حياة الطغاة الشريرة في ايحاءات قصيرة ، تعقيبا عليه يشي بهوان فرعون الذي كان يشمخ بخرطومه فيطأطئ له المستخفون طاعة عمياء وعبادة طخياء ، تاركا كل ثرواته ونعماته.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ﴾(٢٧)

تركوا كل كريم وكريم ، إذ تركوا الرسول الكريم ، ونعمة لا نعمة ، حيث النعمة هي الحالة الحسنة من مال أو حال ، ومن حسنها بقاءها في كل النشآت فإنها هيئة ، والنعمة هي التنعم المرة ثم انقطاع فإنها مرة ، وهي للمتنعمين بها خاصة بالدنيا أيّاما أم بالتمام ثم تنقطع عنهم بالمرة وتصبح بعدها مرّة ، ولا نجد النعمة في سائر القرآن إلّا هنا!

فهؤلاء الحماقى هم الذين يبدلون نعمة الله نعمة فنقمة : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾.

تلك النعمة الجنات والعيون وزروع ومقام كريم ، هم كانوا فيها غريقين فاكهين : يتعاطون فيها الفكاهة ومختلف ألوان الشهوة بكل تفاهة ورذالة وحيونة

﴿كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ (٢٨) ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (٧ : ١٣٧) ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾(٢٨ : ٦)!

ترى وهل أورث بنو إسرائيل كلما كان لفرعون وملائه وحتى ﴿نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ﴾؟ علّه لا! حيث النّعمة مضلّلة ومن مقامهم استعلاء على الله واستعباد لعباد الله!

أو علّه نعم ، حيث النعمة هي النعمة التي تبدّل بكفرانها والكفر بها نعمة ، فإرث النعمة للصالحين منهم نعمة ، وللطالحين نعمة ، وكما المقام الكريم السّلطة ، كل يعاملها حسب البغية والشاكلة ، وليس لزام الإيراث نقل عين الميراث ، وإنما عزل قوم ونقل آخرين إلى ما كانوا يملكون ، على تحول وتبدل أماذا؟

﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾(٢٩)

ترى وهل تبكي السماء والأرض على المؤمن لكيلا تبكي على الكافر وما بكائهما؟ أجل وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بكاء عليه وتحزنا من مواضع صلواته ومصاعد أعماله [١] ولأن البكاء هي

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠ . اخرج الترمذي وابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وابو نعيم في الحلية والخطيب عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما من عبد إلّا وله في السماء بابان باب يصعد منه عمله وباب ينزل عليه من رزقه فإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية ﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ﴾ وذكر انهم لم يكونوا يعملوا على وجه الأرض عملا صالحا يبكى عليهم ولم يصعد لهم الى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم.

واخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلا قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إن الإسلام بدأ رغيبا وسيعود غريبا ، ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض ثم قرأ .

التحزن البادي على وجه الباكي ، وانقطاع عمل المؤمن بموته انقطاع لما يصعد إلى السماء من أعماله ولما ينزل إلى الأرض من بركاته ، فكأنهما إذا تبكيان ، وبنفس الحجة هما على الكافر يضحكان ، حيث تنقطع أعماله التي كانت تسوّد كتاب الأرض والسماء ، وتزعج كتّابهما الذين يستنسخونها!

ومن ثم فأهل السماء والأرض ـ المطلعون على وفاة المؤمن ـ هم عليه باكون وعلى الكافر ضاحكون! ثم ومن البكاء الإستنصار ، الذي هو كائن من أهل الله للمؤمن وبائن عن الكافر!

ثم المؤمن ولا سيما العالم إذا مات ثلم ثلمة دون الكافر ، وقد يمثلون خلو الدار عن سكانها وقطّانها ، بأنها باكية عليهم ومتوجعة لهم لانقطاع أسباب النعمة والأنسة عنها ، ولكنما الكافر حياته عذاب على الناس ، فلا تبكي عليه السماء والأرض ، إذ لا أثر له صالحا حتى ينقص بفقدانه ، ولو كانتا من الجنس الذي يصح منه البكاء لم تبكيا عليهم ولم تتوجعا لهم إذ كان الله عليهم ساخطا ، ولهم ماقتا ، وحياتهم عذاب على أهل السماوات والأرض.

كل هذه البكاء ثابتة للمؤمن ، منفية على الكافر ﴿وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾ حيث أغرقهم الله دون إنظار وما كانوا منتصرين.

المستضعفون وهم دوما الأكثرية الساحقة ، ومن معهم من رسل الله

ـ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال : انهما لا يبكيان على كافر.

واخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع عن علي (رضي الله عنه) قال : ان المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثم تلا هذه الآية.

وملائكة الله وساير المؤمنين ، هم كلهم يفرحون ويرتاحون لموت الكافر ويبكون لموت المؤمن.

فهناك بكاء للسماء والأرض على المؤمن ، كلما ازداد إيمانه ازدادت حيث تحمرّ كما احمرّت ليحيى بن زكريا وللحسين [١] (عليهما السلام) وبكاء لأهل

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠ واخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب عن ابراهيم (رضي الله عنه) قال : ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلّا على اثنين ، قيل لعبيد. أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال : ذاك مقامه وحيث يصعد عمله ، قال : وتدري ما بكاء السماء؟ قال : لا . قال : تحمر وتصير وردة كالدهان ، ان يحيى بن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دما وان الحسين بن علي (عليه السلام) يوم قتل احمرت السماء ، واخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن زياد قال : لما قتل الحسين احمرت آفاق السماء اربعة أشهر.

أقول : ومن طريق أصحابنا روي بكاء السماء على يحيى وعلى الحسين (عليهما السلام) القمي في تفسيره قال حدثني أبي عن حنان بن سدير عن عبد الله بن الفضل الهمداني عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال : مر عليه رجل عدو لله ولرسوله فقال : ﴿**فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ ، وَما كانُوا مُنْظَرِينَ**﴾ ثم مرّ عليه الحسين بن علي (عليه السلام) فقال : لكن هذا لتبكين عليه السماء والأرض ، وما بكت السماء والأرض إلا على يحيى بن زكريا وعلى الحسين بن علي (عليهما السلام) ، وفي كتاب المناقب لأبن شهرآشوب عن الباقر (عليه السلام) ان عليا (عليه السلام) خرج قبل الفجر متوكئا على عنزه والحسين (عليه السلام) خلفه يتلوه حتى أتى خلفه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال : ان الله تعالى ذكر أقواما فقال ، ﴿**فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ**﴾ والله ليقتلنه ولتبكين السماء عليه.

وفيه عن الصادق (عليه السلام) بكت السماء على الحسين أربعين يوما بالدم وفيه عن إسحاق الأحمر عن الحجة (عليه السلام) حديث طويل في أواخره : وذبح يحيى (عليه السلام) كما .

السماوات والأرض ، ولكتاب الأعمال وكتّابه ، وللحياة الصالحة حيث البكاء تحزّن بانتقاص في الحياة ، وانتقاض في سنن الحياة ، وبكاء كل شيء بحسبه!

وهناك ضحك لها كلها لموت الكافر ، كلما ازداد كفرا ازدادت ضحكا وضحك كل شيء بحسبه ، وترى هلّا يبكي على الكافر حتى الكفار ، الذين كانت لهم حظوة وشهوة من حياته؟ : : مورد الآية هم آل فرعون وقد استأصلوا بالغرق ، ومن ورائهم مستضعفون من بني إسرائيل وسواهم وهم يضحكون.

ثم وسائر الكفار الذين يموتون عن أمثالهم ، فقليل بواكيهم والضاحكون عليهم كثير ، وبكاء السماوات والأرض يعني الكون كله بمن فيه وما فيه ، والشذاذ الباكون على الكافرين ، ليسوا السماوات والأرض ، بل وليسوا منها بحق حيث لا يعتبرون شيئا!

ثم «فما بكت» إضافة إلى ما عنته ، قد تعني السخرية بهم حيث كانوا يستعظمون أنفسهم ، ويعتقدونهم إن ماتوا بكت عليهم الدنيا رغم ما

. ذبح الحسين ولم تبك السماء والأرض إلّا عليهما(نور الثقلين ٤ : ٦٢٧ ـ ٦٢٨). وفي تفسير البرهان ٤ : ١٦١ ج ٤ عن القمي عن امير المؤمنين (عليه السلام) في الرحبة وهو يتلو هذه الآية إذ خرج عليه الحسين بن علي (عليه السلام) من بعض أبواب المسجد فقال : اما هذا سيقتل وتبكي عليه السماء والأرض.

وفيه خرج امير المؤمنين (عليه السلام) فجلس في المسجد واجتمع أصحابه حوله فجاء الحسين (عليه السلام) حتى قام بين يديه فوضع يده على رأسه فقال : يا بنيّ إن الله عيّر أقواما بالقرآن فقال ﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾ وايم الله لتقتلن من بعدي ثم تبكيك السماء والأرض.

ضحكت ، كما نراها تضحك وحتى أهلوها الوارثون لها على فجارها ، حيث يستغلونها بما يستقلون بها!

إذا فذلك تعبير يلقي ظلال الهوان على هؤلاء الطغاة المتطاولين حيث ذهبوا ذهاب النمال ، وهم كانوا يطئون الناس وطأ النعال ، أرواح خبيثة منبوذة في الكون ، لما تنقطع عنه وتستروح فهو يستريح ، فإنهم عذاب للكائنين مهين ، ثم في الصفحة المقابلة لهم بنو إسرائيل الوارثون :

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾(٣١)

قد يأتي العذاب رحمة رغم كونه زحمة كما للذين يستشهدون في سبيل الله او يؤذون دون مهانة في هذه السبيل ، وهذا رغم كونه عذابا ليس من عذاب الله ، وإنما عذاب الشيطان ولم يأت في القرآن بصيغة العذاب اللهم إلا أذى في الله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ﴾ (٢٩ : ١٠) :

وقد يأتي من الله تذكيرا ولعلهم يرجعون : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ومنه مهين ومنه غير مهين :

وقد يأتي مهينا بما قدمت أيدينا وأن الله ليس بظلام للعبيد ، وقد كان فرعون من العذاب المهين ، حيث أهان كرم الإنسانية باستعبادها ، استخفافا لها ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ﴾ في بني إسرائيل قتلا وفتكا واستعبادا لرجالهم واستحياء لنسائهم : ﴿يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢٨ : ٤) ﴿وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٢ : ٤٩).

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنا﴾ تأكيدات ثلاث [١] أنه نجاهم من العذاب المهين ـ «من فرعون» ولماذا؟ ﴿إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ عاليا على عباد الله استعبادا لهم وعلى الله ادعاء للربوبية العليا ، مسرفا في علوّيه ، وليس الله ليصبر على هكذا هتك وفتك لساحته وعباده ، اللهم إلّا امتحانا للعلات على علّاتهم وامتهانا لمن تخاذلوا أمامهم على علّاتهم :

إن العلو الاستعلاء بغير حق وفي إسراف هو من أهون العذاب المهين لجماهير المستضعفين. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٠ : ٨٣) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢٨ : ٤) ولقد أسرف في علوه حتى على الله مسا مهينا من كرامة الله ﴿فَحَشَرَ فَنادى. فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾ (٧٩ : ٢٤).

فهنالك نجاة لبني إسرائيل من هذا العذاب المهين ، ومن ثم اختيار لهم على علم على العالمين :

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾(٣٢).

اختيار إلهي انتخابا لخير الموجودين في ذلك الزمن ، و «على علم» بحالهم ومسيرهم ومصيرهم ، وبخيرهم وشرهم ، والله يعلم أنهم سوف يصبحون من أفسد المفسدين ، لحد قلّما نجد أقواما في التاريخ الرسالي ـ فيما يقصه القرآن ـ كأمثالهم فيما أفسدوا.

ولكنه لما يعلمه الله أنهم على حالهم واستقبالهم من أفضل العالمين وأحقهم بالانتصار حيث استضعفوا بالفرعنة الجبارة وهم موحدون ، وأن

---

(١) هي ل ـ قد ـ نا. فان (نا) جمعية الصفات انه تعالى بهذا الجمع العظيم نجاهم.

فيهم أنبياء صلحاء مهما حصل بينهم من انحراف وانجراف وتلكّؤ والتواء : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾

لقد كان ذلك اختيارا مؤقتا باختبار وحتى في الآيات التي أوتوها بلاء مبينا : ﴿وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ﴾ (٣٣) وهي الآيات التي خصتهم دون آل فرعون ، إذ كانت في غرقهم كفلق البحر ، أو بعد غرقهم كانبجاس العيون من الحجر ، ونتق الجبل ، وإنزال المن والسلوى عليهم ، وبنتيجة اختبارهم وسقوطهم في هوّات الضلالة والإفساد سلبت عنهم النبوة إلى نبي اسماعيلي ، وبعث عليهم من يشردهم ويسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧ : ١٦٧).

و ﴿ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ﴾ تلميحة بينة أن هذه الآيات المعجزات كانت بطيّاتها بلاء مبين يبين مدى إيمانهم أو كفرهم وكفرانهم.

﴿إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا
بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا
مُجْرِمِينَ (٣٧) وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (٣٨) ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ
وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ
مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ
الزَّقُّومِ (٤٣) طَعامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ
فَاعْتِلُوهُ إِلى

سَواءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ
(٤٩) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
(٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (٥٣) كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ
فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ
(٥٦) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
(٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾(٥٩)

﴿إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ (٣٥).

.. عرض لقيلة شائنة عن شأن الموت والحياة لغير الموحدين من مشركين وملحدين ، القيلة التي سوف يستنكرونها يوم الدين إذ يعترفون بكرور الموت والحياة مرتين مرتين : ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٠ : ١١)[1] وهم كانوا بها كافرين ، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟ (٢ : ٢٨).

ف «إن هي» العاقبة او النهاية أو . وبأحرى . الموتة ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى﴾ فلا ثانية لها : أن نموت عن حياة برزخية هي بعد الموتة الأولى ﴿وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ عن الموتة الثانية.

فقد ينكر هؤلاء الناكرون أية حياة بعد الأولى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٣ : ٣٧) رغم أنهما إحيائان! .. أو ينكرون أيّة إماتة بعد الأولى ﴿وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ كما هنا.

فنكران الموتة الثانية نكران للحياة البرزخية بعد الموت ، حيث الموتة الثانية تستلزم حياة بين الموتتين ، ثم ﴿وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ نكران للحياة الآخرة بعد الموتة الثانية.

ف ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا .. وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ نكران للحياة الأخرى و ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ نكران للحياتين بعد الموت ، والحياة البرزخية ضرورة كما الحياة الأخرى.

---

(١) راجع تفسير الآية من سورة المؤمن ستجد بحثه المفصل.

فهنالك إماتتان وإحياءان ، إحياء أول للحياة الدنيا ثم إماتة عنها فحياة برزخية ، ثم إماتة ثانية ومن ثم إحياء ثان للأخرى ، هم يعترفون بهما يوم الدين ، وهم أولاء ينكرونها يوم الدنيا! ».

هم هكذا يدعون دون برهنة على دعواهم ، ولا يصدقون أية برهنة إلّا أن يؤتى بآبائهم :.

﴿فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٣٦).

أفإتيانا بهم أحياء لكي تثبت نشرة بعد موتة؟ فلما ذا آباؤهم وهم لا يعرفونهم عيانا! وهم بمشهد متواتر من حياة بعد موت نباتية وحيوانية ، ثم النشرة ليست إلّا في الأخرى جماهيرية ، وفي الرجعة جمهرات خاصة ، وليس صدق القول في النشرة يحصر في نشر الآباء ، ثم ولا يثبت نشرهم إلى الحياة الدنيا نشرهم إلى الأخرى إلا إمكانية بالمماثلة ، وهي حاصلة عمليا وواقعيا!

أو اتيانا بهم ليسألوهم هل هناك نشرة بعد الموتة ، وهم كأمثالهم في نكرانها! وحتى إذا صدقوها كيف هم يصدّقون وحملة الوحي يكذّبون ، وإذا تكذّبون حملة الوحي بآياتهم المعجزات وأنتم تعرفونهم فأنتم أولى تكذيبا لآبائكم وأنتم لا تعرفونهم ، ولو عرفتموهم فلا حجة في أقوالهم إلّا أنهم آباؤكم ، تقليدا أعمى ، وتقديما لقولة الموتى!

وهذه خرافة تتكرر وشريطة تعاد على ألسن الناكرين ليوم الدين : من الذي مات ثم رجع حتى يخبرنا عن الحياة الأخرى؟ يسألونه كأن لا جواب لهم إلّا نكرانها ، وليس تصديقها محصورا في أخبار الموتى ، وإنما تتبع

أدلتها العقلية والواقعية الأخرى في إمكانية الحياة الحساب وضرورتها دون أن يثبتها قولات الموتى ، أو تنفيها هي أم أمورا أخرى.

فإن هي إلا طنطنات وشنشنات يهرفها الخارفون وينكروها العارفون ، فان لكل مدلول دليلا يخصه دون ما يتعنّته الناكرون.

إنهم يغفلون أو يتغافلون عن حكمة النشرة الحساب ، أنها للوصول بالصالحين إلى النهاية الكريمة التي تهيئوا وتأهلوا لها في الرحلة الدنيا ، والوصول بالطالحين إلى النهاية الحقيرة الذليلة التي قدّموا لها من حياتهم الرذيلة ، وخطواتهم المرتكسة في الحمأة القذرة.

إذا فدور البعث والنشور ليس إلّا بعد انقضاء الحياة الأرضية كلها ، دون أن تكون لعبة تتم حسب أيّة رغبة او نزوة وتهوسة لفرد أو جماعة ، كي يصدقوا بالحياة الآخرة ولن يصدقوها مهما غرقوا في واقع الأدلة.

هنا وقبل توجيههم إلى أدلة قاطعة على ضرورة الحياة الحساب ، يلمس قلوبهم المقلوبة بلمسة ضريعة سريعة عن مصارع مسارع لمن قبلهم كقوم تبع :

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ﴾(٣٧).

تبّع هذا هو أسعد الحميري من الملوك الحميريين باليمن ، لا نجد له ذما في القرآن إلّا لقومه ، مما يلمح إلى إسلامه وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم» [1]

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣١ ـ اخرج احمد والطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه عن.

«وهو أوّل من كسا الكعبة [١]».

فهنا قوم تبع ، وفي (ق) ﴿وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾(١٤).

قوم تبع كانوا خيرا منهم قائدا فتخلفوا عنه ، وأكثر منهم نعمة فبدلوها نعمة ونقمة فاستحلوا دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ، ومن قبل ﴿أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ﴾ فلا سبيل لكم إلّا الهلاك.

﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾(٣٨).

توجيه بعد تهديد إلى برهان لضرورة الحياة الأخرى ، أن لولاها لكان خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا ولعبة ، ولكنما الإله الحق لا يأتي إلّا بالحق ، وحق الخلق لزامه حق الحياة الحساب.

إن خلقها لعبا لهو في الخلق ، وضلال بعيد عن غاية الخلق : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ. لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ. بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ

. سهل بن سعد الساعدي قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا تسبوا .. ، وأخرج ابن المنذر وابن عساكر ووهب بن منبه قال نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن سب أسعد وهو تبع قيل وما كان اسعد؟ قال : كان على دين ابراهيم.

(١) المصدر اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تسبوا اسعد الحميري وقال هو أول من كسا الكعبة ، وروى في المجمع عن الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان تبعا قال للأوس والخزرج : كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اما انا لو أدركته لخدمته وخرجت معه.

زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (٢١ : ١٨).

إذا فالخلق دون الحياة الحساب لعب وهو لهو بالخلق مستحيل على الله في بعدين لو أراده . ولن .! لاتخذه من لدنه دون خلقه ، حيث اللهو بهم ظلم في ظلم وما الله بظلام للعبيد!.

أترى لماذا اللعب اللهو في خلقهما لولا الحياة الحساب؟ لأن الخلق فيهما ، بينهم ظلامات وتعديات ، وتخلّفات عن شرعة الحق ، وبينهم استكبارات واستضعافات ، وفيهم من يعدل وما أقلهم ، والخلق الحق والخالقية الحقة العادلة تقتضي الجزاء الوفاق لكل كما يعمل ، فإنه قدير عليم وعدل حكيم ، فإذ لا نرى الجزاء الحساب هنا فلتكن حياة أخرى بعدها لتجزى فيها كل نفس بما تسعى ، ولولاها لكان الخلق لعبة ولهوا وعبثا : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٣ : ١١٥).

ولأن الخالق هادف غير لاه أو لاعب أو عابث ، وأن القصد والتصميم لائح من الخلق ، وأنه عدل حكيم ، فلتكن هناك حياة أخرى بعد الأولى إذ ﴿ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾ :

﴿ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٣٩).

أكثرية ساحقة من ناس هم في الحق نسناس لا يعلمون أن لهذا المطاف نهاية ، أترى أن هذه الرحلة القصيرة على هذه الكوكبة الصغيرة للإنسان أم أيا كان من الخليقة ، في هذا الكون الشاسع الواسع المستخدم لتكامله ، كل ذلك تصبح هباء خواء ، دون أية نهاية مقصودة؟

إن الخلق الحق ، البعيد عن أي باطل ، كيف يحمل باطل اللعب

واللهو العبث ، في اتساعة دونما حاجة في هذه القصيرة ، وفي عدم الحياة الحساب في النهاية.

﴿ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ سببا وملابسة وغاية ، فالخلق إذا في مثلث الحق ، فلو لم يكن حساب أصبح في مثلث الباطل ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

«لا يعلمون» الحق الذي خلقتا به ، لا جهلا ذاتيا قاصرا فهم معذورون ، فإنما تجاهلا وتغافلا مقصرا فهم مسئولون!

لا يخفى على ذي حجى أن الفعل من العالم الحكيم هادف قاصد؟ فهل الله يخلق ثم يهرج ويمرج بين خلقه دونما شرعة تضبطهم هنا ، وحياة أخرى للحساب يجازيهم فيها هناك؟

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾(٤١).

إنه يوم الفصل بين المحشورين بانفصال العقائد والأعمال ، رغم أنه يوم الوصل بين المحشورين فإنه ميقاتهم أجمعين من الأوّلين والآخرين والخيّرين والشّريرين.

فالولاية الواصلة يوم الدنيا في غير الله هي الفاصلة يوم الدين حيث لا يغنى مولى عن مولى شيئا ، اللهم إلّا ولاية الله بين من يتولاه فهي قد تغني شفاعة بإذن الله لمن يشاء ويرضى.

فلا ولاية ولا نصرة هناك إلّا من الله وبأذنه و ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ (١٩ : ٨٧) فهناك ينصرون دون إغناء ، فإنه الاستقلال وليس إلّا لله ، والنصرة دون استقلال فهي حاصلة بشفاعة صالحة.

والمولى هنا هو الذي يلي أمر صاحبه وهو صاحبه الذي يتولى أمره ، فالأول هو الأول والثاني هو الثاني ، ولماذا لا إغناء هناك ولا نصرة؟ ولا .. إذ ﴿تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ﴾ (٢ : ١٦٦) ولا ينصرون : ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٢ : ٤٨).

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٤٢) فمن رحمه الله يغنيه الله وهو المؤمن و ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومن رحمه الله ينصره الموالي في الله شفاعة بإذن الله ﴿ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ (١٠ : ٣).

ف «إلّا» هنا استثناء عن ﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ دون «لا يغني» ف «شيئا» في سياق نفي الغنى ينفي كل غنى في كل شيء فلا يستثنى ، ﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ دون شيئا ، يقبل استثناء لمولى في شيء كما يشاء الله ويرضى ، فالنصرة المساعدة هي موضع الشفاعة على شروطها ، دون الغنى المستقلة لمن ليست له أية أهلية للرحمة الإلهية ، فالشفيع لا يغني ولا يكفي وإنما ينصر ، فإنه تعالى هو الكافي المغني لا سواه ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ﴾ اللهم إلّا غنى بالله كما يروي عن الصادق (عليه السلام) (١) وفي النجم تصديقه :

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٢٩ ج ٣٩ في اصول الكافي احمد بن مهران عن عبد العظيم بن عبد الله الحسنى عن علي بن أسباط عن ابراهيم بن عبد الحميد عن زيد الشحام قال قال لي ابو عبد الله (عليه السلام) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ﴾ نحن والله الذي استثنى الله فكنا نغني عنهم ، أقول : يعني الغنى بالله وهي الشفاعة النصرة دونما استقلال.

والمصدر ح ٤٠ عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال لابي بصير يا أبا محمد والله ما استثنى الله عن ذكره بأحد من أوصياء الأنبياء ولا اتباعهم ما خلا امير المؤمنين وشيعته فقال في كتابه وقوله الحق ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾ (٥٣ : ٣٦) فلا يغني أحد إلّا بالله وحتى رسول الله : ﴿وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢ : ٦٧).

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب فلا مغني سواه. و ﴿الرَّحِيمُ﴾ قد ينصر سواه بإذنه دون أن يغنيه ، فالعزة تحصر فيه حسرا عن سواه ، والرحمة قد تكون بأذنه وهي الشفاعة لسواه.

أجل وفي يوم الفصل يتجرد وينفصل الناس من كل سناد لهم في الأرض ، من كل قرابة وولاية وآصرة ، عائدين إلى ربهم فرادى كما خلقوا أوّل مرة ، اللهم إلّا شفعا برحمة الله لا سواه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾!

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ﴾ تعم المولى الناصر الشافع [1] والمنصور المشفع له ، حيث المستثنى منه يعمهما ﴿مَوْلًى عَنْ مَوْلًى﴾.

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ (٤٦).

. ﴿يُنْصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ﴾ يعني بذلك عليا وشيعته أقول : فعلي وأضرابه من المعصومين هم المولى الشافع والشيعة هم المولى الثاني.

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٣٠ ح ٤١ في تفسير القمي في الآية قال : من والى غير اولياء الله لا يغني بعضهم عن بعض ثم استثنى من والى آل محمد فقال : ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ثم قال : ان شجرة الزقوم طعام الأثيم ، نزلت في أبي جهل بن هشام وقوله عز وجل : قال : المهل الصفر المذاب ، يغلي في البطون كغلي الحميم ، هو الذي قد حمى وبلغ المنتهى.

﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ﴾ (٣٧ : ٦٥). ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ. فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥٦ : ٥٦).

إن الاثماء الظالمين الضالين المكذبين، نزلهم الطعام زقوم يوم الدين، زقوم يأكل زقوما وذلك عذاب مهين!.

وإنها من الشجرة الملعونة في القرآن يوم الدين، هي أكل للشجرة الملعونة في القرآن يوم الدنيا، ملعونة بملعونة وزقوم في زقوم، وما أدراك ما زقوم!

إن جرس اللفظ يلمح بجرس المعنى، فكما اللفظ كأنه خنقة الحلوق كذلك الواقع خنقا للحلوق وغليا في البطون ﴿طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ﴾ فإنها تطلع كخلفيّة لرؤوس الشياطين، فهي إذا طعام لرؤوس الشياطين، رؤوس للشياطين ورؤوس الشياطين: حملة رايات الشيطنات من الجنة والناس أجمعين.

فهناك مثلث من الزقوم: اسما في جرس اللفظ، وسمة في شاكلة الواقع، ووصمة في فاعلية تنطبق حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة على مثلث الشيطنات أسماء وسمات ووصمات.

والزقم هو الكريه في المنظر والمطعم والريح، فالزقوم هو المبالغ في ذلك، فلا طعام في النار أكره من الزقوم، كما ليس في النار أكره من ذلك الأثيم! وإنه «كالمهل» المذاب من النحاس والرصاص أو دردي الزيت ﴿يَغْلِي فِي

﴿الْبُطُونِ﴾ فأحرى به أن يغلي فيصبح منه البطون غليا على غلي ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ البالغ في الحمّة [١] مما يحمّ ، وإذا ﴿سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾ (٤٧ : ١٥) فما ذا يصنع حميم الزقوم؟!

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (٥٠).

أمر صارم من الجبار الحكيم ، الى زبانية الجحيم ، باعتقال جبار لئيم وهو في زعمه العزيز الكريم «خذوه» أخذ الاعتقال ، وشدّوه في كل إهانة ومهانة على أية حال ، وهو في حالة الفرار ولات حين فرار «فاعتلوه» خذوه بمجامعه وجرّوه بقهر ﴿إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ : وسطه وعمقه وكأنه دركه الأسفل المحيط به سائر الجحيم ، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾ (٩ : ٤٩) فإن الجحيم طبقات متداخلة كروية أماهيه ، بعضها فوق بعض ، مما يزيد كل تالية عذابا حتى الدرك الأسفل في المركز الرئيسي منه ، كما الكرة الأرضية ذات الحرارة في أعماقها ، حيث الأسفل منها مركزها وهي أحرّ من سائر أطباقها.

ولأن أصل الحرارة في الجحيم هو في أصل الجحيم ، فأهل الأصل هم صلاءه والباقون بهم يصطلون : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ.﴾ (٦٩ : ٣١) اجعلوه صلاءة الوقود ، ثم ماذا بعد الأخذ القتل والجذب والدفع؟

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٣٠ ح ٤١ في تفسير القمي في الآية قال : من والى غير اولياء الله لا يغني بعضهم عن بعض ثم استثنى من والى آل محمد فقال : ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ثم قال : ان شجرة الزقوم طعام الأثيم ، نزلت في أبي جهل بن هشام وقوله عز وجل : كالمهل : قال : المهل الصفر المذاب ، ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ وهو الذي قد حمى وبلغ المنتهى.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ﴾(٤٨) كما هم صبوا فوق رؤوس المستضعفين من عذاب الحميم ، استكبارا عليهم واستخفافا واستحمارا لهم فأصبحت رؤوسهم خاوية عن الهدى حاوية لكل ردى ، ومن ثم تأنيب وترذيل :

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩) كلمة تقال له حين العذاب ، عذابا فوق العذاب ، حيث كنت يوم الدنيا تراك عزيزا [1] : تتغلب على من سواك. كريما : كأنك المنعم على من سواك لا سواك ، وحتى إذا كانت قيامة فأنت أنت لك الحسنى دون من سواك : ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ (٤١ : ٥٠) ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً﴾ (١٨ : ٣٦) : «ذق» ولما يصلك العذاب الحساب ، وإنما ذوق العذاب! وهذا من جزاء العزير دونما عزة ، والكريم دونما كرامة ، وإنما ذلة ولئآمة بلا هوادة!

﴿إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ وتترددون في تكلّف النكران ، حيث البينات من كلّ الصنوف واضحة الدلالة على ضرورة الحياة الحساب وضح النهار ، ولكنكم ﴿كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تحميلا على فطركم وعقولكم حيث لا تتحمل مثل ذلك النكران إلّا تكلّفا ، والافتعال تكلّف للفعل!

هذا مصير الأثماء ورؤوس الشياطين ، فما مصير المتقين؟

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١).

فكما الطغوى تجعل أهلها في اضطراب مهين ، كذلك التقوى تجعل أهلها في

---

(١) في جوامع الجامع روي ان أبا جهل قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني.

مقام أمين ، يوم الدنيا ويوم الدين ، حيث العقبات السوء من الآثمين يوم الدنيا التي تتربص دوائرها بالمتقين ، لا تحسب اضطرابات لهم أمام الأمن الأمين لهم يوم الدين ، ومن قبل وهم في الدنيا لهم الأمن في ضمائرهم ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١٣ : ٢٨) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٦ : ٨٢) فإنه في «حزب الله بالتقوى من كل بلية» [1] ومن ثم لهم كمال الأمن في الدولة الاخيرة المهدوية : ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ (٢٤ : ٥٥) أمن بعد أمن هنا وثالث يوم الدين :

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (٥٣) كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾(٥٥).

«جنات» تجري من تحتها الأنهار «وعيون» إضافة إلى الأنهار ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ﴾ الحريرة الرقاق «و» من «إستبرق» الحريرة السّماك ، يلبسونها متقابلين ويجلسون متقابلين ، إخوة متقين متقابلين لإخوة متقين ، ثم وهم مع أزواجهم متقابلين.

«كذلك» المقام الأمين ـ ثم ﴿وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ رجالا لهم منهن زوجات كما لهم من المؤمنات زوجات ، وهنّ أفضل من الحوريات «يدعون»

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٣٠ ح ٤٦ في اصول الكافي محمد بن يحيى عن احمد بن محمد بن عيسى عن ابن محبوب عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (ع) قال : اي عبد اقبل قبل ما يحب الله عز وجل أقبل الله قبل ما يحب ومن اعتصم بالله عصمه الله ومن أقبل الله قبله وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض او كانت نازلة على اهل الأرض فشملتهم بلية كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية أليس الله عز وجل يقول : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ﴾؟.

المتقون رجالا ونساء ﴿بِكُلِّ فاكِهَةٍ﴾ من الفكاهة والفاكهة «آمنين» بكل أمن دونما اضطراب ، ويأمنون أضرارها.

﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٥٧).

أترى أن الموتة الأولى ـ وهي عن الدنيا إلى البرزخ ـ هم ذاقوها في الجنة؟ فلا يذوقون فيها موتة ثانية [١]. ولا موت في الجنة فضلا عن الأولى التي هي قبل البرزخ والجنة! إنه استثناء منقطع يستأصل عن الجنة أيّة موتة فيها فإنها دار الخلود ، وما أجمله تأكيدا لاستئصالة استثناء ما مضى عما قد يظن أنه يلحق ، فهو إذا تأكيد ذو بعدين.

وترى هل الموتة واحدة قبل الجنة هي الأولى؟ فلما ذا الأولى وهي تلمح لغير الأولى؟ وإذا كانت واحدة فلتكن ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى﴾ لا الأولى.

ثم هي مرتان كما حملتهما الآيتان ، واحدة تنذر بمن يحصرها في الأولى ﴿إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ. إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى ..﴾ (٤٤ : ٣٥) والاخرى تثبت الموتة الثانية ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ (٤٠ : ١١) إذا فكيف لا يذوقون فيها إلّا الموتة الأولى؟

علّ الثانية ـ وهي عن الحياة البرزخية إلى الأخرى ـ تخص غير المؤمنين كما الآيتان لا تدلانها إلّا لهم دون المؤمنين ، فالصعقة العامة بالنفخة الأولى

---

(١) ولئن سأل سائل هب ان اهل البرزخ يصعقون موتة كما الكافرون او غشية كما المؤمنون ، فما للأحياء الذين يموتون موتتهم الاولى بهذه الغشية؟ فالجواب ان المؤمنين وهم الاكثرية الساحقة لا يموتون إلّا مرة واحدة ، وسواهم قد تتكرر موتتهم فالاولى بهذه الصعقة والثانية باماتة خاصة بين الصعقتين.

هي للكافرين موتة ثانية ، وللمؤمنين دون موتة بصعقة ، ولمن شاء الله لا صعقة ولا موتة : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٣٩ : ٦٨) [١].

أو علّ ذوق الموت يعني ذوق ألمه ، فالكافر يذوقه في الموتة الثانية كالأولى ، والمؤمن لا يذوقه في الثانية لأنه في رحمة الله مهما مات ثانية ، رغم ذوقه في الأولى ، حيث الدنيا دار بلاء وعناء

وعل ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني فضل الجنة ، وفضلا قبلها أنهم لم يذوقوا الموتة الثانية ، حيث لم يموتوا ثانية أو لم يذوقوا ألمها و ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

مما لا يريبه شك أن ﴿مَنْ شاءَ اللهُ﴾ وهم أكرم الأكرمين على الله ، هم لا يذوقون الموتة الثانية ، ثم من دونهم من المؤمنين بالله قد لا يموتون وإن صعقوا ، وقد يموتون دون ذوق لألمه.

ولأن ﴿لا يَذُوقُونَ ...﴾ من ميّزات أهل الجنة وكما في الصادقي «وأحياء

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٤ ـ اخرج ابن مردويه عن انس (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يجاء بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيعرفه هؤلاء ويعرفه هؤلاء فيقول اهل النار اللهم سلط علينا ويقول اهل الجنة اللهم إنك قضيت ان لا نذوق فيها الموت الا الموتة الاولى فيذبح بينهما فييأس اهل النار من الموت ويامن اهل الجنة من الموت ، أقول يأس اهل النار هو من الموت فيها وهي باقية تخفيفا عن العذاب. واما الموت المطلق بعد تكملة العذاب فواقع قضية عدل الله ، ثم قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقول اهل الجنة .. دليل على اختصاص .. لا يذوقون ..» بأهل الجنة. فقد يذوقه أهل النار كما بيناه ..

لا يموتون» [١] فليذق اهل النار موتة ثانية أمّاهيه بعد الأولى ، منها الموتة الثانية وهي عن البرزخ ، ومنها موتاتهم المستمرة في حياتهم الجهنمية .. ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾ (٨٧ : ١٣) فرغم أنهم لا يموتون في النار فوتا ـ اللهم إلّا مع النار ـ فحياتهم لا تشبه الحياة ، وإنها أشر من الموت ، حيث يذوقون دونما انفصال أخطر بواعث الموت.

إذا فللكافر بعد الموتة الأولى موتات : عن الحياة البرزخية إلى الأخرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيي ومن ثم الموت المطلق مع النار حيث تموت النار بمن فيها كما حققناه في مباحث الخلود في النار.

وهلّا يكون في الجنة نوم كما ليس فيها موت ، قد يكون رياحة ، وقد لا يكون لأنه أخ الموت ولأنه من ذوق الموت ، فالموتة الأولى والثانية معهما

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٣٣ ح ٥٧ في اصول الكافي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال حاكيا عن القرآن يأتي الرجل من شيعتنا الذي كان يعرفه ويجادل به اهل الخلاف فيقوم بين يديه فيقول ما تعرفني؟ فينظر اليه الرجل فيقول ما أعرفك يا عبد الله! قال : فيرجع في صورته التي كانت في الخلق الاول فيقول ما تعرفني؟ فيقول : نعم. فيقول القرآن : انا الذي أسهرت ليلك وانصبت عيشك وفي سمعت الأذى ورجمت بالقول في ألا وان كل تاجر قد استوفى تجارته وانا وراؤك اليوم ، قال : فينطلق به الى رب العزة تبارك وتعالى فيقول : يا رب عبدك وأنت اعلم به قد كان نصبا فيّ مواظبا عليّ يعادى لسببي ويحب فيّ ويبغض فيقول الله عز وجل : ادخلوا عبدي جنتي واكسوه حلة من حلل الجنة وتوّجوه بتاج فإذا فعل به ذلك عرض على القرآن فيقال له : هل رضيت بما صنع بوليك؟ فيقول : يا رب اني استقل هذا له فزده مزيد الخير كله فيقول عز وجل : وعزتي وجلالي وعلوي وارتفاع مكاني لأنحلن له اليوم خمسة أشياء مع المزيد له ولمن كان بمنزلته ، الا انهم شباب لا يهرمون وأصحاء لا يسقمون وأغنياء لا يفتقرون وفرحون لا يحزنون واحياء لا يموتون ثم تلا هذه الآية ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى﴾.

موتات النوم ، والجنة ليس فيها موت ولا نوم [١]

ولكن قد تدلنا على نومهم الراحة آية المقيل : ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ (٤٥ : ٢٤) فانه نوم نصف النهار ، ولكنها تعني مقيل البرزخ قبل القيامة بدليل التالية لها : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ (٢٥) ثم اللهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا.

﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨).

هل إن تيسير القرآن بلسانه تسهيل لتفهّمه على ضوء اللغة العربية؟ وقد تكون صعبة لا ميسّرة! وحتى إذا كان القرآن ميسّرا بالعربية ف ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لا تختص بالعرب و ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٨١ : ٢٨) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (٥٤ : ١٧)!

والحل أن اللسان غير اللغة ، فمهما كانت لغته عربية وهي خير اللغات وأيسرها تفهّما ، ولكنما اللسان الرسالي المحمدي (صلى الله عليه وآله وسلم) له موقعه الخاص في ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ (١٩ : ٩٧) ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (١٤ : ٤) وقوم أولي العزم من الرسل هم العالمون أجمع ، فلا بد لكلّ من لسان يفهمه العالمون أجمعون ، فليست إذا هي اللغة.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٤ . اخرج البزار والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في البعث بسند صحيح عن جابر (رضي الله عنه) قال : قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! أينام اهل الجنة؟ قال : لا . النوم أخ الموت واهل الجنة لا يموتون ولا ينامون.

فقد تكون اللغة صعبة واللسان ميسّر ، أو اللسان صعبا واللغة ميسّرة ، والقرآن ميسّر في البعدين لسانا ولغة ، حتى إذا لا تعرف اللغة فلتعرف اللسان الذي يترجم اللغة ، وهكذا القرآن.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾(٥٩).

ماذا يرتقب الرسول وماذا يرتقبون؟ إنه يرتقب خلفيّة رسالته ومفعوليتها ، وهم مرتقبون به دوائر السوء.

وارتقب رحمة ربك وما وعد المتقين من مقام أمين ، إنهم مرتقبون لك خلافه من الموت الفوت وفي الحق يرتقبون شجرة الزقوم.

وارتقب عاقبة أمرك اليسر وهم مرتقبون عاقبة أمرهم الإمر ﴿وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (١١ : ٩٣).

وارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ وهنالك فليخسر المبطلون.

فكل يرتقب نتائج أعماله شاء ام لم يشاء ، يوم الدنيا ويوم الدين ، وما عليك إلا البلاغ المبين.

سورة الجاثية مكيّة

وآياتها سبع وثلاثون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ
لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ
وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ
لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ
بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرائِهِمْ
جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ

أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠) هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١٣)

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(٢).

الجاثية هي سادسة الحواميم السبع ، بازغة بتنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم! وهو القرآن المفصل النازل على صاحب «حم» طوال البعثة ، بعد المحكم النازل عليه في ليلة مباركة كما في خامسة الحواميم.

نرى تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم هنا الجاثية وفي غافر الحواميم ، والأحقاف ، وفي الشورى هو العزيز الحكيم في ذلك الكتاب وما أنزل قبله من كتاب ، ثم في فصلت ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم لا نجده في الدخان فإنها بازغة بذكر الكتاب المحكم النازل في ليلة مباركة ، ولا في الزخرف البازغة بالكتاب المبين.

ففي الخمس التي يأتي ذكر القرآن المفصل يتلوه ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ إلّا في

واحدة من ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾. مما يلمح أن الحكيم في القرآن المحكم عزيز في تفصيله وحكيم في ذلك التفصيل وهو الرحمن الرحيم في عزته وحكمته وعزيز حكيم في رحمانيته ورحيميته.

فعزته وحكمته بارزتان في تنزيل الكتاب ، فأصبح بآياته كلها تدل على عزة غالبة وحكمة بالغة برحمانيته ورحيميته.

هنالك تبرز كل رحمة وعزة وكل حكمة ممكنة التنزيل على العالمين إلى يوم الدين ، فإنه إضافة إلى الشرعة الأخيرة الإلهية نسخته تدوينية في آياته عن كل آية في السماوات والأرض للموقنين ، ف ﴿تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾؟.

ندرس هنا مثلثا من آيات التكوين هي آيات الله كشريطات تتكرر وأسطوانات تدار في كتاب الله التدوين والتكوين ، تجمعهما الآية ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤١ : ٥٣) وتفصّلها ﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ﴾ . إلى . ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

السماوات هي السبع ، والأرض هي السبع ، وهما تعبيران عن الكون كله ، وفيه ككل ﴿لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالإيمان هو الذي يفتح البصائر والأبصار لتلقّي الأصداء والأضواء والأنداء ، حيث يخالط القلوب بشاشته ويحركها استجاشة ، فتحيا وتلتقط من الكون كله آيات ويصبح الكون كله لدى المؤمن آيات بينات ، فلا يواجه طرفا من الكون إلا وهو آية تزيده إيمانا بالله!.

إن آية السماوات والأرض وما فيهما من آيات لا تقتصر على شيء دون شيء ولا على حال دون حال ، فانها آيات الله على اية حال «وفي كل شيء له آية تدل على أنه صانع»!

ولكن لمن؟ لمن أبصر بها فبصّرته ، دون من أبصر إليها فأعمته ، والآية هي هي بنفسها وإنما الاختلاف في شبكات الأبصار ، قوم عنها عمون ، وآخرون وهم قلة يبصرون ويتبصرون حيث هم مؤمنون! إنها آيات الله وكلماته ، تحدثّهم عن الله : ﴿قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (١٨ : ١٠٩) فإن البحر بمداده ومدده آية وكلمة لربي بقطراته ، إذا فلا تقف كلمات الرب لحد تحصى ونحن فيها غرقى ، في بحر ملتطم من كلمات الله وآياته الدالات ، ولا مدلول في الكون يملك من براهين الآيات ما يملكها الله! لو مدّ الإنسان ببصره ، وفتح غشاء قلبه وغطاء بصيرته في الأرض والسماوات لتزاحمت الآيات وتراكبت عليه معلنة عن نفسها ، دالة على خالقها لمن ألقي السمع وهو شهيد.

وكما أن كتاب التدوين فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، كذلك كتاب التكوين ، فلنرجع متشابهاته إلى محكماته ، اتضاحا لكيانها ودلالتها على بارئها العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم!

السماوات والأرض آيتان ، وفيهما وما بينهما آيات ، آيات فيها آيات ودلالات لا تجد فيها قيد شعرة إلّا ذات دلالة على العزيز الحكيم الرحمن الرحيم!

وترى إذا كانت آيات الأرض والسماوات خاصة للمؤمنين ، فالكافرون قصّر لا يدركونها ، فلما ذا يؤنّبون ويعذّبون؟ إنها آيات لكل الناظرين ، وحيث لا ينتفع بها إلا من يمشي سبيل الإيمان فهي إذا آيات للمؤمنين ، كما القرآن هدى للناس أجمعين ، ولكن لا يهتدي به إلّا المتقون ف ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ ف «المؤمنين» ك «المتقين» هم الذين يفتحون أبصارهم ببصائرهم فهم بآيات الله يهتدون.

فأوليات درجات الإيمان تحصل بنظرة بسيطة في سائر الكون ، ثم توصل إلى يقين الإيمان بنظرة عميقة في مظاهر الحياة فإنها أغمض ، ثم نظرة أعمق في موجبات الحياة وهي أغمض وأعمق ، فالأولى لقوم يؤمنون والثانية لقوم يوقنون ، والثالثة لقوم يعقلون ، خطوات ثلاث يتدرّجها السالك إلى الله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾؟!.

تلك هي سفرة في ساير الكون ، شاسعة فيه آيات للمؤمنين ، فإلى سفرة أخص منها وألمس ، حيث الحيويّة الناطقة بآياته تزيد المؤمن إيقانا :

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٤)

فآية الدابة وأنتم منها ، تزيد على سائر الكون حياة ملموسة ، مادية ملموسة مزيجة بلطيفة ملكوتية غير ملموسة ، مما يزيد التدبر فيه يقين الإيمان وإيمان اليقين.

دابة مبثوثة في بعدين ، بثّ أوّل بين السماوات والأرض : ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ﴾ (٤٢ : ٢٩).

وبث ثان استمرارية التناسل بين زوجيها في كلّ من السماوات والأرضين ، كما وأن قرن ﴿خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ﴾ ب ﴿السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ يلمح بوجود دواب في السماوات كما في الأرضين ، الشاملة لكل من يستحق خطاب «كم» ففي السماوات عقلاء الدواب كما في الأرض من جن وإنسان أم أيا كان.

ف ﴿فِي خَلْقِكُمْ﴾ وخلق ﴿ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ حيث مجال الإتقان هنا أوسع لمكان الحياة في كل دابة وبثّها على قدر :

هنالك بث في الزمان وبث في المكانة وبث في المكان ، لو لم تكن يد

ضابطة وممسكة بزمان الدواب في كل بثّ لا نثبّت وتفاوتت وتهافتت.

فالنسور والأسود جارحة وعمرها مديد وبأسها شديد ، ولكنها قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرازير في نسلها الكثير الغزير ، فلو كانت كما النسور لم يبق لها أثر ، فسبحان من خلق كل شيء بقدر.

وذبابة واحدة تبيض في كل دورة مئات الألوف ولكنها لا تعيش إلّا زهاء أسبوعين ، فلو كان فلت في الزمان دون لفت ونظام قاصد حكيم ، فعاشت الذبابة أكثر من صالح النظام لغطّت كلّ الأجسام ولألحقت الأضرار الجسام .. وهكذا كل دابة في كل بثّ وبثّ لا تنبث إلّا على قدر ، ففي خلق ما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون! : تستيقن قلوبهم أن من ورائها مدبر قدير عليم حكيم سبحان الخلاق العظيم!

ومن هنا نقلة في خطوة أعمق وأعرق ، حيث التفتيش عن موجبات الحياة في الأرض والسماوات :

﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٥).

خطوات ثلاث في ساحة الآيات لقوم يؤمنون ويوقنون ويعقلون ، وكمال الإيمان هو الإتقان ، وكمال الإتقان هو عقل الإيمان والإتقان ، تنتجها هذه السفرات الثلاث من الخلق إلى خالق الخلق ، سبحان العظيم المنان! اختلاف الليل والنهار لا تعني تفاوتا بينهما بتضاد وابتداد ، فإنه آية التضاد ، وإنما تعني مجيء كل خلف الآخر كسناد وعتاد : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ (٣ : ١٩٠) ﴿... لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢ : ١٦٤) ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (١٠ : ٦).

فلو كانت هنالك صدفة عمياء لكان الفعل واحدا دون اختلاف! ولو

كان الخلق من شركاء متشاكسين فيما يخلقون لما تواتر الليل والنهار خلف بعض بهذا النسق والنظام!. فالليل الراحة اللباس ، والنهار المعاش ، يتعاملان في صالح الإنسان ، بما فيهما من آيات كونية أخرى لأولى الألباب الذين يعقلون ويتقون.

ليس اختلاف الليل والنهار إلّا نتيجة دورات دائبة للأرض حول نفسها وشمسها ، عائمة سابحة في الفضاء ، دون دعامة ترونها تدعمها وتمسكها على فلكها وتديرها في مدارها ، إلّا قدرة العزيز الجبار ، سبحان الخلاق العظيم!

ثم وهذه الدورات لو كانت أسرع أو أبطأ مما هي الآن لاستحالت الحياة على الأرض ، أمّا ذا من مخلّفات ومقدمات اختلاف الليل والنهار لقوم يعقلون ، كلما تقدم العقل تقدمت هذه الآيات في دلالات ودلالات ، سبحان الخلاق العظيم!.

ولفتة ثانية في هذه الخطوة تلفت أنظار ذوي العقول ، هي تكملة الحياة الأرضية بنازل السماء :

﴿وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ (٥) ورزقها النازل منها من رازقها إلى مرزوقها في الأرض يعم كل نازل منها ينفع الأرض وأهلها ، من مطر ووقد وبرد ، ومن نور ونار من شمس وقمر ونجوم.

فشمسها بنارها تزجي سحابا من الأبخرة الحصيلة بإشراقها فترجع ماء صافيا بقدر ، كمصفاة دائبة الإصفاء كما الأرض تصفي في خلالها ، ثم النار النور من شمسها تساعدان على إنماء ثمارها ودوابها من إنسانها وسواه ، أمّا ذا من عوائد مشرقة بذلك الإشراق ، حيث تتعامل نازلات السماء ـ ما ظهر منها وما بطن ـ في إحياء الأرض بعد موتها ﴿فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾.

فلو كانت الشمس نارا دون نور ، أم نورا دون نار ، أو انحصر ماء السماء بحارّ دون برد ، او برد دون ماء ، أمّا ذا غير ما هي الآن ، لانحسرت الحياة عن الأرض أو ما حصلت ، ومن ثم : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ﴾ ... تصريفه الرياح ، وتصريف الرياح السحاب المسخر بين الأرض والسماء ، فلولا هذا التصريف أو ذاك لما انصرفت الرياح إلى حيث يصلح ، ولتصريف الرياح علاقة بارزة بدورة الأرض وظاهرتي الليل والنهار والرزق النازل من السماء ، وعلاقة أخرى بتدوير وتدبير الأمطار ، وتمويج البحار والأنهار ، أمّا ذا من رحمات مقصودة لله الواحد القهار ، حيث تتعامل في تجاوب عاقل لصالح الحياة على الأرض ، لولاها لصعبت أو استحالت : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢ : ١٦٤)

﴿تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦).

هنالك إيمان بآيات الله فإيقانا وعقلا عنها دلالة على الله ، وإيمان بالله مدلولا عليه بتلكم الآيات ، فهل هنالك دليل أهدى من آيات الله ، أو مدلول أقوى من الله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾؟.

وترى آيات الله حديث فإنها حادثة بما خلق الله ، فهل الله نفسه كذلك حديث؟ هنا حديث في ذاته ودلالته هي آيات الله ، وثم حديث في كونه مدلولا عليه سرمدي في ذاته هو الله ، فإذ كان الله ولم يكن معه شيء ، فهو الأزلي فوق حديث ، وإذ عرف الله بعد خلقه آياته فالتبصّر بها فالإيمان به ، فهو حديث في الإيمان به ، فبأي حادث في الكون بعد الله معرفة به وإيمانا وبعد آياته يؤمنون ، فالله تعالى مدلولا بآياته دون ذاته حديث ، كما

آياته حديث ، او ان ﴿بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ﴾ تعني بعد حديث الله في كتاب التدوين القرآن ، وبعد حديث آيات الله في كتاب التكوين ، تؤمنون.

فمن الحديث مبصر ومسموع يعقل ، ومنه غير مسموع يعقل ، ولا ثالث للحديث ، فهل بعد كتاب الله حديث فوقه أو مثله ، وهل بعد آيات الله في سائر الكون حديث فوقه أو مثله؟

لسان التدوين يحدثكم بأفصح بيان وأبلغه ، ولسان التكوين يحدثكم بأفصح بيان وأبلغه ، ﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ﴾ تدوينا وتكوينا ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٦٧ : ٤١)!.

فأنتم بين من لا يفهم أي حديث يدل على ما غاب من علم؟ فكالأنعام وأضل سبيلا! أم تفهمون حديثا به تعرفون فتؤمنون.

فهل في الكون حديث أبلغ من كتابي التدوين والتكوين ، والكون كله آيات الله ، وكتاب الله يحدثكم عنها وعن شرعة الله ، فإذ لا تؤمنون بحديث الله القرآن ، وبحديث آيات الله الكون ، محدّثان بليغان ما أبلغهما عن الله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

فإما كفر مطلق بكل حديث ، أو إيمان مطلق بالله حيث يحدثكم عنه كل حديث ، فنفسك حديث ، وعالمك حديث ، وكتاب الله حديث ، يحدثك بلسان الفطرة والعقل ، بلسان الحال والقال ، بلسان التدوين والتكوين ، وبكل لسان يفهمه أي إنسان ، فإذ لا يؤمنون بحديث الله وآياته ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾؟

أنت وكل كائن يحمل عقلا أو أية مرتبة من الإدراك ، تعيش كونا كلّه آية ، وكله لسان ، وكله حديث ، يحدثكم عن حكمة واحدة بارعة وتصميم فكيف به تكفرون وبكل ما تشتهون تؤمنون : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ

السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧ : ١٨٥) ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٧ : ٥٠)

حديث الله القرآن هو أحسن حديث ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ..﴾ (٣٩ : ٢٣) والكون ـ وهو أحسن الحديث ـ كله آيات الله ، محدّثان عن الله ما لهما من مثيل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾؟

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾(٨)

الإفك هو كل مصروف عن وجه الحق ووجهته ، قولا أو فعلا أو اعتقادا أما ذا من صرف عن الحق ، فالأفّاك هو المبالغ في الإفك ، والأثيم هو الذي يعيش الإثم كأنه لزامه في حياته ، والأفاك الأثيم هو الذي يسمع آيات الله البينات من تدوينية القرآن وتكوينية الكون ، ويسمعها تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا ، في استكبار صارم عارم ، دون أن يهتدي بها إلى الله ، كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم.

ويل لفطرته المحجوبة ، وعقله الغارب ، وقلبه المقلوب ، وكل كيانه الإنساني المتغافل عنه ، ويل في أولاه وأخراه ، في مبدئه ومنتهاه ، فهو ويل في مقاله وفعاله ، في حلّه وترحاله ، وي كأنه الويل كله ، أو كأن الويل هو هو كله ، فهم شياطين وتنزّل عليهم الشياطين : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ. تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ﴾ (٢٦ : ٢٢٣).

وإنها صورة بغيضة متكررة في كل جاهلية ، لو أن لها بشارة فهي عذاب أليم ، فضلا عما لها من نذارة ، إذ تعجز عن تعبيرها كل صيغة ﴿يَسْمَعُ آياتِ اللهِ﴾ ولا يتسمّعها فلا يتفهّمها ، حتى :

﴿وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾(٩).

إذا علم ـ وتفهم في كرور الآيات ومرورها على مسامعه ـ علم شيئا ، لم يأخذها بعين الإعتبار ، ولم يتذكر بها بل اتخذها هزوا ، إهانة بها ومهانة ليسقطها عن أعين الناس ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ كما أهانوا آيات الله ، مهين بمهين ، وأين مهين من مهين؟!

وترى العذاب المهين لهم ـ فقط ـ يوم الدين؟ كلّا! فإنه مهان أينما كان وأيان ، في حساب الله وحساب عباد الله ، مهما تظاهر الشياطين في احترامه مصلحيا لهم وخوفا منه ، حيث الهازىء المهين بآيات الله بأحرى هو مهين بخلق الله ، لا يعرف لمن سواه احتراما إلّا اختراما ، ففي حين يحترم خوفا ومصلحيا ، يخترم واقعيا في الأولى ، ثم :

﴿مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾(١٠).

﴿مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ دليل أن عذابهم المهين بادئ يوم الدنيا وإلى يوم الدين ، ولا يغني عنهم هناك ما كسبوه من مال ومنال يملكونها ﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ﴾ ـ إذ ملكتهم ـ شيئا ، ضعف الطالب والمطلوب ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ فوق أنه مهين.

﴿هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾(١١).

«هذا» القرآن البيان «هدى» تدوينية تجاوب هدى تكوينية ، آيات

وآيات تتعامل في «هدى» فالضابطة العامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ﴾ رغم هداها ﴿لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والرجز أصله الاضطراب ، فهنا مثلث العقاب الاضطراب الأليم ، دركات يدركونها بميزانية تكذيب الآيات.

﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣).

خطوة رابعة رائعة للسالكين إلى الله لقوم يؤمنون ويوقنون ويعقلون أنهم يتفكرون ، فيما سخر لهم البحر جريا لفلكه بأمره ابتغاء فضله ولعلكم تشكرون ، بل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾.

وترى ذلك تسخير البحر وما في البر ، فكيف سخر لنا ما في السماوات ، وليس لنا خبر حتى الآن عن كثير مما في السماوات ، بل ولما نخلّص خبر الأرض فأين ذلك التسخير وأنّى؟!

ذلك التسخير لكم له بعدان ، أصليّ هو لله حيث سهّل في الكون مسالك الإنسان وأقرانه لابتغاء فضله من بحر وبر وجوّ في الشعاع المستطاع لأيّ كائن ، فقد نظم الكون بأجمعه بحيث ينتفع به كل كائن ، علم ما سخر له أم لم يعلم ، فالشمس بتسخير الله تجري لصالحنا كما لسائر الكون ، والنجوم مسخرات بأمره ، أمّا ذا من كائن في الأرض أو في السماوات ﴿جَمِيعاً مِنْهُ﴾ : حال أن الجميع من المسخّر والمسخّر له والمسخّر لأجله والمسخّر معه ، منه لا سواه! ﴿وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ (٢١ : ٧٩) إذا فليس هناك تسخير من الإنسان أو أيا كان ، وإنما تسخير لأجل الإنسان. وفوقه معه. كما سخر مع داود الجبال والطير.

ومن ثم تسخير لنا في بعد ثان أن هيأ لنا أسبابا عقليا وعلميا أمّا ذا للكشف عن رموز من الكون نستطيع على ضوئها الحصول على خبايا

وخفايا في الأرض والسماء تجمعها كافة المحاولات العلمية في مختلف الحقول في تقدم متواتر.

فالكشوف الذرية والأشعة ما فوق البنفسجية وأضرابهما من كشوف علمية وحتى نزولنا إلى القمر أمّا ذا من أجواء عالية وكرات، كل ذلك مما سخّر لنا، ولكن على ضوء الجهود المتواصلة، وإن كانت هنالك تسخيرات لصالحنا من الكون كله ننتفع بها دون وسيط ام بوسيط بسيط كالفلك التي تجري في البحر بأمره أمّا ذا من خلفيات ونتائج في تسخيرات تصلنا دون غور في خضمّ الاكتشافات الملتوية الصعبة والشائكة.

ومهما كانت هنالك فوارق بين هذه وتلك ولكنها ﴿جَمِيعاً مِنْهُ﴾ دون استقلال في أي استغلال للإنسان إلّا على ضوء القوانين المقررة الكونية من ناحية، والاستعدادات المتعالية الإنسانية من أخرى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ. وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (١٤ : ٣٤) ف ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (٤٣ : ١٣).

فلا يعني التسخير لنا أو معنا أن نستقل فيما سخّر لنا، أو المناحرة مع المسخّر ضد صالح الكون، وإنما السلوك في السبل الكونية جلية وخفية، المقررة لنا.

فمثلا مكائن التفريخ وأمثالها مما نستبدلها من مخترعاتنا بما خلق الله، إنها من تسخير الله في بعد ثان، حيث هدانا إليها بما نبذل من جهود ونصرفها من طاقات وإمكانيات و ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فالفكر حركة من المبادئ ومن المبادئ إلى المراد، وهذه الحركة الفكرية في الكون المسخر لنا من الآفاق والأنفس، من الأرض والسماوات وما فيها من خبايا

وطاقات كامنة منتظمة ، إنها آيات دالات على مدبر حكيم سبحان الخلاق العظيم.

فهنالك إيمان وايقان وتعقل وتفكير مع ركب الكون كآيات إلهية ربانية ، توصلنا إلى خالق الكون.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٦) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩)

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ(١٤).

أيام الله وما هي أيام الله؟ أليست كل الأيام لله حتى تقتسم الأيام بما لله وما لغير الله؟ وكل مكان وزمان لله!

أجل الأيام كلها من الله ولله ، ولكن ـ الظاهر فيها حكم الله ، والحاكم فيها الله لا سواه ـ ليست هي كل الأيام ، فكما أنه مالك يوم الدين وإن كان مالكا ليوم الدنيا ، كذلك في الدهر أيام خاصة بالله لا دور فيها لسواه ، كيوم الرجعة ويوم البرزخ ويوم القيامة ، فالأول رغم كونه في الأولى هو من أيام الله حيث الحاكم فيه بقية الله عليه سلام الله ، والآخران هما لله إذ تقطعت الأسباب فلا حكم إلا لله ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ**﴾.

ليس يخص أيام الله بالأخرى فإنه يوم لا أيام ، ولا هو مع البرزخ الوسطى فإنهما يومان لا أيام ، وأقل الجمع ثلاث ، فالقدر الثابت من أيام الله ثلاث ، وقد تكون هي الأصيلة وأيام أخرى على هامشها!

لا نجد أيام الله في سائر القرآن إلّا هنا وفي إبراهيم : ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾(٥) [١].

---

(١) هنا روايات ثلاث إحداها ما رواه العياشي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية ﴿**وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ**﴾ قال : بآلاء الله يعني بنعمته ، والثانية في كتاب الخصال عن مثنى الحناط قال سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول : ايام الله يوم القائم ويوم الكرة ويوم القيامة ، والثالثة ما أورده القمي في تفسيره في الآية قال : ايام الله ثلاثة : يوم القائم (عليه السلام) ويوم الموت ويوم القيامة.

في الدنيا لله أيام مركزها الرئيسي يوم الرجعة والقائم ، ثم وعلى ضوئه كل يوم يغلب فيه حكم الله ، فهو إذا يوم واحد تجمعه بركات الله على أوليائه ، ومنذ الموت حتى القيامة يوم ، واليومان محدودان ، ومن ثم القيامة الكبرى دون حدّ إلّا ما يحدّده عدل الله في أهل الجحيم حيث يفنون أخيرا بفناء الجحيم.

والذين لا يرجون أيام الله هم الناكرون والمترددون في هذه الأيام ، دولة عالمية ، ثم برزخ ، ثم قيامة ، وبصيغة أخرى : قيامة صغرى ثم وسطى ثم كبرى هي أيام الله التي لا يرجوها إلّا أهل الله.

من حق أيام الله أن ترجى إذ تعني هذه الثلاث ، أو تخاف كأيام العذاب الاستئصال ، والثانية لمن لا يرجو الأولى.

وترى كيف يؤمر الذين آمنوا أن يغفروا للذين لا يرجون أيام الله وهم خطر وشرر على الكتلة المؤمنة؟ ثم وكيف يغفرون وليس الغفر إلا بيد الله ، وهو أيضا لا يغفر حيث غفرهم يعني ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾؟!

الغفر وهو الستر والإغماض ، قد يعني غفرا إلهيا لا يتكفله غير الله ولا سيما فيما الله واعد فيه العذاب كما هنا ، أم غفرا بشريا فيما يحق له الانتقام ولا يسطع أم لا تناسبه الظروف كما في العهد المكي ، فليغفر حتى يأتي الله بأمره كما في العهد المدني ، أم غفرا في الدعوة غير الناجحة لمن كتب عليه العذاب حيث الإنذار وسواه عليه سواء ، فليغفر الإنذار إعراضا عن الدعوة ليذوقوا وبال أمرهم ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وهذا الغفر يستمر في كافة العهود الرسالية للذين آمنوا.

إذا فآية الغفر ليست منسوخة بآيات القتال المكية حيث الغفر الأخير مستمر في ممرات الدعوة ، والثاني مستمر في ظروفه طوال الدعوة ، مهما كان العهد المكي من أبرز مصاديقه ، فللمسلمين عهود تختلف ، ولكل ظرف

عهده من قيام وقعود وحرب وصلح ، ومن الغفر للذين لا يرجون أيام الله ترك الدعوة حين لا تؤثر إلّا مزيد الطغيان فحرب وإبادة ، كما منه تركهما إذ لا يسطع المحاربة ، وكلّ يتطلب ظرفه المناسب له ، والظرفان مشتركان في استحقاق العقوبة ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

فالغفر ـ إذا ـ قد يكون رحمة من الله أو من أهل الله كسائر موارد التسامح عن المذنبين ، وقد يكون نقمة كما في ترك الدعوة مقاطعة لإقامة الحجة للذين ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذه المقاطعة تزيد المقطوع عنه طغيانا وكفرا فعذابا فوق العذاب ، أم في ترك الانتقام إذ لا تسطع فإلى الله المصير فيما لا تسطع ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

كما ومن الغفر واجب ومنه راجح ومنه محرم ، ولا يؤمر الذين آمنوا إلا بغير المحرم ، فترك ملاحقة الكفار والمفسدين عند المكنة محرم ، وترك الأمر والنهي في ظروفهما المتطلّبة لهما محرم ، وترك الدعوة فيما تؤثر أو تزيد حجة محرم ، فمثلث الغفر هذه محرم لا تعنية آية الغفر هذه كما لا تعني الغفر المستحيل وهو السماح عن الذنوب الخاص بالله.

﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾. (١٥).

فكل من العمل الصالح والطالح يرجع بلزام آثاره الى عامله ، مهما

---

(١) نور الثقلين ٣ : ١ ح ٦ عن تفسير القمي في الآية قال : يقول أئمة الحق لا تدعون على أئمة الجور حتى يكون الله الذي يعاقبهم في قوله ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ حدثنا ابو القاسم قال حدثنا محمد بن عباس قال حدثنا عبد الله بن موسى قال حدثني عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال حدثنا عمر بن رشيد عن داود بن كثير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية : قل للذين مننا عليهم بمعرفتنا ان يعرفوا الذين لا يعلمون فإذا عرفوهم فقد غفروا لهم ، أقول ليست معرفتهم غفرانا لهم الا في تاركة الدعوة حيث أيسوا بما عرفوهم من هداهم.

أثر في الآخرين ، فمن سن سنة حسنة كان له مثل اجر من عمل بها الى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أجورهم ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها الى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيئا ، جزاء من ربك عطاء حسابا وعقابا وفاقا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾(١٦).

ذلك بيت إسرائيل ، أوتي مثلثا من الرحمة : الكتاب والحكم والنبوة ، في الرعيل الأعلى منهم ، ومن ثم رحمة عامة : ﴿وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾.

فقد جمعت لهذا البيت المفضل على العالمين مجامع الرسالة ، من رسول جمعت له ﴿الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ كموسى والمسيح (عليهما السلام) كتاب مستقل وحكم رسالي مستقل ونبوة ورفعة في الحكم الكتاب.

ومنهم من أوتي كتابا برسالة دون حكم ولا نبوة ، اللهم إلّا حكما ملكيا كداود وسليمان ، أم حكما على هامش ولي العزم كسائر الحكم في سائر المرسلين ، وأما النبوة المطلقة وهي رفعة في الحكم الرسالة فهي لولي العزم خاصة ، فكل نبي رسول وليس كل رسول نبيا ف ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾.

ومنهم من أوتي حكما دون كتاب ولا نبوة كطالوت ملك إسرائيل ، حكما على ضوء الرسالة وليس حاكمه من الرسل ، فما أوتي كتابا فضلا عن نبوة.

ثم الذين لم يؤتوا كتابا ولا حكما ولا نبوة في أنفسهم ، عاشوا مثلث هذه الرحمة ، حيث كانت لهم وإليهم كرأس الزاوية الرسالية ، ثم وهم رزقوا

من الطيبات وفضلوا على العالمين.

﴿وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(١٧).

هنا «بينات» من أمر الشرعة التوراتية ، وبينات من أمر الآية الرسالية ، آيات بينات تكوينية وتدوينية ، حاسمات فاضلات لا غموض فيها ولا عوج ولا انحراف ، بينات ربانية كالشمس في رابعة النهار لا تدعو إلى اختلاف ، وإنما إلى العلم الواضح.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في بينات الأمر رسالة وكتابا ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ بغيا على البينات ، وعلى حملة البينات بعضهم على بعض ، وبغيا على الأمة ، تحريفا كما يهوون ، وتجديفا كما يشاءون ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ولقد وصل أمرهم في اختلافهم في أمرهم إلى حد من نكرهم في إمرهم لا يتحمل ، إلّا أن يتحول أمر الشرعة إلى غيرهم وكما هددوا في التوراة ولكن لا حياة لمن تنادي!

في العهدين الجديد والعتيق بشارات بانتقال أمر الشرعة الإلهية إلى بيت إسماعيل في الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) ونموذجا منها ما في حزفيال ١٩ : ١٠ ـ ١٤ «أمّك مثل كرمة غرست على المياه فصارت كثيرة الثمار والأفنان من غزارة المياه (١٠) وصارت قضبان صلبة صوالجة للسلاطين وارتفع قوامها بين الفروع الملتفة فظهرت في ارتفاعها وكثرة عذباتها (١١) ثم إنها قلعت بحنق وطرحت على الأرض فأيبست الريح الشرقية ثمرتها وكسرت قضبانها الصلبة وأكلتها النار (١٢) والآن هي مغروسة في البرية في أرض قاحلة ظمئة (١٣) فخرج من قضبان شعبها نار أكلت ثمرتها فلم يبق فيها قضيب صلب صولجان للتسلط هذا رثاء ورثاء سيكون (١٤).

فـالكرم هنـا ابـراهيم حيـث المخاطـب في أمـك امـا حزقيـال او كافـة بـني إسـرائيل ، فالأغصـان هـي نسـل إبـراهيم مـن بيـت إسـرائيل ، إذ سـكنوا فلسـطين فنمـوا وريّـوا وتمتعـوا فتحصـلت مـن هـذه الأغصـان قضـبان صـلبة هـي النبـوة الإسـرائيلية ، «ثم قلعـت بحنـق وطرحت» وهي انقضاء الحكم والنبوة والكتاب عنهم «والآن هي مغروسة في البرية في أرض قاحلة ..» هي برية فاران أرض الحجاز ، حيث تحولت القضبان الإسرائيلية من هذه الشجرة الإبراهيمية إلى قضبان إسماعيلية في الرسالة الأخيرة المحمدية ، والنار الخارجة منها هي الشريعة النارية التي هي نار للشاردين ونور للواردين ، نار تحرق كل أغصان الباطل ، وتورق أغصان الحق من تلك الشجرة الطيبة ..» [1].

ذلـك مـا تلمـح بـه آي مـن الـذكر الحكـيم ، حـين تـذكر رحمـة الكتـاب والحكـم والنبـوة ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم على العالمين :

﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾(١٩).

إنه لا بد من حكم في الجماهير المحتشدة المختلفة ، فإما شريعة من امر الله وإما شرعة الأهواء الهباء ، فلا وسط بينهما ولا أنصاف حلول ، فشرعة الأهواء الخالصة أو الملتقطة من الشرعتين هما على سواء ، وقد تكون الضلالة في شرعة الالتقاط أعمق وأهوى ، حيث تبرز الحق بمظهر الباطل ليتجنب ، والباطل بمظهر الحق ليتّبع ، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٣١ ـ ٣٢ . وفيه بشارات اخرى كهذه تدل على انتقال الشريعة من بني إسرائيل الى بني إسماعيل.

ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى! فلا يترك أحد شرعة الله إلا ليحكّم الأهواء ، فكل ما عدى شرعة الله الخالصة هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون ، سقطات في هوّات ولأتباع ضلالات!

أمر الله ـ وهو دينه ـ واحد والشرائع إليه عدة تنحو منحى واحد ، مهما اختلفت الشكليات حسب مختلف القابليات والبليات : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (٤٢ : ١٣)[١].

إن الأمر الدين هو كتاب الوحي ورسول الوحي ببينات الوحي ، وفي هذا المثلث ترسم شرعة من الأمر ، وشريعة من الأمر ـ الأخيرة ـ هي تحمل الأمر كله ، والشرائع المستقدمة عليها تهيئات لها ومبشرات بها ، ومحضّرات إياها للعالمين إلى يوم الدين.

إتباع هذه الشرعة منذ بزوغها إلى يوم الدّين هو الدين كله ، والأمر كله ، كما اتباع سواها إتباع لأهواء الذين لا يعلمون ، على دركاتهم في ال «لا يعلمون» من ملحدين ومشركين وكتابيين أو ومسلمين التقاطيين أمّن ذا من هؤلاء الذين ينجرفون عن محض شرعة الإسلام إلى غير محضها ، مهما كان خليطا منها وسواها ، أم كلّها سواها أم ماذا؟

إنها شريعة واحدة تستحق هذه السمة «فاتبعها» ثم ولما عداها ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولماذا تتبعها تركا لشرعة الله أو لشيء منها؟

---

(١) راجع تفسير الآية في الشورى تجد فيها بحثا مفصلا يساعدك على ما هنا من امر الشرعة الأخيرة.

هل ليغنوا عنك من الله شيئا في تشريع شرعة ، ولا مشرّع إلّا الله ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾!.

أم ليغنوا عنك بديلا عنها أو عن بعضها نصرة لك في الدعوة أو كثرة في اتباع الدعوة ف «لن ..» فإنهم وأنصارهم إذا أتباع أهوائهم دون هذه الشرعة!

أم ليغنوا عنك يوم القيامة بديلا عن عذاب الله؟ و «لن ..» فإنهم يكفيهم ما هم فيه من عذاب عظيم! أماذا من إغناء ترجوه منهم ف ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فلا يغني عنك من الله هنا وفي أيام الله ، وهو لا يغني إلّا المتقين المتحرزين عن إتّباع الأهواء.

إن الظالمين بأمر الله وشرعته وبرسول الله وكتابه ، هم بعضهم أولياء بعض ، فلا تكن من هؤلاء الأبعاض ف ﴿اللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ دون الظالمين.

فاتّباع غير هذه الشريعة من الأمر ظلم وضلال مهما كان في حكم مصلحيا أو أحكام ، فشريعة الله لا يتاجر بها ، ولا تخالطها أهواء الذين لا يعلمون.

هكذا يؤمر الرسول فأحرى بمن سواه من المكلفين إلى يوم الدين أن يتخذوا شرعة القرآن وعلى هامشها السنة الإسلامية ، يتخذونها لا سواها نبراسا ينير الدرب على الحائرين ، ومتراسا يجابهون به المائرين!

﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ

لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ**﴾(٢٧)

﴿**هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾(٢٠).

«هذا» الأمر شريعة من الأمر وهي في الحق الأمر كله ، وعلّه لذلك يشار إليه ب «هذا» دون «هذه» مع التصريح المسبق ﴿**شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ**﴾ ، ﴿**هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ**﴾.

والشريعة في الأصل هي الطريقة المفضية إلى الماء المورود ، والشرايع هي طرائق إلى الأمر الدين الحياة الرّواء ، وهذه الشريعة تروّي الظمآن من مائها المورود كله ، فهي هو وهو هي ﴿**بَصائِرُ لِلنَّاسِ**﴾.

والبصائر جمع بصيرة ، وهي المبالغة في الإبصار وهو الإدراك المصيب للواقع ، كما ﴿**الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ**﴾ (٧٥ : ١٥) فالقرآن مجموعة من البصيرة ، ولأنه الصراط المستقيم ، لا يحيد سالكه عن رحمته وهداه حتى يوصله إلى يقينه ﴿**وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

سائر الشرايع من الأمر ليست بصائر في نفسها بكتاباتها وحيها إلّا على ضوء اثباتاتها ببصائر الآيات المعجزات وأهمها واجمعها وأغناها بصائر شرعة موسى : ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ**

لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٨ : ٤٣) ولكنه بصائر بعد هؤلاء الآيات : ﴿ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ (١٧ : ١٠٢) :

فبصائر الكتب الشرعة في سائر الرسالات منفصلة عن بصائر الآيات المعجزات ، ولكن بصائر الشرعة الأخيرة يجمعها القرآن ، فهو بنفسه أفضل وأكمل آية معجزة لهذه الرسالة وهذه الشرعة ، ومهما كان نبيّه بصيرة : ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (١٢ : ١٠٨) ولكنه قد لا يصدّق في سبيله الرسالية إلّا على ضوء بصائر القرآن : ﴿وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧ : ٢٠٣) :

كل آية من هذا البصائر بصيرة تحمل بصائر في كافة الحقول لأرباب العقول ، بصيرة فطرية ـ عقلية ـ فكرية ـ علمية ـ قلبية ، بصيرة للأبصار والبصائر ، وبصيرة فردية واجتماعية ، ثقافية وسياسية ، واقتصادية وحقوقية ، أخلاقية ومعرفية أمّاذا من بصائر ، تجعل الإنسان الذي على نفسه بصيرة ، تجعله نبعة البصائر ، وتضيء له الدرب إلى المساير والمصاير.

﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ﴾ ككل ، ولكنها لا تبصّر إلّا من استبصر بها فتبصّر ، إذا فهو ﴿هُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧ : ٢٠٣) ومن ثم ﴿هُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ، فهنالك إيمان ثم إيقان في مراتبه الثلاث.

فلا ذريعة للإيمان الإيقان إلّا بصائر القرآن ، دونما حاجة إلى بصائر عقلية فلسفية أو علمية من غير القرآن ، أتظن الله أهمل طرفا من ذرائع الإيمان والإيقان في قرآنه البيان و ﴿تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾؟! و «إن هذا القرآن هو النور المبين ، والحبل المتين ، والعروة الوثقى ، والدرجة العليا ، والشفاء الأشفى ، والفضيلة الكبرى ، والسعادة العظمى ، من آثره على

ما سواه هداه الله ، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله ، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله ، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوّله الذي ينتهي إليه أداه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم (١)

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾(٢١)

«أم» الإضرابية في عطفها توحي بمعطوف عليه يناسب معطوفها ك ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ﴾ ان هي إلا حياتهم الدنيا» كما ينقل عنهم بعد هنيئة ، ﴿أَمْ .. نَجْعَلَهُمْ ..﴾

وتلك هي قولتهم الخواء تنازلا عن نكران الحياة بعد الموت أن الله سوف يسوي بينهم في الحياة الأخرى في رحمته ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾. فكما كانوا في محياهم سواء في عدم الانتقام من ظالمهم لمظلومهم ، كذلك في مماتهم ، ف ﴿سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ﴾ بما لهم الرجاحة في الحياة الدنيا وكأن الله عليهم أعطف وبهم أرحم وارأف! ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ بين المحسن والمسيء ، ويحكمون على الله أنه ظلام للعبيد ، فسواء لم تكن هناك حياة الحساب بعد الموت ، أو كانت ولكنها سواء بين المحسن والمسيء! وقد تعني «سواء» المساواة بين الحياة اللّاحساب ، والممات اللّاحساب ، إما لأن الموت فوت ، أو أنه حياة دون حساب كما الحياة الدنيا ، فالتسوية بين حياة الفريقين ومماتهم ظلم وبطلان لخلق الكون ، فمهما كانوا سواء في محياهم في اللّاحساب على رجاحة مجترحي السيآت في الحياة ، ففي مماتهم حساب يجبر ما جرحوا وظلموا ، ويحبر المظلومون المؤمنون.

فرغم أن محياهم في اللّاحساب سواء ، والظالمون هم المفضّلون في

---

(١) اصول الكافي ج ٢ ص ٦٠٠ عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

حظوة الحياة الدنيا! فمماتهم ليس سواء ألّا حياة بعده أم ليست هي حياة الحساب!

ويلهم من هذه الرعونة النكراء، الطاغية على خلق الله وعلى الله:

﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(٢٢).

إن خلق الكون بالحق، مادة ومدة، عدّة وعدّة، مصاحبا «بالحق» وهادفا «بالحق» ﴿وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ في مجموعة الكون ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ كل ذلك يناحر قولتهم الخواء: ﴿سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ﴾ أم و ﴿ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا﴾ أتسوية ظالمة هادفة بين المحسن والمسيء: وبين الظالم والمظلوم، تجعل خلق الكون لهوا وباطلا بما هم يظلمون، أجهلا بما يظلمون! أم عجزا عن جزائهم، أو ظلما ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾؟!

سيئات مجترحة شرف الإنسانية ونواميسها، وساحة الربوبية وسماحتها، ثم يتغافل عنها أو يعامل معها معاملة الحسنات؟ ويحهم أنى يؤفكون، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون»!

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(٢٣).

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ (٢٥: ٤٣) كلا! إذا فلا هداية بعد من الله ولا وكالة لرسول الله، حيث انقطع بتأليه هواه عن ولاية الله!

إن لاتّباع الهوى دركات أسفلها الطاعة المطلقة للهوى: أن يصبح صاحبها سلس القياد لها دونما تخلف عنها كأنه يعبدها، فالآله من يؤله فيه

ويختار ويعجز عن دركه ويفزع له ويسكن إليه فيعبد ، ومن اتخذ إلهه هواه هو غير من اتخذ هواه إلهه ، فالأول يعرف إلهه ولكنه يرفضه ويستبدل به هواه يطيعها كما يحق أن يطيع الله! والثاني قد لا يعرفه فيظنه هواه ، فذلك على علم من إلهه وهواه ولكنه يجحده إلى هواه ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ (٢٧ : ١٤) فما أضل منه سبيلا!.

﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾ على علم ممن اتخذ إلهه هواه أنه أخطأ هداه ، وعلى علم من الله أنه لا يحنّ إلى هداه ، فحق عليه أن يضله الله إزاغة بما زاغ وإضلالا بما ضل ، تركا له في ضلاله يعمه وفي طغيانه يتردّد ، ختما على سمعه فلا يسمع وعلى قلبه فلا يعي ولو يسمع ، وغشاوة على بصره فلا يبصر ، فالقلب له وعي من ذاته ووعي من سمعه وبصره ، فإذا ختم على سمعه وغشي على بصره فلا وعي له منهما ، وإذا ختم على قلبه فلا وعي له من ذاته : ﴿لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ (٧ : ١٧٩) :

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ إذ تركه وأضله «أفلا تذكرون» ما هو مصير من اتخذ إلهه هواه ، ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ (٣٨ : ٢٦) ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾ (٧٩ : ٤٠) ومن تذكر صحا وتنبه وتخلص من ربقة الهوى وتقلّص.

﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(٢٤)

هذه أطول قولة تنقل عن الماديين ، لا مثيل لها في ساير القرآن إلّا في نكران المعاد ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

(٢٣ : ٣٧) ﴿وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٦ : ٢٩).

فتلك إذا آية وحيدة في نسبة الإهلاك إلى الدهر ، تزيد كفرا على نكران المعاد ، تتحدث عن الناكرين للمبدء والمعاد [1] ، وهم قلة قليلة طول التاريخ ، وعلى غرارها لا تحملها إلّا آية واحدة.

لقد حصروا الحياة بالدنيا وحسروها عما بعدها من وسطى وعليا ، وحصروا إهلاكهم بالدهر ، مما يدل على إحياءهم في زعمهم كذلك بالدهر ، دونما علم أو أثارة من علم به يسندون في نكران المبدء والمعاد ، إلّا ظنا وحسبانا باتباع الهوى : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ (٥٣ : ٢٣).

ولماذا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ معاكسة التعبير عن ترتيب الواقع «نحيا ونموت»؟

علّه تعبير عن مواصلة الموت والحياة للمجموعة حيث يموت بعض ويحي آخرون فيستمر النسل ، ف «نموت» جماعة «ونحيي» جماعة أخرى ، يتنقل الموت والحياة هنا دونما نقلة بالموت إلى حياة أخرى ، أو «نموت» نحن الأحياء ثم لا نحيي لحياة أخرى حقيقية وإنما بما يحيي أولادنا ، كسخرية تقابل الحياة الأخرى ، فنحن المجموعة ـ إذا ـ بين موت واحد وحياة واحدة وليست هنالك بعدهما حياة ولا موتة أخرى ، وهو خلاف الحق الذي جاء به الرسل فيصدقونها يوم الدين ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ..﴾!.

---

(١) ف «نَمُوتُ وَنَحْيا» للدهريين يعني الاول وللمشركين يعنيهما.

وفي ﴿نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ دون سناد لمن يميتهم ويحييهم تلميحة إلى نكران المحيي المميت اللهم إلّا الدهر المميت وليس إلّا من جنسهم.

فهم يظنون ألا تمتد إليهم يد بالموت والحياة ، إنما هي الأيام تمضي والدهر ينطوي وبطيّاته إذا هم أحياء ومن ثم هم أموات ﴿وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ وكيف يصلح الدهر مفسرا للموت وهو أمر منتظم مقصود وليس الدهر الطبيعة قاصدا ، فالأطفال يموتون كما الشيوخ ، والأصحاء يموتون كما المرضى ، والأقوياء كما الضعفاء ، فالتفسير الحي للحياة والموت أنهما على نظم وقصد دونما صدفة عمياء ، أو فاعلية دهرية طخياء!

هب إن الهلاك هو بالدهر ، فما هو سبب الحياة ، هل هو كذلك الدهر ، ومختلف الفاعليات دليل القصد والحياة في الفاعل ، أم إن الحياة مما فوق الدهر فهو الله ، أم الحياة وهي ارقى ليس لها سبب وإنما الهلاك؟ تلك إذا قسمة ضيزى!

ولأن جماعة من المشركين يعتقدون تناسخ الأرواح في الحياة الدنيا ، أن روح كل ميت ينتقل إلى حي فيعيش في غير بدنه ، والآية في احتمال أوسع تشمل قبيلي الملحدين والمشركين ، ف ﴿نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ لجمع من المشركين قد تعني المعنيين ، فكما يموت بعض ويحيي بعض ، كذلك نموت من بدن ونحيي في بدن آخر [1] : وما الإهلاك النسبي هذا ولا الإهلاك القاطع إلّا

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٢ ح ٩ ـ القمي في الآية : ثم عطف على الدهرية : نزلت هذه الآية في الدهرية وجرت في الذين فعلوا ، ما فعلوا بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ..

وفيه عن اصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له : اخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل؟ قال : الكفر في كتاب الله.

بالدهر حسب الدهريين ، ام والبعض من المشركين القائلين بربوبية للدهر الطبيعة إمّا ذا؟

وهل الدهر في زعمهم هو الزمان ، ففي تصرمه لحدّ مّا هلاك من يهلك ، أو أنه الطبيعة ، فكما خلقتنا كذلك أهلكتنا؟ وما الدهر الّا بأمر خالق الدهر طبيعة أو زمانا أو أيا كان من «كان» فهو المحيي وهو المميت ﴿وَما لَهُمْ بِذلِكَ﴾ الذي يهرفون «من علم» : ايّ علم أو أية شائبة من علم ، ف «من» تلمح كتصريحه ألّا علم لهم إطلاقا في حصرهم الحياة بالدنيا ، وموتهم بالدهر وتناسخ لأرواحهم ، أمّاذا من هرطقات وأساطير الجهالات.

فالقول بغير علم جهل عميق وحمق عريق قد يعبر عنه بالظن ، وكيف الظن وهو اعتقاد راجح؟ :

حالات العقل بين احتمال وشك وظن وعلم ، ويقين بمراتبه ، فإذا كانت مستندة إلى حجة مقبولة كانت ممدوحة : يحتمل لأنه .. أو يشك فيه لأنه أمّاذا!.

. على خمسة أوجه فمنها كفر الجحود على وجهين ، فالكفر بترك ما امر الله وكفر البراءة وكفر النعم ، فاما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية وهو قول من يقول لا رب ولا جنة ولا نار وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدهرية وهم الذين يقولون : وما يهلكنا إلّا الدهر وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان منهم على غير تثبت منهم ولا تحقيق لشيء مما يقولون يقول عز وجل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ان ذلك كما يقولون.

وفي نهج البلاغة : فانظر الى الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار وتفجر هذه الأنهار وكثرة هذه الجبال وطول هذه الاتلال ، وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفات فالويل لمن جحد المقدر وأنكر المدبر زعموا انهم كالنبات ، ما لهم من زارع ولا لاختلاف صورهم صانع ولم يلجئوا الى حجة فيما ادعوا ولا تحقيق لما ادعوا وهل يكون بناء من غير بان او جناية من غير جان.

أمّا إذا لم تستند إلى وثاق وإنما بما تهوى الأنفس فهي كلها مطرودة ولو كانت يقينا! وهؤلاء يظنون ما يتقولون دونما حجة لهذه الرجاحة الظنية : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ فهو أردء من احتمال مرجوح يملك برهانه.

وقد يعبر عن يقينهم ـ الخاوي عن حجة ـ بالظن ، تزييفا لموقفه وتنزيلا إلى الظنّة المتهوّسة التي لا تملك أية حجة في أية رجاحة لما يظن.

وعلى أية حال فمن حالات النفس مقدسة وإن كانت شكا في الحق إذا كان عن حجة ولما تصله حجة الحق وهو يتحراها ، ومنها مدنّسة وإن كان يقينا حين لا تملك حجة إلّا على خلافها كظنون الدهريين والمشركين وأضرابهم من الناكبين المقصرين عن صراط الحق.

فإذا كانت من هدى العقل متحرية عن الحق صحت ، أو كانت من هوى النفس متجرئة على الحق سقمت ، وماذا بعد الحق إلّا الضلال فأنى تصرفون! :

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾(٢٥)

وآباؤهم كأمثالهم ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ وهل اللّادليل دليل لمن ليس له دليل ، لأنه من القدامى الماضين؟ ولو أتوا بدليل فهل يربوا على آيات الله البينات؟ فهل يأتي الآباء المشركون بأفضل مما أرسل به المرسلون ، أم لهم حجج على ما يدّعون ، ﴿ما كانَ حُجَّتَهُمْ﴾ على مر التاريخ الرسالي ﴿إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾.

﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢٦).

إنها لا صدفة للحياة والموت ولا فاعلية مستقلة من هذا الكون في إحياء وإماتة ، فإنما الله والله فقط «يحييكم» للحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عنها ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ في حياة أخرى ﴿إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ في مثلث الإحياء والإماتة والجمع ليوم القيامة ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

مختلف الأفعال المنتظمة دليل على فاعلية إلهية حكيمة عليمة للحياة والموت ، والألوهية الحكيمة العادلة لزامها الجمع إلى يوم الجمع ، فالآية إذا برهان إجمالي لإثبات المبدء والمعاد.

الله يحييكم كما أحيي الدهر ، ثم يميتكم كما يميت الدهر ، فالحياة والموت تلو بعض مشهودان لكل حي في مشهد الدنيا ، فما ذا يجديكم أن يؤتى بآبائكم؟ ثم الذي يحيي أوّل مرة ويميت هو أجدر أن يحيي ثاني مرة ويميت وهو أهون عليه ، كما يجمع الجميع للموت يوم الجمع الإماتة ، ثم للحياة في الجمع الإحياء.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾(٢٧).

«لله» لا سواه ﴿مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعبيرا عن الكون كله ، ملك لا يزول ولا يتنقل ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ في واقع أعمالهم وأفكارهم الظاهرة هناك بحقائقها الباطلة ، مهما لم يظهر خسارهم يوم الدنيا كما يجب ، رغم أنهم في خسار وبوار ، ومعيشة ضنك ، ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى ..﴾!

﴿وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هذا
كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ
آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا
رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ
ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ
هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٣٤) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً

وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٣٧)

وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢٩) مشهد عجيب رهيب ، يوم العرض الأكبر على الله ، وقد تجمعت فيه الأمم المحتشدة ، جاثية على الركب دون جهنم [1] في ارتقاب الحساب «وترى» أنت أيها الرسول كشهيد الشهداء ، ويرى معك كل راء ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾.

﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ هنا تعني كافة العالمين المكلفين ، وليس جمع ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ إلّا بقاسم كل شرعة شرعة ، إذا ف ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ تعني أمة كل شرعة ، وهي الخمس لأولي العزم الخمسة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾ فلكلّ من الخمس كتاب تدعى إليه عرضا لأعمالها عليه.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٦ . اخرج سعيد بن منصور وعبد الله بن احمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كأني أراكم بالكرم دون جهنم جاثين ثم قرأ سفيان : وترى كل امة جاثية.

وترى ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ لا تشمل المتخلفين عن كل شرعة من موحدين ومشركين وملحدين الذين لا يدينون بأية شرعة من الدين؟ وهم أحرى أن تكون جاثية ، وأن ينطق كتاب الحق عليهم بالحق ، استنساخا لما كانوا يعملون!

أم تشملهم وكيف تشملهم وهم خوارج عن كل أمة؟ .. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا .. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أدلة الشمول ، وأن الكفار بدركاتهم تشملهم ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾! وكون الكافر في كل رسالة من الخمس من أمتها لا يعني أنه مصدق بها ، وإنما أمة كل رسالة هي التي يتوجب عليها الإيمان والتطبيق لهذه الرسالة ، سواء آمنت فنعمّا أو كفرت فبئسما! فتدعى «إلى ما يجب عليهم من أعمالهم» (١) ولا يعني كتاب كل أمة كتب الأعمال الشخصية فإنها لكل فرد فرد من كل أمة ، والنص : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾ دعوة للعرض عليه بكتاب كل فرد فرد ، أو أن «كتابها» تعنيهما ، كتاب كل أمة كمعروض عليه ، وكتاب كل فرد كمعروض به ، كما أن ﴿ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ... هذا كِتابُنا ... إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ :﴾ تعبيرات ثلاثة عن ثاني الكتابين.

يعرض كتاب الأعمال على كتاب الأمة فيجزى كل بكتابه الخاص ، بعمله ، فالجزاء هناك عبارة عن ظهور ملكوت الأعمال ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٥ في روضة الكافي باسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له قول الله عز وجل ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾ قال : الى ما يجب عليهم من اعمالهم :

وفي الدر المنثور ٦ : ٣٦ ـ اخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾ قال يعلمون انه يدعى امة قبل امة وقوم قبل قوم ورجل قبل رجل ذكر لنا إن نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول : يمثل لكل امة يوم القيامة ما كانت تعبد من حجر او وثن او خشبة او دابة ثم يقال : من كان يعبد شيئا فليتبعه فيكون اوّل ذلك الأوثان قادة الى النار حتى تقذفهم فيها فيبقى امة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) واهل الكتاب.

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا ﴿بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فليس الجزاء منفصلا عن العمل ، فإنه متصل به اتصال الحقيقة بالظاهر والسر بالعلن ، ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ، وهذه من عشرات الآيات في تصريحاتها بانعكاس الأعمال [١].

لكل أمة كتاب هو كتاب شرعة الله ، ولكل فرد كتاب استنسخه الله ، فهما كتاب الله كما الأول كتاب كل امة والثاني كتاب كل فرد ، قد يعبر عنه بكتابك ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (١٧ : ١٤) أم كتاب الله ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّا كُنَّا﴾ هنا كتعليل ل ﴿كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أن كيف تنطق الأعمال؟ فالجواب ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحق الاستنساخ للعمل نقل صورته بسيرته كما صدر في حال أو مقال أو أعمال ، في نسخة صوتية أم صورية أمّاذا من نسخة طبق الأصل [٢] كما الصور التلفزيونية والأصوات المسجلة وأقوى منها وأبقى.

وهنالك نسخ تسجّل في الأعضاء العاملة ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ وأخرى في الأرض بأجوائها ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها.

---

(١) راجع آية الزلزال والإسراء والكهف وغيرها في الفرقان تجد تفصيلا حول انعكاس الأعمال.

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥ ج ١٧ في تفسير علي بن ابراهيم بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث القلم والكتاب المكنون قال : او لستم عربا فكيف لا تعرفون معنى الكلام وأحدكم يقول لصاحبه : انسخ ذلك الكتاب؟ او ليس انما ينسخ من كتاب آخر من الأصل وهو قوله : انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون.

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها﴾ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ وثالثة في صحائف قلوب شهداء الأعمال ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾ ورابعة عند الكرام الكاتبين ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ ، كِراماً كاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾ نسخا أربع طبق الأصل من أعمال العباد ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

هذا الكتاب في نسخه ينطق على أهله بالحق ، نطقا عينيا هو أفضل واحجى من نطق اللسان ، و «بالحق» دون اي باطل في زيادة او نقصان لحد يقول صاحب الكتاب : ﴿ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (١٨ : ٤٩) :

ذلك استنساخ بعد العمل وهنالك استنساخ قبل العمل في العلم في اللوح المحفوظ والكتاب المكنون منه النسخ كلها ، فكتب الأعمال نسخة منها والأعمال نسخة من الأصل العلم ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ..﴾[2].

---

(١) المصدر ج ١٩ في بصائر الدرجات باسناده عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان الأعمال تعرض على الله في كل خميس فإذا كان الهلال أجلت فإذا كان النصف من شعبان عرضت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى علي (عليه السلام) ثم ينسخ في الذكر الحكيم ، وفي الدر المنثور ٦ : ٣٦ - اخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : ان لله ملائكة يتولون في كل يوم بشيء يكتبون فيه اعمال بني آدم.

(٢) المصدر ج ١٧ - القمي عن أبي عبد الله (عليه السلام) سئل عن ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ قال : ان الله خلق القلم .. ثم ، قال للقلم اكتب ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة فكتب .. فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها أولستم عربا .. وح ٢٠ في عيون .

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾(٣١).

بعد الدعوة إلى كتاب الدعوة لكل أمة ، وعرض كتاب الأعمال على كتاب الشرعة الإلهية ، يقتسم الفريقان من كل أمة ، كتلة مؤمنة صالحة وأخرى كافرة طالحة و ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عمل كلّ من صالح وطالح هو جزاؤه حيث تبلى السرائر ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ فالرحمة لأهل الجنة كما الجنة ، هي الظاهرة هناك من ملكوت الصالحات ﴿وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ حيث كانوا يتسمعون إلى آيات الله تتلى عليهم ، والنار لأهل النار ، ظاهرة من ملكوت الطالحات جزاء وفاقا ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي﴾ في كتاب الأمة ﴿تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ مما يدل أن الداخلين في النار خالدين وغير خالدين هم الذين تليت عليهم آيات الله بينات فاستكبروا مجرمين ، وامّا القصّر والمجانين والبله والمستضعفون غير

ـ الاخبار باسناده الى الحسين بن بشار عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) قال : سألته أيعلم الله الشيء الذي لم يكن ان لو كان كيف كان يكون؟ فقال : ان الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء : قال عز وجل : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ...﴾ فلم يزل الله عز وجل علمه سابق الأشياء قديما قبل ان يخلقها فتبارك وتعالى ربنا علوا كبيرا خلق الأشياء وعلمه سابق لها كما شاء كذلك ربنا لم يزل عالما سميعا بصيرا.

وفي الدر المنثور ٦ : ٣٦ ـ اخرج ابن مردويه عن ابن عمران رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان أول شيء خلق الله القلم فأخذ بيمينه وكلتا يديه يمين فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول بر أو فاجر رطب او يابس فإحصاه عنده في الذكر وقال : اقرأوا ان شئتم ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهل تكون نسخة الا من شيء قد فرغ منه؟.

الظالمين ـ ولم تصلهم الحجة ـ فهم معفو عنهم على قدر قصورهم ، فلا عذاب إلّا بحجة بالغة قضية العدالة الإلهية.

﴿وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾(٣٢).

﴿ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ تجاهلا عن الساعة وموقفها أنها لا تدرى ، كأنها غير مفهومة ولا معقولة ، ومهما ظننا أنها ممكنة أم كائنة ، ف ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ هيّنا ضئيلا لا يملك دليلا فلا يلزمنا بشيء للساعة ﴿وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ :

وترى كيف يجتمع الظن بالساعة كما هنا ، والظن بعدم الساعة كما هنالك ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ رغم أنهم كانوا متأكدين في نكران الساعة ﴿ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا﴾؟

إن غير المستيقنين بالساعة دركات عدّة ، فمن ناكر للمبدء فمتأكد ألّا ساعة ، ومن مشرك كذلك رغم اعترافه بالمبدء ، ومن مشرك أم ملحد شاك في المبدء أو في المعاد ، وعلّ ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ هي مقالة الآخرين ، وبأحرى المتأكدين ألّا ساعة أن يكونوا من أهل الجحيم ، مهما يعبّر عن يقينهم المدعى بالظن ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ حيث لا يستند إلى برهان وحتى في موقف الظن!.

﴿وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾(٣٣).

سيئات الأعمال وهي حقائقها ، غير البادية يوم الدنيا ، تبدو لهم يوم الأخرى ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

﴿وَحاقَ بِهِمْ﴾ من الحيق وهو نزول بردّة فعل ، لم يأت في سائر القرآن

إلّا ﴿ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾[1] فقد استهزءوا بالساعة ﴿ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ ثم في الساعة : ﴿حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ من الساعة ، حيث تحيط بهم هازئة بكل ترذيل وتأنيب!

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾(٣٤) نسيان هناك في حيق العذاب بنسيان هنا للساعة ، ليس في الحق إلّا تناسيا هناك بتناس هنا ، نسيان متعمّد وأنت تعيش ذكرى الساعة ، متغافلا عنها دونما غفلة ، ف ﴿الْيَوْمَ نَنْساكُمْ﴾ عامدين متغافلين دونما غفلة ، جزاء وفاقا.

ف «ننساكم» لا تعني إلّا تعامل الناسي وليس بناس ﴿كَما نَسِيتُمْ﴾ تعامل الناسي للساعة ولستم بناسين ﴿كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى﴾ (٢٠ : ١٢٦) ﴿فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٢ : ١٤).

فالله لا ينسى ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾ (٢٠ : ٥٢) وإنما يتناسى من تناساه ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (٩ : ٦٧) أم تناسوا لقاء يومهم هذا ﴿فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا﴾ (٧ : ٥١).

ثم النسيان غير المتعمّد يغفر ﴿رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا﴾ (٢ : ٢٨٦) رغم المتعمد المتواصل حيث لا يغفر ، كنسيان الله واليوم الآخر.

---

(١) كما في ٦ : ١٠ و ١١ : ٨ و ١٦ : ٣٤ و ٣٩ : ٤٨ و ٤٠ : ٨٣ و ٤٦ : ٢٦ وفي ٢١ : ٤١ فحاق «بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» وفي ٤٠ : ٤٥ «فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ».

﴿ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(٣٥)

«ذلك» حيق العذاب الاستهزاء ونسيانكم إنما هو بعصيانكم ﴿بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً﴾ حالا ومقالا وأفعالا «و» الحال أنكم ﴿غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ وإلي هنا ينتهي معهم الخطاب العتاب ، سدلا للستار عليهم بإعلان مصيرهم بمسيرهم ، تحويلا لوجه الكلام إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن معه من الصالحين ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها﴾ فهم واقعون فيما قدموا من هزء وغرور دون خروج عن ذلك ، فإنه لزامهم أيّا كانوا وأيّان.

ف «منها» تعني النار التي هي السيآت البادية مما عملوا ، وهي أنفسهم وأعمالهم : ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ﴾ (٢١ : ٩٨) واردون في حصبها وهي حطبكم أنفسكم بأعمالكم ﴿لا يُخْرَجُونَ مِنْها﴾

وترى أنه الخلود إلى غير النهاية فيها ، ولزامه خلود النار هكذا ، فلأن النار سوف تخمد وتفنى ، فهم يفنون بفناء النار ، وليس ذلك خروجا عن النار وإنما فناء مع النار!

﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ : ولا يطلب منهم أن يعتبوا ، لا ربهم إذ لا يعاتب بعدله ، ولا أنفسهم وإن كانوا معاتبين إذ لا يفيدهم عتابهم أنفسهم ، ولا يسمع منهم حيث الأبواب أوصدت إيصادها الأخير فلم يك بعد ذلك تحوير ولا تغيير ، فلما ذا «يستعتبون»؟

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧)

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ لا سواه على ألوهيته وربوبيته في الأولى بربوبية التكوين

والتكليف امتحانا ، وفي الأخرى بربوبية الجزاء الوفاق عدلا وامتنانا ﴿وَلَهُ الْكِبْرِياءُ﴾ كما له الحمد ﴿فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ : الكون كله ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهو المحمود الكبير العزيز الحكيم لا سواه!.

«سورة فصلت» فصلت آياته قراناً عربيا؟ ....٦ ـ ٨
خلق الأرض في يومين ـ جعل الرواسي والبركات والأقوات في أربعة أيام ـ قضاء الدخان سبعاً في يومين وهذه ثمانية ، ثم يبقى لخلق الدخان يوم فهذه تسعة ، فما هو التوفيق بين صريح الآيات في خلق السماوات والأرض في ستة أيام وهذه الآيات ـ اليكم قولاً فصلاً في كمال التوفيق .... ١٢ ـ ٣٨
كيف جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم؟ .... ٤٢ ـ ٤٣
شهادات الأعضاء يوم يقوم الأشهاد.................................... ٤٧ ـ ٥٦
كيف «تتنزل عليهم الملائكة ..» وهم لا يوحى إليهم ـ ومتى؟ .... ٦٦ ـ ٧٢
دفع السيئة بالحسنة ومجالاته .... ٧٣ ـ ٨٣
«وإنه لكتاب عزيز ..» من أدلة صيانة القرآن عن النسخ والتحريف............ ٨٣ ـ ٨٨
«أعجمي وعربي؟! بشارة بحق القرآن العربى فى كتاب أشعياء .... ٨٨ ـ ٩٣
الآيات الآفاقية والأنفسية الحالية والمستقبلية؟ .... ٩٥ ـ ٩٩
«سورة الشورى» ما هو رمز «حم عسق»................................ ٦ ـ ١٠
«لتنذر أم القرى ومن حولها تعم العالمين أجمع ، من في السماوات ومن في الأرض ـ بشارات كتابية تصدق شمول الدعوة الإسلامية .... ١٢ ـ ٢٣
القرآن هو المرجع الوحيد وعلى ضوءه السنة المتأيدة به .... ٢٧ ـ ٢٩

«ليس كمثله شيء» تسأصل آية مماثلة ذاتية وصفاتية وأفعالية .... ٢٩ ـ ٣٧
الشرائع الخمس عن الدين الواحد ـ سائر الوحي أمام الوحي الأخير وصية وذويعة إليه٣٩ ـ
٤٩
«فلذلك فادع واستقم كما أمرت ..» أو امر ونواه عشرة بشأن الدعوة المستقيمة . ٤٩ ـ ٥٦
حجج ماحضة .... ٥٧ ـ ٥٩
لاشريك لله في شرع شرعة من الدين.. ٦٩ ـ ٧٠
«ما هو الأجر المسؤول» المودة في القربى ـ مئات الأحاديث في أنهم عترة الرسول (ص)
والمعصومون... ٧٢ ـ ٨٣
آية منقطعة النظير تدل على وجود الحياة النباتية والحيوانية والأنسانية في السماوات.........
وأن الله سوف يجمع بين إنسان الارض وإنسان السماء......................٩٥ ـ ١٠٤
«وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ..» هل تشمل الصالحين والمعصومين؟١٠٤ ـ
١٠٩
صفات الشورى الإسلامية وحدودها وظروفها ومتطلباتها في الحقول السياسية والأحكامية
.... ١١١ ـ ١٣٦
ظروف العفو عن السيئات والظلامات....................................... ١٣٦ ـ ١٤١
درجات الوحي مما فيه حجب وما ليس فيه اي حجاب إلاّ حجاب ذات الألوهية ـ ما هو
«روحاً من أمرنا» وكيف «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان»؟............ ١٤٨ ـ ١٦٢
«سورة الزخرف» ما هو الكتاب المبين....................................... ٦ ـ ١٠
«قرانا عربيا لعلكم تعقلون» فما هو ذنب غير العرب ومنهم من هم أعقل؟! ..... ١٠ ـ ١١

«ما هو أم الكتاب» مهد الأرض وسبلها تكوينية وتشريعة .... ١١ ـ ١٨
إبراهيم في حوار صارم مع أبيه وقومه ـ ما هي الكلمة الباقية في عقبه؟ .... ٣٢ ـ ٣٨
حجاجات بين المشركين وبين الرسول (ص) .... ٣٩ ـ ٤١
كيف «ليتخذ بعضهم بعضا سخريا» أليس ذلك استعبادا واستثمارا واستعماراً؟ كلا إنه نظام طبقي عادل لا مرد له ـ ما هي الطبقية المرفوضة والمفروضة؟ طبقيات ثلاث : نسناس ـ ناس ـ وآله الناس! .... ٤١ ـ ٤٨
«لولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا ..»؟.............................. ٤٨ ـ ٥٣
العاشون عن ذكر الرحمن العائشون ذكر الشيطان............................ ٥٣ ـ ٥٨
«واسأل من ارسلنا من رسلنا» وكيف يسأل وأين ومتى؟ .... ٦٥ ـ ٦٩
الإستخفاف هو مفتاح الأبواب السبعة الجهنمية .... ٧٨ ـ ٨٠
«ولما ضرب ابن مريم مثلا ..» في حوار بين النبي (ص) والمشركين................ ٨١ ـ ٨٦
«قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» في احتمالات عدة .... ١٠٥ ـ ١٠٨
«سورة الدخان» ما هو الكتاب المبين؟ وليلة مباركة؟ .... ٦ ـ ١٧
ما هو «دخان مبين»؟.. ١٨ ـ ٢١
ما هي بكاء السماء؟ إن هي إلاّ موتتنا الأولى .... ٣١ ـ ٤٠
«فإنما يسرنا بلسانك» دون «لغتك» .... ٥٥ ـ ٥٦
«سورة الجائية» كيف يكون الله حديثاً؟ أيام الله؟.............................. ٩ ـ ١٨
كيف أوتي بنو إسرائيل «الكتاب والحكم والنبوة» وما هو الفارق بينها؟.......... ١٩ ـ ٢٠
«ثم جعلناك على شريعة من الأمر ..» هذا بصائر للناس .... ٢١ ـ ٢٧
«أفرأيت من اتخذ إلهة هواه» لا «هواه إلهة»؟................................. ٢٨ ـ ٢٩
«نموت ونحيا» والموت بعد الحياة! .... ٢٩ ـ ٣٣

«وترى كل امة جائية ..» كتاب كل امة وكتاب كل شخص. «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعلمون» صيغة صريحة عن بقاء صور الأعمال وأصوات الأقوال! .... ٣٦ ـ ٣٩